

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي  
جامعة الشهيد حمدة لخضر الوادي  
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية



# مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة

رئيس التحرير: اعمار غرايبة



العدد  
11

رقم الاصدار: 114-102  
نوفمبر 2015

ISSN 2437-0384

الرئيس الشرفي : عمر لرحاتي - مدير الجامعة  
المدير الشرفي للمجلة : عبد الرحمن توكي - عميد الكلية



## مجلة المعارف

### للبحوث والدراسات التاريخية

مجلة دورية دولية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية

العدد الحادي عشر - مارس 2017

ترسل جميع المراسلات إلى رئيس هيئة تحرير مجلة المعارف  
للبحوث و الدراسات التاريخية  
ص - ب رقم : 789 . ولاية الوادي 39000 . الجزائر -  
الهاتف / الفاكس 032223005  
العنوان الإلكتروني:  
el-maaref@univ-eloued.dz

## إدارة المجلة

الرئيس الشرفي:

**الأستاذ الدكتور عمر فرحاتي**

مدير جامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي. الجزائر.

recteur@univ-eloued

المدير الشرفي :

**الأستاذ الدكتور محمد الرحمان تركي** ، عميد كلية العلوم

الاجتماعية و الإنسانية.

adab -- 39@hotmai.com

مدير المجلة :

**الدكتور محمد السعيد محجوب** ، نائب عميد الكلية المكلف

بالعلاقات الخارجية و التعاون والتنشيط و الأتصال و التظاهرات

العلمية.

maguieb@yahoo.fr

رئيس هيئة التحرير :

**الأستاذ عمار غرايسه** ، عضو هيئة التدريس بالكلية ،

gheraissa-ammara@univ-eloued

هيئة تحرير المجلة

أ. رابع رمضان. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. الطاهر سبوق. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. خنائية البشير . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. محلال بن عمر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

د. رشيد قسيه . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. الجباري عثمانبي . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. محمد الحميد العابد. جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

أ. محمد القادر عزام عوادي. جامعة الشهيد حمه لخضر. الوادي

### التعريف بالمجلة

من وحي الثورة الجزائرية المجيدة  
و في إطار الاحتفالات بالذكرى

الستون المخدلة لها ، جاءت

فكرة إنشاء هاته المجلة الموسومة

بمجلة المعارف للبحوث و

الدراسات التاريخية التي حازت

على موافقة المجلس العلمي

لكلية العلوم الاجتماعية و

الإنسانية لتكون فضاء متميزا

للمعرفة . إذ المعرفة هي بلا

شك الطريق الأنسب لمحاولة

الاقتراب أكثر من الحقيقة التي

هي أمل السالكين دروب العلم

على أمل ملامستها في ظل

أجواء الفكر الإنساني الحر و

الذي لا يلتزم بغير ضوابط

الموضوعية و الحقيقة المستندة

للوفاة و الحقائق الثابتة.

إن مجلة المعارف تسعى لأن

توجد لنفسها مكانا بين

الدوريات التاريخية المتخصصة

لتسهم بفضل جهود الأعلام

للتألق في فضاءها في الغوص

في مجال البحوث و الدراسات

التاريخية لتخرج بها نحو أرحب

الآفاق الدالة على مدى قدرة

التاريخ في الإسهام إلى جانب

العلوم و المعار الأخرى في

صناعة واقع الأمة انطلاقا من

فهم واقعها و محاولة لرسم

مستقبلها. و تبقى المعرفة التي

جاء بها أول غيث الوحي

السماوي خير ما تستهدي به

البشرية في دروب الحياة .

## المهبة العلمية الاستشارية

أ. د. إبراهيم بحاز . جامعة غرداية . غرداية.	أ. د. إبراهيم بن محمد بن حمد المزيبي . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المملكة العربية السعودية.
أ. د. أحمد شريقي . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	أ. د. أحمد صاري . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة
أ. د. بن يوسف تلمساني . المركز الجامعي خميس مليانة .	أ. د. جمال حجر . جامعة قطر. قطر
أ. د. صالح بوسليم . جامعة غرداية . غرداية.	أ. د. عبد الوهاب شلالي . جامعة العربي التبسي . تبسة.
أ. د. علي آجقو . جامعة محمد خيضر . بسكرة.	أ. د. محمد حسن . جامعة تونس الأولى . تونس.
أ. د. علاوة عمارة . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . قسنطينة.	أ. د. عمر حاج الزاكي . جامعة أم درمان السودان.
	أ. د. وجدان فريق عناد . جامعة بغداد العراق.
أ. د. بوبه مجاني . جامعة قسنطينة2 . قسنطينة.	أ. د. جمال يحيوي . جامعة أبو القاسم سعد الله . الجزائر.
د. أحمد الباهي . جامعة القيروان . تونس.	د. العمري مومن . جامعة قسنطينة2 . قسنطينة.
د. الوفي نوحى . جامعة محمد الخامس . المغرب.	د. أنور عوده عواد الخالدي . جامعة آل البيت . الأردن.
د. بشير فايد . جامعة الدكتور محمد الأمين دباغين . سطيف.	د. بلقاسم ميسوم . جامعة محمد خيضر . بسكرة.
د. جمال بلفردى . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.	د. خير الدين شثرة . جامعة محمد بوضياف . المسيلة.
د. دلال لواتي . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله . الجزائر.	د. رضوان شافو . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. طارق لعجال جامعة ملايا . ماليزيا.	أ. د. عاشوري قمعون . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. عبد الحكيم أروغي . جامعة فريبورغ . ألمانيا.	د. عبد الكريم الماجري . جامعة منوبة تونس.
د. علي بن سعد آل زحيفه الشهراني . جامعة ملايا . ماليزيا.	د. علي غنابزية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي.
د. عليان عبد الفتاح الجالودي . جامعة آل البيت .	د. لزهر بديدة . جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد



الأردن.	الله . الجزائر .
د . لمياء بوقريوة . جامعة الحاج لخضر . باتنه .	د . محمد الأمين ولد آن جامعة نواكشوط . موريتانيا .
د . محمد السعيد عقيب . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد السعيد قاصري . جامعة محمد بوضياف . المسيلة .
د . محمد رشدي جرایة . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .	د . محمد عبد الرؤوف ثامر . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي .
د . محمد فرقاني . جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية . قسنطينة .	د . محمد وادفل . جامعة قسنطينة 2 قسنطينة .
د . نواف عبد العزيز الجحمة . الهيئة العامة للتعليم التطبيقي و التدريب . الكويت .	د . هيووا عزيز سعيد . جامعة السلیمانية . العراق .
د . ودان بوغفالة . جامعة معسكر . معسكر .	د . يوسف نبي ياسين . جامعة قطر . قطر .
د أحمد عبد الدايم محمد حسين . جامعة القاهرة . مصر .	د علي الريامي . جامعة السلطان قابوس . سلطنة عمان .
د مبارك جعفري جامعة أحمد دراية . أدرار .	د نجيب بن خيرة . جامعة الشارقة . الإمارات العربية المتحدة .
د . ناصر بالحاج . جامعة الحاج لخضر . باتنة د . اسماعيل وارشد EH SS ismail warscheid فرنسا . أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه برائالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .	أ . Juan Castilla Brazales خوان كاستيه برائالس . المدرسة للدراسات العربية . اسبانيا .
د . Augustin Jomier أوغسطين جوميهه ( fondation thiers – cnrs/ce rhio) جامعة لومان . فرنسا .	د . البشير غانية . قسم العلوم الانسانية . جامعة الشهيد حمه لخضر . الوادي

## قواعد النشر بالمجلة

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية هي مجلة علمية أكاديمية محكمة تعنى بنشر الدراسات والبحوث التاريخية باللغات العربية والانجليزية والفرنسية على أن يلتزم أصحابها بالقواعد التالية:

- 1- أن تكون المادة المرسله للنشر أصيلة ولم ترسل للنشر في أي جهة أخرى.
  - 2- أن لا يتجاوز حجم البحث 20 صفحة بما في ذلك قائمة المراجع والجداول والأشكال والصور وأن لا تقل عن 10 صفحات.
  - 3- أن يتبع كاتب المقال الأصول العلمية المتعارف عليها في إعداد وكتابة البحوث وخاصة فيما يتعلق بإثبات مصادر المعلومات وتوثيق الاقتباس.
  - 4- تتضمن الورقة الأولى العنوان الكامل للمقال واسم الباحث ورتبته العلمية، والمؤسسة التابع لها، الهاتف، والفاكس والبريد الالكتروني وملخصين، في حدود مائتي كلمة أحدهما بلغة المقال والثاني باللغة الإنجليزية على أن يكون أحد الملخصين باللغة العربية.
  - 5- تكتب المادة العلمية العربية بخط نوع **simplified Arabic** مقاسه 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي **simplified 16 Gras** العناوين الفرعية **simplified Arabic** مقاسه 14.
  - 6- هوامش الصفحة أعلى 02 وأسفل 02 وأيمن 02 وأيسر 02 ، رأس الورقة 01، أسفل الورقة 1.25 حجم الورقة عادي (A4).
  - 7- يرقم التهميش والإحالات بطريقة آلية **Not de fin** على أن تعرض في نهاية المقال.
  - 8- المقالات المرسله لا تعاد إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
  - 9- المقالات المنشورة في المجلة لا تعبر إلا على رأي أصحابها.
  - 10- كل مقال لا تتوفر فيه الشروط لا ينشر مهما كانت قيمته العلمية.
  - 11- يحق لهيئة التحرير إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة متى لزم الأمر دون المساس بالموضوع.
- ملاحظة: ترسل المقالات على العنوان البريدي التالي : [el-maaref@univ-eloued.dz](mailto:el-maaref@univ-eloued.dz)

## في محراب ذكرى عيدي النصر والشباب

لم يكن يخطر ببال فرنسا الاستعمارية أن تكون الفئة التي كانت بالأمس القريب تنعتها بأقذر الأوصاف ستكون بقدره قادر ممسكة بميزان القوة الذي رجحت كفته لصالح توجهاتها التي استطاعت أن تفرض نفسها من خلال ذلك كقوة فاعلة بفضل ما وظفته من عناصر تفوق كان مرتكزها التلاحم المنقطع النظير بين الشعب و قيادة ثورته التي كانت في مستوى القدرة على تحقيق طموحاته و رسم تطلعاته انطلاقا من عمق هويته المتأصلة في عمق التراب الذي كان عنوان الانتساب.

لقد كانت القيادة الرشيدة المرتبطة بتطلعات الشعب الذي علق منتهى آماله عليها أمانة في الوصول بالقضية الوطنية الى غاية ما كان منتظرا منها ان ترسو عنده مراكب الثورة المجيدة. ولم تنهزم أمام ما كان معروضا عليها من مبادرات رأت فيها أنها لا تخدم مصالح الشعب ولا تتوافق مع حجم التضحيات التي كانت قد قدمت قربانا للنضال أملا في التحرر الفكري والانعقاد السياسي و فك الارتباط مع جميع أشكال العبودية المقيتة.

انه شعب قرر ارادة الحياة فكسر قيود الاستعباد وداس على قابليته الساكنة في بعض النفوس ليصل بعد عناء جهد عسكري و فعل سياسي متعدد المراحل الى ارغام الارادة الاستعمارية على الخضوع و الانصياع ومن ثمة الاستسلام لإرادة الشعب الذي لم يكن مسلحا بأكثر من العزم والاصرار على استعادة حقوقه التي لم يعجزه دونها غير أمله في بلوغ الغد الأفضل الذي كان ينتظر فيه من سواعد الشباب أن تكون عازمة على البناء والتشييد لتحقيق القدرة على اللحاق بالركب الحضاري ليوجد لنفسه بين العالمين مكانا

يليق بحجم التضحيات الجسام التي قدمها الأجداد والآباء في سبيل أن يحي عقبهم من بعدهم بعيدا عن عوالم الاستعباد .

وهذه هي الأمانة التي ستظل عهدا بين جيل الدماء وجيل البناء

الوادي في: مارس 2017

رئيس هيئة التحرير

أ.عمار غرايسه

## المفهرس

الصفحة	الموضوع
06	كلمة العدد
11	معركة أقليش ودورها في الجهاد الإسلامي بالأندلس 501هـ-1108م ✻ د/ خالد حموم / قسم التاريخ والآثار / جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2
50	المحاولات الإصلاحية للأخوين جراكوس وانعكاساتها على الأوضاع العامة للجمهورية الرومانية (133-121 ق م). ✻ أ / عمر بوصبيح / جامعة الشهيد حمه لخضر / الوادي
82	القديس أوغسطين وصراعه مع الدوناتيين ✻ د/ عبد الحميد عمران / قسم التاريخ / جامعة المسيلة
109	الممالك اليبونية القديمة ✻ د / السعيد شلالقه/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي
126	التاريخ عند ابن خلدون وما ضمَّنه من نظريات اجتماعية إسلامية وعربية ببناءً ومتمجددة ✻ أ/ يمينة كياس / المدرسة العليا للأساتذة/ بوزريعة/ الجزائر
169	اهتمامات الرأي العام التونسي بقضايا الثورة الجزائرية جريدة الصباح التونسية نموذجاً 1954/1958 ✻ د. أحمد مسعود سيدعلي / قسم التاريخ/ جامعة المسيلة
190	مظاهر الوقف العلمي في الحضارة الإسلامية ✻ أ/ الكاملة فرحات / كلية العلوم الاجتماعية والانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي
216	الحرية الدينية ودورها في ترقية الإنسان. عند محمد أبي القاسم حاج حمد ✻ أ/بابزيز محمد الأمين/ قسم العقيدة/ جامعة الأمير عبد القادر/ قسنطينة
234	محمد الخامس ودوره في لقاء أنفا جانفي 1943 من خلال مصادر مغربية ✻ أ/ آيت بلقاسم فاطمة زهرة / قسم التاريخ/ تلمسان./ جامعة أبي بكر بلقايد.
345	مساهمة المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية بالولاية الخامسة من خلال الشهادات الحية ✻ أ/ بكرادة جازية- قسم التاريخ - جامعة تلمسان
277	كتابات أعلام وادي ميزاب في الصحافة الإصلاحية الجزائرية (1925-1939) - دراسة تاريخية للأدبيات الصحفية - ✻ أ.د/ علي غنابزية / قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي ✻ أ / محمد بوسعدة/ قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي
308	العلاقات السياسية بين الدولة النصرية والمماليك من خلال بعض المراسلات ✻ د/ بالأعرج عبد الرحمن- قسم التاريخ - جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

323	استخدام القناصل الفرنسيين كأداة رقابة على المقاومين والمهاجرين الجزائريين خلال القرن 19 . دراسة وثائقية ✻ د/ عثمان زغب / قسم العلوم الانسانية / جامعة الشهيد حمه لخضر / الوادي
350	دور قسم التاريخ بجامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي في ابراز الكتابات التاريخية المحلية (دراسة احصائية) ✻ أ/ عبد القادر عزام عوادي / قسم العلوم الانسانية / جامعة الشهيد حمه لخضر / الوادي
369	عوامل التطور والتنظيم الصحي للثورة التحريرية (1956-1962). ✻ أ/ عائشة مرجع - قسم التاريخ - جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.

تظلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتما عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية  
لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي المجلة  
يخضع ترتيب الموضوعات بالمجلة لاعتبارات فنية لا ترتبط بمرتبة الباحث ولا  
مكانته العلمية

## معركة أقليمش ودورها في الجهاد الإسلامي بالأندلس

501هـ-1108م

د. خالد حموم / قسم التاريخ والآثار / جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

khaled\_dz 2011@yahoo.fr

الملخص:

سلك الأمير علي بن يوسف بعد توليه أمر المرابطين طريق أبيه يوسف بن تاشفين في أموره كلها، خاصةً فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله وردّ حركة الاسترداد المسيحي للأندلس، ولأجل ذلك بادر بالجواز إلى الأندلس مباشرةً بعد توليه شأن المرابطين سنة 500هـ/1106م، فكلف أخاه تميم بخوض معركة فاصلة ضدّ النصارى الصليبيين بشرق الأندلس حيث توجد مدينة أقليمش، وقد أسفرت هذه المعركة على انتصار باهر للمرابطين، حيث تمّ فتح أقليمش في شوال 501هـ/ماي 1108م وهزم القوّات القشتالية بقيادة سانشو الابن الوحيد لألفونسو السادس وولي عهده الذي قُتل في المعركة مع سبعة من كبار قادته والكثير من جنده.

الكلمات المفتاحية: المرابطين، الأندلس، أقليمش، حركة الاسترداد المسيحي، علي بن يوسف، ألفونسو السادس.



## Résumé:

Le prince Ali Ben Youcef qui a succédé son père Youcef Ben Tachfin a régné les Almoravides durant la période de 500 ah/1106 ad. Sa gouvernance était la même que son père, en particulier le djihad contre les chrétiens d'Andalousie. Son premier objectif atteindre l'Andalousie, il a donc chargé son frère Temim à mener une bataille décisive contre les croisés chrétiens à l'est de l'Andalousie où se situe la ville d'Uclés, cette bataille a entraîné l'éclatante victoire des Almoravides et la défaite des forces Castellanes dirigées par Sancho le fils unique d'Alphonse VI et son prince héritier qui a été tué dans cette bataille avec sept de ses hauts dirigeants et de nombreux soldats au mois de chawal 501 ah/mai 1108 ad.

**Mots clés:** les Almoravides, Andalousie, Uclés, croisade chrétiens (La Reconquista), Ali Ben Youcef, Alphonse VI.

## Abstract:

After the death of Youcef ben tachfin the prance of Almorabitin, his san Ali ben youcef continue in the Sam strategy as his father was doing in all domanins especially fighting the

enemies of Islam and protected the Andalusia from Christian movement, in the year of 500 ah/1106 ad he decided to centralize in Andalusia, when he give his brother Temim the responsibility of fighting agents the Christian in the east of Andalusia exactly the town of Uclés they entered it, he made a grat victory he killed Sancho the commander of Castilian army, the only son of Alphonse VI and his crown prince with seven leaders and many of his soldiers' in chawal 501 ah/may 1108 ad.

**Keywords** : Almorabitin, Andalusia, Uclés, Christian movement (La Reconquista), Ali Ben Youcef, Alphonse VI.

#### مقدمة:

عهد الأمير يوسف بن تاشفين في حياته لولده علي<sup>1</sup> لقيادة المرابطين من بعده في قرطبة بالأندلس سنة 496هـ/1103م لما آنس فيه من الورع والنَّباهة والحزم<sup>2</sup>، وعندما توفي الأمير يوسف في مستهل شهر محرم سنة 500هـ/سبتمبر 1106م<sup>3</sup> بايعه أولاً أخوه الأكبر أبو الطاهر تميم<sup>4</sup> ثمَّ قال للمرابطين قوموا فبايعوا أمير المسلمين فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وأشياخ القبائل فتَمَّت له البيعة بمراكش وهو ابن ثلاثة وعشرين سنة<sup>5</sup>.

وقد كتب الأمير علي إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وبلاد السودان الغربي يعلمهم بموت أبيه واستخلافه من بعده ويأمرهم بالبيعة فأنته البيعة من جميع البلاد<sup>6</sup>

وأقبلت نحوه الوفود للتَّعزِّيَّة والتَّهْنئة<sup>7</sup> إلاَّ وفد مدينة فاس حيث لم يبإيعه ابن أخيه الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف الذي كان أميراً عليها بعهدٍ من جده يوسف بن تاشفين<sup>8</sup>.

وقد بايع المرابطون الأمير علي بالإمارة لأنَّه كان يتوقد ذكاءً ونبلاً وفهماً<sup>9</sup>، فملك بذلك جميع بلاد المغرب من مدينة بجاية إلى بلاد السوس الأقصى، وملك جميع بلاد القبلة<sup>10</sup> من سجلماسة إلى جبل الذهب<sup>11</sup> ببلاد السودان الغربي، وملك بلاد الأندلس والجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة، وخطب له على ألفي ونيف وثلاثة مئة منبر، وملك من البلاد ما لم يملكه والده لأنَّه وجد البلاد هادئة والأموال وافدة والمثلك قد توطد والأمور قد استقامت<sup>12</sup>.

وقد شرع الأمير علي عندما استقامت له الأمور في تدبير شؤون دولته الواسعة الأرجاء، حيث سلك طريق أبيه في أموره كلها<sup>13</sup>، خاصةً فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله<sup>14</sup> وردَّ حركة الاسترداد المسيحي بالأندلس<sup>15</sup>، ولأجل ذلك أخذ يعدُّ العُدَّة لخوض معركة فاصلة ضدَّ النَّصارى الصَّليبيِّين خاصة شرق الأندلس حيث توجد مدينة أقليمش<sup>16</sup>.

ومن هذا المنطلق نطرح الإشكاليَّة التَّالِيَّة: هل استطاع المسلمون بقيادة الأمير المرابطي علي بن يوسف التَّصدي لحركة الاسترداد المسيحي بالأندلس والانتصار في معركة أقليمش؟

وقد طرحنا من أجل الإجابة على هذه الإشكاليَّة العديد من التَّساؤلات: ما هي ظروف وأسباب عبور أمير المرابطين علي بن يوسف إلى الأندلس وإعلانه الجهاد ضدَّ النَّصارى؟ كيف كانت وقائع المعركة؟ وما هي التَّنتائج التي تمخَّضت عنها؟

للإجابة على مجموعة التساؤلات المطروحة اتبعت الخطة التالية: قسّمت البحث إلى مقدمة ومجموعة مباحث وخاتمة، أمّا المقدمة فعرّفت فيها بالموضوع وإشكاليته وخطة العمل والمنهجية المتبعة في البحث.

وبالنسبة للعرض الذي يجوي مجموعة مباحث فقد حاولت من خلاله الإجابة على الإشكالية التي طرحتها، حيث تحدثت في المبحث الأول عن ظروف وأسباب عبور الأمير علي إلى الأندلس وكيف استعد لخوض المعركة ضدّ النصارى، وتطرّقت في المبحث الثاني للحديث عن وقائع وأحداث المعركة، أمّا المبحث الثالث فخصّصته للحديث عن النتائج التي أسفرت عنها المعركة.

وأخيراً أنهيت الموضوع بخاتمة حوت أهمّ النتائج المتوصل إليها في البحث، وألحقتها بنص عبارة عن قسم من رسالة الأمير تميم إلى أمير المسلمين علي بن يوسف عقب النصر الذي أحرزه في المعركة، وخريطة تبين حدود دولة المرابطين بالأندلس في عصر علي بن يوسف.

أمّا المنهجية التي تناولت بها الموضوع فتمثلت في السرد التاريخي للأحداث، وكانت عملية السرد اعتماداً على المصادر وهو منهج لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابات التاريخية، وتخلّلت عملية سرد الأحداث منهج التحليل والنقد لإظهار ما أمكن إظهاره من الحقائق والجوانب الخفية، وكثّفت من الاستشهاد بالنصوص في المتن والهامش إمّا دعماً لرأي أو مساندة لاستنتاج، وحاولت الردّ وبكل موضوعية على آراء المستشرقين من أجل توضيح ما طمسوه من حقائق تاريخية، خاصة المؤرخين الألماني يوسف أشباخ (Joseph Aschbach) والاسباني أمبروسيو هويثي ميراندا (Abrosio Huici Miranda).

## الاستعداد للمعركة:

خصَّ الأمير علي بن يوسف بلاد الأندلس باهتمامه الشَّخصي واعتبرها أرض جهاد ذلك أنَّ موقعة الزَّلَافة<sup>17</sup> التي خاضها أبوه من قبل ضدَّ المسيحيين في الأندلس عام 1086/هـ/479م لم تضع حدًّا لحركة الاسترداد المسيحي بل على الضدَّ من ذلك كانت عاملاً رئيسياً في إفاقة دول النَّصارى وتوحيدها للعمل يدًا واحدةً ضدَّ المرابطين<sup>18</sup>.

والواقع أنَّ الصراع الإسلامي المسيحي في الأندلس بلغ ذروته في عهد الأمير علي بن يوسف وتحوَّل إلى حروب ضارية اقتضت من المرابطين التَّصدي للقوى النَّصرانيَّة بحشد جميع قواهم لإيقاف هذا المد الجارف وهذه الحركة الصَّليبيَّة الضَّخمة<sup>19</sup>.

ولأجل ذلك بادر الأمير علي بالجواز إلى الأندلس مباشرةً بعد توليه شأن المرابطين، فكان العبور الأوَّل سنة 500هـ/1106م، ويذكر ابن عذارى ذلك بقوله "وتحرك أمير المسلمين علي بن يوسف من حضرة مرَّاكش مع جيوش المرابطين والمصامدة والجنود والحشود وعبر مدينة سبتة إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس"<sup>20</sup>، فبادر إليه قضاة الأندلس وفقهاؤها وزعمائها ورؤساؤها وأدباؤها وشعراؤها فامتدحه الشعراء فأجزل لهم العطاء وقضى لكل ذي مآرب إربه<sup>21</sup>.

ومن الأسباب التي جعلت الأمير علي يعبر إلى الأندلس بخلاف فرض الجهاد ومقارعة النَّصارى هو تفقد أحوال الأندلس عامَّة<sup>22</sup>، ولكي يُقرَّ الولاية والقضاة في مناصبهم أو يعيَّن بدلاً عن المعزولين منهم<sup>23</sup>.

فولى أخاه الأكبر أبو الطاهر تميم على غرناطة العاصمة الجديدة للأندلس<sup>24</sup>، وجعله قائداً عامًّا للقوات المرابطيَّة بهذه البلاد<sup>25</sup>، وولى أبا عبد الله محمد بن أبي زنغي<sup>26</sup> قرطبة، وولى محمد بن الحاج<sup>27</sup> فاس ثمَّ نقله بعد ستة أشهر إلى بلنسيَّة<sup>28</sup>.

ويظهر من خلال هذه الأعمال الإدارية والسياسية التي قام بها الأمير علي بالأندلس أنه كان يعدُّ العُدَّة لخوض معركة فاصلة ضدَّ النَّصارى الصَّلَيبِيِّين، وصدَّ حركة الاسترداد التي تعاضمت بوفاة أبيه يوسف سنة 500هـ/1106م خاصةً شرق الأندلس حيث توجد مدينة أفلش، وقد حرص من أجل تحقيق هذا الهدف على تعيين خيرة القادة الذين كانت لهم خبرة عسكرية كبيرة في المعارك والحروب خاصةً أخاه أبو الطاهر تميم بن يوسف.

وبعد أن اطمئن أمير المسلمين علي بن يوسف على الجبهة الأندلسية بالاستعداد الجيّد لخوض المعارك والحروب مع العدوِّ النَّصراني عاد إلى بلاد المغرب واستقرَّ بعاصمة دولته مُرَّاكش<sup>29</sup> يتابع منها أحوال بلاد المغرب والأندلس معاً، وكان اهتمامه الكبير منصباً على بلاد الأندلس، حيث كان يراقب أحوال ولَّاتها ويتَّبَع أخبارهم ويقدم لهم النَّصح والإرشاد والتَّوجيه.

وقد أعطى الأمير علي إشارة البدء بالجهاد لأخيه تميم ضدَّ مملكة قشتالة في شهر شعبان عام 501هـ/1108م<sup>30</sup>، وقد بادر لإعلان الجهاد مبكراً لعدة اعتبارات أهمها:

- محاولة صرف الجهود والطاقات نحو الجهاد بدلاً من أن تستغل في النزاعات الداخلية خاصةً بعد ظهور معارضة من بعض زعماء الدَّولة المرابطية لتولي الأمير علي مقاليد الحُكم فقد عارضه كلُّ من يحيى بن أبي بكر بن يوسف ومحمَّد بن الحاج<sup>31</sup>، ومن ثمَّ فمن المرجَّح أنَّ الأمير علي رأى أنَّ انصراف المرابطين للجهاد خير موحَّد للأُمَّة بدلاً من الشَّحناء والبغضاء<sup>32</sup>.

- تمزق الجبهة الداخلية القشتالية<sup>33</sup>، وهذا بسبب ضعف ملكها ألفونسو السادس الذي لم تقم له قائمة بعد الضربة الموجعة التي تلقاها في معركة الزلاقة سنة 479هـ/1086م فرغم محاولاته المتكررة غزو أراضي المسلمين إلا أن محاولاته باتت أغلبها بالفشل الذريع لأن المرابطين تصدوا لها ببسالة.

- رغبة الأمير علي بن يوسف الرّد على غارات ملك قشتالة ألفونسو السادس<sup>34</sup> الذي أخذ يعيث في أراضي المسلمين في الأندلس خاصة بعدما شاع خبر مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عام 498هـ/1104م، ففي هذا التاريخ أرسل ألفونسو السادس حملة مكونة من ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس وصلوا في غاراتهم إلى أحواز إشبيلية فغنموا من القرى التي مروا منها الغنائم الموفورة والأسلاب الكثيرة<sup>35</sup>.

### وقائع المعركة:

عندما أعد الأمير تميم<sup>36</sup> العُدّة والعتاد اللازمين أجه بجيش ضخم<sup>37</sup> من مدينة غرناطة في العشر الأواخر من رمضان عام 501هـ الموافق للعشر الأوائل من ماي عام 1108م<sup>38</sup> لغزو أراضي قشتالة فتوجه إلى مدينة جيان وعسكر فيها أيامًا حتى وفدت عليه الجيوش والعساكر من قرطبة بقيادة أبا عبد الله محمد بن أبي زنغي<sup>39</sup>.

ثمّ سار من مدينة جيان إلى مدينة بيّاسة في الشمال الشرقي للأندلس، ومنها تابع مسيرته شمالاً صوب أراضي قشتالة، وفي الطريق إليها وافته حشود مرسية بقيادة محمد بن عائشة<sup>40</sup>، ثمّ لحقت به قوات بلنسية بقيادة واليها أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة<sup>41</sup>.

وبعد مسيرة عشرين أو خمسة وعشرين يومًا وصلت كل تلك القوّات يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر شوال سنة 501هـ/27 ماي 1108م<sup>42</sup> إلى مدينة أفليش وبها

جمعٌ عظيمٌ من الرُّوم<sup>43</sup>، فحاصرت القوَّات المِرابِطِيَّة المدينة ثمَّ دخلتها عنوةً في اليوم الموالي<sup>44</sup> حيث لم يستطع النَّصارى المدافعون عنها أن يثبتوا طويلاً أمام شدَّة المهاجمين<sup>45</sup>، وقد التحَّأ المسلمون الذين كانوا يعيشون في المدينة تحت حكم النَّصارى إلى معسكر الجيش المِرابِطِي لائتدِين بحمايته، وشرحوا لإخوانهم في الدِّين أحوال المدينة وظروف المدافعين عنها<sup>46</sup>، بينما تحصن النَّصارى بقصبة المدينة<sup>47</sup> فبلغ خبرهم إلى الملك الشَّيخ أَلْفونسو السَّادس فاشتدَّ به الألم والحزن<sup>48</sup>، فاستعد للخروج لإغاثة قومه وبلده<sup>49</sup>، فأشارت عليه زوجته زائدة<sup>50</sup> أن يوجه ولده الوحيد وولي العهد سانشو<sup>51</sup> عوضاً عنه لأنَّه كان مريضاً وشيخاً كبيراً لا يقوى على قيادة جيشه لمحاربة أعداء دينه<sup>52</sup>.

وكان أَلْفونسو السَّادس يرمي من خلال إرسال ابنه الوحيد سانشو الذي لم يكن يجاوز الحاديَّة عشر من عمره<sup>53</sup> بدلاً عنه لمقاتلة المسلمين هو إثارة حماسة جنده<sup>54</sup>، وكذلك ليكون مقابلاً للأمير تميم لأنَّ تميمًا ابن ملك المسلمين<sup>55</sup> وسانشو ابن ملك الرُّوم<sup>56</sup>، وقد أمر مؤدبه الكونت غرسية أَرذونش<sup>57</sup> وألبرهانس<sup>58</sup> وكذلك جميع القادة الكبار المشاركين في المعركة<sup>59</sup> أن يحرصوا كل الحرص على حياة ولده ورفاهته<sup>60</sup>.

اتجه سانشو ولد أَلْفونسو السَّادس في جيوش كثيرة من زعماء الرُّوم وأبجادهم<sup>61</sup>، بلغ تعداد هذا الجيش حسب ابن القطان نحو عشرة آلاف فارس<sup>62</sup> إلى إغاثة أَلقليش ومدافعة المسلمين، ولما علم أبو الطاهر تميم قائد جيوش المِرابِطِين بقُدوم قوَّات العدوَّ أراد أن يرفع الحصار على المدينة ولا يلقاهم، فأشار عليه ابن عائشة وابن فاطمة وغيرهما من كبار قادة المِرابِطِين بمواجهة جيوش المسيحيِّين وعدم الرِّحيل، وشجعوه وهونوا عليه أمرهم وقالوا له لا تخف<sup>63</sup> فإنَّما قدموا في ثلاثة آلاف فارس وبيننا وبينهم مسافة<sup>64</sup>.

وهناك رواية أخرى تختلف عن الرِّواية السَّابِقة في تصوير موقف الأمير تميم والجيش المِرابِطِي من قدوم الجيش القشتالي إلى أَلقليش، وقد فندت ما ذهب إليه ابن أبي



زرع بقوله أن الأمير تميم كان يريد فك الحصار وعدم لقاء جيش ألفونسو<sup>65</sup>، مفاد هذه الرواية والتي ذكرها الأمير تميم في رسالته إلى أخيه أمير المسلمين علي بن يوسف والتي تصف الموقعة أنه شاور قادة قواته بالخصوص ابن عائشة وابن فاطمة لأجل التوصل لكيفية رد الجيش القشتالي والتصدي له، واتفقوا بعد هذه المشاورة على وجوب ملاقات العدو ورد عدوانه<sup>66</sup>.

ويبدو أنهم اتفقوا أيضاً على كيفية تنظيم القوات المرابطية في المعركة على النحو التالي: قوات قرطبة بقيادة ابن أبي زنغي في المقدمة، وأهل مرسية وبلنسية في الجناحين، والأمير تميم مع قواته الغرناطية في القلب<sup>67</sup>، وبهذا التنظيم خرج الجيش المرابطي في فجر يوم الجمعة 16 شوال 501هـ الموافق 29 ماي 1108م لمواجهة القشتاليين على مسافة قريبة من أقليمش<sup>68</sup>.

ومن محاسن الصُدف أن الجيش الإسلامي تمكن قبيل الصدام المسلح أن يحصل على معلومات غاية في الخطورة عن قوات العدو القادمة لقتالهم، حيث تمكن فتى مسلماً كان أسيراً عند القشتاليين من الفرار من المعسكر المسيحي وأفضى إلى المعسكر الإسلامي وأمد الأمير تميم بتفاصيل دقيقة عن نقاط الضعف والقوة لدى القشتاليين، وقد أورد الأمير تميم هذا الأمر في رسالته إلى أخيه علي حيث قال "وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً، والله تعالى فيه خُباة<sup>69</sup> أعدها من عنده، وبعثها من جنده، ونزَع<sup>70</sup> الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم دالاً عليهم، وكاشفاً بهم على النبأ العظيم، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم"<sup>71</sup>.

وعلى ضوء هذه المعلومات نظّم المرابطون جيوشهم واستعدوا للقتال وهم على بصيرة بحقيقة عدوهم المنذفع نحوهم<sup>72</sup>. وبدأ الهجوم ووقعت الصدمة الأولى حيث هجم النصارى على معسكر قرطبة الذي كان في مقدمة الجيش المرابطي، وحملوا عليه حملة منكرة، فانهمز عسكر قرطبة ومشت الهزيمة عليه أميلاً<sup>73</sup>، ويؤكد الأمير تميم في رسالته هذا

الأمر حيث ذكر أنه في بداية المعركة انقضت قوات قشتالة على قوات قرطبة بقوله "وتقهقر قائد قرطبة أبو عبد الله محمد بن أبي زنجي غير مؤل<sup>74</sup>، وتراجع غير محلٍ إلى أن اشتدّ منا بطؤ<sup>75</sup>، ورجم<sup>76</sup> من جيشنا بعود<sup>77</sup> .

غير أن بعض الروايات النصرانية لم تتحدث عن انقراض القوات القشتالية على قوات قرطبة في بداية المعركة وتقهقر هذه الأخيرة إلى الخلف مسافة أميال، وبالعكس تمامًا فقد تحدثت عن هجوم المسلمين بشجاعة وتقهقر قوات النصارى إلى الخلف، وقد أكد ذلك المستشرق أشباح حيث قال بأن المسلمين عند الفجر هجموا على القشتاليين في فيض من الشجاعة والعنف ولم يستطع النصارى أن يصمدوا لهجوم يحدهو اليأس، فاضطروا إلى الارتداد رغم شجاعتهم ورباط جأشهم<sup>78</sup> .

وبالعودة إلى الروايات الإسلامية والتي ذكرت بأنه بعدما تراجعت قوات قرطبة إلى الخلف بادر جناحي الجيش المرابطي المكونين من قوات مرسية وبلنسية بقيادة ابن عائشة وابن فاطمة بمهاجمة معسكر النصارى بعدما قاموا بعملية الالتفاف حوله فأنخنوا فيهم قتلاً<sup>79</sup>، فأعطى الفرصة لأهل قرطبة لإعادة تنظيم صفوفهم من جديد<sup>80</sup> .

وفي تلك الأثناء دخلت قوات غرناطة التي كانت في قلب الجيش المرابطي بقيادة الأمير تميم إلى ميدان المعركة، وانضمت إليه قوات قرطبة بعدما أعادت تنظيم وحدتها فحاصروا الجيش القشتالي والتحمت الحرب بينهم<sup>81</sup>، وقد كانت معركة حامية الوطيس<sup>82</sup> قال عنها ابن أبي زرع أنه كانت بينهم حروب عظيمة لم يسمع مثلها فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين<sup>83</sup>، وذكر ابن الكردبوس بأن الجيشين تقاتلا، وتضاربا، وتجاولا، وتجاربا فنصر الله جيش المسلمين، وانهم العدو اللعين<sup>84</sup> .

وعن هذا النصر يذكر ابن القطان أن المرابطين حققوا نصراً مؤزرًا وهزموا المسيحيين وقتلوهم قتلاً ذريعاً<sup>85</sup>، ويؤكد ذلك تميم في رسالته لأخيه علي حيث قال "فما وضع النهار، ولا مسح<sup>86</sup> الغبار حتى خضعت منهم الرقاب، وقبلت رؤوسهم الثراب"،

وقال أيضًا "ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلا أقلهم"<sup>87</sup>، ومن بين هؤلاء القتلى الولد الوحيد لألفونسو السادس الأمير سانشو<sup>88</sup>.

وعن مقتل الأمير سانشو فهناك روايتين الأولى لابن القطان ذكر فيها أنه حاول أن يفلت من المعركة مع ثمانية من كبار قاداته<sup>89</sup> منهم مؤدبه الكونت غرسية أزدونش والالتجاء إلى حصن بلشون<sup>90</sup> القريب من أقليمش فهبَّ المسلمون المتواجدون فيه عليهم وقتلوهم جميعًا<sup>91</sup>، فعُرف مكان مصرعهم فيما بعد باسم الكونتات السبعة، كما عُرفت معركة أقليمش في الروايات النصرانية بمعركة الكونتات السبعة<sup>92</sup>.

والرواية الثانية للمستشرق أشباخ حيث قال أنه من سوء الطالع أنَّ الأمير سانشو دخل إلى ميدان المعركة عندما اشتد القتال بين الطرفين، فبادر إليه الأعداء متحمسين، وتقدّم الكونت غرسية أزدونش مؤدبه للدفاع عنه، فلم يغني دفاعه شيئًا وسقط الكونت ضحية واجبه، وسقط إلى جانبه وريث مملكة قشتالة الأمير سانشو<sup>93</sup>.

وهكذا تمَّت الهزيمة الساحقة على الجيش القشتالي وأحرز المسلمون نصرهم الباهر في ذلك اليوم المشهود<sup>94</sup>، وغادر الأمير تميم ساحة المعركة إلى غرناطة، وكتب إلى أخيه أمير المسلمين علي بن يوسف بالفتح<sup>95</sup>، وترك مهمة حصار قسبة أقليمش<sup>96</sup> إلى قوات مرسية وبلنسية تحت إمرة قائديها ابن عائشة وابن فاطمة<sup>97</sup>، فلبثا على حصارها فترة، وعندما استعصت عليهم تظاهرا بالانسحاب، وبقوا على مقربة من المدينة محتبئين عن أنظار العدو، ولما خرج النصارى من القسبة هاربين انقضَّ عليهم المسلمون فقتل من قُتل وأسر الباقون، واحتلوا القسبة وبذلك تمَّ استيلاءهم على مدينة أقليمش كلها<sup>98</sup>.

### نتائج المعركة:

تُعدُّ معركة أقليمش واحدة من معارك المسلمين الكبرى في الأندلس إلا أنَّها لم تنل نفس شهرة معركتي الزلاقة والأرك<sup>99</sup> وإن كانت لا تقل عنهما بطولاً وملحمةً، وقد أكَّد ذلك ابن الخطيب حينما قال عنها أنَّها ثانية الزلاقة<sup>100</sup>، وأكَّد ذلك أيضًا عنان حيث

قال أنّ هذا النصر السّاحق للمرابطين أعاد بروعته ذكريات موقعة الزّلاقة<sup>101</sup> ، ويتحدث كذلك ابن عذارى عن هذا النصر نقلاً عن ابن الصيرفي<sup>102</sup> بقوله "فكان ذلك دليل اليّمن والبركة بولاية علي بن يوسف في أوّل دولته"<sup>103</sup> ، وقال أشباح بأنّ انتصار المرابطين في أقليمش يمكن أن نعتبره ذروة سلطاتهم في الأندلس<sup>104</sup> .

وهذا النصر المؤزر للمرابطين واضح من خلال النتائج المترتبة عنه كمقتل الأمير سانشو الابن الوحيد لألفونسو السّادس وولي عهده<sup>105</sup> ، وكذلك مقتل سبعة من كبار قادته في المعركة، بالإضافة لمقتل الكثير من جنده، حيث يذكر ابن أبي زرع أنّه قُتل من النّصارى أزيد من ثلاثة وعشرون ألفاً<sup>106</sup> ، بينما يقول أشباح أنّه قُتل منهم عشرون ألفاً<sup>107</sup> ، ويقول الأمير تميم في رسالته إلى أخيه علي أنّه أمر عقب الموقعة بجمع رؤوس القتلى من النّصارى<sup>108</sup> فجمعت القرية منها وتركت البعيدة، فكان عددها أكثر من ثلاثة آلاف رأس<sup>109</sup> ، وقد أذن من فوقها المؤذّنون يوحدون الله ويكبرون وفقاً للتقليد المأثور عند المسلمين<sup>110</sup> .

أما عن خسائر المسلمين في الموقعة فلا نملك أرقام معينة لأنّ المؤرخين لم يذكروا عدد قتلاهم بالتحديد، ويرى المؤرخ عبد الله عنان أنّها كانت ذات شأن<sup>111</sup> ، واكتفى ابن أبي زرع بذكر عبارة أوردها في ختام كلامه عن المعركة يقول فيها "واستشهد جماعة من المسلمين رحمهم الله"<sup>112</sup> ، بينما قال ابن القطان أنّه "استشهد في هذه الواقعة الإمام الجزولي وكان رجل صدق، وجماعة من الأعيان والعربان"<sup>113</sup> رحمهم الله تعالى<sup>114</sup> ، ولم يذكر أشباح أيضاً عدد قتلى المسلمين ولكنه حاول أن يُنقص من قيمة النصر الذي أحرزه المرابطون عندما قال "بيد أنّ المسلمين لم يجرزوا النصر دون خسارة فادحة، وهذا ما يفسر كونهم لم يتابعوا ظفرهم بالتّوغل في ولاية طليطلة ولم يستولوا إلّا على بعض المدن القريبة من أقليمش"<sup>115</sup> .

وبالإضافة إلى الخسائر البشرية الهائلة للنصارى في هذه المعركة، فقد تمكن المرابطون من الاستحواذ على الكثير من الغنائم بعد نهاية المعركة، وقد أكد الأمير تميم ذلك في رسالته إلى أخيه الأمير علي حينما قال "وملئت الأيدي بنيل وافي الكيل، خيلاً وبغلاً وسلاحاً ومالاً، ودروعاً"<sup>116</sup>، كما تمكنوا أيضاً من الاستيلاء على الكثير من الحصون والقلاع والمدن القشتالية الواقعة على مقربة من أقليمش مثل مدن قونكة، وبدة، أمستريجو، أوريواله، أقونية وقونسويجرا<sup>117</sup>.

### خاتمة:

استطاع المرابطون من خلال هذا النصر أن يضيفوا مجداً جديداً إلى سلسلة أمجادهم بالأندلس<sup>118</sup>، وأن يحققوا العديد من الأهداف أهمها:

- أسهم هذا النصر إسهاماً فعالاً في رفع معنويات المسلمين بالأندلس، وفي إعلاء سمعتهم العسكرية والدفاعية<sup>119</sup>.

- تدعيم وتثبيت سلطان المرابطين على الأندلس بعد أن تعرض للاهتزاز أواخر عصر الأمير يوسف بن تاشفين<sup>120</sup>.

- إيقاف حركة الاسترداد المسيحي لفترة زمنية معتبرة، حيث أصبحت مملكة قشتالة في حالة اضطراب وفوضى بالخصوص بعد وفاة ألفونسو السادس بنحو عام من المعركة<sup>121</sup>.

- فتح الطريق أمام المرابطين إلى سرقسطة ومدن الثغر الأعلى للأندلس، لأن أقليمش كانت على الطريق تحول بينهم وبين القيام بأي عمل عسكري حاسم في هذه الناحية<sup>122</sup>.

- شجّع هذا النصر المرابطون على وضع خطة منظمة من الغزوات على أراضي الممالك النصرانية، ذلك أنه لم يمضي عام وشهرين على موقعة أقليمش حتى عبر أمير المسلمين علي بن يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الثانية في جيوشه الجرارة، وكان عبوره من مدينة سبتة في الخامس عشر من محرم سنة 503هـ الموافق للثالث عشر من شهر أوت 1109م<sup>123</sup>؛

وقد عبر في تلك المرة بقصد الجهاد خاصة، ومحاولة استعادة طليطلة<sup>124</sup> والمدن المجاورة لها مثل مدينة طليطلة<sup>125</sup> وغيرها، وهذا ما يؤكد لنا ابن عذارى بقوله "برسم الغزو والجهاد"<sup>126</sup>، وابن الكردبوس بقوله "قاصداً الغزو، فنزل الجزيرة بجيوش غزيرة، فقصد نحو طليطلة ونزل بابها"<sup>127</sup>، وصاحب الخلل الموشية بقوله "برسم الجهاد، ونصر الملة، وإعزاز الكلمة، فقصد طليطلة ونزل على بابها"<sup>128</sup>، وابن القطان الذي قال "تحرك علي بن يوسف غازياً في حفل عظيم من الجند والملثمين وجماعة المطوعين نحو طليطلة"<sup>129</sup>.

### الهوامش:

1- هو علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني ولد سنة 477هـ/1084م يُكنى بأبي الحسن، تولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه سنة 500هـ/1106م وعمره ثلاثة وعشرون سنة، وكان ملكاً، فاضلاً، كريماً سلك طريقة أبيه في أموره كلها فتح فتوحاً عظيمة في المغرب والأندلس، واستمر على ذلك إلى غاية وفاته سنة 537هـ/1143م. (انظر: ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1998م، ط5، ج4، ص48؛ مجهول: الخلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة، الدار البيضاء، 1979م، ط1، ص84؛ الزركلي: الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م، ط7، مج5، ص5، ص33).

2- عنان محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م، ط4، ص372.

3- اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاة الأمير يوسف بن تاشفين بدقة حيث يذكر ابن خلكان أنه توفي يوم الاثنين الثالث محرم سنة 500هـ/3 سبتمبر 1106م ويذكر كل من ابن عذارى وابن الخطيب أنه توفي يوم الاثنين مستهل محرم سنة 500هـ/1106م، وهو التاريخ الذي ذكره صاحب الخلل الموشية ولكنه لم يذكر اليوم، بينما يرى ابن أبي زرع أنه توفي يوم الأحد الثاني محرم سنة 500هـ/2 سبتمبر 1106م، ويرى المراكشي أنه توفي في شهر عام 493هـ/1099م وهذا التاريخ غير صحيح بالنظر لصيرورة الأحداث التاريخية ولأن المراكشي ينفرد لوحده بذكر هذا التاريخ. (انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،

1994م، مج7، ص125؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص45؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، حَقَّق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974م، ط2، مج4، ص353؛ الحُمل الموشية، ص83؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص156؛ المرَّاكشي: المُعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميَّة، بيروت، 1998م، ط1، ص121).

4- هو أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين، تولى حكم غرناطة بين سنتي (500هـ و503هـ/1106 و1109م) ثمَّ نُقل إلى حكم تلمسان سنة 504هـ/1110م، ثمَّ تولى مرَّةً أخرى غرناطة فيما بين سنتي (515 و516هـ/1121 و1122م)، وبعدها نُقل إلى إشبيلية فحكمها سنة وبضعة شهور، ثمَّ أصبح عاملاً على قرطبة وغرناطة سنة 519هـ/1125م ويبدو أنَّ أخاه عليًا قد عزله عن غرناطة بعد ذلك بقليل، وفي تاريخ وفاته وخلاف والأرَّجَح أنه توفي سنة 520هـ/1126م. (انظر: ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبَّادي، مطبعة معهد الدِّراسات الإسلاميَّة، مدريد، 1971م، ص114 هامش1؛ ابن القطان: نُظُم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الرِّمان، درسه وقَدَّم له وحَقَّقه محمود علي مكِّي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م، ط1، ج6، ص65-66، هامش5؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص48 وما بعدها).

5- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص157؛ السِّلاوي: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدُّولتان المرابطيَّة والموحِّديَّة، تحقيق جعفر النَّاصري ومحمد النَّاصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1954م، ج2، ص55-56. (غير أنَّ أشباخ يقول بأنَّ الأمير علي عندما بويع بإمارة المرابطين لم يكن قد جاوز الثَّانِيَّة والعشرين من عمره). (انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحِّدين، ترجمة وتعليق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1996م، ط2، ج1، ص121).

Gaid Mouloud: **Les Berbers dans l'histoire en Espagne Musulmane à partir de 711**, les éditions Mimouni, Alger, 2008, tome 4, p135-136 .

6- أته البيعة أيضًا من الخليفة العباسي المستظهر بالله (487-512هـ/1094-1118م) وقد أورد صاحب الخلل الموشية رسالة عبارة عن جواب من الخليفة العباسي للأمير علي بعته له عام 512هـ/1118م يُقره فيه أميرًا على المرابطين واصفًا إياه بمقيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المغربية، وقد طلب منه الاستمرار في الجهاد في سبيل الله، والرّسالة أوردها أيضًا حسين مؤنس وذكر أنّها غير مؤرخة والمرجح عنده أنّها كتبت في بداية إمارة علي في أوائل محرم 500هـ/سبتمبر 1106م جوابًا على كتاب أرسله علي طلبًا للبيعة والتقليد كما يفهم من النص. (عن نص رسالة الخليفة العباسي المستظهر بالله إلى علي بن يوسف). (انظر: الخلل الموشية، ص87-88؛ حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، مصر، 2000م، ط1، ص12 وما بعدها). (وعن نص رسالة علي بن يوسف إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله). (انظر: سلامة محمّد سلمان الهريفي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين - دراسة سياسية وحضارية، دار الندوة الجديدة، بيروت، 1985م، ص403-404).

7- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص158؛ السلاوي، الإستقصا، ج2، ص56.  
8- امتنع عن البيعة لأنّه كان يرى بأنّه أولى وأجدر بخلافة جده يوسف، ولكنه اضطر إلى الفرار من فاس عندما أدرك أنّّه لا طاقة له بحرب الأمير علي الذي اتجه نحوه بجيش من مراكش فدخل مدينة فاس يوم الأربعاء الثامن من شهر ربيع الآخر سنة 500هـ/7 ديسمبر 1106م. وهناك رواية أخرى لكيفية فرار الأمير يحي مفاها أنّ الأمير علي عندما اقترب من فاس نزل بمدينة مغيلة وكتب لابن أخيه يحي وأشياخ البلد كتابًا يدعوهم للدخول في طاعته، ولكن يحي فرّ إلى مَرْدَلِي عامل المرابطين على تلمسان فلقية بواد ملوية فضمن له العفو والصلح من عمه علي، فعفا عنه وخيره السكن بجزيرة ميورقة أو الصحراء، فانصرف إلى الصحراء ثم حج بيت الله الحرام ورجع إلى عمه فاستأذنه بالاستقرار بمراكش فأذن له، وبعد ذلك اتهمه بالقيام عليه وبعثه إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس فبقي بها إلى أن مات. (انظر: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص158-159).

Coissac De Chavrebière: **Histoire du Maroc**, librairie dar al aman, Rabat, Première édition, 2012, p188 ; Gaid Mouloud: **Les Berbers dans l'histoire les Mourabitines d'hier et les Marabouts d'aujourd'hui**, les éditions Mimouni, Alger, tome 7, p30-31 .

9- الخلل الموشية، ص84.



10- أهل القبلة أي أهل جنوب الغرب وهو اصطلاح شامي جُلب إلى المغرب وطُبّق فيه، ذلك أنّ قبلة أهل الشام إلى الجنوب. (انظر: الخُلل الموشية، ص83، هامش 72).

11- بحثت في مختلف المصادر الجغرافية والتاريخية ولكنني لم أوفق في إيجاد تعريف له، ويظهر جلياً بأنّه سُمّي بهذا الاسم لأنّه يجوي داخله الكثير من الذهب، وكما هو معلوم فيبلاد السودان الغربي ومدنه المشهورة غانة وتكرور وأودغست وغيرها معروفة بغناها بهذا المعدن النفيس.

12- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص157 .

13- ابن الخطيب: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1964م، ص253 .

14- يذكر المراكشي بأنّ الأمير علي بن يوسف جرى على سنن أبيه في إثارة الجهاد وإخافة العدوّ وحماية البلاد. (انظر: المُعجب، ص121).

15- (la Reconquista) هي تسمية أطلقها المؤرخون المحدثون على مجموعة العمليات العسكرية التي نفذها النصارى الصليبيين بالأندلس منذ بداية القرن الأول الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، وقد برزت هذه الحروب جلياً في عهد أمراء الطوائف مع مطلع القرن الخامس الهجري، واستفحلت في عهد المرابطين والموحدين وبني نصر. (انظر: إدوارد بروي وآخرون: تاريخ الحضارات العام القرون الوسطى، نقله إلى العربية يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، 2003م، مج3، ص311-312؛ علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد بالأندلس وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربة في كبح جماحها، مقال منشور ضمن مجلة الدراسات التاريخية، لجنة كتابة تاريخ العرب، جامعة دمشق، السنة السادسة، العددان (97-98)، 2007م، ص189 وما بعدها).

Ernest Weibel: **Occident-Maghreb 13 siècles d'histoire**, Ellipses édition Marketing S.A, Paris , 2010, p93-94 .

16- (Uclés) مدينة لها حصن في ثغر الأندلس، تقع شمال شرق طليطلة وهي من أعمال شنتيرية، ذكرتها أغلب المصادر الإسلامية باسم أقليش في حين وردت عند كل من ابن أبي زرع وابن الخطيب باسم أقليج، ويذكر المستشرق ميراندا أنّها كانت تدعى قديماً سيلتبيرية ثمّ عُرفت باسم باغوس أو كولنيسيس فتحول هذا الاسم إلى أقليش، بينها وبين مدينة وبدة ثمانية عشر ميلاً ومنها إلى

شقورة ثلاث مراحل، لها أقاليم ومزارع عامرة، ذكر الحِميري أن الذي بناها من المسلمين هو الفتح بن موسى بن ذي النون وفيها كانت ثورته وظهوره سنة 160هـ/776م واتخذها دارًا وقرارًا، وهذا التاريخ خطأ لأن ثورة الفتح بن موسى بن ذي النون حدثت في مستهل عهد الخليفة الأموي عبد الرَّحمان النَّاصر الذي حكم ما بين (300-350)هـ/(912-962)م وبالتالي تأسيس أقليمش كان مع بداية القرن الرَّابع الهجري، واستمرت أسرة بني ذي النون في حكمها إلى أن استولى عليها ألفونسو السَّادس بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م. (انظر: الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق وتلخيص وتعليق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص 287؛ روض القرطاس، ص 159؛ أعمال الأعلام، ص 253؛ الحِميري: الرُّوض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبَّاس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م، ط1، ص 51-52؛ ميراندا أمبروسيو هويثي: وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شانجه، مقال منشور بمجلة تطوان للأبحاث المغربية الأندلسية، مطبعة كرماديس، تطوان، المغرب، العدد الثَّاني، 1957م، ص 121-122؛ عنان محمَّد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثَّالث - عصر المرابطين والموحَّدين في المغرب والأندلس - القسم الأوَّل - عصر المرابطين وبداية الدَّولة الموحَّدية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1990م، ص 61). (انظر أيضًا: الخريطة المرفقة بالمقال).

17- حدثت معركة الزَّلَاقَة (Zalaca) يوم الجمعة 12 رجب سنة 479هـ/23 أكتوبر 1086م بقيادة الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين خلال عبوره الأوَّل إلى بلاد الأندلس لنجدة إخوانه المسلمين الذين عانوا من زحف الصَّليبيِّين على بلادهم بقيادة ألفونسو السَّادس خاصةً بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م وقد أسفرت هذه المعركة على انتصار باهر للمسلمين تمكنا من خلاله من دحر القوَّات الصَّليبيَّة وإيقاف زحفها الجارف على الأندلس بعد أن كان يندرها بالحو والفتناء، وقد عمَّت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي بهذا النَّصر العظيم وشبهه يوم الزَّلَاقَة بيوم اليرموك والقادسيَّة وارتفع شأن المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين؛ والزَّلَاقَة في الأصل هو موضع صغير يسمى اليوم (Sagrajas) على أحد نَهيرات واد آنة المسمى نهر جييرو (Guerrero) على نحو اثنا عشر كيلومتر شمال مدينة بطليوس بغرب الأندلس. (انظر: ابن الأثير: الحُلَّة السَّيِّراء، حَقَّقَه وعلَّق حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ط2، ج2، ص 101؛ ابن عذارى، البيان المُغرب، ج4، ص 138 وما بعدها؛ ابن الخطيب، الإحاطة، مج4، ص 351 وما بعدها؛ الحموي: مُعجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1979م، مج3، ص 146؛ الحِميري، الرُّوض المعطار، ص 291 وما بعدها).

- 18- حمدي عبد المنعم محمد حسين: التّاريخ السّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعيّة، 2008م، ص 153 .
- 19- نفسه.
- 20- البيان المغرب، ج4، ص 48 .
- 21- الخلل الموشية، ص 85 ؛ البيان المغرب، ج4، ص 48 .
- 22- يذكر صاحب الخلل الموشية أنّ غرض الأمير علي من العبور إلى الأندلس هو تفقد حالها وسدّ خللها. (انظر: الخلل الموشية، ص 85).
- 23- أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين، ج1، ص 122 .
- 24- بادر الأمير علي بن يوسف بعد توليه السلطة لمدة يسيرة في منتصف عام 500هـ/1106م إلى نقل عاصمة الأندلس من قرطبة إلى غرناطة لأسباب إستراتيجية وأمنية أهمها: أنّ معظم سكان غرناطة كانوا من الأمازيغ (البربر) فهم أكثر انقيادًا وتعاطفًا مع أبناء جلدتهم من الأندلسيين، وأنّها من الناحية العسكريّة أقرب إلى مسرح العمليات الحربيّة التي كانت تقوم بها القوات المرابطيّة في شرق الأندلس، كما أنّها أقرب إلى بلاد المغرب مصدر التّموين والإمداد للمرابطين في الأندلس. (انظر: حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النّصارى سنة 512هـ/1118م - مع أربع وثائق جديدة، مكتبة الثقافة الدّينيّة، مصر، 1413هـ/1992م، ص 19 ؛ سلامة محمد سلمان الهري، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص 188-189).
- 25- Gaid Mouloud : **Les Berbers dans l'histoire en Espagne Musulmane**, p136 .
- 26- اختلف المؤرخون في ذكر اسمه حيث يسميه الأمير تميم في رسالته للأمير علي عقب فتح أقليش أبو عبد الله محمد بن أبي زنغي، وجاء عند ابن القطان باسم ابن أبي زنغي في حين سماه صاحب مفاخر البربر أبو عبد الله محمد بن أبي زنفي، وجاء عند ابن أبي زرع باسم محمد بن أبي زلفي، وجاء عند المستشرق ميراندا أمبروسيو هويثي وبعض المراجع الحديثة باسم ابن أبي رنق، وانفقوا جميعًا على أنّه والي قرطبة بعد محمد بن الحاج وهو الأصح حسب اعتقادي بالنظر إلى ذكر مشاركته في المعركة كوالي وقائد جيوش قرطبة، غير أنّ ابن عذارى يخالفهم الرأي ويقول أنّ الذي تولى قرطبة بعد ابن الحاج هو أبا عبد الله محمد بن أبي بكر اللّمتوني. (انظر: نُظُم الجمان ج6، ص 65، هامش 1 ؛ مجهول: مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوبايا، دار أبي رراق للطباعة والنّشر، الرباط، ط1، 2005م، ص 190 ؛ روض القرطاس، ص 157-158 ؛ البيان المغرب، ج4، ص 48-49 ؛

وقعة أفليش ومصرع الأمير ضون شانجه، ص122 ؛ عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص64). (وعن نص رسالة الأمير تميم، انظر: الملحق رقم1).

27- سماه صاحب مفاخر البربر أبو عبد الله محمد بن الحاج مرةً وسماه مرةً أخرى بن عبد الله بن الحاج، وجاء عند ابن أبي زرع باسم أبو عبد الله بن الحاج في موضع وفي موضعٍ آخر محمد بن الحاج، وابن عذارى يسميه محمد بن الحاج، وصاحب الخلل الموشية يسميه أبا عبد الله بن الحاج واسمه الصحيح هو أبو عبد الله محمد بن الحاج وهو المشهور بابن الحاج، يعتبر من كبار الولاة والقادة العسكريين في عهد الأمير يوسف بن تاشفين وابنه علي، تولى قرطبة في أواخر عهد الأمير يوسف وعندما تولى علي عزله منها و ولاه سنة 501هـ/1108م مدينة فاس وسائر أعمال المغرب مدة ستة أشهر، ثم نقله إلى بلنسية في أواخر سنة 501هـ/1108م حسب ابن أبي زرع وسنة 503هـ/1110م حسب ابن عذارى وهو الأصح بالنظر إلى صيرورة الأحداث، استشهد في إحدى غزواته في برشلونة سنة 508هـ/1114م حسب ابن أبي زرع أو سنة 509هـ/1115م حسب ابن عذارى. (انظر: مفاخر البربر، ص189 وما بعدها ؛ روض القرطاس، ص157 وما بعدها عدة صفحات ؛ البيان المغرب، ج4، ص48 وما بعدها ؛ الخلل الموشية، ص72).

28- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص159 ؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص48 .

29- ابن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص49 .

30- ابن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص49 .

31- ذكر ابن عذارى أن والي قرطبة محمد بن الحاج عندما تولى علي بن يوسف الإمارة بعد أبيه بقي في قرطبة تحت الخمول أي أنه تلاكأ في بيعته وأراد القيام عليه، ولكن بعد مدة قصيرة من محاولة تمرده قبض عليه سنة 500هـ/1107م، ثم عفا عنه و ولاه علي سنة 501هـ/1108م مدينة فاس وسائر أعمال المغرب مدة ستة أشهر، ثم نقله إلى بلنسية في أواخر سنة 501هـ/1108م حسب ابن أبي زرع وسنة 503هـ/1110م حسب ابن عذارى. (انظر: البيان المغرب، ج4، ص48-49 ؛ روض القرطاس، ص157 وما بعدها).

32- سلامة محمد سلمان الهربي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص189-190 .

33- سلامة محمد سلمان الهربي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص189 .

34- (Alphonse VI) تُسميه المصادر الإسلامية الأذفنش أو الأذفونش وأحياناً الفُنش، وهو ابن فرديناند الأول، ولد سنة 421هـ/1030م وكان رجلاً طموحاً قضى على مُلك إخوته وأعلن نفسه إمبراطوراً على ليون، قشتالة، جليقية ونافارا، استولى على مدينة طليطلة سنة 478هـ/1085م، تعرض لهزيمة قاسية من قبل أمير المرابطين يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة سنة

479هـ/1086م، استمر في حرب المسلمين بالأندلس إلى غاية وفاته بطليطلة في شهر ذي الحجة سنة 502هـ الموافق لشهر جويلية 1109م وقد مات همًّا وحزنًا على أثر مقتل ابنه الوحيد سانشو (شأنجه) في معركة أقليمش (Uclés) سنة 501هـ/1108م. (انظر: ابن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص50 وما بعدها؛ ميراندا أمبروسيو هويشي، وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شأنجه، ص115؛ الزركلي: الأعلام، مج6، ص181؛ سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م، ط2، ص435).

35- ابن عذارى، البيان المغرب، ج4، ص44-45.

36- يرى المستشرق الألماني أشباخ أنّ هدف الأمير تميم من وراء هذه الغزوة ضدّ النصارى هو إظهار مدى قدرته على تولي العرش فهو لم يكن أقلّ صلاحية من أخيه الأصغر علي، وأرى أنّ هذا الأمر غير صحيح فقد ذكر صاحب الحُلل الموشية أنّ الأمير تميم حضر في قرطبة بالأندلس في شهر ذي الحجة سنة 496هـ/سبتمبر 1103م اجتماع عقده والده يوسف رفقة أمراء وفقهاء المرابطين ورؤساء الأندلس لمبايعة علي بالإمارة بعد أبيه، وقد بايع تميم مع المبايعين ولم يبدي أي اعتراض، كما ذكر كل من ابن أبي زرع وابن عذارى أنّ الأمير تميم كان أوّل من بايع أخيه علي بالإمارة عند وفاة أبيه، وأمر باقي المرابطين بمبايعته، فلم يعارض على الإطلاق أمر تولية أخيه علي للعرش لأنّه لم يرى أنّه أحق منه بالإمارة، كما أنّه لم يخرج عليه مطلقًا وبقي يعمل تحت إمرته إلى غاية وفاته سنة 520هـ/1126م. (أنظر: الحُلل الموشية، ص77-78؛ روض القرطاس، ص158؛ البيان المغرب، 4/48؛ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، 1/122).

37- يتحدث الأمير تميم في رسالته إلى أخيه علي عن عزيمة جيشه المتجه لقتال العدو بقوله "جيش" تصم كواهله، وتطم كواهله، راياته خافقة، وعزماته صادقة، ونبراته على السنة السعد ناطقة". (عن نص الرسالة، انظر: الملحق رقم 1).

38- ميراندا أمبروسيو هويشي، وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شأنجه، ص122؛ عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحّدية، ص61. (انظر أيضًا: الملحق رقم 1).

39- ابن عذارى، البيان المغرب، 4/49؛ ميراندا أمبروسيو هويشي، وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شأنجه، ص122.

40- هو الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين، نُسب إلى أمه عائشة فأصبح يدعى محمد بن عائشة، وأمّه امرأة حرة لهذا حمل اسمها، وكان قائدًا مظفرًا ارتبط اسمه بمقاتلة النصارى في الأندلس، كان واليًا على مرسية إثر وفاة أبيه، وتألّق بنجمه كقائد محنك في عهد أخيه علي، حيث شارك في

العديد من المعارك في الأندلس كمعركة أقليم سنة 501هـ/1108م، وشارك مع محمد بن الحاج في غزو برشلونة سنة 508هـ/1114م وأصيب في بصره، اعتل بعدها ثم لم يلبث أن غمي، فاستدعاه أخوه أمير المسلمين علي إلى مراكش، وعين بدلاً عنه على مرسية أخاه إبراهيم بن يوسف. (انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 101-102 هامش 4؛ ابن القطان، نظم الجمان، ج 6، ص 65 هامش 2؛ عبد الحق حموش: ابن تاشفين، دار الكتاب، الدار البيضاء، د.ت، ص 31؛ الصلابي، علي محمد: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، مكتبة الصحابة، الإمارات، مكتب التابعين، القاهرة، ط 1، 2001م، ص 67).

41- هو أحد مشاهير قادة المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين وابنه علي، يُعرف في المصادر التاريخية بابن فاطمة، ورد اسمه الكامل بصيغ مختلفة منها محمد بن فاطمة وأبا محمد بن فاطمة وأبو عبد الله محمد بن فاطمة، وأحياناً يسمى عبد الله بن محمد بن فاطمة، وتذكره أغلب المراجع الحديثة باسم محمد بن فاطمة، والأرجح أن اسمه الصحيح حسب المؤرخ محمود علي مكي هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة. شارك في معارك عديدة بالأندلس ضد النصارى، وتولى أمر بعض مدنه المشهورة مثل بلنسية سنة 497هـ/1104م، ثم غرناطة سنة 503/1109م، ثم انتقل بعد ذلك إلى فاس بالمغرب عاملاً عليها سنة 504هـ/1110م، وفي سنة 509هـ/1115م عاد إلى الأندلس عاملاً على إشبيلية فحكمها حتى توفي في رمضان سنة 511هـ/جانفي 1118م. (انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 112 هامش 2؛ ابن القطان، نظم الجمان، ج 6، ص 65 هامش 3؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 160؛ مفاخر البربر، ص 190؛ محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م، ط 1، ص 46 وما بعدها).

42- يذكر أغلب المؤرخين بأن تاريخ معركة أقليم كان في شهر شوال عام 501هـ/ماي 1108م منهم ابن الكردبوس وابن القطان وابن عذارى والمستشرق ميراندا، وهو الرأي الأصح حسب اعتقادي بالنظر إلى سيورة الأحداث التاريخية، غير أن ابن أبي زرع ذكر تاريخاً مخالفاً واعتبر أن المعركة حدثت عام 502هـ/1109م. (انظر: تاريخ الأندلس، ص 114؛ نظم الجمان، ج 6، ص 63؛ البيان المغرب، ج 4، ص 49-50؛ روض القرطاس، ص 159؛ وقعة أقليم ومصراع الأمير ضون شانجه، ص 122).

43- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 160؛ السلاوي، الإستقصا، ج 2، ص 57.

44- يذكر ابن عذارى أن مدينة أقليم اضطرت المحلات بإزائها وانتشرت الحروب عليها إلى أن دخلها المرابطون عنوة. (انظر: البيان المغرب، ج 4، ص 50).

45- يذكر المستشرق ميراندا أنّ القوّات المرابطيّة لما دخلت مدينة أقليمش أحرقت كنائسها وجعلت بعضها مساجد بعد أن نهبّت ثرواتها، ويؤكد ذلك المؤرخ عنان حيث قال بأنّ القوّات المرابطيّة قوّضت صروح المدينة وهدمت كنائسها ودكّت هياكلها. (انظر: وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شانجه، ص122 ؛ عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص61-62).

46- عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص62. (انظر أيضاً: الملحق رقم 1).

47- ميراندا أمبروسيو هويشي، وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شانجه، ص122. (ويذكر الأمير تميم في رسالته إلى أخيه علي فرار النَّصارى إلى قصبه المدينة بقوله "وعدت بقاياهم بقصبه المدينة فولوجوها، كما يلج العصفور، ويقوم العثور، قد غلقوا الأبواب، وأسدلوا الحجاب" وقال أيضاً "وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبه والقوم في السّجن والحصر". (عن نص الرّسالة، انظر: الملحق رقم 1).

48- أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج1، ص122 .

49- يذكر الأمير تميم في رسالته إلى أخيه علي عن استعداد ملك قشتالة لحرب المرابطين بقوله "وكان الطاغية ألفونسو السّادس زاده الله ذللاً قد حشد أقطاره وحشر أنصاره، وأبعد في الاستصراخ مضماره، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى ذمر، وانطوى على غمر. (عن نص الرّسالة، انظر: الملحق رقم 1).

50- (Zaida La Mora) أو (Ceida) ادعت الرّوايات النَّصرانيّة أنّها ابنة المعتمد بن عبّاد أمير إشبيلية السّابق والتي أهداها لألفونسو السّادس لكي يخلصه من المرابطين، وهو ادعاء غير صحيح حيث أكد ابن عذارى وغيره من المؤرخين بأنّها الزوجة السّابقة للفتح بن المعتمد بن عبّاد الملقب بالمأمون حاكم قرطبة عندما استولى عليها المرابطون سنة 484هـ/1091م، وقد فرت إلى حصن المدور ثمّ إلى قشتالة فتنصرت وتزوجت ألفونسو السّادس وأنجبت منه ولده الوحيد سانشو (Sancho) الذي قتل في معركة أقليمش سنة 501هـ/1108م. (انظر: البيان المغرب، ج4، ص50 ؛ ابن خاقان: فلانند العقيان في محاسن الأعيان، قدم له ووضع فهرسه محمّد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م، ص22 ؛ أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج1، ص123 ؛ عنان، دول الطوائف، ص345 وما بعدها).

51- (Sancho) سانشو أو شانجه كما تذكره المصادر الإسلاميّة، ويسميه ميراندا "ضون شانجه"، وهو الولد الوحيد لملك قشتالة ألفونسو السّادس من زوجته زائدة المسلمة التي كانت قد فرت إلى قشتالة وتنصرت بعد مقتل زوجها الفتح بن المعتمد بن عبّاد الملقب بالمأمون على يد المرابطين عند دخولهم قرطبة عام 484هـ/1091م. (انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص114، هامش 3 ؛

ابن عذارى، البيان المغرب، 50/4 ؛ وقعة أفليش ومصرع الأمير ضون شانجه، ص115 وما بعدها).

Gaid Mouloud: **Les Berbers dans l'histoire les Mourabitines d'hier et les Marabouts d'aujourd'hui**, p31.

52- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص160. (يتفق أشباخ مع ابن أبي زرع في اعتبار أن زوجة ألفونسو السادس زائدة هي التي أشارت على زوجها بأن يبعث ولده الوحيد سانشو لقتال المسلمين بدلاً عنه، ويقول أن السبب وراء ذلك هو إثارة حماسة الجند، غير أن ميراندا ينفي هذا الأمر ويقول بأن ابن أبي زرع يوغل في ميدان الخيال عندما يقول أن الأمير سانشو قد انتخب بطلب من أمه ليخلف أباه في قيادة الجيش القشتالي). (انظر: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج1، ص122-123 ؛ وقعة أفليش ومصرع الأمير ضون شانجه، ص122).

53- اختلف المؤرخون في تحديد سن سانشو ولد ألفونسو السادس، حيث ذكر أشباخ وعنان بأنه يبلغ من العمر حوالي إحدى عشر سنة، بينما يقول برنارد لوقان (Bernard Lugan) وأحمد مختار العبادي في تحقيقه لكتاب ابن الكردبوس ومحمود علي مكّي في تحقيقه لكتاب ابن القطان أنه كان في حوالي خمسة عشرة سنة. (انظر: تاريخ الأندلس، ص114، هامش 3 ؛ نظم الجمان، ج6، ص64، هامش 1 ؛ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، 123/1؛ عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص62).

Bernard Lugan: **Histoire du Maroc des origines à nos jours**, Critérium, Paris, 1992, p73.

54- أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج1، ص122-123. (يبدو أن إثارة حماسة الجند تكمن في أن ألفونسو السادس أثار عاطفة جنده بتشجيعهم على القتال بإرساله لولده الوحيد رغم صغره سنه إلى ميدان المعركة ولا يخشى فقدانه لأنه يدرك جيداً بأن الجند سيستمتون في الدفاع عنه، وقد أشار إلى ذلك عنان بقوله لكي يثير منظره الفتي حماسة الجند). (انظر: عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص62).

55- أخطأ ابن أبي زرع في قوله بأن الأمير تميم هو ابن ملك المسلمين، والأصح أن الأمير تميم آنذاك كان أخ ملك المسلمين علي بن يوسف وليس ابنه، وتمام معروف بأنه ابن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين السابق الذي توفي سنة 500هـ/1086م. (انظر: روض القرطاس، ص160).



56- ابن أبي زرع، **روض القرتاس**، ص 160. (بالإضافة إلى عجز ألفونسو السادس وشيخوخته، وكذلك إثارة حماسة الجند، فمن المرجح أنه كان هناك سبب آخر لإرسال ألفونسو السادس لولده الوحيد لحرب المرابطين يتمثل في مؤامرة دبرت من بعض عملاء ألفونسو المحارب الذين أقتنوا ألفونسو السادس بإرسال ولده للحرب ليتخلصوا منه ويخلوا الجو لألفونسو المحارب فيضمّ قشتالة إلى ملكه، وإلا كيف نفسر سعي أعيان ووجهاء قشتالة بعد فترة وجيزة من وفاة ألفونسو السادس لزواج ابنته وولية عهده دونيا أوركا من ألفونسو المحارب، وبعد إتمام الزواج في شهر صفر سنة 503هـ/سبتمبر 1109م اتحدت مملكتي قشتالة وأراغون). (انظر: سلامة محمّد سلمان الهري، **دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف**، ص 196).

57- سماه تميم في رسالته غرسية أردونش (Garcia Ordonez) وسماه ابن القطان غرسيا ردونس المدعو بالفم المعوج، وجاء عند أشباخ باسم جارسيا دى كبرا (قبره) بينما جاء عند المستشرق ميراندا باسم غرسيا أوردونيث وقال بأنه ملقب بالفم الأعور، في حين ورد عند عنان في الصفحة أربعة وستون باسم غرسية أروينث كونت دى قبره، وفي الصفحة الموالية غرسية أروينث (أردونش) أو الكونت دى قبره، وقد كان قائداً قشتالياً من فرسان شانجه الثاني ملك ليون، ثم أصبح من أتباع ألفونسو السادس ملك قشتالة، وكان من المدافعين عن حصن ليط حينما قام المرابطون بحصاره، ولقى مصرعه في وقعة أفليش هذه. (انظر: **نظم الجمان ج**، ص 64، هامش 2؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، 1/123؛ **وقعة أفليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص 116 وما بعدها؛ **عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية**، ص 64-65). (وعن نص رسالة تميم إلى أخيه علي. انظر: **الملحق رقم 1**).

58- (Alvarhanes) أو (Alvar Fanez) ورد اسمه باللغة العربية بصيغ مختلفة منها ألباهانس وألبرهانش وألبارفانيث، وألفار فانيث وهو من أكبر قواد ألفونسو السادس، وهو ابن أخ السيد القمبيطور (Le Cid El Campeador) شارك في العديد من المعارك ضد المسلمين كالزلاقة وأفليش وغيرها، كانت وفاته سنة 507هـ/1114م على يد أهل شقوبية في المعارك الدائرة بين ألفونسو المحارب صاحب أراغون، وأوركا صاحبة ليون وقشتالة. (انظر: ابن القطان: **نظم الجمان ج**، ص 64، هامش 2؛ ابن أبي زرع، **روض القرتاس**، ص 145؛ ميراندا أمبروسيو هويشي، **وقعة أفليش ومصرع الأمير ضون شانجه**، ص 123).

59- عُرفت معركة أفليش في الروايات النصرانية بمعركة الكونتات السبعة أو الأكناد السبعة أو الأقطاب السبعة أو القوامس (الأقطاط) السبعة (Batalla de Los Siete Condes) لأنه شارك فيها سبعة من كبار فرسان النصارى وهلكوا فيها، فبالإضافة إلى الكونت غرسية أردونش

وأبرهانس فقد شارك أيضًا القمط بقبدره وقادة كبار من طليطلة وصاحب قلعة النصور وقلعة عبد السلام. (انظر: **نظم الجمان** ج6، ص64، هامش2؛ ميراندا أمبروسيو هويشي، **وقعة أقليش ومصراع الأمير ضون شانجه**، ص123؛ عنان، **عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية**، ص536؛ حسين مؤنس، **الثغر الأعلى**، ص20؛ عبد العزيز شاكي: **التطور السياسي لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف (500-537هـ/1106-1143م)**، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر 2، قسم التاريخ، 2011م، ص140-141). (انظر أيضًا: **الملحق رقم 1**).

- 60- أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ج1، ص123.
- 61- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص160؛ **السلاوي، الإستقصا**، ج2، ص57.
- 62- لم تقدم الروايات التاريخية بيانات كافية عن عدد الجيشين المتحاربين، فقد سكنت الروايات النصرانية ولم تذكر عدد الجيوش القشتالية، وتملك روايتين إسلاميتين تحددان عدد جيوشهم الأولى تقدره بعشرة آلاف وهي لابن القطان والثانية تقدره بسبعة آلاف فارس وهي لابن عذارى، ولم يذكر ابن أبي زرع عدد الجيوش قبل بداية المعركة واكتفى بذكر عدد القتلى بعد نهاية المعركة وقال بأنه قتل منهم أكثر من ثلاثة وعشرون ألف، وبالنسبة لعدد جيش المسلمين فلم تحده المصادر التاريخية، وقد اجتهد عنان محمد عبد الله باستنتاج عدده وقال أنهم كانوا في نحو ستة آلاف فارس. ومن المؤكد أن عدد جيش النصارى أكبر بكثير من جيش المسلمين والدليل على ذلك إحجام تميم في البداية عن لقائه وتوجهه من تفوقه العددي. (انظر: **نظم الجمان** ج6، ص64؛ **البيان المغرب**، ج4، ص50؛ **روض القرطاس**، ص160؛ **عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية**، ص63-64).
- 63- من المؤكد أن الأمير تميم لم يكن خائفًا من مجابهة العدو لأنه يفتقد للشجاعة، فهذا الأمر مستبعد من قائد عسكري محمك كان له صولات وجولات في حرب النصارى في عهد والده يوسف بن تاشفين، والأكد أنه كان يدرك خطورة الموقف فمن الضروري الحيلة والحذر وعدم الاستهانة بقدرات العدو، ولأن جيش المسلمين كان قليلًا بالمقارنة مع جيش ألفونسو السادس، ولأن مدينة أقليش بعيدة نسبيًا عن مدن المسلمين ومراكز الإمداد وهي قريبة من حصون وقلاع النصارى، كما أن جيوشهم تحاصر المرابطين من كل جانب والدليل على ذلك قول ابن أبي زرع "فلم يجد سبيلاً للفرار ولا للزوغ مخلصًا" وقول أشباخ وكانت حال الجيش المرابطي مع ذلك تدعو إلى التوجس واليأس لأنه إذا لم يوفق إلى الظفر فقد سُدت في وجهه جميع سبل الفرار. (انظر: **روض القرطاس**، ص160؛ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، 1/123).

64- ذكر ابن زرع في هذا الموضوع أن عدد جيوش النصارى هو ثلاثة آلاف فارس، ولكن هذا غير صحيح فقد ذكر ذلك نقلاً عن كبار قادة المرابطين الذين تعمدوا عدم ذكر العدد الكبير للجيش القشتالي لكي يهونوا الأمر على الأمير تميم ويشجعوه على صدّ هذه الجيوش. (انظر: روض القرطاس، ص 160).

65- روض القرطاس، ص 160 .

66- عن نص رسالة الأمير تميم. (انظر: الملحق رقم 1).

67- ميراندا أمروسيو هويثي، وقعة أفليش ومصرع الأمير ضون شانجه، ص 123 ؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 161 ؛ سلامة محمد سلمان الهرابي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص 193 .

68- ميراندا أمروسيو هويثي، وقعة أفليش ومصرع الأمير ضون شانجه، ص 123 ؛ عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص 64 ؛ سلامة محمد سلمان الهرابي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص 193.

Coissac De Chavrebière: **op.cit**, p189 .

69- مِنْ حَبَأَ، وَحَبَأَ الشَّيْءَ يَحْبُؤُهُ حَبَأً أَيْ سَتَرَهُ، وَالْحَبَأُ: مَا حُجِبَ، وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ غَائِبٍ مَسْتُورٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: حُبَأَهُ حَيْثُ مِنْ يَفْعَعُ سَوْءٍ، أَيْ يَنْتُ تَلْزُمُ الْبَيْتِ تَحْبَأً نَفْسَهَا فِيهِ، حَيْثُ مِنْ غُلَامٍ سَوْءٍ لَا حَيْثُ فِيهِ. (انظر: ابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت، مج 2، ص 1085 ؛ الفيروز ابادي: القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1980م، ط 3، ج 1، ص 13).

70- لفظ نَزَعَ مستعملٌ هنا استعمالاً خاصاً ويعني جاء أو قَدِمَ، لأنَّ النازع في الاصطلاح الأندلسي هو الجندي الذي يندس في جيش الأعداء أو يدخل معهم حصنهم متنكرًا في زيهم حتى يتعرف أخبارهم أو يثبط همهم، ثمَّ ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه، وكان في الأنظمة الحربية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء يعرف بديوان التّزاع. (انظر: حسين مؤنس، الشجر الأعلى، ص 39، هامش 4).

71- عن نص رسالة الأمير تميم. (انظر: الملحق رقم 1).

72- سلامة محمد سلمان الهرابي، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص 194 .

73- ابن القطان، نُظْمُ الْجَمَانِ، ج 6، ص 64-65. (يقصد بقوله مشيت الهزيمة عليه أميلاً أن جيش قرطبة اضطر للتراجع للخلف أميلاً لكي يعيد تنظيم صفوفه، ولكي يحصل على الدّعم من قبل باقي فرق الجيش المرابطي).

74- يعني أنه لم يوليَّ الدُّبُرَ، ولم يتراجع إلى الخلف خوفاً من العدو، بل تراجع من أجل إعادة تنظيم صفوفه، وللحصول على المدد والدِّعْم، وبذلك لا يتحقق فيه حُكْم التَّوَلَّى يوم الرَّحْفِ، فَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ محرَّمٌ في الكتاب والسنة، لقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْمًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ (15) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (16))). (سورة الأنفال، الآية 15-16) وفي الحديث هو من أكبر السبع الموبقات، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قال: ((اجتنبوا السبع الموبقات))، قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: ((الشرك بالله، والسخر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الرحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)). (انظر: البخاري: صحيح البخاري، باب رمي المحصنات، تحقيق محمد علي القطب، المكتبة العصرية، بيروت، 1991م، ج5، ص2139؛ مسلم: صحيح مسلم، باب الكبائر وأكبرها، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1998م، ط1، ص60).

75- طَوَّدَ: الجُمُعُ أَطَوَّدَ، والطَّادِي الثَّابِثُ، طَادَ إِذَا تَبَّتْ، الطَّوَّدُ: الجَبَلُ العَظِيمُ، والطَّوْدُ: الهَضْبَةُ، وصفت عائشة أباهما أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فقالت "ذاك طوودٌ مُنِيفٌ"، أي جَبَلٌ عَالٍ". (انظر: ابن منظور، لسان العرب، مج4، ص2717؛ الفيروز ابادي، القاموس المحيط، ج1، ص308؛ الأزهرى: معجم تهذيب اللغة، تحقيق رياض زكي قاسم، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001م، ط1، مج3، ص2228-2229).

76- من الرَّحْمِ، وهو أَنْ يَزْحَمَ القَوْمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مِنْ كَثْرَةِ الرَّحَامِ إِذَا ازْدَحَمُوا، وازْدَحَمُوا وتَزاحَمُوا: تَضَايَعُوا، وَرَجَلٌ مُرْحَمٌ: كَثِيرُ الرَّحَامِ أَوْ شَدِيدُهُ. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، مج3، ص1819؛ الفيروز ابادي، القاموس المحيط، ج4، ص122).

77- عن نص رسالة الأمير تميم إلى أخيه علي. (انظر: الملحق رقم 1).

78- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، 123/1.

79- ابن القطان، نُظْم الجمان، ج6، ص65. (على عكس باقي الروايات النَّصْرانية في هذا الشأن فقد جاءت رواية المستشرق ميرندا موافقة للرواية الإسلامية. انظر: وقعة أقليش ومصراع الأمير ضون شانجه، ص123).

80- ميرندا أمبروسيو هويشي، وقعة أقليش ومصراع الأمير ضون شانجه، ص123؛ سلامة محمد سلمان الهري، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص194.

- 81- ابن القطان، *نُظْم الجمان*، ج6، ص66 .
- 82- يصف لنا الأمير تميم في رسالته إلى أخيه أمير المسلمين علي بن يوسف، هول المعركة في عبارات حماسية مضطربة حيث قال "فعند ذلك اختلطت الخيل، بل سال السيل، وأظلم الليل، واعتنقت الفرسان، واندقت الخرصان، ودجا ليل القتام، وضاق مجال الجيش اللّهام، واختلط الحسام بالأجسام، والأرماح بالأشباح، ودارت رحي الحرب تغر بنكالها، وثارَت نائرة الطّعن والضّرب تفتك بأبطالها. (عن نص الرّسالة، انظر: الملحق رقم 1).
- 83- *روض القرطاس*، ص160 .
- 84- *تاريخ الأندلس*، ص114. (واكتفى ابن عذارى بالقول بأنّه وقعت بين الجيشين حروب يطول ذكرها كانت الدائرة فيها على الرّوم). (انظر: *البيان المغرب*، ج4، ص50).
- 85- *نُظْم الجمان*، ج6، ص66 .
- 86- *مَسَخَ العُبار* بمعنى *أَجْلَى*، والمَسَخُ هو *تَحْوِيلُ صُورَةٍ إِلَى صُورَةٍ أَقْبَحَ مِنْهَا*، أو *تَحْوِيلُ خَلْقٍ إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى*، ويُقال: *وَأَمَسَخَ الوَرْمُ أَيَّ الحُلِّ*. (انظر: ابن منظور، *لسان العرب*، معج5، ص4199؛ الفيروز ابادي، *القاموس المحيط*، ج1، ص267-268؛ الأزهرى، *مُعجم تهذيب اللغة*، معج4، ص3392-3393).
- 87- عن نص رسالة الأمير تميم. (انظر: الملحق رقم 1).
- 88- ابن الكردبوس، *تاريخ الأندلس*، ص114؛ ابن عذارى، *البيان المغرب*، ج4، ص50؛ ابن أبي زرع، *روض القرطاس*، ص160؛ السّلاوي، *الإستقصا*، ج2، ص57 .
- 89- لم ينجوا من القادة الكبار لألفونسو السّادس غير ألبرهانس حيث قام بالفرار مع بعض قوّاته إلى طليطلة. (انظر: سلامة محمّد سلمان الهرفي، *دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف*، ص194).
- 90- ذكره ابن القطان باسم بلشون، وكذلك ميراندا، بينما ذكرته معظم المراجع الحديثة باسم بلنشون، بالإسبانية يكتب (Belinchon) وهو حصن يبعد عشرين كيلومتر غرب مدينة أقليمش. (انظر: *نُظْم الجمان*، ج6، ص66؛ *وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شانجه*، ص123؛ عنان، *عصر المرابطين وبداية الدّولة الموحّديّة*، ص65؛ محمّد سهيل طقّوش: *تاريخ المسلمين في الأندلس 91-897هـ/710-1492م*، دار النفائس للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 2008م، ط2، ص510).
- 91- *نُظْم الجمان*، ج6، ص66 .

- 92- عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص 65 .
- 93- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، 1/123. (يبدو أن غرض المستشرق أشباخ من هذه الرواية هو إظهار مدى شجاعة الأمير سانشو ومؤدبه الكونت غرسية أزدونش، فقال بأثما دخلا إلى ميدان المعركة وقاتلا كالأبطال، وأوافق رأي المستشرق ميراندا الذي نقد هذه الرواية وقال بأثما صوّرت الكونت غرسية أزدونش على أنه رجل بلغ الغاية القصوى من النبيل والفروسية والشجاعة، بينما يصفه خصومه بالنزول إلى مستوى مخجل من العجز والجن والحسد). (انظر: وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شانجه، ص 120).
- 94- عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص 65 .
- 95- الرسالة من تأليف الوزير الكاتب ابن شرف على لسان الأمير تميم والي غرناطة بعثها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف عقب انتصار المسلمين في معركة أقليمش، حيث تلخص هذه الرسالة وقائع المعركة، وكيف استطاع المرابطون تحقيق النصر. (عن نص الرسالة، انظر: الملحق رقم 1).
- 96- يبدو أنه عندما انتهى الصدام العنيف بين المسلمين والمسيحيين وخمدت المعركة، فرّ بعض النصارى وتحصنوا بقصبة المدينة (قلعة المدينة) لكي يسلموا من القتل.
- 97- يذكر الأمير تميم في رسالته أن القائد ابن عائشة وابن فاطمة بقيا محاصرين للنصارى في قسبة المدينة حصاراً شديداً، آخذين بمخنتهم، ومستولين على رمقهم. (عن نص الرسالة، انظر: الملحق رقم 1).
- 98- ابن القطان، نظم الجمان، ج 6، ص 66. (حاول المستشرق ميراندا أمبروسيو هويشي أن يُنقص من قيمة النصر الذي أحرزه المرابطون، حيث قال بأن استيلائهم على قسبة أقليمش لم يتم إلا بعد أن تظاهروا المسلمين بالانسحاب، وبقوا على مقربة من المدينة محتبئين عن أنظار العدو، واستغلوا خروج النصارى من القسبة هاربين فانقضوا عليهم، واحتلوا القسبة. وأرى بأن هذه عبارة عن خطة محكمة وضعها القاتدين ابن عائشة وابن فاطمة تبين حنكتهما وخبرتهما العسكرية وقد تمكنا من خلالها الاستيلاء على قسبة المدينة). (انظر: وقعة أقليمش ومصراع الأمير ضون شانجه، ص 124).
- 99- (la bataille d'Alarcos) من أشهر معارك الموحدين بالأندلس، قادها أمير المؤمنين يعقوب المنصور وحقّق نصرًا باهرًا على النصارى في شهر شعبان سنة 591هـ/1195م، وتعتبر هذه المعركة رفقة معركة الزلاقة من أشهر وأكبر معارك المسلمين بالأندلس. (انظر: ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1985م، ط 2، ج 5، ص 218 وما بعدها؛ الخلل الموسيقي، ص 159؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 220 وما بعدها).

- 100- أعمال الأعلام، ص253 .
- 101- عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص65 .
- 102- هو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري يكنى بأبي بكر وهو المشهور بابن الصيرفي، وهو أحد علماء وكتاب وشعراء غرناطة أيام المرابطين، وكان من أهل المعرفة بالأدب والعربية والفقه والتاريخ، له كتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية وهو الآن في حكم المفقود، وقد نقل من كتابه هذا معظم المؤرخين الذين جاءوا بعده مثل صاحب الخلل الموشية وابن عذارى وابن الخطيب وغيرهم، وله أيضاً كتاب تقصي الأنباء في سياسة الرؤساء، توفي بغرناطة في حدود سنة 570هـ/1174م. (انظر: الخلل الموشية، ص93، هامش95؛ البيان المغرب، ج4، ص49-50؛ الإحاطة، مج4، ص407 وما بعدها عدة صفحات).
- 103- البيان المغرب، ج4، ص50 .
- 104- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، 1/124 .
- 105- يذكر ابن عذارى أنه بعد عام وشهرين تقريباً مات ألفونسو السادس همًا وحزنًا على إثر مقتل ابنه الوحيد سانشو وعلى هلاك عسكره في معركة أقليمش، وكانت وفاته بطليطلة في شهر ذي الحجة سنة 502هـ الموافق لشهر جويلية 1109م، في حين أن ابن أبي زرع يقول أنه توفي بعد عشرين يومًا من موقعة أقليمش سنة 502هـ/1109م، وقد ذكرت سابقًا أنه أخطأ في تحديد تاريخ الموقعة حينما قال أنها حدثت سنة 502هـ/1109م والصحيح أنها حدثت قبل ذلك بعام أي سنة 501هـ/1108م. (انظر: البيان المغرب، ج4، ص50؛ روض القرطاس، ص160).
- 106- روض القرطاس، ص160 .
- 107- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، 1/123 .
- 108- وصف الأمير تميم في رسالته كثرة الجثث التي جمعت في نهاية المعركة بقوله "كانت كالمهضب الجسيم، بل الطود العظيم". (عن نص الرسالة، انظر: الملحق رقم1).
- 109- اختلف المؤرخون في تحديد عدد قتلى النصاري فيرى ابن أبي زرع أنه قُتل منهم أكثر من ثلاثة وعشرون ألفًا، ويرى أشباخ أنه قُتل منهم عشرون ألفًا وهاتين الروايتين الأرجح أنهما تجانبان الصواب، بينما يقول الأمير تميم في رسالته أن عددهم كان أكثر من ثلاثة آلاف قتيل، وأرى أن عدد قتلاهم يكون ما بين سبعة آلاف وعشرة آلاف قتيل، وهناك أدلة كثيرة تثبت ذلك منها أن عدد الجيوش المشاركة في المعركة، حيث نملك روايتين إسلاميتين تحددان عدده الأولى تقدره بعشرة آلاف وهي لابن القطان والثانية تقدره بسبعة آلاف فارس وهي لابن عذارى، وبالنظر لما قاله الأمير تميم في رسالته "ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلا أقلهم" هو دليل على أنه لم ينجو منهم إلا عدد قليل، كما أن

الأمير تميم عندما أمر عقب الموقعة بجمع رؤوس القتلى من النصارى جمعت القريبة من المكان الرئيسي للمعركة فقط ولم تجمع البعيدة منها فكان عددها أكثر من ثلاثة آلاف رأس، فلو جمعت كل الرؤوس لوصل العدد إلى حوالي سبعة آلاف قتيل، ويمكن أن نضيف دليل آخر وهو وجود نصارى متحصنين بقصبة المدينة قبل اندلاع المواجهة بين الجيشين، ومعلوم أن المسلمين اقتحموا هذه القصبة وقتلوا عدد

معتبر منهم. (انظر: روض القرطاس، ص 160؛ نظم الجمان ج 6، ص 64؛ البيان المغرب، ج 4، ص 50؛ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج 1، ص 123). (وعن نص رسالة الأمير تميم إلى أخيه علي، انظر: الملحق رقم 1).

110- ميراندا أمبروسيو هويشي، وقعة أقليمش ومصرع الأمير ضون شانجه، ص 123؛ عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحّدية، ص 65. (انظر أيضًا: الملحق رقم 1).

111- عصر المرابطين وبداية الدولة الموحّدية، ص 66.

112- روض القرطاس، ص 160.

113- يبدو أن طائفة من العرب الذين كانوا في المغرب إذ ذاك جازوا إلى الأندلس في أيام المرابطين برسم الجهاد، وقد شاركوا في هذه المعركة واستشهد بعضًا منهم، وقد تحدث الأمير تميم في رسالته عن أحد هؤلاء الفرسان العرب المشاركين في المعركة دون ذكر اسمه حيث قال "فبرز فارس من العرب، فطعن فارسًا منهم فأذراه من مركبه، ورماه بين يدي موكبه". (انظر: ابن القطان، نظم الجمان ج 6، ص 66، هامش 5؛ حسين مؤنس، الثغر الأعلى، ص 41، هامش 2). (وعن نص رسالة الأمير تميم إلى أخيه علي، انظر: الملحق رقم 1).

114- نظم الجمان ج 6، ص 66.

115- أغلب المؤرخين المحدثين خاصة المستشرقين منهم مثل أشباخ وميراندا يعتبرون أن الأمير تميم ارتكب خطأ فادحًا عندما أحجم عن التوغل في أعماق قشتالة لمطاردة الفلول الهاربة إلى طليطلة ومحاصرتها والاستيلاء عليها، وقالوا بأن هذا الأمر يثير الاستغراب والحيرة في آن واحد، وأكدوا أن هذا الموقف لم يكن الأوّل في تاريخ المرابطين فقد حدث مثل هذا الموقف بعد انتصارهم في الزلاقة في عهد يوسف بن تاشفين، وأرى بأنه لم يرتكب هذا الخطأ لأنّ هناك ظروف وأسباب منعت من فعل ذلك، حيث أنّ معركة أقليمش كانت حامية الوطيس والمرابطين أيضًا خسروا في المعركة عدد لا يستهان به من المقاتلين، ومن غير الممكن إعادة تنظيم صفوف الجيش بسرعة فائقة والمهجوم على مدينة بحجم طليطلة، لأنّ الهجوم عليها يحتاج إلى وقت كبير لتحضير العُدّة والعتاد اللازمين؛ وقد حدث الهجوم على طليطلة عندما توفرت السبل فقد ذكر ابن أبي زرع ذلك إثر حديثه عن العبور الثاني للأمير علي بن يوسف إلى الأندلس في الخامس عشر من محرم سنة 503هـ/13 أوت 1109م. ثمّ أنّ عملية



مطاردة الفلول الهاربة قد حدثت بالفعل لأن المرابطين استولوا بعد نهاية المعركة مباشرةً على مجموعة من المدن القشتالية مثل قونكة وويذة وغيرها وهذه المدن تبعد عن أفليش أميالاً عديدة. (انظر: روض القرطاس، ص 161؛ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج 1، ص 123-124؛ وقعة أفليش ومصراع الأمير ضون شانجه، ص 123؛ عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحديّة، ص 66؛ سلامة محمّد سلمان الهري، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص 196-197).

116- (عن نص الرسالة، انظر: الملحق رقم 1).

117- أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج 1، ص 123-124.

118- ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمّد صلاح حلمي، مراجعة لطفي عبد البديع، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، مصر، 1995م، ص 254.

119- عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحديّة، ص 67.

120- حمدي عبد المنعم محمّد حسين، التّاريخ السّياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص 163.

121- نفسه.

122- سلامة محمّد سلمان الهري، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص 197.

123- ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 161؛ السّلاوي، الإستقصا، ج 2، ص 59.

124- يبدو أنّ أمير المسلمين علي بن يوسف أراد استغلال فرصة وفاة ألفونسو السّادس في ذي الحجة 502هـ/جويلية 1109م وتذبذب أركان دولته، بتولي ابنته أوراكا للحكم، والعبور بنفسه إلى الأندلس بقصد محاصرة طليطلة واستعادتها من أيدي القشتاليين. وأريد أن أشير إلى أنّ بعض المراجع الحديثة أخطأت في قولها أنّ الأمير علي أراد استغلال نشوب حرب أهلية بين ألفونسو الأوّل المحارب ملك أراغون ونافارا، وزوجته أوراكا ملكة قشتالة وليون وأشتوريش، بقصد استعادة طليطلة، والصّحيح أنّه لم يتزوجا قبل محاولة استعادتها، وعبور الأمير علي إلى الأندلس الذي حدث في الخامس عشر من محرم سنة 503هـ الموافق للتّالث عشر من شهر أوت 1109م، والزواج حدث بعد ذلك بحوالي شهر أي في صفر سنة 503هـ/سبتمبر 1109م، بالإضافة إلى أنّ بداية الحرب الأهلية بينهما كانت بعد مرور عدّة أشهر من زواجهما. (انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 115-116، هامش 4؛

أشباح، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين، ج1، ص147؛ سلامة محمّد سلمان المريني، دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص201).

125- المقصود هنا طَلَبِيْرَة دي لارينة (Talavera de la Reina) وهي مدينة كبيرة من أعمال طليطلة تقع في جهتها الغربيّة وعلى سبعين ميلاً منها، وهي على ضفة نهر تاجة في أقصى ثغور المسلمين وقد كانت حاجزاً بينهم وبين الإفرنج، وهي قديمة الآثار، قلعتها أرفع القلاع حصناً ومدينتها أشرف البلاد حسناً، مزارعها زكية، بها أسواق جميلة الترتيب حسنة التركيب. وتجدد الإشارة إلى أنّ هناك مدينتين في الأندلس تحملان أيضاً اسم طَلَبِيْرَة إحداهما قرية إلى الجنوب من طَلَبِيْرَة دي لارينة يقال لها طَلَبِيْرَة المرح (Talavera la Vega) والثانية قرية بالقرب من بطليوس بغرب الأندلس على ضفة وادي أنه. (انظر: البكري: جغرافية الأندلس وأوروبياً من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرّحمان علي الحجي، دار الإرشاد للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، 1968م، ط1، ص89؛ الإدريسي، القارّة الإفريقيّة وجزيرة الأندلس، ص274-275؛ الحموي، معجم البلدان، مج4، ص37؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص254 هامش1). (انظر أيضاً: الخريطة المرفقة بالمقال).

- 126- البيان المغرب، ج4، ص52 .  
 127- تاريخ الأندلس، ص116 .  
 128- الخلل الموشيّة، ص85 .  
 129- نظم الجمان، ج6، ص69 .

الملاحق:

الملحق رقم 1: قسم<sup>1</sup> من رسالة الأمير تميم إلى أمير المسلمين علي بن يوسف عقب فتح أقليش<sup>2</sup>

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدّين، عماد الأنام، وعتاد الإسلام...  
 والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام، ونصر بسيفه الإسلام، وغاز به الكفار، وجعل عليهم الكرّة فولوا الأدبار، والله تعالى يشفع سعوده، ويضمن مزيده، وينصر جنوده بمنه.

ولمّا أن وضعني أمير المسلمين، أدام الله نصره، حيث شاء من آلة التّشريف، والعزّ المنيف... حفظت تلك الحرمة، وشكرت لأستزيد من تلك النّعمة، وأخذت في الاجتهاد في الجهاد عالماً سببه، أخذاً بمذهبه... وسرت عن حاضرة غرناطة حرسها الله في العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم<sup>3</sup> بجيشٍ تصم صواهلها، وتطم كواهلها، رياته خافقة، وعزماته صادقة، ونبراته على السنة السعد ناطقة... وانحنا بشغر بيّاسة وقد توافد الجمع، وملىء البصر والسمع... ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله... وأفضت بنا الخيرة إلى المدينة الحصينة أقليش... وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال<sup>4</sup>، فدرنا بها دور الحلقة بنقطها... وجئنا بكل ضرب من الحرب... حتّى فض الختام، وعُض منه الإجماع، وعجّل الله بالنّصر وفتحها بالقسر.

ولمّا استحر فيهم القتل، واجتث منهم الأصل... وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فولوجوا، كما يلج العصفور، ويقوم العثور، قد غلقوا الأبواب، وأسدلوا الحجاب... ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائدين بنا، مستسلمين لنا، فناشدونا بالملّة وحرمتها... فأوينا شاردهم وأقمنا قاعدتهم... فأصبحنا في عزّ وأنس، وأصبحوا لا ترى إلّا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس.

وتضامت تلك العصابة إلى تلك القصبة والقوم في السّجن، والحصن في الحصر... وكان الطاغية أذفونش زاده الله دُلاً قد حشد أقطاره وحشر أنصاره، وأبعد في الاستصراخ مضماره، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى ذمر، وانطوى على غمر... فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية أذفونش، وشيخهم وزعيم فرسانهم غرسية أزدونش، وصاحب شوكتهم البرهانس والقمط بقبرده وقواد بلاد طليطلة وصاحب قلعة النسور وقلعة عبد السّلام، وكل قاص ودان، وعاجل ووان، أخزى الله جميعهم، وطلّ نجيعهم، ولا أقام صريعهم.

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة... وتقدموا فتندموا... وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً، والله تعالى فيه حُباً أعدها من عنده، وبعثها من جنده، ونَزَعَ الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم دالاً عليهم، وكاشفاً بهم على النبأ العظيم، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم... وكنت قد استدنيت القائدين المجريين ذوى النَّصِيحَةِ والآراء الصَّحِيحَةِ أبا عبد الله مُحَمَّد بن عائشة وأبا مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد بن فاطمة... فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين... وعبأنا الجيش يمناه ويسراه، وصدره ولهاه، وساقته وأولاه، وهَضُنَّا بجملتنا من محلتنا... ووصلوا إلى مقدمتنا وكان هناك القائد أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي زَنْغِي مع جماعة، فصددهم العدوُّ بصدورِ غِرَّةٍ وقلوبِ أشرَّة... وتقهقر القائد أبو عبد الله غير مُؤَلِّ، وتراجع غير مُخَلِّ إلى أن اشتدَّ منا بطُود، وزَّحَمَ من جيشنا بعود. فتراءى الجمعان... وبرزت السيوف عن الأعماد... فبرز فارس من العرب، فطعن فارساً منهم فأذراه من مركبه، ورماه بين يدي موكبه... فعند ذلك اختلطت الخيل، بل سال السيل، وأظلم الليل، واعتنقت الفرسان، واندقت الخرسان، ودجا ليل القتام، وضاق مجال الجيش اللهم، واختلط الحسام بالأجسام، والأرماح بالأشباح، ودارت رحي الحرب تغر بنكالها، وثارَت ثائرة الطَّعْنِ والضَّرْبِ تفتك بأبطالها... فما وضع النهار، ولا مَسَحَ الغبار حتَّى خضعت منهم الرِّقاب، وقبلت رؤوسهم التُّراب... ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلا أقلُّهم... وملئت الأيدي بنيلٍ وافي الكيل، خيلاً وبغلاً وسلاحاً ومالاً، ودروعاً... ثمَّ أمرت بجمع الرؤوس، فاحتيزت الدانية وزهد في جمع النائية، فكان مبلغها نيِّقاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أَرْدُونش والقومط وقواد بلاد طليطلة وأكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم، فكانت كالهضب الجسيم، بل الطَّودِ العظيم، وأدَّنَ عليها المؤدِّنون، يوحدون الله ويكبرون، فلما جاء نصر الله... شكرنا مولى النعم ومُسديها، ومُعيد المنن ومُهديها، وصدرت غانماً، وأبت سالماً، وبقي القائدان محاصرين لحصن أفلش، آخذين بمخنتهم، ومستولين على رمقهم.

فخاطبت أمير المسلمين... معلماً بالأمر، مهنيًا بالنصر، فلنحمد الله عزَّ وجلَّ على ما وهب... فهو وليُّ الامتنان، والمليُّ بالفضل والإحسان، لا رب غيره ولا معبود سواه.

1- نص الرسالة كاملاً. (انظر: ميراندا أمبروسيو هويثي، وقعة أقليم ومصرع الأمير ضون شانجه، ص 125 وما بعدها عدّة صفحات ؛ عنان، عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية، ص 533 وما بعدها ؛ حسين مؤنس، الثغر الأعلى الأندلسي، ص 35 وما بعدها).

2- الرسالة في الأصل من تأليف الوزير الكاتب ابن شرف على لسان الأمير تميم بن يوسف والي غرناطة والقائد العام للجيوش المرابطية في الأندلس بعثها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف عقب انتصار المسلمين في معركة أقليم، حيث تُلخص هذه الرسالة وقائع المعركة، وكيف استطاع المرابطون تحقيق النصر. وقد جاءت الرسالة في المراجع الحديثة بعنوان: "رسالة كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله في فتح أقليم أعادها الله بقدرته". واخترت العنوان المدون أعلاه لكي أزيل اللبس وأبين المصدر الحقيقي للرسالة ولمن أرسلت، والغرض منها.

3- العشر الأواخر من شهر رمضان عام 501هـ الموافق للعشر الأوائل من شهر ماي عام 1108م.



المحاولات الإصلاحية للأخوين جراكوس وانعكاساتها على الأوضاع العامة  
لجمهورية الرومانية (133-121 ق م).

أ. عمر بوصبيح جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

**The Reform Attempts of the brothers Gracchus  
and their Impacts on the General circumstances  
of the Roman Republic (133-121 BC).**

**P. Amor Bousbia**

ملخص:

إن استفرد الطبقة الارستقراطية في روما منذ بداية العصر الجمهوري كان له آثار سلبية عديدة على أوضاع العاصمة روما بصفة خاصة، وجميع مناطق نفوذها بصفة عامة. وتمثلت تلك الآثار في تهميش الفئات الأخرى للمجتمع الروماني وتحديد طبقتي العامة، وكذلك سكان المدن الإيطالية الذين كان يطلق عليهم تسمية اللاتين أو الحلفاء والذين كانت روما ترى أنهم رعايا يعيشون في كنفها وليسوا مواطنين مساوين للرومان في الحقوق المدنية. غير أنه من رحم طبقة النبلاء نفسها ظهرت دعوات لإصلاح هذه الأوضاع خلال النصف الثاني من القرن الثاني ق م. تزعم هذه الحركة الإصلاحية في البداية تيريروس جراكوس Gracchus Tiberius سنة 133 ق م الذي انتخب

تربينا Tribun للعامّة في هذه السنة، وكذلك أخوه كايوس جواكوس Caius Gracchus الذي وصل الى منصب التربيونية سنة 122 ق م. وفي حقيقة الأمر فإن الأخطاء القانونية أو الدستورية التي ارتكبتها الاخوان جراكوس في البداية وانتهازية الطبقة العامّة وكذلك سكان إيطاليا، جعلت مجلس الشيوخ وبالتعاون مع النبلاء وأثرياء روما يجهدون هذه الحركات الإصلاحية ويتخلصون من زعمائها في نهاية الأمر. نتيجة لذلك ازدادت الأوضاع في الجمهورية الرومانية سوء مما أدى بعد ذلك الى خوض الرومان حروباً فيها بينهم عرفت في التاريخ القديم بالحروب الأهلية الرومانية.

### **The abstract:**

The self-handing despotism of the aristocratic class in Rome since the beginning of the republican era has had many negative effects on the situation of the capital, in particular, and of all its obedience's in general. These affects illustrated in the marginalization of the other categorys of Roman society, namely the public class, as well as the Italian city dwellers, who were known as Latin or Allies, who are considered by Rome as citizens living and not equal of the Romans in civil rights. However, from the womb of the noble class itself many reform calls had appeared to reform these conditions during the second



half of the second century BC. This reform movement was initially led by Tiberius Gracchus (133 BC), who was elected as a Tribune that year, as well as his brother Caius Gracchus, who had reached to tribune ship the year 122 BC. Indeed the legal or constitutional errors which were committed by the Brothers Gracchus at the outset, and the opportunism of the public class, as well as the inhabitants of Italy made the Senate in cooperation with the noblemen and the rich of Rome abort these reform movements and eventually dislodge their leaders. Consequently, the circumstances in the Roman Republic was getting worse and worse , leading at the end to many wars among the Romans, which known in ancient history as the civil wars .

#### مقدمة:

حين تخلص الرومان من الملكية نهاية القرن السادس ق م أقروا لأنفسهم نظاما سياسيا جديدا عرف بالنظام الجمهوري، استطاعوا من خلاله ضبط أمور دولتهم الداخلية والتوسع في شبه جزيرة إيطاليا وخارجها في عدة مناطق في حوض البحر المتوسط. غير أن هذه النجاحات الخارجية لم تعكس تماسكا في الجبهة الداخلية على الأقل إلى غاية الثلث الأخير من القرن الثاني ق م حين ازداد الشرخ اتساعا بين طبقات المجتمع الروماني، وذلك من خلال تفرد طبقة الارستقراطيين، التي كان أفرادها يسيطرون على مجلس الشيوخ أو السيناتو،

بإدارة شؤون الدولة واستئثارها بخيراتها من خلال احتكار بعض الاسر النبيلة لمنصب القنصلية وتداوله فيما بينها.

ورغم اشتراك طبقة الفرسان، وهي الطبقة التي تلي النبلاء، في العديد من شؤون الحكم كونها تتكون من رجال أعمال أغنياء زاد في ثرائهم تقلدهم لمراتب ومناصب عليا في الدولة، إلا أن طبقة العامة ظلت طوال هذه المدة، التي اتسعت فيها رقعة الجمهورية الرومانية، المتضرر الأكبر من بين فئات المجتمع الروماني. فإذا كان الارستقراطيون والفرسان قد استفادوا من الحروب والتوسعات الخارجية على حساب الشعوب المجاورة، من خلال الاستحواذ على المزيد من الأراضي والحقول، فإن طبقة العوام من الرومان وكذا سكان المدن الإيطالية بمختلف أطرافهم لم يكونوا سوى وقودا لهذه الحروب ويمكن القول أنهم تضرروا منها أكثر مما انتفعوا، وذلك من خلال عدم قدرتهم على استئناف العمل في حقولهم وبساتينهم بعد عودتهم من جولات الحرب التي تدوم أحيانا موسمين متتاليين، وبذلك صار العوام غير قادرين على التكفل بمتطلبات خدمة الأرض مما يضطرهم في الكثير من الأحيان لبيعها للأرستقراطيين والتوجه من الأرياف الى العاصمة روما ليزيدوا من عدد البطالين فيها.

وإزاء هذه الوضعية التي كانت تدفع الرومان شيئا فشيئا نحو الانقسام والتصادم، ظهر بعض المنادين بالتغيير عن طريق طرح مشاريع إصلاحية ذات صبغة اقتصادية، لكنها لا تخلوا من إضافات سياسية، والغريب في الامر أن

هؤلاء المصلحين خرجوا من طبقة النبلاء نفسها فطرح المشروع الأول سنة 133 ق م من طرف تيبيريوس جراكوس أما المشروع الثاني فطرحه أخوه كايوس جراكوس سنة 122 ق م. ومن هنا ارتأينا إلى طرح التساؤلات التالية: فيما تمثل مضمون هذه المشاريع؟ وما الخطوات القانونية التي اتبعتها أصحابها من أجل إقرارها وتثبيتها؟ وما موقف طبقات المجتمع الروماني المختلفة منها؟ وما كان مصيرها ومصير أصحابها؟ وكيف أصبح حال الرومان بعد فترة محاولات الإصلاح هذه؟

### تيبيريوس جراكوس ومشروعه الإصلاحي.

لم تكن تلك الأوضاع التي آلت إليها الجمهورية تروق للكثير من الرومان من الطبقة العامة، بل وحتى قسما من طبقة النبلاء أنفسهم الذين أدركوا وببصيرة حادة أن هذا المسار سيؤدي حتما بالأمة الرومانية إلى التدهور وإضطراب الأوضاع والحروب الأهلية وهو ما وقع فعلا. وبذلك انقسم النبلاء إلى فريقين، فريق من المحافظين (Optimates) وهو الفريق الممسك بزمام الأمور في السيناتو والواقف دوما في وجه أي إصلاح لصالح الطبقة العامة والشعب الروماني عموما، وفريق آخر من الشعبيين (Populares) يدعو إلى إصلاح الأوضاع قبل إستفحالها<sup>1</sup>.

وظهر الصراع جليا بين هذين الفريقين سنة 133 ق م حين طرح تيبيريوس جراكوس (Tiberius Sempronius Gracchus)<sup>2</sup> الذي كان يشغل منصب تريون\* العامة لتلك السنة مشروعا لحل مشكلة الأراضي من خلال تحديد مساحة

الأرض المملوكة لكل شخص وتوزيع الفوائد منها في الأرياف الإيطالية على صغار الفلاحين بغرض إعادة بناء الطبقة الوسطى التي تآكلت جراء الحروب واستغلال الملاك الكبار من الأرستقراطيين لظروف الحرب وأخذ أجزاء كبيرة من الأرض لصالحهم.

إن الحقيقة التي استطاع تيبيريوس جراكوس ومن يسانده من طبقة النبلاء التوصل إليها هي أن تزايد أملاك الأثرياء كان له آثار سلبية على المجتمع الروماني من جميع النواحي، فالأغنياء إستعملوا لخدمة تلك الأراضي العبيد كوظائف غير ملزمين بأداء الخدمة العسكرية، وكان تزايد عدد العبيد في تلك البساتين على حساب عدد الأحرار الذين فقدوا أملاكهم ولم يعد لهم أي شغل بعد أداء الخدمة العسكرية سوى الفراغ والبطالة. وبذلك كانت النتيجة هي تضائل عدد الأحرار الذين يمثلون عمود الجيش الروماني وهو الخطر الأول، وكذلك زيادة عدد العبيد الذي سبب فيما بعد مشاكل للرومان حين ثاروا على أسيادهم مثل ما حدث في صقلية.<sup>3</sup>

لم يكن تيبيريوس جراكوس صاحب مشروع الأرض هو أول من نادى به ولكن هناك من سبقه إليه من الرومان، فأبيانوس يقول إن بعض المحامين وجدوا صعوبات في تمرير هذا القانون الذي يمنع أي مواطن من تملك أرض تتجاوز مساحتها 500 يوجيرا ولا عددا من الماشية يفوق 100 رأس من الكبيرة و500 رأس من الصغيرة، كما يلزم هذا القانون الملاك بإستعمال عدد محدد من الأحرار.<sup>4</sup> أما بلوتارخوس (Plutarque) فيتحدث عن مخاوف ساورت كايوس لوليوس (Caius Lulius) صديق سيكيبو (Publius Cornelius Scipion) من ثورات وتمردات جراء كثرة عدد العبيد في

إيطاليا الذين يستعملهم الأثرياء، وعزوف الإيطاليين الأحرار عن إنجاب الأولاد مخافة تكاليف نفقتهم<sup>5</sup>. لكنه على ما يبدو فإن تيبيريوس جراكوس كان أكثر إصرارا وحزما ممن سبقوه في عرض هذا المشروع، وأن الظروف قد تهيأت له لتمرير مشروعه عن طريق التصويت في المجالس الشعبية لأن المشهد صار في إيطاليا مشحونا إلى أبعد الحدود بعد إلقاء تيبيريوس جراكوس لخطاب أمام الشعب أثناء حفل تنصيبه كترينون للعام سنة 133 ق.م، حيث أثنى على كل شعب إيطاليا الذي أوضح أنه تربطه بسكان روما أوأصر قربي، وأن هذا الشعب قدم خدمات كثيرة للجيش الروماني أثناء حملاته العسكرية، هذا الشعب صار حسبه في وضعية بؤس قد تؤدي به إلى الهلاك، ووضعيته تلك تزداد سوء دون أن يرى بصيص أمل في ظروف أحسن<sup>6</sup>.

لم يتوان جراكوس في خطابه هذا في تحديد القانون الذي يلزم كل مواطن أن لا يملك أكثر من 500 يوجيرة، ونصف تلك المساحة لكل ابن من أبنائه شريطة ألا تتجاوز ملكية العائلة 1000 يوجيرة وهو ما يعادل مساحة 250 هكتار، وحدد عدد الرؤوس الكبيرة التي يمكن أن يملكها أي مواطن، وكذلك الرؤوس الصغيرة كما جاءت في مشاريع من سبقه مع إلزام المالكين باستعمال عدد من العمال الأحرار<sup>7</sup>. وأضاف تيبيريوس إلى التدابير القديمة أن ثلاثة من المواطنين يعينون كل سنة من أجل توزيع الأراضي على المواطنين في حين أن إسترجاع القطع الزائدة من أملاك الأثرياء سيكفلها القانون<sup>8</sup>.

لقد اختلف مؤرخو سياسة الرومان في تحليل خطاب تيبيريوس ومن ثم تقييم شخصيته، ففي الوقت الذي صوره أبيانوس كوطني إيطالي حريص على بقاء طبقة الجنود،

أعطاه بلوتارخوس صورة الديماغوجي الذي يريد تهييج العامة، أما السياسي شيشرون (Cicéron) فقد وصف هذا الخطاب بالرائق والرصين<sup>9</sup>.

لم يكن الطريق معبدا لتمرير هذا القانون، فأول عقبة واجهت التصويت عليه هو اعتراض زميل تيبيريوس في التربيونية وهو ماركوس أكتافيوس (Marcus Octavius)، ولا يمكننا الجزم بسبب هذا الإعتراض والإصرار عليه فهناك من ذهب إلى أنه بتحريض من كبار أعضاء السيناتو،<sup>10</sup> وهناك من أورد أن أكتافيوس نفسه كان من ذوي الأملاك الكبيرة،<sup>11</sup> فهو بذلك أول المتضررين من إصدار هذا القانون. وحين عجز تيبيريوس جراكوس عن إقناع زميله عن العدول عن اعتراضه وجه تصويت القبائل إلى خلع زميله من منصبه وفي كل مرة يتم فيها تصويت إحدى القبائل الخمسة والثلاثين كان جراكوس يعود إليه ويترجاه العدول عن رأيه إلى أن صوتوا بالأغلبية على خلعه<sup>12</sup>.

أُنتخب كانتوس مومينوس (Quintus Memmius) بديلا لأكتافيوس ووافقت بعد ذلك الجمعية القبلية على مشروع تيبيريوس وأصبح قانونا يعرف بإسم سمبرونيوس الخاص بالأراضي (Lex Sempronia agraria).<sup>13</sup> وبذلك نجح جراكوس في تمرير قانونه بغض النظر عن الإجراء الذي قام به والخاص بخلع زميله من الناحية الدستورية، فهناك من ذهب إلى أنه إجراء غير دستوري لكون القناصل والمحامين والمنتخبين للوظائف في جهاز الدولة لا يمكن لأحد أن يعزلهم حتى الجمعية التي انتخبتهم قبل انتهاء عهدتهم، إلا إذا إستقالوا طواعية، ويمكن للدولة أن تحاسبهم بعد إنتهاء مدتهم القانونية<sup>14</sup>.

كان أمام تيبيريوس جراكوس بعد إستصدار القانون وتميره في الجمعية القبلية تحديين إثنين وهما: من يقوم بتنفيذه والوقوف على تطبيقه؟ وكيف يتمكن من تمويل التكاليف المترتبة عن تطبيقه؟ ، لكن إصرار تيبيريوس وتحمسه لقانونه ومُضَيِّه إلى الأمام والتفاف العامة من حوله جعله يقوم بتعيين نفسه وأخيه كايوس جراكوس (Caius Gracchus) وصهره أبيوس كلوديوس (Appius Claudius) أعضاءً للجنة الثلاثية المنوط بها تنفيذ بنود القانون من حيث إنتزاع الأراضي الزائدة عن المقدار المحدد وتوزيعها على مواطني الطبقة العامة.<sup>15</sup>

أما بالنسبة للتحدي الثاني ، وأمام رفض السيناتو تمويل المشروع كدعم الملاك الصغار الجدد بالماشية وما يحتاجونه من أدوات للزراعة، وتزامن ذلك مع موت أتالوس الثالث (Attalus III) ملك برغام (Pergame) و كانت وصيته أن تؤول إلى روما مملكته وكنوزه<sup>16</sup> ، فقرر حينها تيبيريوس إستغلال الفرصة وقام بإستصدار قرار شعبي يعنى بتخصيص جزء من هذه التركة التي أوصى بها أتالوس الثالث للشعب الروماني لدعم الفلاحين الصغار رغم أن هذا العمل كان من صلاحيات السيناتو منذ أمد بعيد. ويكون بذلك تيبيريوس قد تدخل في الإشراف على أموال الدولة والشؤون الخارجية لها<sup>17</sup> .

لقد بلغ تيبيريوس جراكوس هدفه من خلال تمرير القانون وتعيين اللجنة الثلاثية التي ستسهر على تطبيقه وكذلك الإعتمادات المالية المخصصة له، لكن سلاح الوقت لم يكن في صالحه فمدة تربيونيته لن تدوم طويلا وهي في أقصى الحالات لن تتجاوز السنة كما هو النظام المعمول في روما سواء بالنسبة للقناصل أو الترابنة. ولذلك فقد قرر

خصومه الذين لم يستطيعوا الوقوف صراحه ضد طموحات الشعب، محاربتة في إطار ما يسمح به الدستور، وعزموا أمرهم على عدم إعادة انتخابه مرة أخرى خاصة و أن المواطنين الذين جاؤوا من الأرياف وصوتوا على قانونه سيكونون مشغولين بالعمل في أراضيهم، لأن الانتخابات لرتريونية سنة 132 ق م ستكون في فصل الصيف وهو فصل الحصاد ولا يمكن لهؤلاء الفلاحين العودة إلى روما من جديد والتصويت لصالح التجديد لتيريوس جراكوس.<sup>18</sup> هذا الأخير الذي قرر ترشيح نفسه لتولي تلك الوظيفة ثانية من أجل إستكمال تنفيذ القانون وكذلك من أجل حماية نفسه من المتابعات بعد إنتهاء مدته وسقوط الحصانة عنه<sup>19</sup>.

لم يعد أمام تيريوس سوى المضي قدما من أجل الظفر بتريونية عام 132 ق م لحماية نفسه من أي خطر يمكن أن يتعرض له بعد إنتهاء عهده ولذلك سعى لدعوة العامة في روما واحدا واحدا لحضور الجمعية كما يروي ذلك أبيانوس ونجح في حشد ما يكفي يوم الإنتخاب وبدأت القبائل تصوت،<sup>20</sup> لكن الأغنياء العازمين على الوقوف في وجهه إشتكوا أن القوانين لا تسمح بأن يتولى نفس المواطن التريونية مرتين متتاليتين وهو أمر محظور بمقتضى قانون فيليليوس (lex Vallia Annalis) الصادر سنة 180 ق م، ورغم أنه ليس من المؤكد أن هذا القانون كان يقصد به التريونية إلا أنه لم يحدث أن ترشح أحد للتريونية مرتين منذ زمن بعيد. ورغم ذلك نجح الأرستقراطيون في التشويش على الإنتخاب.



بدأت العملية في تل الكابيتول (Capitole) وتأجلت ليوم الغد، وفي اليوم التالي أصّر النبلاء على عدم ترشيح تيبيريوس لنفسه مرة أخرى ونشب خلاف بين ترابنة العامة، وبين من أنحاز إليهم ومن أنحاز إلى تيبيريوس. وفي تلك الأثناء أعطى تيبيريوس إشارة إلى أنصاره أجمع الكثير من المؤرخين على أنها فهمت خطأً منهم على أنه إذن لهم باستخدام العنف، مما أدى إلى وقوع شغب شديد تسبب في مناوشات مما دفع بهروب بعض ترابنة العامة من المجلسة ولحق بهم النبلاء، وانتشرت شائعات تفيد بأن تيبيريوس عزل باقي الترابة وعين نفسه تريونا للعام الموالي دون إنتخابات<sup>21</sup>.

كان السيناتو مجتمعاً في تلك الأثناء في معبد ربة الإيمان (Le temple de Fides) القريب من الكابيتول الذي وقعت فيه الأحداث، ووصل إلى أسمع أعضاء السيناتو ما وقع في جلسة جمعية القبائل مع بعض التهويل من أن جراكوس يطمع في تنصيب نفسه طاغية و طلبوا من القنصل ماسيوس سكاوثيريا (Mucius Scaevola) أن ينقذ الدولة ويقضي على الطاغية، لكنه رفض،<sup>22</sup> وحينها غضب المتطرفون من رجال السيناتو، واندفعوا في عدد كبير من أتباعهم وعبيدهم على رأسهم كورينولوس سكيبيو نازيكا<sup>23</sup> (Cornelius Scipion Nasica) الكاهن الأكبر والقنصل السابق إلى الكابيتول لإنقاذ الوطن حسب زعمهم.<sup>24</sup> وهاجموا تيبيريوس وأنصاره الذين فر فريق منهم أثناء الشغب الذي وقع قبل مجيء أعضاء السيناتو وفريق آخر فر خوفاً من رهبة الكاهن الأكبر والجمع الغفير الذي جاء معه مما سهل لسكيبيو نازيكا ومن معه التغلب على تيبيريوس وأنصاره وصرعهم عند باب معبد جويتير أو

الكابيتول بالقرب من تماثيل ملوك روما القدماء، ثم ألقوا بجثث القتلى في نهر التبر<sup>25</sup> ( le Tibre ).

### كايوس جراكوس وإعادة بعث مشاريع الإصلاح.

لم يعد السيناتو ومن يمثله من النبلاء والعوام في روما اللاعبان الوحيدان في المشهد السياسي فقد دخل على الخط لاعبان آخران مهمان وهما الحلفاء اللاتين والمجتمعات اللاتينية الحليفية وكذلك طبقة الفرسان التي كان لها دور فعال في الفترة التي تلت موت تيبيريوس. أما الحلفاء اللاتين فإن قوانين الإصلاح الزراعي الصارمة قد أزعجتهم كونهم كانوا يحوزون أراضي شاسعة منحهم إياها الرومان ليستغلوها حسب حاجتهم بشرط دفع إيجار عنها للدولة الرومانية، وبعد إنتصار الرومان على تلك المجتمعات اللاتينية ومنحهم صفة الحلفاء سمحوا لهم بالمشاركة فرادى في استغلال الأرض العامة وشيئا فشيئا أصبح الكثير من الحلفاء اللاتين والإيطاليين من بين أرباب الحياة<sup>26</sup>.

وبما أن هؤلاء الحلفاء كانوا أصلا مستاءين من معاملة روما لهم كونها استغلتهم ولفترات طويلة في حروبها ولم تمنحهم حق المواطنة، والذي يترتب عنه حق التصويت والتظلم إذا إقتضى الأمر. و بما أن أمر التحقيق في الملكيات التي يحوزونها سيوكل لثلاثة من الرومان بعد إستبدال تيبيريوس جراكوس وصهره كلوديوس أبيوس بكل من ماركوس فيلقوس فلاكوس ( M.Fulvius Flaccus ) وكايوس بابيريوس كاربو (C.Papirius Carbo) وبقي العضو الثالث كايوس جراكوس شقيق تيبيريوس. وبذلك هرع الكثير من الحلفاء اللاتين إلى روما لطرح شكواهم على السيناتو وهم واثقين

من تأييده لهم كون هذا المجلس يبحث عن سبب لإفشال مشروع الإصلاح ذاك، وبما أن مصالح اللاتين تقاطعت مع مصالح النبلاء فاللاتين كانوا يخشون أن تنتزع منهم أراضيهم وتمنح للمواطنين الرومان بمقتضى قانون جراكوس ، والنبلاء كانوا يبحثون عن مبرر قوي يُكفِّهُم من تعطيل هذا المشروع خاصة وأنهم لم يستطيعوا تعطيله لعدم هدوء الطبقة العامة بعدما فعلوه بتيبيريوس وأنصاره، وبذلك وجدوا الذريعة لحرمان اللجنة الثلاثية من سلطاتها القضائية وإسنادها إلى أحد قنصلي سنة 129 ق م وهو كايوس سمبرونيوس توديتانوس (C.Sempronius Tuditanus) الذي ما لبث أن قاد حملة تأديبية على إستريا (Istrie)<sup>27</sup> و بذلك تعطلت اللجنة الثلاثية ولم تَرَ النور إلى سنة 123 ق م بعد إنتخاب كايوس جراكوس نقيبا للعامة<sup>28</sup> .

أما الطرف الثاني الذي إخترق المشهد السياسي وبقوة فهو طبقة الفرسان المكونة من ملاك الأراضي الأثرياء ورجال الأعمال، وكان الحد الأدنى لثروة الواحد منهم 400,000 سسترتيوس\* (Sestertius) ، هذه الطبقة التي كانت تطمح في أداء دور منافس لدور رجال السيناتو من النبلاء والتي ظلت تبحث عن فرصة لتتموقع في هرم السلطة الرومانية إلى أن لاحت لها تلك الفرصة حين عاد حاكم ولاية آسيا سنة 126 ق م وأقيمت عليه دعوى إبتزاز، لكن محكمة إسترداد الأموال المشكلة من محلفين من طبقة النبلاء ورجال السيناتو برأته من التهمة رغم ثبوت رشوته ، الأمر الذي دعى الفرسان إلى تأييد ترشح فيلثيوس فلاكوس (وهو صديق تيبيريوس) إلى القنصلية سنة 125 ق م فكانت الإنطلاقة من جديد لمعارضى السيناتو والذين لم يتخلوا على

حلفائهم من طبقة الفرسان، وتمثل ذلك في منحهم عضوية محكمة الإبتزاز وتكليفهم بجمع الضرائب في الولايات بعد ذلك، مما زاد من قوة وثراء تلك الطبقة<sup>29</sup>.

فاز فيلثيوس فلاكوس، والذي سبق و أن أشرنا أنه أحد أعضاء اللجنة الثلاثية لتطبيق القانون الزراعي، بالقتضية سنة 125 ق م وتقدم بمشروع يمنح من خلاله الجنسية الرومانية وحق المواطنة لللاتين والإيطاليين ومنح من لا يرغب منهم في الإندماج حق التظلم من أحكام المندوبين الرومان، وحسب ما أشار إليه أبيانوس فإن حق المواطنة كان بالنسبة للحلفاء اللاتين أهم من القطع الأرضية التي كانوا يملكونها وأنهم مستعدون للتنازل عنها مقابل هذا الحق<sup>30</sup>. غير أن المشروع لم يلقَ تأييدا من قبل السيناتو الذي رفض أن يرفع أشخاصا كان يراهم رعايا له إلى درجة مواطنين رومان، وكذلك من قبل طبقة العوام التي لم تكن تريد للإيطاليين والحلفاء مشاركتها فيما تملك من حق التصويت وما سيعود عليها من حق تملك الأراضي.

لم يلبث فيلثيوس فلاكوس أن رحل إلى جنوب غالة للدفاع عن ماسيليا (Massilia) من هجمات قبائل السالوفي (Salluvi)<sup>31</sup>. وقبل أن تنتهي سنة 125 ق م حتى ظهر رد فعل الحلفاء اللاتين الذي تمثل في ثورة فرجلاي (Fregellae) وهي إحدى المستعمرات الرومانية الكبيرة ولكن روما سرعان ما قضت على ذلك التمرد وأخمدته<sup>32</sup>.

في سنة 124 ق م كان كايوس جراكوس قد عاد من مهمة بروكيستر (Proquesteur) في سردينيا (Sardaigne)<sup>33</sup> والتي ذهب إليها منذ ثلاث

سنوات برفقة القنصل أوريستاس (Orestès)، وحسب رواية بلوتارخوس فإن تلك البعثة لم تكن بادئ الأمر تروق لكايوس لكنه وجد فيها فرصة لصقل مواهبه العسكرية وتعويد نفسه على الصعاب والشدائد، وكذلك الإبتعاد عن الجو القاتم الذي كان يسود روما بعد مقتل أخيه تيبيريوس، وكانت في نفس الوقت فرصة لأعدائه الأرسقراطيين لإبعاده عن الأحداث الدائرة في العاصمة خاصة وأنه لا يزال عضوا في اللجنة الثلاثية التي عينت سابقا، وكذلك إبعاده عن صاحبه فيلثيوس فلاكوس الذي تولى القنصلية سنة 125 ق م وتم إرساله هو الآخر إلى ماسيليا.<sup>34</sup>

كانت قد ظهرت على كايوس جراكوس قبل الذهاب إلى سردينيا قدرات خطابية أظهرها في مرافعات دافع بها عن أصدقائه أمام محاكم الشعب وخاصة صديقه ثقيتيوس (Vettius) مما أثار إعجاب الجمهور به وخشية الأغنياء من ترشحه للتربونية وإزعاجهم من جديد.<sup>35</sup>

وعلى كل حال فإن كايوس قد إستفاد من تلك الرحلة سواء على الصعيد الشخصي أو على الصعيد السياسي، فقد أثبت هناك تفوقا على أقرانه من الشباب في الشجاعة والإقدام والتواضع لمن هم أقل منه مرتبة، فظفر بحب الجنود الذين كانوا من المواطنين الرومان واللاتين. فلم يكن من أولئك الذين يلهثون وراء المال والنهب في حروب الرومان، فهو من قال على نفسه عقب عودته من سردينيا: >> أنا الوحيد في الجيش الذي ذهب وجيبه مليء وعاد وجيبه فارغ، في حين أن كل الآخرين وبعدهم أفرغوا ما لديهم عادوا بجيوب مليئة بالذهب والفضة<sup>36</sup> <<. فاز كايوس من خلال هذه

البعثة بحب مواطنيه الرومان وكذا من كانوا معه من الإيطاليين اللاتين، وعاد إلى روما دون رخصة مما عرضه للمحاكمة، غير أنه استطاع الدفاع عن نفسه مستدلا بأنه خدم في الجيش إثنا عشر سنة كاملة بدلا من عشر سنوات وهي المدة التي ينص عليها القانون<sup>37</sup>

كما أنه استطاع الدفاع عن نفسه من التهمة التي لُقِّت له من خلال إثارة شعب فرجلاي اللاتين على روما، ودحض كل التهم الموجهة إليه والشكوك التي حيكت ضده، ثم تقدم في أواخر سنة 124 ق م للترشح للتريبونوية حيث عارضه النبلاء لكن الجموع التي جاءت من كل إيطاليا لنتخبه استطاعت ترجيح كفته، وغصت ساحة مارس (Champ de Mars) بهم وكل ما استطاع السناتو فعله هو إعلان فوزه في المرتبة الرابعة بين ترابنته ذلك العام رغم أنه كان جديرا بالمرتبة الأولى<sup>38</sup>.

رغم سماحة خلقه وميله إلى التواضع والتسامح إلا أن كايوس لم يستطع أن ينسى مقتل أخيه تيبيريوس بتلك الطريقة الوحشية، وطرح في خطابه الأول بعد إنتخابه مشروع قانونين لا يخلوان من روح الإنتقام، ينص الأول على أن كل نقيب للعامه يقال من منصبه من طرف الشعب لا يمكنه أن يشغل بعد ذلك أي منصب حكومي، أما الثاني فينص على أن كل قنصل أو نقيب يعاقب مواطن روماني دون إعطائه حق التظلم أمام محاكم الشعب يحال إلى المحاكمه وكان يقصد بالقانون الأول أكتافيوس الذي عزله أخوه تيبيريوس جراكوس وبالقانون الثاني بوبيليوس (Popilius) الذي كان بريطورا وأثناء بريطوريته عاقب ونفى أصدقاء تيبيريوس. و دون إنتظار المحاكمة رحل

بوييليوس من إيطاليا ، أما بالنسبة لأكتافيوس فقد تراجع كايوس عن ذلك القانون وسحبه نزولا عند رغبة والدته كورنيلي (Cornélie) بالعفو عن أكتافيوس وتقبل الشعب بفرح ذلك العفو <sup>39</sup> .

خلال تربيونته لسنة 123 ق م قام كايوس جراكوس بإقتراح وسن عدة قوانين تركزت أهمها في مواضيع ثلاث: التموين بالقمح، القانون الزراعي وإصلاح القضاء. ففي ما يخص التموين بالقمح، فقد ذكر أبيانوس أن كايوس سن قانونا يتلقى بموجبه كل فرد من العامة شهريا وعلى حساب الخزينة العمومية مقدارا من القمح كنوع من الهبة إلى أجل غير محدد. <sup>40</sup> أما بقية المصادر مثل بلوتارخوس وغيره فقد أجمعت على أنه سن قانونا يحدد سعراً منخفضاً للقمح الذي يعطى ويوزع على الفقراء، وعُرف ذلك القانون بقانون الغلال، حيث أن سعر القمح كان مضطربا في روما بسبب المضاربة والتلاعب فأراد كايوس أن يعمل على إستقرار سعر القمح وتمكين السواد الأعظم من دهاء روما من الحصول عليه، وذلك بتكليف الدولة بدفع الفارق في السعر مهما زاد <sup>41</sup> . وقد إستوحى كايوس هذه الفكرة من المبادئ العامة المسلّم بها في المدن الهيلينستية القديمة كأثينا (Athènes) في القرن الخامس ق م والأسكندرية تحت حكم البطالمة حيث كانت الدولة مسؤولة عن رفاهية الفقراء من المواطنين <sup>42</sup> . وإستكمالا لمشروع الغلال هذا حرص كايوس على بناء مخازن على شكل صوامع لتخزين المحصول من القمح فاسحا الطريق لتشغيل عدد كبير من العاملين لبناء تلك الصوامع.

أما فيما يخص الإصلاح الزراعي فقد إستصدر قانونا يُعنى بإنشاء عدد من المستعمرات في إيطاليا وتوزيع أراضي تلك المستعمرات التي كانت تعود أصلا للدولة على المواطنين الفقراء الذين تم إرسالهم إلى هناك<sup>43</sup>، ومن المستعمرات التي يرجح أنه قام بتأسيسها إثنان هما نبتونيا (Neptunia) بالقرب من تارنتوم (Tarentum) ومينيرفيا (Minervia) بالقرب من سكيلاكيوم (Scylacium) كما يُرجح أيضا أنه أختير لتعمير تلك المستوطنات إلى جانب الفقراء من الرومان مواطنون آخرون من ذوي رأس المال لتنشيط الصناعة والتجارة هناك<sup>44</sup>.

وتتممة للإصلاح في المجال الزراعي فقد إستصدر كايوس قانونا يقضي بإنشاء شبكة من الطرق الريفية في مختلف أنحاء إيطاليا، بالإضافة إلى تحسين الطرق الريفية القديمة. وقد أسهم بلوتارخوس في شرح وإعطاء مواصفات تلك الطرق التي أولاهها كايوس عناية كبيرة، وخلال إنشاء تلك المسالك وبناء مخازن الغلال وقف كايوس شخصيا على متابعة الأعمال ومسايرتها بشكل رائع، وكان إعجاب الشعب يزداد به وهو يراه محاطا بالمقاولين والحرفيين والسفراء والموظفين الحكوميين وحتى الجنود و رجال الأدب، وكان يكلمهم بهدوء دون أن ينقص ذلك من قيمته في شيء وهو يخاطب كلا منهم بخطاب يتناسب ومستواه، وبلغه يفهمها الجميع<sup>45</sup>.

أما فيما يخص الجانب القضائي فيروي أبيانوس أنه من أجل استمالة فئة الفرسان، أعطاهم وظائف قضائية كانت للنبلاء الذين غرقوا في الأعمال المخزية والشائنة من خلال إخضاع وظائفهم للبيع والشراء<sup>46</sup>، في إشارة إلى حادثة تبرئة حاكم آسيا من



تهمة الرشوة سنة 126 ق م رغم توافر الأدلة التي تدينه ، وبذلك تحولت السلطة القضائية العليا من النبلاء و أعضاء مجلس الشيوخ لصالح الشعب ولصالح طبقة الفرسان ، هذا بالإضافة إلى أنه خص أفراد طبقة الفرسان بجمع الضرائب في مقاطعة آسيا التي أنشأت إثر الثورة التي تلت وفاة ملكها أتالوس.<sup>47</sup> ويذكر كذلك بلوتارخوس أنه أضاف إلى عدد الشيوخ الثلاثمائة الذين يشغلون مناصب قضاة في المحاكم الرومانية عدداً مُماثلاً من الفرسان الرومان<sup>48</sup> ، وبذلك أصبح لطبقة الفرسان كيانا قويا تنافس به النبلاء ومع تحالفها مع محامي الشعب أصبح وضع الشيوخ محرّجا .

وقبل أن نسترسل فيما قام به كايوس من أعمال، يمكننا أن نطرح تساؤلات عن تلك الإنجازات التي قام بها وما سنّة من قوانين، هل كانت تصب في صالح مشاريعه الإصلاحية؟ أم على العكس كانت ضد ما كان يريده ويطمح إليه؟

أما القمح الذي حدد كايوس سعره وخصه بدعم الخزينة لصالح الفقراء من مواطني روما، والذي كان يرمي من خلاله إلى تثبيت قدميه وزيادة شعبيته بين عامة روما، وفي نفس الوقت يضعف العلاقة بينهم وبين الإرسقراطيين<sup>49</sup> الذين كان كل واحد منهم يطعم عددا من العامة و يتخذهم سندا له وحرّسا و حماية، فقد أوهن كايوس بذلك من عزائم العامة وأفسد طباعهم وأصبحوا أكثر تواكلا وكسلا وإستهتارا مما شجعهم بعد ذلك على إحداث المزيد من الشعب والفوضى، وهياً الأمر لتصبح الدولة هي التي تأخذ على عاتقها وبصفه كليه إطعام جمهور المدينة . هذا بالإضافة إلى جعل العاصمة روما

مقصدا للكثيرين الذين جاؤوا من الريف فأصبحت الحركة عكس ما يرمي إليه مشروع كايوس الزراعي وكذلك مشروع أخيه تيبيريوس من قبل<sup>50</sup> .

أما فيما يخص المٌضَيِّ في قانون الأرض أو الإصلاح الزراعي من حيث إنشاء المستوطنات في إيطاليا وشق الطرق الفلاحية، فلا شك في أن كايوس جراكوس كان يعمل على تجسيد مشروع مجتمع ينهض بالأمة الرومانية التي أوشك التطاحن بين طبقاتها أن يهلكها وخص بهذا المشروع طبقة العوام التي كانت مستودع الدولة الرومانية من الرجال ، وبالنسبة لكايوس وكذلك لأخيه تيبيريوس فإن المحافظة على تلك الطبقة من العوام يعني المحافظة على الدولة ككل ولكن بُعِدَ النظر وقصرَهُ هو ما لم يتفق فيه كايوس مع تلك الطبقة من عوام روما ومواطنيها وكذلك مع طبقة النبلاء التي ظلت و لأمد طويل تدير شؤون الحكم في روما، فبعد كل ما قدمه كايوس جراكوس للمواطنين الرومان العوام إستطاع السيناتو استقطابهم حيث أنه ما إن قام بالتلويح لهم بمشاريع أكثر إغراء من المشروع الزراعي الذي جاء به هو، حتى تخلوا عنه وتركوه يواجه مصيره وهذا ما سَتُقْضِي إليه الأحداث القادمة .

و بخصوص القضاء وطبقة الفرسان فقد مكن كايوس تلك الطبقة من الإستثمار بسلطة القضاء ليحاصر بذلك الأرستقراطيين النبلاء، و لكنه في الوقت نفسه ومن خلال تكليف أفراد طبقة الفرسان بالإشراف على جمع الضرائب ، وهي طبقة مكونة أصلا من رجال أعمال ذوو رؤوس أموال، فكأنه بذلك يسلمهم على الملاك وأصحاب الضياع والأراضي الزراعية لإبتزازهم ، ولا يمكن لشيء أن يردهم إذا طمعوا في أكثر من حقوقهم

كون سلطة القضاء بيدهم، وهو ما وقع فعلا بعد ذلك حيث إصطدم جباة الضرائب الجشعين من الفرسان مع الولاة الشرفاء الذين لم يرضوا أن يستغل هؤلاء الجباة حاجة الأهالي وتسلط عليهم المزيد من الغرامات كونهم لا يهتمون إلا بإستثمار أموالهم وزيادتها، ومما زاد في تفاقم الوضع هو أن الإصلاحات القضائية التي قام بها كايوس على مستوى محكمته الإبتزاز تمنع أن يخضع مخلصوا تلك المحكمة الذين صاروا من الفرسان للمحاكمة من تهمة الرشوة والفساد، كما كان معمولا به سابقا وهذا ما زاد في تعسف وإستغلال جباة الضرائب كونهم مطمئنين أن الولاة لن يجروؤا على التعرض لهم، إما مخافة الإصطدام بهم أو رغبة في التواطؤ معهم.<sup>51</sup>

زاد تعلق الشعب بكايوس جراكوس من خلال منجزاته وقوانينه إبان تربيونته سنة 123 ق م و أصروا على إنتخابه مرة أخرى وكذلك إنتخاب من رشحه كايوس للقنصلية فانيوس سترابو (Caius Fannius Strabo) في ساحة مارس بأغلبية كبيرة،<sup>52</sup> لكن شيوخ هذه السنة كانوا مستعدين له أيما استعداد و استطاعوا بقوتهم وقوة إغرائهم جذب التربيون ليفيوس دراسوس (Livius Drusus) إلى جانبهم وتحريضه على معارضة مشاريع كايوس، بل وأكثر من ذلك طرح مشاريع براقية من شأنها أن تغوي الشعب وتبعده عن كايوس جراكوس ومشاريعه.<sup>53</sup>

طرح كايوس مشاريع قوانين تقضي بإنشاء مستوطنتين في كل من تارنت (Tarente) وكابو (Capoue) ومنح حق المدنية أو الجنسية للشعب اللاتيني. و كان كايوس يفكر من خلال إعطاء حق التصويت النيابي للحلفاء اللاتين مع منحهم حق

المواطنة في ضمان شعبية كافية<sup>54</sup> لتمريمشاريعه، لكن هذا المطلب لم يرق للسيناتو ولا لمواطني روما من العامة، أما السيناتو فكان لا يرى سببا في رفع من كانوا بالأمس رعايا له إلى درجة مواطنين يتساوون في الحقوق مع الرومان، وأما العامة فكانوا يرون أن اللاتين إذا تحصلوا على حق الجنسية سيصبحون منافسين لهم في الخيرات من الأراضي والمشاريع التي يطرحها كايوس وغيره، وهنا تقاطعت مصالح النبلاء مع مصالح العامة وبدأ حلف كايوس مع العوام ينفك شيئا فشيئا.

بالإضافة إلى ما طرحه كايوس من مشاريع قوانين فرض إيرادا سنويا على حساب الخزينة العمومية و توزيع أراض على الفقراء من المواطنين مما جعل السيناتو يتهمه برشوة الشعب<sup>55</sup>، و طُرح كبدل لمشاريع كايوس عن طريق المحامي ليفيوس دراسوس الذي إعترض على تلك المشاريع، مشروع قانون يقضي بإنشاء 12 مستوطنة في إيطاليا في كل واحدة منها ثلاثة آلاف من الأهالي، كما طرح دراسوس مشروع قانون آخر يمنع من خلاله ضرب الجنود اللاتين بالصولجان، وحضيت هذه المشاريع بقبول قوي من السيناتو ودعم منه، وكذلك بدأت تجد طريقها إلى قلوب العامة من الرومان الذين بدأوا يؤمنون باللموس والأكيد، أي الذي إتفق عليه السيناتو و دراسوس و يتعدون عن مشاريع كايوس التي تلقى معارضة صارمة من دراسوس زميل كايوس في التربونية و بالتالي صارت صعبة المنال والتنفيذ<sup>56</sup>.

كانت السنة الثانية من تريبونية كايوس جراكوس ذات أحداث مختلفة تماما عن سنته الأولى، فبالإضافة إلى بدء تدني شعبيته قُدِّر له أن يتغيب عن روما ليترك الساحة

فارغة لخصمه و ذلك بعد إقترح و سن قانون روبريوس (Rubrius) وهو زميل كايوس في الترونية و بإيعاز منه، ويقضي هذا القانون بتأسيس مستوطنة في قرطاجنة، وكُلِّفَ كايوس جراكوس وزميله فيلفيوس فلاكوس الذي سبق و أن شغل منصب قنصل سنة 125 ق م بالإشراف على تنفيذ المشروع الذي سيخصص لتوطين ستة آلاف من المواطنين الرومان.<sup>57</sup>

إستغل خصوم كايوس غيابه و روجوا عنه الإشاعات والأراجيف يتهمونه فيها بأنه أضاف عددا من المستوطنين من غيرالمواطنين الرومان لسكان تلك المستوطنة، وكذلك ظهور إشارات للشؤم صاحبت إفتتاح تلك المستعمرة الملعونة أصلا عندهم، وأن الرياح العاصفة الصادرة عن غضب الآلهة قد إنتزعت بعض علامات المستوطنة و نزع الذئاب بعضها الآخر.<sup>58</sup>

وما إن عاد كايوس إلى روما بعد حوالي سبعين يوما حتى وجد الأوضاع قد تغيرت وشعبته تدنت إلى الحضيض. وجاء موعد الإنتخابات التريونية لسنة 121 ق م ولم يستطع كايوس الفوز فيها. ومع نهاية سنة 122 ق م وجد كايوس نفسه مواطنا عاديا مجردا من كل حصانة و أنتخب أوبيميوس لوكيوس (Lucius Opimius) وهو أحد رجال الحزب الأرسقراطي كقنصل لسنة 121 ق م والذي كان يمقت كلا من كايوس جراكوس وفيلفيوس فلاكوس و نهجها الإصلاحية . و صار بذلك التحالف وثيقا بين السيناتو و القنصل أوبيميوس ، وأصبح الوضع حرجا بالنسبة لكايوس ومن معه من أنصار إلى درجة التحريض وتوتير الأوضاع بغرض دفع أحدٍ لقتل كايوس أو قتل

فيلقيوس فلاكوس و كان الحادث الحاسم الذي إستفز كلا من كايوس وفيلقيوس هو ما طرحه أحد النقباء وبإيعاز من السيناتو لمشروع يقضي بإلغاء قانون روبريوس الخاص بإنشاء مستعرة قرطاجة.<sup>59</sup> وكما يروي أبيانوس أن كايوس وفلاكوس رفضا إبعادهما عن هذا المشروع مكذبين ما ادعاه السيناتو من إشاعات حول تلك المستوطنة، وانحاز إليهم الشجعان من العامة وذهبوا إلى الكابيتول مزودين بأسلحة وسيوف أين سيجتمعون ويحددون مصير تلك المستعمرة<sup>60</sup>.

أما بلوتارخوس فيضيف أنه في الوقت الذي إجتمع الجميع في الكابيتول في اليوم المقرر لإلغاء مشاريع كايوس جراكوس، كان الجو مشحونا وتجراً أحد مساعدي أوبيميوس يدعى كانتوس أنتيليوس (Quintus Antyllius) على مخاطبة فيلقيوس فلاكوس بلهجة مُشِينَةٍ فيها إحتقار و إزدراء له مما دفع بأنصار كايوس إلى قتله في تلك اللحظة، وهذا ما أعطى الذريعة لأوبيميوس للفتك بعد ذلك بكل من كايوس وفلاكوس وأنصارهما . إجتمع السيناتو في اليوم الموالي وكانت تلك المرة الأولى في تاريخ الجمهورية التي يصدر فيها مجلس الشيوخ قراره الذي عرف بإسم قرار السيناتو النهائي والأخير (consultum ultimum) (Senatus) والذي يعتبر بمثابة إعلان للأحكام العرفية، وهو يفيد بتكليف القنصل باتخاذ ما يراه مناسباً لحماية الدولة من الخطر المحدق بها<sup>61</sup>.

كان الأمر واضحاً جلياً في رغبة السيناتو والقنصل أوبيميوس في التخلص نهائياً من دعاة الإصلاح، كايوس جراكوس وفيلقيوس فلاكوس. قرر فيلقيوس مواجهة وإستعد

للدفاع عن نفسه جامعا من حوله كوكبة معتبرة من الناس فتوجه إلى شمال أبيه ووقف أمامه و كأنه يودعه ثم خرج بعد ذلك إلى بيته و هو يذرف الدمع ويخرج أنفاسا حارة وعميقة، وقضى الكثير من الرومان الليلة قرب بيت كايوس تضامنا معه لكن دون أن يصل هذا التضامن إلى الدفاع عنه والمخاطرة من أجله رغم ما قدمه لهم من مشاريع وإنجازات<sup>62</sup> .

في الصباح خرج فيلقايوس فلاكوس مع أنصاره المسلحين إلى تل الإفتين (Mont Aventin) وتحصن هناك، ولكنه أرسل ولده في طلب الصلح مع أويميموس والسيناتو لكن طلبه رُفضَ وطلب منه المثلول أمام المحاكمة وتسليم نفسه وإنتظارالحكم الذي يصدر في حقه . كما قوبل نفس الطلب الذي تقدم به كايوس بنفس الرد من السيناتو .

سار أويميموس بعدد كبير من المشاة والنبالة لقتال فيلقايوس فلاكوس وتم قتله مع أحد أبنائه وعدد من مناصريه ،أما كايوس جراكوس فلجأ إلى معبد ديان (Diane) مقتنعا بوضع حد لحياته هناك بنفسه، لكن أصدقاؤه حتموا عليه أن يفر و ينجو بنفسه، وسرعان ما وصلت قوة من الجنود الرومان ودهمتهم فهرب كايوس عبر جسر سولبيسيوس (Sublicius) وشغل أصدقاؤه الجنود بالإشتباك معهم إلى أن قُتلوا جميعا . لم يكن مع كايوس غير عبده فيلوكراتاس (Philocratès) الذي كان بصحبته حين دخل غابة مقدسة تسمى غابة حوريات فورينا (Furrinae) أين وضع كايوس حدا لحياته طالبا من عبده فيلوكراتاس قتله فقطله ثم قتل نفسه بعد ذلك<sup>63</sup> .

لم تنته تلك الفضاة عند هذا الحد بل تم رمي جثة كل من كايوس جراكوس و فيلقيوس فلاكوس في نهر التيرمع جثث ثلاثة آلاف من أنصارهما تم قتلهم بأمر من أوبيميوس الذي كان منتشيا بنصره وما قام به من قتل مواطنين دون مصوغ قضائي<sup>64</sup>.

وهكذا خسرت روما رجلا من أنبل رجالها وأسماهم أهدافا وأكثرهم نبوغا وتفوقا، ولكنه ورغم موته استطاع أن يغير المشهد السياسي ولو لفترة وجيزة وبذرا بذور تغيير لم تؤت بشمارها إلا بعد عشرات السنين. فقد استطاع كايوس جراكوس وإستكمالا لمشاريع أخيه تيبيريوس أن يواجه سطوة السيناتو و يربكها لسنوات عديدة، كما استطاع خلق منافس قوي لها من طبقتي العوام، والفرسان و مكن الفرسان من السلطة القضائية التي أقلقت الأرسقراطيين وأزعجتهم. هذا بالإضافة إلى تزويد الفقراء بالقمح من خلال ثبات أسعاره حتى نهاية العهد الجمهوري، وكذلك إستفادة عدد كبير منهم من قطع أرضية وبيساتين وزعت عليهم.<sup>65</sup>

الخاتمة:



وفي الأخير ومن خلال ما سبق الحديث عنه من محاولات الإصلاح التي تزعمها الأخوان جراكوس للأوضاع السيئة التي سادت خلال تلك الفترة من عمر الجمهورية الرومانية يمكننا الخروج بالاستنتاجات التالية

بالنسبة لمرحلة تيبيريوس جراكوس فإن نظام الحكم الذي كانت ثلة من النبلاء تديره وتستهلكه من خلاله خيرات الجمهورية كان يدفع بحال البلاد من سيء إلى أسوأ، من تضرر طبقة كاملة من المجتمع الروماني كانت هي ذخيرة الجيش الذي صنع أمجاد تلك الجمهورية، وبالتالي فإن بؤسها وشقاءها كان سيؤدي حتماً لمتاعب للدولة ككل وهو الأمر الذي أدركه بعض النبلاء من خلال محاولات الإصلاح التي سبقت جراكوس، لكن السواد الأعظم منهم لم يفهمه مُعَلِّبًا غريزة حب التملك والأناية والحرص على المصلحة الشخصية.

أنه في تلك الظروف كان لابد من عملية إصلاح تنصف من خلالها الطبقة المتضررة وهو ما نادى به تيبيريوس جراكوس ، ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأنه قد أفرط نوعاً ما في تجاوزه الأعراف الدستورية، مما أعطى الفرصة لخصومه للوثوب عليه وإنهاء أمره. فأول تلك الأخطاء كان عزل زميله أكتافيوس من التريونية وهي سابقة لم يسبقه إليها أحد، فنقيب العامة لا يعزل قبل إنتهاء عهده ولكنه يمكن أن يجاسب بعد إنتهائها، ثم إن تيبيريوس ومن خلال حرصه الشديد على تنفيذ القانون عين نفسه وأخيه كايوس وصهره أيبوس للوقوف على تطبيق ما جاء فيه وهو ما أعطى الصبغة العائلية لهذا القانون، الأمر الذي دفع إلى التشكيك فيه والنيل منه. و ضف إلى ذلك طلب إعادة

إنتخابه مرة أخرى للتربونية وهو أمر محظور بمقتضى قانون فيليبوس لسنة 180 ق م واعتراض الأثرياء على ترشيح نفسه كان في الحقيقة فية جانب كبير من الصحة. وأخر أمر هو تدخله الصارخ في السياسة المالية والخارجية للدولة من خلال تخصيص جزء من تركه الملك أتالوس الثالث لتمويل تنفيذ المشروع ويكون بذلك قد أسند للجمعية القبلية مهامها ليست من إختصاصها .

لم تكن الحساسية والمنافسة بين الأسر النبيلة في روما غائبة عن المشهد فعائلة سكيبيو لم تكن على وفاق مع عائلة سمبرونيوس التي ينحدر منها تيبيريوس رغم علاقات المصاهرة التي تجمعهم. غير أن صعود تيبيريوس كسياسي ورجل إصلاح والتفاف الكثير من الرومان من حوله جعل الأحقاد تشتد عليه، ولذلك كانت وثبة سكيبيو إيميليانوس عليه قوية وعنيفة وحاسمة.

أما بالنسبة لكايوس جراكوس فيمكننا الحديث في البداية عن أخطاء ارتكبتها كايوس كما فعل أخوه من قبل، نذكر منها اعتماده على مجلس القبائل الذي كان متقلبا في قراراته شأنه في ذلك شأن أهواء العامة المتغيرة حسب مصالحها هي الأخرى، فكما أن للنبلاء مصالحهم وطريقتهم الإنتهازية في التعامل مع الأوضاع السياسية، أظهر المشهد السياسي في نهاية حياة كايوس إنتهازية واضحة من العامة الذين بمجرد التلويح لهم بمشاريع كان ظاهرها أفضل من مشاريع كايوس حتى تخلوا عنه و تركوه لمصيره. كما أنهم تعاملوا بكل أنانية مع مطالب أبناء جلدتهم من الإيطاليين واللاتين حين رفع كايوس حق منحهم الجنسية وحقوق المواطنة، ولم يصوتوا على مشروعه متأمرين مع السيناتو في

هذه النقطة بالذات والتي أسفرت بعد عشرات السنين عن حروب إجتماعية سقط فيها آلاف الضحايا من الرومان والإيطاليين و لم تنته إلا بمنحهم ذلك الحق المصادر .

### الهوامش:

<sup>1</sup> إبراهيم نصحي، تاريخ الرومان، الجزء الثاني 133-44 ق م، منشورات الجامعة الليبية كلية الآداب ، ص 10.

<sup>2</sup> نفسه ، ص 12.

\*التربيون هو منصب رسمي ينتخب صاحبه للدفاع عن مصالح الشعب ضد الأرستقراطية ويتمتع في السيناتو بإستخدام حق الإعتراض القيتو ( حسين الشيخ، الرومان، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، 1996 ، ص189 )

<sup>3</sup> Appien, Guerres Civiles, Texte traduit par Combes-Dounous, Imprimerie des frères Mame, Paris, 1808, Livre I, 7,9.

<sup>4</sup> Ibid, 8.

<sup>5</sup> Plutarque ,Vies des Hommes Illustres, IV , Tiberius et Caius Gracchus, Traduit par Alexis Pieron, Imprimerie de Gustave GRATIOT , Paris, 1853, 182.

<sup>6</sup> Appien, Op.cit, 9.

<sup>7</sup> André Pigagnol , La conquête romaine, Librairie Félix Alcan Saint Germain, Paris, 1927 ,p 304.

<sup>8</sup> Appien, Loc.cit.

<sup>9</sup> André Pigagnol, Op.cit ,p 305.

<sup>10</sup> إبراهيم نصحي ، المرجع السابق ، ص 26 .

<sup>11</sup> André Pigagnol, Loc.cit.

<sup>12</sup> Appien, Op.cit, 12.

<sup>13</sup> إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 29.

<sup>14</sup> نفسه، ص 30.

<sup>15</sup> Appien, Op.cit, 13.

<sup>16</sup> إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 32.

<sup>17</sup> عبد اللطيف احمد علي، التاريخ الروماني عصر الثورة من تيبوريوس جراكوس إلى أكتافيوس أغسطس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص 11.

<sup>18</sup> Appien, Op.cit, 14.

<sup>19</sup> إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 33.

<sup>20</sup> Appien, Loc.cit.

<sup>21</sup> عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 12.

<sup>22</sup> إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 32.

<sup>23</sup> عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 13.

<sup>24</sup> Appien, Op.cit, 16.

<sup>25</sup> إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 07.

<sup>26</sup> نفسه، ص 47.

<sup>27</sup> André Pigagnol, Op.cit, p307.

<sup>28</sup> إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 50.

<sup>\*\*</sup> السستريوس هي عملة فضية رومانية كانت تساوي 2.5 أس as ثم صارت تساوي 4 آسات، وقد حلت محل الآس البرونزي كوحدة نقدية عند الرومان منذ الحرب البونية الثانية (عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 27)

<sup>29</sup> عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص 27، 28.

<sup>30</sup> Appien, Op.cit, 21.

<sup>31</sup> إبراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 60.

<sup>32</sup> نفسه.

- <sup>33</sup> André Pigagnol, Op.cit, p 307.
- <sup>34</sup> Plutarque , Op.cit ,200.
- <sup>35</sup> Ibid ,199 .
- <sup>36</sup> Plutarque, Op.cit, 202 .
- <sup>37</sup> André Pigagnol, Loc.cit.
- <sup>38</sup> Plutarque, Loc.cit.
- <sup>39</sup> Ibid, 203.
- <sup>40</sup> Appien, Op.cit, 21 .
- <sup>41</sup> Plutarque , Op.cit, 204.
- <sup>42</sup> عبد اللطيف أحمد علي ، المرجع السابق ، ص ص 22،23 .
- <sup>43</sup> Plutarque , Loc.cit.
- <sup>44</sup> عبد اللطيف أحمد علي ، المرجع السابق ، ص 25.
- <sup>45</sup> Plutarque , Op.cit, 205,206 .
- <sup>46</sup> Appien, Op.cit, 22.
- <sup>47</sup> هشام الصفدي ، تاريخ الرومان ، الجزء الأول، بيروت، 1967، ص 220.
- <sup>48</sup> Plutarque, Op.cit, 204.
- <sup>49</sup> عبد اللطيف أحمد علي ، المرجع السابق ، ص 23.
- <sup>50</sup> نفسه، ص ص 23، 24 .
- <sup>51</sup> نفسه، ص 28.
- <sup>52</sup> Plutarque , Op.cit, 207.
- <sup>53</sup> Ibid, 208.
- <sup>54</sup> Appien, Op.cit, 23.
- <sup>55</sup> Plutarque, Op.cit, 208.
- <sup>56</sup> Ibid.
- <sup>57</sup> Ibid, 209.

---

<sup>58</sup> عبد اللطيف أحمد علي ، المرجع السابق ، ص 24.

<sup>59</sup> نفسه .

<sup>60</sup> Appien, Op.cit, 24.

<sup>61</sup> عبد اللطيف أحمد علي ، المرجع السابق ، ص ص 24،25.

<sup>62</sup> Plutarque, Op.cit, 213, 214.

<sup>63</sup> André Pigagnol, Op.cit, p 310.

<sup>64</sup> Plutarque, Op.cit, 218.

<sup>65</sup> هشام الصفدي، المرجع السابق، ص 226.

القديس أوغسطين وصراعه مع الدوناتيين

د. عبد الحميد عمران / قسم التاريخ / جامعة المسيلة

amrafis@hotmail.com

الملخص:

ساهم القديس "أوغسطين" في عقد المجامع الكاثوليكية التي كان يفرض فيها إرادته وتوجيهاته، ولا يتوانى في تقديم الشكاوى ضد الدوناتيين ممهدا بذلك الطريق لتدخل السلطة الزمنية في الخلافات الدائرة ما بين المسيحيين، إضافة لذلك محاولة إغراء من يتوسّم فيهم النزوع والشقاق من الدوناتيين كمحاولة لضرب الحركة من الداخل وبالتالي تفتيته واستطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تنجح في امتصاص قوّة الدوناتيين، وتفتيتهم ..

ويعترف "أوغسطين" بالعنف الممارس ضد خصومه وأنه طلب من السلطات الزمنية القضاء على البدعة الدوناتية لأن ذلك في صالح الجميع :- " قد يغیظكم أن ننزع من فيالكم أسلحتها الحقيقية، إن لم يكن ذلك طبقا للقوانين فبالخطاب على الأقل." ولعل ذلك ما شجع السلطات الزمنية على إصدار تلك الترسانة من القوانين والقرارات الداعمة للطرف الكاثوليكي، خصوصا بعدما وقف الدوناتيون إلى صف أي تمرد أو ثورة أو عصيان ضد السلطة التي وجدت في الكاثوليك حليفا لها.

ولنا أن نطرح إشكالية نظرة هذه الشخصية في الصراع الذي ظهر قبل الامتداد الكاثوليكي في شمال افريقيا ما بين السلطة الزمنية والدوناتيين؟. وكيف ساهمت في هذا الصراع؟.

## Summary

Saint "Augustine" contributed to hold the Catholic academies that had imposed the will and guidance, not hesitate to file complaints against Donatism paving the way for the intervention of the temporal power in disputes circle between Christians, in addition to that attempt to lure Itusm including propensity and discord of Donatism attempt to strike movement from the inside and thus fragmentation and the Catholic Church has been able to succeed in the absorption strength Donatism, and Friable them ..

Recognizes "Augustine" violence against his opponents and that he had asked the authorities time eliminating heresy Donatism because that in everyone's interest: - "may Vexes you that tend your Corps of real weapons, if not in accordance with the laws of the speech at least." Perhaps it is time encouraged the authorities on that issue arsenal of laws supporting the Catholic Party, resolutions, especially after stopping Donatism to describe any rebellion or revolution or rebellion against the authority which is found in the Catholic ally.

And for us to ask such personal look problematic in the conflict, who appeared before the Catholic sprawl in North Africa between the temporal power and Donatism? .and How Contributed to this conflict?



## مقدمة

ساهم القديس "أوغسطين" في عقد المجامع الكاثوليكية التي كان يفرض فيها إرادته وتوجيهاته، ولا يتوانى في تقديم الشكاوى ضد الدوناتيين ممهدا بذلك الطريق لتدخل السلطة الزمنية في الخلافات الدائرة ما بين المسيحيين، إضافة لذلك محاولة إغراء من يتوسّم فيهم النزوع والشقاق من الدوناتيين كمحاولة لضرب الحركة من الداخل وبالتالي تفتيته واستطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تنجح في امتصاص قوّة الدوناتيين، وتفتيتهم من خلال مجامعهم وانتخاب "ماكسيمان" أسقفا للكنيسة الدوناتية عوضا عن "بريميانوس" والذي دعا إلى عقد مجمع في "باغاي" بحضور 310 أسقفا وتم الحكم على "ماكسيمان" كمنشق ومُنح مهلة ثمانية أشهر ليعود إلى الكنيسة الدوناتية، إلا أنه لم يستجب وبدأ في تنظيم كنيسته، وطلب من أتباعه ترك الأحقاد الماضية ولكن بعضهم عاد إلى الكنيسة الدوناتية رافضا طلب "ماكسيمان"

وكان هذا الانشقاق في سلسلة الخلافات الدوناتية - الدوناتية التي كانت تفتقد إلى الكفاءة القيادية في بعض مراحلها مما يؤدي إلى نزوع أطراف إلى الخروج عن الصف أو رفض القبول بسلطة تلك القيادة وقبل هذا الانشقاق كان الانشقاق الروقياتوسي بموريطانيا القيصرية والذي ظل محصورا في منطقة "كارتيناو" قبل أن ينهار أمام ضربات ثوار 372م.

ويعترف "أوغسطين" بالعنف الممارس ضد خصومه وأنه طلب من السلطات الزمنية القضاء على البدعة الدوناتية لأن ذلك في صالح الجميع :- "قد يغيبكم أن ننزع من

فيالقوم أسلحتها الحقيقية، إن لم يكن ذلك طبقا للقوانين فبالخطاب على الأقل. " ولعل ذلك ما شجع السلطات الزمنية على إصدار تلك الترسانة من القوانين والقرارات الداعمة للطرف الكاثوليكي، خصوصا بعدما وقف الدوناتيون إلى صف أي تمرد أو ثورة أو عصيان ضد السلطة التي وجدت في الكاثوليك حليفا لها، وأصدرت قانونا لحمايتها ويظهر ذلك من أن الإمبراطور "هونوريوس" وجه قانونا إلى الحكام الأفارقة وكاهن أفريقيا "هيريوس" صادر في 395/03/23م يمنح امتيازاً للكنيسة الكاثوليكية ويأمر بتوفير الحماية لها من عنف المنشقين. وهذا الانشقاق هو الذي أضعف الحركة الدوناتية بلا شك مع نهاية القرن الرابع للميلاد

## 1/ بداية الصراع المسيحي الروماني:

وساهمت الحماسة الدينية منذ عصر الشهداء الأوائل وإلى شهداء قرية "أبتينا" في إثارة الجماهير المسيحية، التي أخذت تدعوا إلى القصاص من المرتدين والمتصرين، ووصفهم بالكفار<sup>(1)</sup>. وعلى ضوء ذلك لم يكن الانشقاق من فرقة مبتدعة تستهدف جوهر العقيدة المسيحية، وإنما انشقاق محليّ تركّز في أفريقيا عموماً وفي نوميديا على وجه الخصوص. أساسه الاختلاف حول التنظيم الكنسي وعدم الاعتراف بشرعية أسقف قرطاج الجديد. وعلى العكس من ذلك فقد نشأت نحلّ متعددة مست بجوهر العقيدة في أجزاء متفرقة من الإمبراطورية.

في الوقت الذي أتهم فيه أسقف قرطاج "منصوريوس" (Mansurius) بعدم القدرة على الصمود، وأنه قام بتسليم الأواني والكتب المقدسة إلى السلطات لإحراقها ويعترض

القديس أوغسطين على هذا الاتهام و يحوله إلى الطرف المدعي بأن أتباعه ضربوا وحدة الكنيسة بتهور وحقد مليء بالمرارة<sup>2</sup>. وعلى ضوء هذا الاتهام نشأت خلافات حادة في تفسير هذا الفعل وتبريره، إذ يرى قسم من المسيحيين أنه من الأعمال المبررة التي تستهدف حقن الدماء في حين عدّه قسم آخر بأنه من أعمال الخونة المارقين<sup>(3)</sup>.

وبدأت الكنيسة في نوميديا تختلف مع كنيسة قرطاج التي كانت ترتبط بها، بعد اتهام "منصور يوس" بدعوة المسيحيين إلى الامتثال للأوامر الإمبراطورية حقناً للدماء،<sup>4</sup> معلنا في نفس الوقت عن تمسكه بعقيدته قائلا:- "أنا مسيحي، وأسقف ولست بخائن." في الوقت الذي أعلن فيه أهل "أبيتنا" عن بيان أعتبر بمثابة ميثاق لمسيحيي المغرب القدام، وأهم فقرة فيه هي:- "أن كل من أتحد مع الخونة، لن يكون في صفنا، أو مع مالك السماء"<sup>(5)</sup>.

والحماسة هذه هي التي عززت روح المقاومة والتمسك بالعقيدة، وأوضحت نصوص الدوناتيين الأولى هذا التوجه من خلال نص لمؤلف مجهول بعد أحداث "أبتينا" جاء فيه :- "إن فيالق الرب تتقدم في المعركة بكثير من الشجاعة والحزم... وإن الأعداء ينهزمون في كل المعارك المجيدة التي يسقط فيها الشهداء... إن الأعداء يريدون إضعاف جنود الرب."<sup>(6)</sup>

ومن هذه النظرة نجد أن الانشقاق في الكنيسة الأفريقية غدّته الروح الدينيّة والتمسك بجوهر العقيدة، والخلاف قائم مع "كاسيليانوس" و"فيليكس الأبتونجي" على اتهامهما بعدم الثبات وقت الشدة، واتهام "كاسيليانوس" بحمل السوط ضد المتظاهرين

أمام سجن "أبتينا"، وقطع المؤونة على المسجونين. فالمنشقون راحوا يصفون أنفسهم على أنهم "أبناء القديسين الأطهار." - في إشارة إلى ضحايا الاضطهاد- والمعارضين للخونة. وكونوا بذلك شعبية كبيرة، وبخاصة في نوميديا<sup>(7)</sup>.

## 2/ دور القديس اوغسطين في العداء ضد الدوناتيين:

يعترف القديس "أوغسطين" بالمصاعب التي كان يلقاها والده "باتركيوس" (Patricius) الذي يمتلك أراضي في "تاغست"، من أنه كان يوفر لقمة المعيش لأسرته بصعوبة.<sup>8</sup>

في حين نجد موظفين كبار في الدولة وبروقناصلة وسفراء لهم ضيعات في أفريقيا، رغم أن عدد كبير منهم كان يقيم في روما ويكتفي فقط بجني الأرباح من الأراضي التي يمتلكها في أفريقيا.<sup>9</sup>

وكان هؤلاء الملاكين الكبار يستخدمون العبيد في ضيعاتهم الأفريقية، بعدما قام "نيرون" بمصادرة أراضي شاسعة من الأهالي الذين تحولوا إلى عبيد، ولكن واعتبارا من أواخر القرن الثاني للميلاد، بدأ يختفي عبيد الفلاحة من الضياع الأفريقية<sup>10</sup>.

ويشير "جزال" إلى أن القديسة "ميلانيا الصغرى" قد أعتقت آلاف العبيد من أراضي بأفريقيا قبل مغادرتها للمنطقة سنة 417م<sup>11</sup>.

إن تردي الأوضاع الاقتصادية في المنطقة، أدى إلى حالة من الاحتقان الاجتماعي وعدم الرضا استغلته وبلا شك المسيحية، التي دعت إلى كسب الرزق والسعي لأجله ومحاربة الاتكال على الغير، ولم تحارب الغنى والثروة بل دعت إلى التضامن بين أتباعها، ويسدي القديس "أوغسطين" بنصيحة إلى الأغنياء بقوله: - " إنك تملك إذن الذهب وهو أمر حسن، ويمكنك أن تصبح بواسطته صالحا، أو على الأقل أن تقدم الخير، وذلك بتقديم الصدقة وإعطاء الفقراء لكي يبقى دائما"<sup>12</sup>.

فالثروة إذن هي وسيلة عيش وتقرب إلى الله لا غير، ونلمس ذلك من خلال نص لثرتليانوس: - "لا يجب على المسيحي أن يتمنى الثراء، إذا لم يكن لديه، وإن كانت لديه الثروة وفقدتها، لا يجب عليه أن يحزن على ذلك، لأنها محترقة في جوهرها، وعلى المسيحيين أن يتركوا للوثنيين الارتباط بها لأنها تشغلهم بملذات الدنيا"<sup>13</sup>.

وهذا النص يدعو إلى القناعة فيما بين المسيحيين وحثهم على نبذ طلب الغنى إن لم يكن موجودا لأن الغنى يزيد من الطمع والجشع ويدفع على اللهو عن الدين والابتعاد عنه، إلا أنه لم يحارب الغنى إن كان موجودا

وأكدت رسائل الشماس "نينديناريوس" (*Nundinarius*) ، والذي جرده "سيلفانيوس" من رتبته الدينية هذه الاتهامات<sup>(14)</sup>. كما حملت رسائل أخرى موجهة إلى الإمبراطور "قسطنطين"، هذه الاتهامات ضد أسقف سيرتا "سيلفانوس"، بل واتهمته بأنه خائن ولصّ ومصلحيّ. كما أتهم بتسليم الكتب المقدسة إلى الوثنيين. وبتلقي الأموال من "لوسيللا" ليساهم في حملة انتخاب "ماجورانوس"<sup>(15)</sup>.

وبالمقابل تمت تبرئة ساحة "فيليكس الأبتونجي" من التهم التي وجهت إليه، بعد إجراء تحقيقات حولها وذلك في 15 فيفري 315م، بحكم من البروقنصل "إيليانوس" (*Ælianus*) بعد إجراء تحقيق قضائي<sup>(16)</sup>. إن المصالحة حسب "أوغسطين" كانت ضرورية مع المسيحيين بعد أن خرج الانقسام إلى العلن ولتكسير التقليد القائم على الحفاظ على الأسرار الدائرة ما بين المجادلين في الكنيسة<sup>17</sup>، وذلك لتبرير سياسة العداء والانتقاص من دور الحركة التي تحامل عليها "مونصو" أيضا بعد محاولات الصلح بقوله:- "لقد أوصى "قسطنطين" بحمل الذئاب إلي حضيرة النعاج"<sup>18</sup>. والذئب هم الدوناتيين والنعاج هنا هم الكاثوليك كدليل على الهدوء والسكينة والابتعاد عن الغلو والتطرف، واستفاد الدوناتيون من ذلك في النهاية بتنظيم تماسكهم

ويتهم "القديس أوغسطين" (*Saint Augustianus*)<sup>(19)</sup> مجموعة السبعين

قس بقوله: "لقد أقر المذبذبون محاكمة الغائبين الأبرياء، لأنهم يريدون تغطية جرائمهم بالتشهير بالغير، ونشر الإشاعات الكاذبة لتحويل الأنظار للبحث عن الحقيقة."<sup>(20)</sup>

رغم الشك في تنصر كافة أتباع الدوناتية إذ أن عدد الوثنيين كان كبيرا جدا في مقابل المسيحيين الذين وجدوا بالمدن الرئيسية وفي الضيعات الكبرى مع بداية القرن الرابع للميلاد.<sup>21</sup> ومما يعني أن أتباع الدوناتية لم يكونوا كلهم نصارى مما يبين أنها تحولت إلى حركة ذات مطالب اجتماعية بلباس ديني، ويقترّب اعتراف أوغسطين من هذا الطرح لما

يبين بأن الأسقف الدوناتي في مدينه هيون "ماكروبيوس" يستعين بمترجم إلى البونية ليتحدث إلى الدوارين وليؤنبهم على ما أحدثوا في المدينة من تخريب وعنف<sup>22</sup>.

وبقي السكان في مختلف المناطق في بلاد المغرب القديم متمسكين بلغتهم البونية والليبية ووجدت الكثير من النقوش المكتوبة بالبونوية والبونوية الجديدة والتي تعود على عهد القديس "أوغسطين"<sup>23</sup>. مما يعني ابتعادهم عن الثقافة اللاتينية التي حملت الديانة المسيحية، ويذهب أوغسطين إلى أنه اختار أحد قساوسته الذي يتقن البونية لتعيينه في إحدى القرى المجاورة لمدينة هيون<sup>24</sup>.

وكان لملاك الأراضي من الكاثوليك دور كبير في إرغام عمالهم على المسيحية ويتجلى ذلك من خلال مراسلات للقديس أوغسطين إلى الملاك يدعوهم فيها إلى معرفة ديانة مزارعيهم ويقر بأن أسقف "كالاما" اكترى ضيعة وقام بتعميد حوالي ثمانين مزارعا فيها<sup>25</sup>، ولا شك فإنه قد أدرك دور هؤلاء في تنصير عمالهم ولو كان ذلك صوريا حتى لا يستغلهم الطرف الدوناتي المنافس.

ارتبط السكان بالدوناتية باعتبارها المعبر عن مشاغلهم أمام السلطة الرومانية والمعمرين والربويين، خاصة خلال النصف الأول من القرن الرابع، مما أعطى قوة للحركة الدوناتية التي أحدثت القطيعة نهائيا مع الكاثوليك، واستخدمت الدعاية لتزداد شعبيتها في المنطقة، لتصبح هي الأولى بل ووصلت إلى موريطانيا<sup>26</sup> وأصبحت هي النحلة الوحيدة السائدة، ويعترف "أوبطاميلي" بهذا النجاح في استقطاب السكان بقوله: "لقد كانوا حادي البصيرة في إغرائهم"<sup>27</sup>.

لقد كانت اضطهادات سنة 347م رهيبية في نوميديا، وتركت آثارا عميقة في نفوس الدوناتيين، وهذا ما جعل أسقف سرتا "بتيليانوس" (Petilianus) يقول لخصومه من الكاثوليك في ذكرى تلك الحوادث: - "إن الكتاب المقدس يقول، "لا تقتل أخاك وأنتم قتلتمونا.. ولا تأخذ متاع غيرك، وأنتم نهبتم أملاكنا واعتبرتموها ملكا لكم"<sup>28</sup>.

وحاول القديس "أوغسطين" أن يجد تبريرا لتلك الأعمال بقوله: - "لماذا لا تُجبر الكنيسة أبنائها على العودة إليها مادام هؤلاء الأبناء الظالون يستعملون القوة لمقاتلة الآخرين"<sup>29</sup>.

في مقابل ذلك انعقد مجمع كاثوليكي بقرطاج في 348 م برئاسة "قراتوس" (Gratus) الذي افتتحه بالشكر لله والامتنان للإمبراطور "قسطانس" الذي تدخل بواسطة مبعوثيه لتكريس الوحدة الدينية، مما يبين بأن الكاثوليك لم يخفوا ترحيبهم بتدخل السلطة إلى جانبهم<sup>30</sup>. وخرج المجمع بمجموعة قرارات تدين الدوناتية وتلغي وجودها ومحكمة أساقفتها، ورفض إعادة التعميد وإعادة النظر في أمر تقديس الشهداء<sup>31</sup>.

وتم طرد الكثير من الكاثوليك من كنائسهم وتعرضوا للأذى وعُنفَت النساء وأُرهَب الأطفال، - بحسب الرواية الكاثوليكية - والتي تشير إلى أن الدوناتيين كانوا يستخدمون كلابا في ذلك.<sup>32</sup> ويذهب القديس أوغسطين إلى أن الأساقفة الدوناتيين "كانوا يحكمون بالموت جوعا على خصومهم"<sup>33</sup>.



واستفاد الدوناتيون من الوضع الجديد بعد أن أعطى جوليانوس حرية المعتقد، وأشارت تقارير حكام المقاطعات الأفريقية إلى الاغتيالات والنهب والسلب التي قام بها الدوناتيون في عهده ومنها تقرير لحاكم موريطانيا القيصرية "أثينيوس" (Athenius) الذي أشار إلى تلك الأعمال، ولكن الإمبراطور لم يفعل شيئاً ليتواصل العنف و العنف المضاد بعد موته<sup>34</sup>.

وتم تعيين "أوغسطين" أسقفاً جديداً لأسقفية "هيبو ريجيوس" (Hippo Reguis)، سنة 392م، الذي كان له دور فاعل في إحداث انشقاق داخل الحركة نفسها، باستعماله لجميع الوسائل والإمكانات بما في ذلك الدعوة إلى استخدام القوة<sup>35</sup> ذلك لأن "الكلام لا ينفع، ويجب ضربهم بالقضبان"<sup>36</sup> - حسب أوغسطين - في الوقت الذي كانت الكنيسة الدوناتية تمر فيه بأخطر مراحلها بظهور أخطر انقسام فيها<sup>37</sup>، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش الرومانية في المنطقة تعمل على إخماد الثورات الملتهبة بقيادة "ثيودوز"<sup>38</sup>.

### 3: دور القديس اوغسطين في العقوبات ضد الدوناتيين

أصدرت السلطة الرومانية الأوامر لمصادرة المنازل والضيعات التي يُشك في أنها تمثل مراكز للاجتماعات الدوناتية وأراد الإمبراطور "ثيودوز" القضاء على الحركة التي ألحقت الضرر بالاحتلال الروماني بالمغرب القديم<sup>39</sup>، وذهب به الأمر إلى حد أن اصدر قانونا في 15 جوان 392 م، ينص على فرض غرامة مالية تقدر بعشر(10) ليرات ذهبية على رجال الكنيسة الدوناتية<sup>40</sup> ويقول "اوغسطين" عن هذا القانون في رسالته إلى أسقف

كالاما "كريسبنوس" الدوناتى (Crispinus): -"لقد أجبرناكم على دفع عشرة ليرات ذهبية طبقا لأوامر الإمبراطور"<sup>41</sup>، مما يبيّن دور هذا الأسقف في تحريك التشريع الرادع لصالح الكاثوليك.

وشددت الإمبراطورية قبضتها على الديانات الوثنية، وقامت بدمم المعابد الوثنيّة مما خلف ضحايا في أفريقيا<sup>42</sup> وأشارت النقوش المكتشفة خلال نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس إلى أن المنطقة الجنوبية لنوميديا قد سجلت تلك الصراعات الدموية في الوقت الذي كانت الحكومة منتفجة في بناء الصروح والملكيات الواسعة<sup>43</sup>.

وفي الفترة ما بين سنتي 391 و 430 م أوحى المجمع المنعقد خلال هذه الفترة بإصدار سلسلة من القوانين القاسية المعادية للدوناتية، وتدمير دور عبادتها<sup>44</sup>، ومن خلال رسالة وجهها أسقف هيبون إلى الوثنيين في "مداوروش" يتبين أن الكنيسة الرسمية تساند السلطة الرومانية في هذا المسعى، إذ طلب منهم ضرورة هدم المدافن وتحويل المعابد الوثنية إلى حظائر، وأما التماثيل فيجب أن تكسر أو تحرق أو تدفن أو تباد<sup>45</sup> وهذا ما أدى إلى رد فعل من طرف الوثنيين على القرارات الصادرة، حيث قام الوثنيون بحرق كنيسة في "كالاما"، وقتلوا كاهنا ومجثوا عن أسقف المدينة من أجل قتله<sup>46</sup>.

والملاحظ هنا أن الكتاب الكاثوليك كانوا يستخدمون الدعاية من أجل إظهار الطرف المعادي بمظهر العنف والدناءة وعدم القدرة على مسايرة الأحداث، خصوصا وأن المصادر التي تناولت هذا الجانب كانت كلها كاثوليكية معادية.

## 4: دور القديس اوغسطين في عودة قوة الطرف الكاثوليكي

في هذا الوقت الذي انتظمت فيه الكنيسة الرسمية ونالت دعم السلطة، تسارعت الأحداث مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، فالاجتماعات الأسقفية توالى الواحدة تلو الأخرى، وبلغت أقصاها في الفترة ما بين 6 جانفي 392 و 1- 8 جوان 411 م حيث عقد 25 مجمعا كنسيا ما بين مجمع عام ومجمع إقليمي، كاثوليكي ودوناتي في حين لم يُسجل سوى 16 مجمعا كنسياً ما بين 5 مارس 305م، إلى غاية نهاية سنة 391 م، فعلى مدار 86 سنة لم يعقد سوى 16 مجمعا<sup>47</sup> بمعدل مجمع واحد لكل خمس سنوات وخمسة أشهر تقريبا، وعلى مدار 19 سنة عقد 24 مجمعا بمعدل مجمع لكل تسعة أشهر، ويبدو أن تكثيف انعقاد المجمع كان لرغبة الطرفين في إيجاد اتفاق بينهما يضمن التعايش على الأقل.

ووجه القديس أوغسطين رسالة مؤرخة في سنة 392م إلى الأسقف الدوناتي المنشق "ماكسيمانس" (Maximans) يدعوه فيها ليس إلى التعايش وحسب بل إلى الوحدة مع الكاثوليك، بعد أن لامه على إعادة تعميم أحد الكهنة الكاثوليك، مخاطبا إياه:-  
"إني عازم بعد أن أعطاني الرب السلطة والقوة لأن أقود هذه القضية الأخلاقية، وأن لا أترك أدنى شك في الوحدة داخل الكنيسة الكاثوليكية... لا بد من ترك هذا الانشقاق"<sup>48</sup>.

واستخدم الكاثوليك في ذلك الدعاية وأسلوب المنة إن تنازلوا عن شيء لصالح الدوناتيين كما حدث مع أسقف "كالاما الدوناتي" "كريسبنوس" (Crispinus)

الذي قاد مجموعة من الدوارين وهاجم الأسقف الكاثوليكي في نفس المدينة، مما دفع بالكاثوليك إلى رفع دعوى ضده للإمبراطور والذي حكم عليه بدفع عشرة أرتال ذهبية لصالح الخزينة سنة 392 م، لكن أوغسطين تدخل لدى السلطات لتعفو عنه<sup>49</sup>. واستغل هذا التدخل في الدعاية ضد خصومه الذين صورهم بتهديد الكاثوليك الدائم بقوله:- "و بعد صدور قرار الإمبراطور فإن "كريسينوس" لم يؤد حتى الآن الذهب إلى الخزينة العامة، ورغم القوانين الجديدة التي تهدد أساقفتكم بالنفي فإنه لازال في ملكيته يسكن في أمن وأمان"<sup>50</sup>.

وكان الدوناتيون يسارعون إلى ضم كنائس الكاثوليك إليهم وبالخصوص في الضيع والمناطق التي تقل فيها الحماية، ووجدت الكثير من المعابد في الشرق النوميدي وفي الأوراس وفي تلال النمامشة والجنوب الغربي من تيفست، وغيرها من المناطق التي سيطر عليها الدوناتيون، ويحصى الآب "ميناج" بأنه من مجموع 311 كنيسة ومعبد في المنطقة، نجد 219 منها دوناتية<sup>51</sup>. وذلك في عهد القديس أوغسطين وهذا يعني بأن الدوناتية قد تحوّلت إلى حركة محلية مُرتبطة بسكان المغرب القديم الذين وجدوا فيها الخلاص من الأسى الذي يعانون منه.

وبعد مجمع هييون سنة 393م ثم مجمع قرطاج سنة 397م، فإن الكنيسة الأفريقية بدأت تحدد الدواء لمعالجة مشاكلها خاصة وأن الدونانيين بدأ بعضهم يتراجع عن مبادئه، بعد الانشقاق الداخلي<sup>52</sup> وهو عبارة عن انشقاق ما بين طائفة متساهلة مع المسيحيين الكاثوليك ومع الأغنياء، وفتة أخرى متشددة وزاهدة، تمقت الأغنياء، وتتألف بالخصوص

من العبيد والبؤساء، وحملت نفسها مسؤولية تحقيق المساواة بين الناس ومركزها مدينة "تيموقادي".

## 5: تدعيم الكاثوليك للمنشقين الدوناتيين

وجد الكاثوليك في أخبار الانشقاق الدوناتى فرصة لتمزيق الدوناتية وجلب أتباعها إلى الصف الكاثوليكي وتشجيع عقد المجامع المناوئة للكنيسة الدوناتية، وحملت الوثائق عقد مجمع مُوازٍ للدوناتيين من طرف "ماكسيمان" المنشق في سنة 393م في "قبرسوسة" بإقليم "البصاسين"، وبحضور مائة من رجال الدين ورفعوا دعوى ضد "بريمانوس" وأكدوا بالإجماع حكما سابقا في 24 جوان ضد الأسقف الجديد، وشرح المحضر المناقشات التي دارت في الجمع وحمل المحضر تعدادا للأحكام الصادرة ضد "بريمانوس" ومنها ضربة لأربعة شمامسة بلا وجه حق<sup>53</sup>.

وأعلن خلع "بريمانوس" من الأسقفية وبعث المجتمعون برسائل إلى كل الكنائس الدوناتية بأفريقيا من أجل قبول هذا الحكم، وهددوا كل من يتعامل مع "بريمانوس"<sup>54</sup> وذلك بهدف عزل "بريمانوس" بعد اجتماع الأساقفة الذين وافقوا على الحكم على "بريمانوس" في غيابه، وأعلنوا عن تعيين "ماكسيميانوس" المنشق بدلا منه<sup>55</sup>.

وساهم القديس "أوغسطين" في عقد المجامع الكاثوليكية التي كان يفرض فيها إرادته وتوجيهاته، ولا يتوانى في تقديم الشكاوى ضد الدوناتيين ممهدا بذلك الطريق لتدخل السلطة الزمنية في الخلافات الدائرة ما بين المسيحيين<sup>56</sup>، إضافة لذلك محاولة إغراء من

يتوسّم فيهم النزوع والشقاق من الدوناتيين كمحاولة لضرب الحركة من الداخل وبالتالي تفتيتها، ففي رسالته إلى "ماكسيمان" الدوناتى سنة 392م خاطبه قائلاً: - "إننا ندعوكم بالشرفاء.. وإنك تعلم بأن الرب طلب منا أن ننادي بعضنا بالأخوة... أخي العزيز إن موت أحد إخواننا مؤلم وهذا الألم هو حمد من الرحيم وعناية من الرب، مما تحمل أفكار السلم من حلاوة تفضّل الله بإلهامكم روح السلام أخي العزيز"<sup>57</sup>.

وبهذه النظرة استطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تنجح في امتصاص قوّة الدوناتيين، وتفتيتهم من خلال مجامعهم وانتخاب "ماكسيمان" أسقفا للكنيسة الدوناتية عوضاً عن "بريميانوس" والذي دعا إلى عقد مجمع في "باغاي" بحضور 310 أسقفا وتم الحكم على "ماكسيمان" كمنشق ومُنح مهلة ثمانية أشهر ليعود إلى الكنيسة الدوناتية<sup>58</sup>، إلا أنه لم يستجب وبدأ في تنظيم كنيسته، وطلب من أتباعه ترك الأحقاد الماضية<sup>59</sup>. ولكن بعضهم عاد إلى الكنيسة الدوناتية رافضاً طلب "ماكسيمان" كما يعترف بذلك "أوغسطين": - "سمعنا قبولكم برجوع "الماكسيمانيين"<sup>60</sup> إلى حظيرة الدوناتية، بعد إدانتكم لهم من قبل"<sup>61</sup>.

وكان هذا الانشقاق في سلسلة الخلافات الدوناتية - الدوناتية التي كانت تفتقد إلى الكفاءة القيادية في بعض مراحلها مما يؤدي إلى نزوع أطراف إلى الخروج عن الصف أو رفض القبول بسلطة تلك القيادة وقبل هذا الانشقاق كان الانشقاق الروقياتوسي بموريطانيا القيصرية والذي ظل محصوراً في منطقة "كارتيناو" قبل أن ينهار أمام ضربات ثوار 372م.

ويعترف "أوغسطين" بالعنف الممارس ضد خصومه وأنه طلب من السلطات الزمنية القضاء على البدعة الدوناتية لأن ذلك في صالح الجميع :- "قد يغيظكم أن ننزع من فيالكم أسلحتها الحقيقية، إن لم يكن ذلك طبقا للقوانين فبالخطاب على الأقل".<sup>62</sup> ولعل ذلك ما شجع السلطات الزمنية على إصدار تلك الترسانة من القوانين والقرارات الداعمة للطرف الكاثوليكي، خصوصا بعدما وقف الدوناتيون إلى صف أي تمرد أو ثورة أو عصيان ضد السلطة التي وجدت في الكاثوليك حليفا لها، وأصدرت قانونا لحمايتها ويظهر ذلك من أن الإمبراطور "هونيريوس" وجه قانونا إلى الحكام الأفارقة وكاهن أفريقيا "هيريس" (Hierius) صادر في 395/03/23م يمنح امتيازاً للكنيسة الكاثوليكية ويأمر بتوفير الحماية لها من عنف المنشقين.<sup>63</sup>

وكان نتيجة لضعف القيادة وسعيها من أجل الزعامة الفردية، مع الإغراءات الممارسة من طرف الكنيسة الرسمية، وهذا الذي حمل التصدع إلى الحركة الدوناتية ليصل إلى درجة عقد مجامع، ومجامع مضادة ما بين الجناح الماكسيماني والجناح البريماني.

وهذا الانشقاق هو الذي أضعف الحركة الدوناتية بلا شك مع نهاية القرن الرابع للميلاد، في الوقت الذي كان فيه الطرف الخصم يستخدم أساليب الإقناع والدعاية والخطابات، وعقد مجمع بقرطاج في 397/08/28 م لمنع إعادة التعميد والعودة بقوة إلى القواعد الأخلاقية السابقة والدفاع عن النظام ومنع قبول أساقفة أجنبية.<sup>64</sup>

ورأى "أوغسطين" في ذلك نصراً للكاتوليكية (سنة 400م)، إذ قال: -"إن الفرع الدوناتى الذى كان مُتَهِماً فى كل العالم، هاهو فى عجزه ينتج ثمار السلم والمحبة"<sup>65</sup>، وذلك كدليل رضا وابتهاج منه لما كان يحدث داخل البيت الدوناتى.

زاد القمع بعد 12 فيفري 405 تاريخ صدور قانون "الوحدة الدينية" (unitate) lex) من قبل الوصى "ستيلكون" والذى أمر ثلاثة أساقفة من أجل متابعة التنفيذ،<sup>66</sup> وكان يهدف إلى إخضاع المنشقين وتطبيق الأوامر بشدة لمنع إعادة التعميد، ومصادرة الأموال، ونفى الدوناتيين<sup>67</sup>، وهذا ما جعل الأساقفة الكاثوليك يوشون بخصوصهم إلى السلطة، وانخرط الكثير من الدوناتيين فى الكاثوليكية -حسب المؤرخ جوليان-، فى حين أن الدوارين لم يهتموا بأوامر الأساقفة الدوناتيين، والذين تبرءوا منهم<sup>68</sup>، ومُنِعوا من عقد اجتماعاتهم وسُلبت منهم كنائسهم وصودرت منازلهم وممتلكاتهم وتم نفي أساقفتهم وشماسوهم نفيًا دائماً<sup>69</sup>.

وبدأ عنف مضاد من قبل السلطة فى 26 جوان 405 م، خاصة وأن القرار السابق لم يتم تطبيقه إلا فى عاصمة البروقنصلية، مما دفع بالكاثوليك إلى استغلال ذلك وعقد مجمع فى 23 أوت 405 م، وتوجيه مراسلة كنسية إلى الإمبراطور تحمل تشكرات المؤتمرين من أجل تكريس الوحدة فى قرطاج، وفى نفس الوقت توجيه رسائل إلى الحكام من أجل تنفيذ القرار فى كامل المقاطعات، وكان أن استجاب الإمبراطور بأمر فى 405/12/8 م لتطبيق القوانين الصادرة ضد الدوناتيين الذين خسروا نتيجة لذلك العديد من كنائسهم وصودرت أموالهم وتعرضوا لعنف مقنن<sup>70</sup>.



في وقت كانت المجامع الكنيسة تمارس ضغطا آخر بعد قرار الوحدة من السلطات الرسمية، ففي سنة 406م ولأول مرة طلب الدوناتيون من السلطات الرسمية الاجتماع بالكاثوليك، بعد الاضطهادات التي تعرضوا لها بموجب المراسيم الإمبراطورية، وعقدت عدة مجامع كاثوليكية في قرطاج وفي هيون خلال السنوات 407، 408، 409م، و410م أدانت كلها الحركة الدوناتية والمنشقين، ولم يرض الكاثوليك بتعيين السيناتور "ماركلنوس" (Marcellenus) لرئاسة المؤتمر<sup>71</sup>، ورفضوا أتباع المطلب الدوناتى الداعي إلى الاجتماع، إلا بعد ما طلبوا الإشراف على ذلك من طرف السلطة السياسية بعد مجمع قرطاج في 14 جوان 410 م، ورحب بذلك الإمبراطور "هونوريوس".

## 6: مجمع قرطاج 411 م و تجريم الطرف الدوناتى

عُدّ مجمع قرطاج المنعقد في الفترة 1-8 جوان 411 م، محاكمة حقيقية للحركة الدوناتية بحضور 286 أسقفا كاثوليكيا و 279 أسقفا دوناتيا، تمت المحاكمة منذ بداية الانشقاق في 312م، وقضية الخونة والمرتدين والاتهامات الموجهة لمؤسسي الحركة الأوائل، وتم الحكم ضد الدوناتيين من طرف المبعوث الإمبراطوري والحكم عليهم بالعودة إلى الكنيسة الكاثوليكية<sup>72</sup>.

ويظهر من خلال سيل من المجامع والقرارات المتعلقة بإدانة الدوناتية فالسلطة تحكمت إلى حد كبير في الوضع ونقلت أسلوب الإرهاب إلى الطرف المعادي الذي بدأت قواه تضعف ولكنه لم يستسلم بدليل أنه بعد مجمع 411 م استمرت الدوناتية، وإن كانت خافتة في بلاد المغرب القديم، وزاد مرسوم الوحدة في 30/01/412 م من

متاعب الدوناتيين نظرا للضرائب الكبيرة المفروضة عليهم، وكانت السلطة في كل مرة تصدر ممتلكاتهم وتعرض الأساقفة ورجال الدين إلى النفي خارج أفريقيا واستمرت تلك القوانين تصدر تباعا من قبل الإمبراطور "هونيروس" وخليفته "فالنتيان الثالث" (Valentinien III)، وأظهرت صرامة في التطبيق والمتابعة ومنها قانون 413/03/21 م و 17 جوان و 30 أوت 414 م و 25 أوت و 06 نوفمبر 415 م<sup>73</sup>، ذلك أن الدوناتية لا زالت تشكل قوة في المنطقة ولازال الكاثوليك يصورون قوتها ويظهر ذلك في إحدى رسائل "أوغسطين" المؤرخة في سنة 417 م من أن الأساقفة العائدين من الدوناتية كانوا يتعرضون لتعذيب فظيع من طرف الدوناتيين الذين كانوا يفقتون أعينهم ويقطعون ألسنتهم وأرجلهم وأيديهم.<sup>74</sup>

ولذلك كانت السلطة ترسل محافظين للمتابعة كما حدث في سنة 420م حيث أرسل إلى نوميديا المحافظ الإمبراطوري "ديلسيتيوس" (Dulctius) الذي كان وراء إصدار قرارات متعاقبين ضد المنشقين وتم تطبيق القوانين بصرامة ليس ضد "الجناح الدوناتى البريمياني، وحسب، بل وضد الجناح الماكسيميانى أيضا<sup>75</sup>. كما صدرت قوانين أخرى ضد المنشقين في 06 جويلية و 06 أوت 425 م و 30 ماي 428 م<sup>76</sup>.

والهدف من تلك القرارات والقوانين هو استئصال هذه الحركة من جذورها حتى لا يبق لها أي أثر لما خلفته من مشاكل للإمبراطورية التي قلت مواردها الزراعية من هذه المنطقة التي تعذها مطمورة تزودها بالغذاء .

خاتمة:

عد القديس اوغسطين واحدا من أهم كتاب اللاهوت في العالم المسيحي و ساهم من خلال نظيراته و أفكاره و من خلال موقعه الأسقفي لمدينة هيون وتأثيره على المستوطنين المنتصرين عقب تنصر السلطنة من تأليبهم مع السلطنة الرومانية ضد السكان الأهالي الذين اختاروا الطرف الدوناتي رغم أنهم لم يكونوا في غالبهم منتصرين و لكن أخذتهم حمية ضد عدو مشترك هو الاحتلال الروماني والمستوطنين الرومان الكاثوليك.. كما أوجد أوغسطين حركة جدل فلسفي و ديني عميق كان له أثره الايجابي في العالم المسيحي في العصر الوسيط.

#### الإحالات:

<sup>1</sup> BRISSON (Jean Paul), Autonomisme et christianisme dans L'Afrique romaine (de Septème Sévère à L'invasion vandale), éditions. E. de Boccard, Paris, 1958 .p. 292.

<sup>2</sup>-AUGUSTIN (St.) , Lettre, XLIII, 3.29.

<sup>3</sup>-Brisson (J.P.), op-cit., p.p. 126-127.

<sup>4</sup> -Yvette DUVAL, Chrétiens d'Afrique à l'Aube de la paix Constantinienne ( les premiers échos de la grande persécution , institut d'études Augustiniennes, Paris, 2000, p, 184.

<sup>5</sup>-Monceaux ( P.), H.L.A.C., IV, pp.12-13.

<sup>6</sup> Brisson (J.P.), op-cit., p.308-309.

- <sup>7</sup> BARDY (G.), l'Afrique Chrétienne, libraire Bentlet Gay, Paris, 1930. p.22.
- <sup>8</sup> -Augustin (St.), les Confessions, trad., Andilly (A) ,éd., Gall, Madr, Paris, 1993,II,3.
- <sup>9</sup> -Boissier (G.) , l'Afrique romaine , Paris , 1901, p.153.
- <sup>10</sup> -Picard (G.) , la Civilisation de l' Afrique romaine , Plon, Paris, 1959, pp .129-148.
- <sup>11</sup> -Gsell (S), Esclaves ruraux dans l'Afrique romaine, Mélanges Gustave Glots, T,1, P.U.F., Paris, 1932, p. 402.
- <sup>12</sup> -Augustin (St.), les plus beaux sermons de St. Augustin, trad., Humeau (G.), T.,1, les études Augustiniennes, Paris, 1986,LXI,3.
- <sup>13</sup> -Guignebert (Ch.), Tertullien, étude sur ses sentiment aux l'égard de l'empire de la société civil, Paris, 1901, p.329.
- <sup>14</sup> AUGUSTIN (Saint), Lettres Saint Augustin, traduites en Français Poujoulat (M.), Libraire liturgique et Catholique, Paris,1858, lettre, XLIII,218
- <sup>15</sup> Monceaux ( Paul ), histoire lettre de l'Afrique chrétienne, depuis les origines jusqu'a l'invasion arabe, T.IV, (LE DONATISME ), éditeur Ernest Leroux, Paris 1912, p.p.232-233.
- <sup>16</sup> Ibid., p.22.

<sup>17</sup>-Lapeyr , l'ancienne église de Carthage, (études et documents) 1<sup>er</sup> série, Beauchesme.G, Paris, 1932., p. 52 .

<sup>18</sup> -Monceaux(P.),H.L.A.C.,IV, p. 30.

<sup>19</sup> "أوروليوس أغسطينوس" (*Aurelius Augustianus*) ولد في 14 /10/ 354 م بتاغست (*Tagast*) من أسرة متوسطة، الأب "باتريسيوس" (*Patricius*) مجند في الجيش الروماني، ويدين بالوثنية، والأم "مونيكا" (*Monique*) تدين بالمسيحية. نشأ أوغسطين وتعلم الابتدائية في بلدته ، ثم انتقل إلى مداوروش للدراسة الثانوية، وأرسل إلى قرطاج ثاني كبرى المدن بعد روما في الغرب لإتمام دراسته. قضى سنوات صباه في اللهو والميوعة، ولم يستجب لنصائح والدته ، ثم تنقل إلى روما ، وتأثر بالثقافة الإغريقية والرومانية، فدرس شعر "هوميروس" (*Homeres*)، وتأثر بخطابة "شيشرون" (*Cicron*) أعتنق المذهب المانوي قبل أن يعتنق المسيحية في الثانية والثلاثين من عمره في 387 /04/24 م. شغل منصب عراف في هيون (*Hippone*) ثم عين أسقفا لنفس المدينة خلفا "لفاليريوس" (*Valerus*) حارب بقلمه المبتدعون والمهرطقة وأعلن العداء للدوناتييين. مات في 430/08/28 م قبيل سقوط هيون في يد الوندال ترك العديد من التأليف من أهمها "مدينة الله" و"الاعترافات". للمزيد من المعلومات أنظر :- عقون (محمد العربي)، المرجع السابق ، ص.ص. 119-134؛

MARROU(Henri) ,op.cit, p.p .11 -17.

<sup>20</sup>Monceaux(P.),H.L.A.C.,IV, p.237.

<sup>21</sup>-Dominique Arnauld, Histoire du Christianisme en Afrique, les sept premiers siècles, éd.,Kantada , Paris, 1996. p.86.

<sup>22</sup>-Augustin (St.), lettre, LXXXIV.2.

<sup>23</sup>-Courtois(Ch), « Saint Augustin et le problème de la survivance du punique », R.AFR. N, 94,1950,pp,267-269.

<sup>24</sup>-Augustin (St.), lettre , CCIX.2.

<sup>25</sup>-Id, Con., Lit., Petil., LXXXIII,184.

<sup>26</sup>-Monceaux(P.) ,H.L.A.C.,IV, pp.113- 114.

<sup>27</sup>-Optat II,17.

<sup>28</sup> محمد البشير شنيقي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية... ، ص. 299 .

<sup>29</sup>-Augustin(St.), lettre, CLXXXV.

<sup>30</sup> محمد المبكر، المرجع السابق، ص.228.

<sup>31</sup>-Monceaux(P.),« l'église Donatiste avant Saint Augustin »,,,p.42.

<sup>32</sup>-Monceaux(P.),, « l'église Donatiste avant Saint Augustin »,,,p.51.

<sup>33</sup>-Augustin (St.),Cont ., Lit., Petil., II,83,184.

<sup>34</sup>-Monceaux(P.),H.L.A.C.,IV, p.244 .

<sup>35</sup> محمد البشير شنيقي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية... ، ص.298 .

<sup>36</sup>-Augustin (St.), lettre, CLXXXV.

<sup>37</sup>-GAUDEMMENT(Jean),L'église de l'empire romain(IV°V°siècle), F,Boisseau,Toulouse, 1958,p.439 .

<sup>38</sup>-CHARBONNEAU (M.),« L'inscription du Téristyle de potitus a Constantine»R.S.A.C., N° 13, 1869, p.127.

<sup>39</sup> جوليان شارل أندري، المرجع السابق، ص.303.

<sup>40</sup>-Monceaux (P.),H.L.A.C.,IV, p.245 .

<sup>41</sup>-Augustin (St.), lettre, LXVI, 357.

<sup>42</sup>-Salama (P.),les voies romaine ,,p. 95.

<sup>43</sup>-Leschi(L.)« Recherches, Epigraphiques dans le pays dés Nemèmcha » R.AFR.,N°72,1931 p.275.

<sup>44</sup>-Gsell(S.),l'Algérie dans l'antiquité...p.p.118-119.

<sup>45</sup>-Augustin(St.),la Cite de Dieu, trad. Gabriel Videt, T.I ,libraire ,Bruhet , Alger,1930,IV,34

<sup>46</sup>-Gsell(S.),l'Algérie dans l'antiquité...p.119.

<sup>47</sup>-Brisson (J.P),op-cit .,p.199; Monceaux (P.),H.L.A.C.,IV, p.322 .

<sup>48</sup>-Augustin (St.), lettre , XX III ,77 .

<sup>49</sup>-Monceaux «(P.),l'église Donatiste au temps de (St) Augustin »...,p.25.

<sup>50</sup>-Augustin (St.), cont.,Cresc.,Gram., Donat., texte de M.Petschenig, traduction de G .Finaert, « Bibliothèque Augustinienne », Paris,1965,XLV.49.

<sup>51</sup> -Mesnage (P-J), op-cit., p.p .227-229.

<sup>52</sup>-Brisson (J.P), op-cit., p. 230.

<sup>53</sup>-Monceaux (P.),H.L.A.C.,IV, p.p. 356 - 357 .

<sup>54</sup>-Ibid, p.356.

<sup>55</sup>-Augustin,(St.),lettre ,XLIII,227.

<sup>56</sup>جوليان شارل أندري، المرجع السابق ، ص. 307

<sup>57</sup>-Augustin(St.), lettre , XX IV ,79 .

<sup>58</sup>-Brisson(J.P.), op-cit. ,p.p .224-24-25.

<sup>59</sup>-Toulotte(A.) Géographie de l'Afrique chrétienne (Proconsulaire ) imprimerie Notre-Dame des Prés, Paris,1894, p.58.

<sup>60</sup>لما انتصر الجناح البريمياني سنة 397 م قرر العفو عن بعض الأساقفة الماكسميانيين وعادوا إلى الكنيسة الدوناتية، ولكن الجناح الماكسمياني لم ينته تماما، إلا أنه ضعف وبقي محصورا في إقليم البصاسين. للمزيد ينظر، محمد المبكر، المرجع السابق ص ص.235-236.ح.26.

<sup>61</sup>-Augustin (St.),cont.,Cresc.,Gram., donat. ,XLV.49.

<sup>62</sup>Augustin (St.),cont. ,Litt.,Petil. II,LXXXVIII,195.

<sup>63</sup>-Cod.,Theod.,XVI,2,29.D'après,Monceaux ,«l'église Donatiste au temps de Augustin», p. 24

<sup>64</sup>-Monceaux (P.), «l'église Donatiste au temps de(St)Augustin », p.39.

<sup>65</sup>-Augustin (St.), lettre , LII , 274.

<sup>66</sup>-François DECRET ,le Christianisme en Afrique du Nord ancienne, Edition du Seuil , Paris, 1996 . ,p.166.



<sup>67</sup>-Monceaux (P.), ,H.L.A.C.,IV, p . 259.

<sup>68</sup> جوليان شارل أندري، المرجع السابق، ص. 308.

<sup>69</sup>-François DECRET ,le Christianisme en Afrique du Nord ancienne,,p.167.

<sup>70</sup>-Monceaux(P.),«l'église Donatiste au temps de (St.) Augustin », pp.47-48.

<sup>71</sup> -Dict. de Con., pp. 501-510.

<sup>72</sup> جوليان شارل أندري، المرجع السابق، ص. 308.

<sup>73</sup>-François DECRET ,le Christianisme en Afrique du Nord ancienne,,p.175.

<sup>74</sup>-Augustin (St.), lettre ,CLXXXV.30.

<sup>75</sup>-Monceaux (P.), «l'église Donatiste au temps de(St)Augustin »..., p.65.

<sup>76</sup>-François DECRET ,le Christianisme en Afrique du Nord ancienne,,p.175.

## الممالك اليمنية القديمة

د. السعيد شلالقة/ قسم العلوم الانسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي

### الملخص :

يعتبر أهل اليمن القديم من أبرز شعوب شبه الجزيرة العربية القديمة مكانة حضارية ، حيث تميزوا بالسبق الحضاري عن مجتمعات المنطقة في عصورها القديمة ، و قد ساعدتهم عوامل متباينة لإنجاز و إبراز الإنتاج الحضاري اليمني المتنوع ، و من مظاهر ذلك تمكن اليمنيون القدامى تأسيس العديد من الممالك القديمة التي ساهمت في تطوير الحضارات الكثيرة التي عرفتها منطقة جنوب شبه الجزيرة العربية .

### Abstract:

Old family Yemen considers from produced people comparable with of Arabian peninsula old civilized standing , where the civilized antecedence about societies of the area in her old eras be distinguished in , and helped them different laborers to accomplishing and showing of civilized showing the production the assorted Yemeni , and from appearances that the old Yemeni managed establishment many from the kingdoms old which development of the civilizations contributed in many

which introduced her area south of comparable with of Arabian peninsula .

**I - عوامل قيام الممالك اليمنية القديمة :** يقع اليمن جنوب شبه الجزيرة العربية ، و هو أحد الأجزاء الحضارية بالمنطقة ، و تمثل جزء من منطقة النشؤ الحضاري القديم الواقعة بين خطي طول 10 إلى 70 درجة شرقا و خطي عرض 10 إلى 45 درجة شمالا ، و تشتمل كل من إيران و وادي رافدين و آسيا الصغرى و سوريا و بلاد الشام ، و مصر و قرطاجنة و شبه الجزيرة الأيبيرية ( إسبانيا و البرتغال حاليا ) ، و بلاد اليونان و شبه الجزيرة الإيطالية ، و عدد من الجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط خاصة جزيرة كريت ، و بعض مناطق شبه الجزيرة العربية<sup>1</sup> .

و في منطقة اليمن الواقعة جنوب شبه الجزيرة العربية تأسست العديد من الممالك الحضارية القديمة ، و قد ساعدتها الكثير من العوامل أهمها :

1 - الموقع الجغرافي : تتمتع منطقة اليمن بموقع استراتيجي فعال ، حيث تشرف على ثلاث مسطحات مائية من الشرق الخليج العربي ، و من الغرب بحر القلزم ( البحر الأحمر ) ، و من الجنوب المحيط الهندي ، و هي ممرات طبيعية بين الجهة الشمالية و منطقة القرن الإفريقي ، و همزة وصل بين افريقيا و آسيا ( باب المندب ) و البحر الأحمر بمصر القديمة و قد ساعدها موقعها الجغرافي بالتواصل مع بلاد فارس و الشرق الاقصى<sup>2</sup> .

2 - طرق المواصلات : نجد العديد من الطرق البرية التي ساهمت في تواصل منطقة اليمن القديم بمختلف مناطق الجوار الجغرافي ، حيث تجد الطريق الرابط بين اليمن و سوريا مرورا ببلاد الحجاز ( مكة ) ، و الطريق الرابط بين اليمن و بلاد الرافدين عن طريق نجد و المنطقة الشمالية الشرقية ، و طريق اليمن المتجه نحو الجهة الشرقية ، و قد شكلت اليمن بموقعها المميز معبرا برياً يربطها مع دول الجوار الجغرافي سياسياً و اجتماعياً و ثقافياً و دينياً و عسكرياً ، و مجالاً متصلًا لعملية التأثير و التأثير الحضارية المتبادلة ، و خاصة الأخذ التجاري و الإنجازات التي عرفتها حضارات الجوار الجغرافي ، الأمر الذي ساهم في البروز الحضاري لليمن القديم ، كما ساهم تقارب الشواطئ المطلّة على فارس و أفريقيا و آسيا ، فارس غرباً و بلاد البونج جنوباً و مصر شرقاً في عملية الاحتكاك بالشعوب القديمة ، و تلك المساحة المائية الشاسعة شكلت طرقاً بحرية تصلها بالشرق الأقصى<sup>3</sup> .

3 - الأساس الاقتصادي ( الزراعة ) : ادت الظروف المناخية الملائمة كغزارة الأمطار و اعتدال المناخ إلى انتشار الزراعة في مختلف المناطق اليمنية القديمة ، مما ساهم في إنتاج الكثير من المحاصيل الزراعية أهمها : الحبوب ( القمح و الشعير ) و البقوليات و الخضر ، و الأشجار المثمرة المختلفة ، و البساتين و النخيل و اللبان و التوابل و البخور و الطيوب و المر و القرفة و المستكة<sup>4</sup> .

4 - المناخ : ساعد المناخ ببلاد اليمن القديم على النشأة الحضارية المبكرة ، حيث شكلت البيئة المناخية الملائمة لفترة زمنية طويلة على خلق بيئة مشجعة على الاستقرار البشري ، و محفزة لممارسة مختلف الأنشطة ، حيث أن المنطقة اليمنية العربية كانت تقع

في وسط الظروف الجغرافية القاسية سواء بسبب الزحف الجليدي في المناطق الشمالية أو بسبب المطول المستمر للأمطار الغزيرة في المنطقة الاستوائية ، و هكذا تمتعت المنطقة بمناخ معتدل نسبيا لا يعيق النشاط البشري ، و من هنا وقع الحوار بين الانسان و البيئة الطبيعية المحيطة به ، و بدأت الإنجازات الحضارية الاولى للإنسان اليمن القديم<sup>5</sup> .

لقد شجعت وفرة الانتاج الزراعي اليمنيون القدامى على ممارسة النشاط التجاري خاصة أن المنطقة تشكل ممرات برية و بحرية متعددة الاتجاهات ، الامر الذي انعكس بالإيجاب على أهل اليمن ، حيث عملوا كوسطاء تجاريين بين الأمم آنذاك ، مما ساعدهم على التحكم في زمام التجارة العالمية القديمة بين الشمال و الجنوب و الشرق و الغرب لقرون طويلة .

**II - الممالك اليمنية القديمة :** يعد اليمنيون القدامى أول شعوب شبه الجزيرة العربية تحضرا في العصور القديمة ، ففي منطقة جنوب بلاد العرب تمكنوا من تأسيس ممالك كبرى تميزت بالتطور الحضاري على المستوى السياسي و الاقتصادي و تنظيم الاجتماعي و الرقي الثقافي و تنوع الديني ، و النضج الفكري مما أكسبها مدينة مرموقة بين الشعوب المجاورة لها . حيث بدءوا ببناء الحصون و القصور ، و كانت منتشرة في القرى و المدن وتعرف القصور باسم ( المحافد ) ، و كان صاحب القصر أو المحفد يعرف بـ : " ذي " ، و إذا تجمع عدد من الأذواء أو المحافد في مقاطعة كبيرة سمي مخلاف ، وكانت مخاليف اليمن كثيرة ، قال اليعقوبي: "أثما ثمانية و أربعون خلفا " وكان يتولى شؤون المخلاف

شيخ أو أمير يقال له " قيل " ، و برز عدد لا بأس به و أنشئوا ممالك كبرى<sup>6</sup> ، و من أبرزها :

**1 - مملكة البنط :** يسميها البعض باسم ( فوط ) و التي قامت في الطرف الجنوبي من البحر الأحمر و على جانبي باب المندب ، و كان من ملوكها ( باريهو ) الذي حكم في أواسط الألف الثانية قبل الميلاد ، و ذكر هيردوتس أن الملك ( ساحو رع أو ساهوري ) من الأسرة المصرية الخامسة ( 2743 - 2731 ق . م ) قد قاد حملة بحرية بطريق البحر الأحمر إلى بلاد تفيض لبانا على ضفتي باب المندب في الجنوب ، وأن الملك المصري سنوسرت الأول ( 1980 - 1935 ق . م ) من الأسرة الثانية عشر قد افتتح الأمصار المتاخمة للخليج العربي ، كما قامت الملكة المصرية ( حتشبسوت ) من الأسرة الثامنة عشر بحملة متكونة من خمسة سفن إلى أرض الأرواح أي البنط للحصول على أشجار البخور و الأعشاب الثمينة و الجواهر و سنن الفيلة و العنبر ، و قد استقبلها ملكها ( باريهو ) و زوجته ( آني ) ، و قد سجلت الملكة المصرية هذه البعثة على جدران " معبد دير البحري " بالأقصر<sup>7</sup> .

**2 - مملكة معين :** يرجع معظم المؤرخين أن دولة معين قامت ما بين 1300 - 700 قبل الميلاد ، و يعتبر المعينيون من أقدم الشعوب التي حملت لواء الحضارة في جنوب شبة الجزيرة العربية ، و هم شعب عربي قديم سكن جنوب المنطقة منذ فجر التاريخ . و قد قامت دولة معين في منطقة الجوف بين حضر موت و نجران نظرا لسهولة المكان ، و كثرة الأشجار و البساتين و المساحات الرعوية ، بالإضافة إلى وفرة مياه

الأمطار و وجود الكثير من الأودية ، فضلا على الجبال المحيطة بها من ثلاث جهات مما شكل حماية طبيعية لها<sup>8</sup>.

و قد جاء ذكر المعينون في الكتاب المقدس ( العهد العتيق ) في : " الله أعان عزيا على الفلسطينيين و على العرب المقيمين بجوار بعل و على المعونيين ) ، كما جاء ذكرهم في نصب قدم في آثار بابل يعود إلى 2750 قبل الميلاد ، نقش عليه أن ( نرام سين ) قاد حملة على معان و قهر ملكها معنيوم ، كما ورد ذكرهم مرة أخرى في آثار بابل مع العماليق عام 2300 قبل الميلاد . و قد اختلف العلماء في بداية نشأت هذه الدولة ، فذهبت جماعة إلى أوائل القرن 14 قبل الميلاد ، و البعض للقرن 13 قبل الميلاد و استمرت حتى 650 أو 630 قبل الميلاد ، و يرجعها البعض إلى القرن 14 قبل الميلاد حتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد . كانت عاصمتهم ( قرناو ) ، و من مدنهم : نشق و براقش و كمننا<sup>9</sup> .

و قد لقب الملوك المعينين في بداية عهد الدولة المعينية بلقب ( مزود ) أي المقدس ، و من الألقاب الملكية يشع أي المنقذ ، و يطوع بمعنى المخلص والصديق أو الصادق و العادل و الفخور و السامي . و قد ذكر تيودور الصقلي الذي عاش في القرن الأول الميلادي ، و الجغرافي استرابون ( 66 - 24 م ) و غيرهم أخبارا عن دولة معين<sup>10</sup> . و كذلك لقب ( ريام ) أي المضى ، و بلقيس أي الشهير ، و لقب ياسر بمعنى السعيد . و تشير الآثار المكتشفة أن عدد الملوك ما بين 23 و 29 ملكا من بينهم :  
\* الملك اليفع و قه .

\* إبنيه وقه إيل صديق

\* أبو كرب يثع

\* أب يدع يثع

\* وقه إيل ريام

\* يثع إيل صديق

\* يثع إيل ريام ، و إبنه تبع كرب 650 - 630 قبل الميلاد<sup>11</sup> .

**3 - مملكة حضر موت :** تقع شرق اليمن على ساحل بحر العرب ، عاصمة دولتها " شبوة " ، وكانت تعاصر دولة معين و قتيان و سبأ في الفترة الممتدة ما بين 1020 - 290 قبل الميلاد ، من أهم ملوكها : \* مؤسس الدولة الملك صوفي إيل \* يشكر إيل يه رعرش بن أبيع \* عله ان بن ي رعرش \* ال زباط \* يدع آل بين

**4 - مملكة قتيان ( 1000 - 25 ق . م ) :** قامت في غرب بلاد اليمن إلى الجنوب من مملكة سبأ عاصمتها " تمنع " و هي كحلان الحالية في وادي بيجان ، عرفت الحكم الأسري و من أبرز ملوكها :



\* يدع أب ذبيان من الأسرة الأولى بين القرنين السابع و الخامس قبل الميلاد

\* أبشيم و ابنه شهر غيلان - شهر يجيل حكم 300 قبل الميلاد من الأسرة الثانية

\* هوف عم بوهنعم ( 100 - 25 ق . م ) أول ملوك الأسرة الثالثة ، و ابنه ورو إيل

غيلان بوهنعم

\* فرع كرب يوهو دع<sup>12</sup> .

5 - مملكة أوسان ( 230 - 115 ق . م ) : قامت جنوب غرب قتبان و سيطرت

على القسم الساحلي من الإقليم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية ، و من أشهر

ملوكها :

\* يصدق إيـل فـرعـم شـرح

\* عت بن ود الذي حكم 450 قبل الميلاد

\* معد إيـل سـلحان بن يصدق إيـل

\* عم يتع غيلان لحي<sup>13</sup> .

6 - مملكة سبأ : يرى بعض المؤرخين أن تأسيسها يعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد

، و أما الرأي الثاني يرجع تأسيس المملكة للقرن التاسع قبل الميلاد و بضبط إلى 820

قبل الميلاد ، و تذهب الروايات العربية أن سبأ هو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن

قحطان ، و أن سبب تسميته بسبأ أن الرجل أول من سبى من العرب . و فيما يخص

نسبه فقد جاء ذلك في كتابة حفرت على النحاس في مجموعة مسماة بـ : ( . P

Lamare) و إن كان العلماء لم يقولوا الكلمة النهائية في نوع الكتابة و زمانها . و يذكر أنه يسمى ( الرائش ) لأنه كان يعطي الناس الأموال من متاعه ، و يزعم البعض أنه أول من توج<sup>14</sup> .

ذكرت النصوص الآشورية السبائيين و حاكميين لهم في ثلاث مناسبات ترجع إلى تواريخ مختلفة ، حيث نجد نص للملك الآشوري ( تجلات بلاسر الثالث 745 – 728 ق . م ) ، حيث تلقى الملك الجزية السبائية من الذهب و الإبل و التوابل ، و أكد النص الثاني للملك ( سرجون الثاني 722 – 705 ق . م ) أنه تلقى من ( إني أمر ) السبي جزية من الذهب و الأحجار الكريمة و الأعشاب و الخيول ، ثم ذكر نص لولده الملك ( سنحريب 705 – 681 ق . م ) أنه استقبل مندوبا عن الحاكم السبي ( كربي إيلو ) حمل له جزاه أو هدايا من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة و الطيوب ، و وضع جانبا منها بأمر مولاه في أساس المبنى الجديد المسمى ( بيت أكتيو ) و قد يكون معبدا أو حصنا أو قصر<sup>15</sup> .

و من الإشارات القديمة التي تحدثت سبأ " العهد القديم " ، حيث ذكرت: " أن بني سبأ كانوا يزودون الشام ومصر بالطيب"<sup>16</sup> ، و المواد المصدرة إليهما كالذهب والأحجار الكريمة ، كما وردت إشارة لكلمة ( سبو ) في نقش سومري للملك ( أرد ناتر ) ملك أسرة لكش عاصر آخر ملوك أور ، و عاش في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد ، و التي دلت على أرض السبئيين . و ذكر العالم " هومل " عن ( سام ) التي

ترجع إلى أيام الملوك أور بعد سنة 2500 قبل الميلاد بوصفها سبأ التي وردت في العهد القديم<sup>17</sup>.

و قسم المؤرخون تاريخ سبأ إلى عصرين بارزين معتمدين في ذلك على أن لقب حكام سبأ لم يكن ثابتاً إنما كان يتغير من عصر لآخر طبقاً لظروف الدولة نفسها ، هما :

1 - العصر الأول ( 950 - 650 ق . م ) : كان حكامهم يلقبون فيه باللقب الدين ( مكرب ) و تقابله في العربية ( مقرب ) ، و هو أمير كان يقوم بذبح القرابين للآلهة ، كما كان يقوم بدور الوساطة بين الآلهة و الناس ، و هي إشارة إلى القداسة التي يركزون إليها في ممارسة الحكم للولاء سواء من الناحية المدنية أو الدينية . و كانت عاصمتهم مدينة ( صرواح ) الواقعة بين مدينتي مأرب و صنعاء ( مدينة خريبة حالياً ) شرق صنعاء<sup>18</sup> .

2 - العصر الثاني ( 650 - 115 ق . م ) : و فيه نال حكام سبأ لقب ( ملك ) ، و قد بدأ هذا العصر بالمكرب ( كرب إيل وتر ) الذي حول لقبه إلى ملك ، و أصبحت عاصمتهم مدينة ( مأرب ) الواقعة على بعد 10 كلم شرق صنعاء ، و اتخذ قصر ( سلحين ) الشهير قاعدة للسبئيين بدلا من مدينة صرواح ، و

م ————— من أشهر ملوك سبأ :

1 / ملوك العصر الأول :

\* سمسة علسي : مؤسس دول سبأ

\* يدع إيل ذريح بن سمسة علسي

\* يش مع أم  
 \* يدع إي ل بي ت  
 \* سم ت علي ب بن نون ب ذ م ر  
 \* يش مع أم ر ب ين  
 \* كرب إيل وتر

2 / مل و ك العص ر الث لاني :  
 \* ك رب إي ل وت ار  
 \* سم ة عل عى يعص ب  
 \* الش رح يص عب  
 \* يك رب مل ك وت ار  
 \* نشأ كرب بها من<sup>19</sup> .

كما ذكرت المصادر الآشورية نحو ست ملكات عربيات حكمن منطقة شمال شبه الجزيرة العربية<sup>20</sup> .

7 - المملكة الحميرية ( 115 ق . م - 525 م ) : تنقسم إلى عشرين هما :  
 1 - الدولة الحميرية الأولى ( 115 ق . م - 300 م ) : ينسب الحميريون إلى حمير بن عبد الشمس ( سبأ ) بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، و هم من القبائل العربية المعروفة في العربية الجنوبية<sup>21</sup> . و هو أول من وضع من ملوك اليمن على رأسه التاج من الذهب مفصصا بالياقوت الأحمر ، و حكم خمسين سنة و قيل غير ذلك . و

استشهد المؤرخ ( بليوس ) بأقوال القائد الروماني ( إيليوس جالوس ) و أكد أن السيادة في جنوب شبه الجزيرة العربية لدى بني حمير تحت إمارة ملوك لقبوا بلقب ( ملوك سبأ و دي ريدان ) . و يذكر استرابون أن مكرب حاضرة سبأ كانت على أيام الحملة الرومانية على اليمن تابعة لـ ( إيل شرح يحضب ) ملك سبأ و ذي ريدان الذي أطلق عنه استرابون اسم ( إلا زاروش ) ، و قد اتخذ من ( ظفار ) \*\* عاصمة لهم ، و كان المقر الملكي يدعى ( ريدان ) ، و لذا لقبوا ببني ريدان . و توسع الحميريون على الحضارمة و القتبانيين و بسطوا نفوذاً واسعاً في جنوب بلاد العرب ، و أضحوا في عام 70 م قوة كبيرة تسيطر على ساحل البحر الأحمر و المحيط الهندي إلى حضرموت وصولاً إلى المناطق الداخلية التابعة لأهل سبأ ، و جزء من الساحل الإفريقي ، و استولوا على الحبشة في القرن الأول للميلاد . و في عهد ( كرب إيل وتر ينعم ) ملك سبأ وذي ريدان الذي أطلق عليه صاحب كتاب ( الطواف حول البحر الاريثري ) اسم ( شريثيل ) تطورت أكثر خلال النصف الثاني من القرن الأول للميلاد ، و من أهم الملوك :

\* يـــــــزل بيــــــــــــان

\* نشـــــــأ كـــــــرب يـــــــمـــــــين يـــــــرحـــــــب

\* وتـــــــر يـــــــهمـــــــن

\*\* - منطقة خصبة قرب مدينة بريم الحالية ، و حمتها عدة حصون قامت على التلال التي تحيط بها ، و كان حصن ريدان أكبرها فأصبح حصنها الملكي . انظر : - صالح عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص 108 .

\* ياسر يصردق

\* ذمار علي يحابر<sup>22</sup>.

2 - المملكة الحميرية الثانية ( 300 - 525 م ) : و يعرف هذا العصر باسم ( ملك سبأ و ذي ريدان و حضرموت و يمنات ) ، و أطلق عليه المؤرخين العرب اسم ( عصر التبابعة ) ، و مؤسس هذا العصر الملك ( شمر يهرعش ) المعروف عند الإخباريين باسم ( شمر يرعش بن ناشر النعم ) الذي حكم ما بين 270 إلى 310 للميلاد . و قد تميز هذا العصر أن لقب الملك تغير فأصبح الواحد منهم يلقب ( ملك سبأ و ذي ريدان و حضرموت و يمنات و أعرابها في المرتفعات و التهائم ) ، و كذلك دخول اليهودية و المسيحية إلى اليمن<sup>23</sup> . و من أهم ملوك هذا العصر الملك شمر يهرعش ، و يريم يرحب بن شمر يهرعش ، و في عهده تمكن النجاشي ( الأعميد ) ملك الحبشة من غزو مملكة حمير و طرد ملكها ( يريم يرحب ) عام 340 الميلادي<sup>24</sup> . لكن الثورات الحميرية بقيادة الملك ( ملكي كرب بھمن ) المعروف باسم ( أبو كرب أسعد ) انتصر على الأحباش و استعاد السيطرة الحميرية على البلاد سنة 387 للميلاد ، و قد خلفه عن الملك ( شرحبيل يعفر ) عام 420 للميلاد ، ثم ( عبد كلال ) المعروف في المصادر باسم ( عبد كاليل بن نيوف ) ، و آخر ملوك حمير ( ذو نواس ) 510 إلى 525 الميلادي و اسمه ( زرعة ذو نواس بن تبان أسعد أب كرب ) و في عهده احتل الأحباش اليمن<sup>25</sup> .

لكن الاحتلال الحبشي واجهته العديد من الثورات اليمنية لكنها فشلت ، إى أن ظهر زعيم وطني من قبيلة حمير اسمه ( سيف بن ذي يزن ) و يكنى ( أبو مرة ) الذي

طلب المساعدة من ملك الحيرة ( النعمان بن المنذر ) بالتعاون مع كسرى الفرس الذي وافق على طلبهما مقابل خراج سنوي يحمله ( سيف ذي يزن ) إلى فارس ، فقبل ذلك . فوصلت الحملة إلى اليمن و انضم إليها أتباع الملك الحميري ، و دارت الحرب ضد الملك الحبشي ( مسروق بن أبرهة ) و قتل في المعركة و انهزم ، و طرد ( سيف ) الأحباش من اليمن . و بعد مقتل ملك حمير من طرف بعض الخصوم الأحباش ، تدخل الفرس بقيادة ( وهريز ) و أصبح حاكما مباشرا على اليمن من قبل كسرى حتى الفتح الإسلامي 628 للميلاد<sup>26</sup> .

**الخاتمة :** إن البحث في تأسيس الممالك اليمنية في جنوب شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة يساعد على الوصول إلى الاستنتاجات الآتية :

- تحكم العوامل الطبيعية في قيام هذه الممالك ، حيث اختلفت مواقع عواصمها جغرافيا
- هوية الممالك اليمنية محلية ، ذات صبغة وطنية
- تمثل صورة من النضج والتطور في الفكر السياسي اليمني القديم
- الاعتماد الرئيسي على المقومات البشرية و المادية الداخلية
- مساهمة الممالك في تأسيس حضارات كثيرة داخل اليمن
- سهر الملوك على البناء و الازدهار الحضاري
- انفتاح المنطقة على الشعوب الاخرى و الاستفادة منها

## - تصدير بعض المظاهر الحضارية اليمنية القديمة

## - الهوامش :

- 1- زيد محمد خضر ، تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم ، ط 1 ، دار الاندلس - حائل - السعودية 2005 م ، ص 73 .
- 2 - لطفي عبد الوهاب يحي ، العرب في العصور القديمة ، ط 3 ، دار النهضة العربية - بيروت - لبنان 1430 هـ / 2009 م ، ص 27 .
- 3 - زيد محمد خضر . المرجع السابق ، ص 85 .
- 4 - بلقاسم رحماني ، الحضارة اليمنية ، ج 1 ، مطبعة بغيحة - قسنطينة نوفمبر 2009 م ، ص ص 85 - 86 .
- 5 - لطفي عبد الوهاب يحي ، المرجع السابق ، ص ص 27 - 32 .
- 6 - علي معطي ، تاريخ العرب السياسي قبل الإسلام ، ط 1 ، دار المنهل اللبناني لطباعة و النشر - بيروت - لبنان 1425 هـ / 2004 م ، ص 122 .
- 7 - المرجع نفسه ، ص ص 178 - 179 .
- 8- زيد محمد خضر ، المرجع السابق ، ص 127 .
- 9 - علي معطي ، المرجع السابق ، ص 179 .
- 10- محمد سهيل طقوش ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط 1 ، دار النفائس - بيروت 1430 هـ / 2009 م ، ص 287 . وكذلك : - زيد محمد خضر ، المرجع السابق ، ص 127 .
- 11- علي معطي ، المرجع السابق ، 181 . و أيضا : - زيد محمد خضر ، المرجع السابق ص 130 .



- 12 - محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ص 291 - 292 .
- 13 - زيد محمد خضر ، المرجع السابق ، ص ص 140 - 141 . وكذلك :
- محمد سهيل طقوس ، المرجع السابق ، ص 295 .
- 14 - محمد بيومي مهران ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، ط 2 ، دار المعرفة الجامعية - مصر - القاهرة 2005 م ، ص ص 231 - 232 . و أيضا : - علي معطي ، المرجع السابق ، ص 207 .
- 15 - عبد العزيز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة ، مكتبة الأنجلو المصرية - مصر - القاهرة 1997 م ، ص ص 43 - 44 .
- 16 - العهد العتيق ، سفر التكوين - الفصل 10 ، ص 17 .
- 17 - علي معطي ، المرجع السابق ، ص ص 193 - 194 .
- \* - المقرب للمعبودات أي المشرف على تقديم القرابين إلى أربابه ، و هي إشارة إلى القداسة بالوكالة التي تركز عليها في ممارسة سلطاته الدينية و الدنيوية . انظر : - عبد العزيز صالح المرجع السابق ، ص 49 .
- 18 - توفيق برو ، تاريخ العرب القديم ، ط 2 ، دار الفكر ، دمشق-سوريا 1996 م ، ص 73 و كذلك : - محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص 239 .
- 19 - زيد محمد خضر ، المرجع السابق ، ص ص 143 - 147 .
- 20 - عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ، ص ص 41 - 42 .
- 21 - محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 304 .
- \*\* - منطقة خصبة قرب مدينة بريم الحالية ، و حمتها عدة حصون قامت على التلال التي تحيط بها ، و كان حصن ريدان أكبرها فأصبح حصنها الملكي . انظر : - صالح عبد العزيز المرجع السابق ، ص 108 .

- 22 - محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص 240 . وأيضا: - علي معطي ،  
المرجع السابق ، ص ص 206 - 209 .
- 23 - زيد محمد خضر ، المرجع السابق ، ص ص 153 - 154 .
- 24 - صالح عبد العزيز ، المرجع السابق ، ص 107 و بعدها .
- 25 - محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص ص 309 - 313 .
- 26 - زيد محمد خضر ، المرجع السابق ، ص ص 154 - 160 . انظر : - محمد  
بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص ص 335 و 346 . وكذلك : - بلقاسم رحماني ،  
المرجع السابق ص 132 .

## التاريخ عند ابن خلدون وما ضمَّنه من نظريات اجتماعية إسلامية وعربية

بناءة ومتجددة

أ. كباس يمينة/ المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة / الجزائر

ملخص:

يعتبر عبد الرحمان ابن خلدون من أعلام ومشاهير الفكر العربي الإسلامي، هُندس من خلال دراسته للتاريخ علماً جديداً، أسماه علم الاجتماع الإنساني والعمران البشري، شرح من خلاله كيف أن تحليل الحادثة التاريخية بكل حيثياتها، يُفضي إلى فهم دقيق للظواهر الاجتماعية السابقة، لأهم أنشأت دُولاً وحضارات عمَّرت رداً من الزمن، وقياساً على الحياة العامة لهؤلاء نبي نظرياتنا الاجتماعية الراهنة، التي من شأنها الحفاظ على هيكلية العمران البشري الحالي، وضمن أعلى قدر ممكن من العيش الكريم لأفراده، خاصة في العالم العربي الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، الاجتماع الإنساني، العمران البشري، الظواهر الاجتماعية، النظريات الاجتماعية.

**Abstract :**

Abd erahman ibn khaldoun was considered one of the very well\_know icons of the Islamic and Arabic thoughts, thanks to his study of history he established a new science named humans sociology through his study he managed to analyse the historical incident and every aspect of it which led us to the pressiced

comprehension of passing communities who founded many civilizations that lasted for a very long time, these civilizations which we took most of our current sociology theories from guarantee a better life for all communities especially for the Arabic Islamic world.

**Keywords:** the history, the historical incident ,Social theories, Social phenomenon, Human Urbanism, Humanitarian meeting.

#### مقدمة:

تمردا منا على التقليد الذي تنتهجه معظم الدراسات في التعريف بالشخصيات المحورية لها، ارتأينا عدم التطرق إلى التعريف بعبد الرحمان ابن خلدون، لما لهذا الرمز العلمي من ذياح صيت في أرجاء العالم؛ لكننا سنحاول عبر هذه الأسطر التلميح إلى جوانب من عصارة ذهنيته، المعروفة لدى أتباعه بالنظريات بالخلدونية، والتي ترسخت في عدة علوم قديمة وحديثة، على غرار علمي التاريخ والاجتماع، وما حملّه هذا المؤرخ والمفكر من نظريات اجتماعية عربية إسلامية صرفة، بلغها بنباهة فكره ورجاحة عقله، الذي كان منصرفا وقتها إلى البحث في كنه ماهية التاريخ، لكنه تحرر بطريقة أو بأخرى من المتلازمة التاريخية التقليدية للحدث والمرتبطة أساسا بالإطار الزمكاني له، فأسقط ما توصل إليه عبر مراحل بحثه، في تاريخ الأمم والأقوام العربية الإسلامية خاصة، على تجربته الاجتماعية المستوحاة من أغوار الواقع، ليخلص في الأخير إلى اكتشاف نظريات تؤسس لعلم جديد،

يهتم بدراسة الظاهرة الاجتماعية بعيداً عن قالبها التاريخي، فكان بذلك ابن خلدون هو واضع نواته الأولى ورائده ومهندسها ذي الصبغة العربية الإسلامية-دونما تخطيط منه لذلك- وعُرف هذا العلم الجديد أو الفن، بعلم الاجتماع الإنساني والعمران البشري، الذي انبثقت عنه عدة نظرياته؛ ولم يكن هذا الفن وحده ما انبثقت عنه غوص ابن خلدون في غياصة التاريخ، وإنما تجلّى لابن خلدون من خلال ذلك عدة نظريات تعالج وتدرس المجتمع العربي الإسلامي من نواحٍ شتى، غفل عنها غيره ممن عاصره وخاض غمار التاريخ، أو صنعة التأليف التاريخي خاصة- إن لم نقل تغافلوا عنها مراعاة لطبيعة وخصوصية هذا المجتمع؛ وانطلاقاً من كون التاريخ والبحث في كنهه وفحواه سبباً في ولوج ابن خلدون إلى علم الاجتماع والتنظير له، وبتتبع مراحل بحثه في ماهية التاريخ، وما توصل إليه من نتائج تنطبق على ماضي وحاضر المجتمع العربي الإسلامي، وحتى تستشرف مستقبله انطلاقاً من تاريخه، ووجب علينا محاولة الكشف عن حيثيات هذا التوسع العلمي لدى ابن خلدون، في مزاجته بين التاريخ والاجتماع والتنظير لكليهما فكيف تمّ له ذلك، ثم ما هي أهم تلك النظريات التي خُلصَ إليها خاصة ما كان منها في علم الاجتماع، وما مدى تطابقها مع الطابع الاجتماعي الإسلامي، سواء في العصر الوسيط- وهو عصر ابن خلدون- أو في عصرنا الحالي إن تمّ لها الامتداد والسيورة التاريخية والاجتماعية في مجتمعاتنا العربية الإسلامية الراهنة؟

صلب البحث:

ابن خلدون عالم عربي مسلم، ذاد بقلمه عن حوزة الإسلام، وقَدَّم لأمتة الكثير من النظريات الاجتماعية، التي أفاد منها حتى غير المسلمين بعدما تُرجم تراثه إلى لغاتهم، إذ أنتج لنا علماً جديداً لم يُسبق إليه، ولم يكن فيه مقلداً لغيره " .. كشف الله لي هذا العلم دون عون أرسطو أو أي حكيم أعجمي"<sup>1</sup>، بمعنى أنه لم يستعن في بناء علمه الجديد بمنطق صوري إغريقي، ولا بآراء غريبة مسيحية، وإنما كان منطقاً وفكره نابعا من واقع عربي إسلامي، اهتدى إليه من نتاج معاشته لمجتمعات ذات إديولوجيات وذهنيات مختلفة، عربية وبربرية وحدتها راية الإسلام، وكان ابن خلدون في إطار ذلك محملاً وناقداً لمختلف الظواهر التاريخية والاجتماعية، التي عايشها أو بلغته أخبارها من سابقه من المؤرخين، فقَولب آراءه حول تلك الظواهر المختلفة صائفاً إياها في نسق قانوني، يجعل من لبّها قاعدة نظرية لعلمه الجديد، القائم على الاجتماع الإنساني وال عمران البشري، والذي لم يكشف عنه منفرداً وبشكل مباشر، وإنما أدرجه ضمن فصل "الصنائع تكسب صاحبها عقلاً"، وأخفى موضوعه ومسائله في شكل مقدمة طويلة لكتاب تاريخي ضخم الأجزاء، سمّاه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر"، ولعل ابن خلدون نَحج على ذلك لسببين اثنين، أولهما كونه فقيهاً عربياً إسلامياً، لذا فمن المتوقع أن يكون كل ما يكتبه يُمْتُّ إلى علوم الفقه بصِلَة، وخشي أن يُساء فهمه من معاصريه من الفقهاء والعلماء، فجنَّب نفسه ردت فعلهم، أما السبب الثاني

فإنما يرجع لإيمانه العميق بالتدرج في تقديم الجديد، "وعدم الشذوذ عن المؤلف والمعتاد، وإلا زُمي بالجنون والوسواس والخروج من العوائد دفعة"<sup>2</sup>.

عاجل ابن خلدون مختلف الظواهر الاجتماعية والتاريخية من منطلق إسلامي محض كما سلف لنا الذكر، لذا فإن التعمق فيما جاء به يكشف عن أصل قرآني أجاد ابن خلدون في حبه أفكاره من خلاله، لذا فإننا نجد يغوص في عمق مختلف ظواهر الاجتماع الإنساني عن علم دقيق بحشيتها وتفصيلها، وحتى نتائجها معتمدا في ذلك على دقة فهمه للنص القرآن فكان بذلك مقتبسا، ثم قياسيا في قياس أحداث التاريخ الإسلامي حاضرها بغائبها، فهو مثلا عندما يتحدث عن العصبية التي تمثل عصب أي ملك أو سلطان، ونواة أي دولة على اختلاف أنواعها- أي العصبية-، يستشهد بالقرآن الكريم ومن آياته في ذلك قوله تعالى: " وَلَوْ دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ"<sup>3</sup>، وقوله تعالى أيضا: " قَالُوا لَئِن أَكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ"<sup>4</sup>، وقد استشهد هنا بالآية الأولى لبيان فائدة العصبية، وبالآية الثانية لبيان أثرها أي الرابطة الاجتماعية والألفة الجامعة، في قوة الجماعة واشتداد شوكتها<sup>5</sup>، ومن هنا يتضح لنا أن ابن خلدون إنما استقى معينه في فهم الظواهر الاجتماعية، وصياغة نظرياتها بحجج وبراهين مؤكدة، من القرآن الكريم وما جادت به آياته، ثم من تحليله للأحداث التاريخية السابقة لعصره وحتى المعاصرة له، مقتديا في ذلك بسابقه من علماء المسلمين

الذين استعانوا بالقرآن في مجال العلوم الطبيعية، مطبقا نفس النهج على الظواهر الاجتماعية، إذ كان يرى أن علم الاجتماع الإنساني وال عمران البشري إنما هو علم الكشف عن سنن الله الاجتماعية، أي قوانين الله في تعامل الناس بعضهم مع بعض، في كل صورة من صور التجمع البشري.

كان القرآن الكريم أول مصادر ابن خلدون في فهم وتحليل الظاهرة الاجتماعية، أما مصدره الثاني فكان الأحداث التاريخية بحيثياتها الزمكانية المختلفة، فالتمتع لتعريف ابن خلدون للتاريخ يعلم أنه إنما كان يُعرّف نتاج السابقين وأخبار الماضي بمنظور اجتماعي محض، يطرح في ثناياه ظروف وكيفيات وكذا نتائج الظاهرة الاجتماعية، دون أن يصرّح بذلك وإنما دسّه في تعريف عام لعلم التاريخ، إذ يقول في مقدمته: "...فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتُشدّ إليه الركائب، والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة<sup>6</sup> والأغفال<sup>7</sup>، وتتنافس فيه الملوك والأقيال<sup>8</sup>، وتتساوى في فهمه العلماء والجهّال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول، تنمق لها الأقوال وتصرف فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصّها الاحتفال، وتودى لنا شأن الخليقة كيف تقلّبت بها الأحوال، واتسع للدول النطاق فيها والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحن منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصل في الحكمة عريق وجدير



بأن يُعد في علومه وخلق<sup>9</sup> <sup>10</sup>، في هذا القول لابن خلدون تعريف ظاهر للتاريخ، ودعوة مبطنة للتدقيق في أخباره، بغية استكشاف كُنْه ولبُّ الظاهرة الاجتماعية على اختلاف حيثياتها من خلاله<sup>11</sup>، ثم الإفادة من نتائجها وحاصلاتها، ولعله الهدف من إنشاء علم الاجتماع، بما يُرتجى منه (إصلاح المجتمع والعمل على تنميته وإزهاره)، فلا نَظُنُّنا نُحيد عن جادة الصواب إذا ما قلنا أن الكتابة التاريخية عند ابن خلدون<sup>12</sup> كانت سببا في إطلاقه لعلم الاجتماع الإنساني والعمران البشري، انطلاقا من بحثه في علل وأسباب الأحداث التاريخية، خاصة بالمغرب الإسلامي الوسيط، وما واكب من دُوله التي كانت تقوم ردحا من الزمن لتتداعى بعد ذلك، محاولا الكشف من خلال ظواهرها الاجتماعية ومحللا لظواهرها التاريخية، عن أهم العلل وراء قيامها ثم زوالها وما يجب الاعتبار به من ذلك، بعد تحليلها وفق قواعد علمية إسلامية تضمن التخطيط السليم، لتنمية مجتمع إسلامي قويم، وتنوء به عن دواعي الضعف والانحلال التي تحتم زواله كنتيجة منطقية لذلك.

من الظواهر الاجتماعية التي عاجلها ابن خلدون في قَوْله تاريخية لتفاصيلها، العصبية والملك والدين... وغيرها<sup>13</sup>، وهي الأسباب والأركان التي تقوم وتشتد بها الدولة، وتزيد من سلطانتها إذا ما تدعّم الملك بالعصبية الدينية، وهي أنفذ وأقوى أنواع العصبية، لأنها أشمل من أي عصبية عرقية أو جنسية ممكن أن تربط أفراد المجتمع الواحد داخل الدولة الواحدة، "فنظرية العصبية عند ابن خلدون هي المحور الأساسي الذي يفسر من خلاله

قيام الدولة ونشوتها، بل حتى الدعوات الدينية لا تنجح إلا بالعصبية كما يذكر، ويقصد بالعصبية ذلك التكتل القوي للمطالبة بالملك، وغالبا ما يقوم هذا التكتل على القبائل والعشائر المتحالفة أو القبيلة القوية، وقد يقاس عليه أي تكتل يتحد في الوجهة والهدف<sup>14</sup>، وهذه النظرية برهنت مدى صحتها وإجادة ابن خلدون في صياغتها بما يتطابق مع الواقع، خاصة إذا ما ربطناها بتاريخ دول المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وهي العينة التي درس من خلالها ابن خلدون هذه الظاهرة ثم نَظَرَ لها بحكم معاصرته لبعض دوله، الملك وما تعلق به من قوة وضعف وأسبابهما أيضا تطرق لهما ابن خلدون، فالأمة المغلوبة على أمرها من غيرها، والتي لا تجمع أفرادها عصبية دينية قوية، وإذا ما استقام لها الملك بعد قيامه مستندا على داعم عرقي قبلي، ثم مالت إلى الدعة والترف، فإن ذلك من علامات قرب فناءها، فالدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك إنما أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق، "...إن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس ونشأ الخلاف، فإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقلَّ الخلاف، وحسن التعاون والتعاقد، واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة"<sup>15</sup>، ولنا في صفحات التاريخ التي تروي عن الدولة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم في عهد خلفائه الراشدين خير مثال على ما جاء به ابن خلدون في هذا السياق، فالاجتماع الديني كأحد أنواع العصبية الوثيق، هو سبب رئيس في قيام أيما دولة ثم اشتدادها وقوتها، خاصة إذا ما تدعمت بوازع عرقي قبلي، فإن ذلك يزيد من عمرها، وإن كان حدد لكل دولة عمراً

طبيعياً كأعمار البشر، فهي تبدأ بالنمو ثم مرحلة القوة ثم الهرم وقرب الزوال بعد ضعفها، لكنه يستثنى مجدداً عامل العصبية كسبب في زوالها ليجعل منه سبباً في علاجها من الهرم، وبذلك يكون عامل العصبية مهم في قيام الدول وكذا في الحفاظ عليها.

العمران<sup>16</sup> غايته الحضارة، كما الدولة غاية العصبية والحضارة غاية البداوة، لكن أهل العمران إذا ما حصل لهم الترف بهذه الحضارة، وزاد عمرانهم وكثر بذخهم فإنهم بذلك ينحتون ذكراهم على صفحات التاريخ لأن زوالهم قد اقترب، وهي الظاهرة الاجتماعية الأخرى التي بيّنها ابن خلدون قائلاً: "... فافهم ذلك واعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات"<sup>17</sup>، أما في أسباب الترف وأشكال الكسب والمعاش فقد أفرد ابن خلدون لذلك باباً خاصاً عالج فيه طرق الكسب، وتطرق فيه للظاهرة الاجتماعية من زاوية اقتصادية، ولم يغفل عن التعليم واعتبره إحدى الصنائع، ففصّل في طرق اكتسابه وأحواله وما طاله من تقليد طغى على بعض التأليف فألصق ببعض العلوم ما ليس فيها، وعدم التحقيق والاختصار المححفّ أخلاً بما جاء به أهل المجال فظلمهم وظلم من جاء بعدهم بمنعه من الإفادة من تأليف السابقين.

نظّر ابن خلدون لهذه الظواهر الاجتماعية<sup>18</sup> محاولاً وضعها في نسق قانوني<sup>19</sup> اجتماعي<sup>20</sup>، تستفيد منه الأجيال الموالية، فبدأ بما أحدثه من علم، ألا وهو "فن العمران

البشري"، الذي يمكن أن نعرفه على أنه الحياة الاجتماعية للبشر في جميع ظواهرها، والتي قوامها المعاشرة بين بني الجنس<sup>21</sup>، بحيث يصبح اجتماعهم ضروري للنوع الإنساني، حتى تتم كلمة الله في استخلافهم بأرضه لإعمارها، بانتحالهم لطرق كسب ومعايش مختلفة، يجعل منها ابن خلدون قوة مادية-إن صح التعبير- من شأنها توجيه التاريخ البشري، باستحكام الحاجة الطبيعية للإنسان في المأكل والمشرب والعيش الآمن على أقل تقدير، في طرق عيشه وسعيه لاكتساب مقومات الحياة، خاصة ما كان ضروريا منها، وبالتالي تصبح الحاجة الطبيعية حافزا لنمو الحياة الاقتصادية، ومؤثر فاعل في الطبيعة الإنسانية لهذا النسيج العمراني البشري، الذي يكون بذلك في حاجة ماسة إلى ملك وسلطان يكبح تجاوزات الطبيعة البشرية للمجتمع في إطار معين، وينظم بين حاجات مجتمعه الضرورية والكمالية ويوازن بينها، لأن بعض أفرادها قد يتخطون الطرق المشروعة لكسب القوت وهو الحاجة الضرورية للفرد، لذا لابد من ملك يُسَطِّر أسلوب الحياة الاجتماعية داخل المجتمع الواحد، وما كانت نظرية ابن خلدون حول الحياة الاجتماعية للبشر، وكونها قوة أساسية خلاقية في المجتمع، يربط بين أفرادها العمل والتعاون المشترك، إلا بادرة فريدة من نوعها لم يسبقه إليها أحد ممن حدد المجتمع في إطاره الكلاسيكي كجماعة سياسية، ولا في إطاره الديني الثيولوجي للقرون الوسطى كجماعة دينية<sup>22</sup>، وإنما كجماعة فاعلة يربط أوصلها العمل المشترك لكسب القوت، والسعي للتطور باكتساب الكمالي بعد الضروري من الأمور.

ميّز ابن خلدون في حديثه عن المجتمع وتطوره ثلاث حالات له، بداية بالتوحش والبدائية القريبة من أسلوب الحيوانات، ثم يتطور ليصبح في حالة عمران بدوي، إذ يكون للمجتمع فيها شبه تجمعات في مناطق بدوية، صعبة الطبيعة والتضاريس إلى حد ما" وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجة في القفار وأطراف الرمال"<sup>23</sup>، في المرحلة الثالثة يكون العمران الحضري، وهو ما يكون بالأمصار والقرى والمدن والمداشر للاعتصام بها والتحصن بجدرانها، هكذا يقسم ابن خلدون مراحل التطور العمراني للمجتمع، والتي لا تزال سارية النهج حتى زمننا هذا في بعض المناطق من العالم الإسلامي خاصة في شقه المغربي، ويفسر هذا التقسيم بنظريته في التطور التاريخي للمجتمع، والتي أساسها اختلاف الحالة وأسلوب حياة الجماعة البشرية<sup>24</sup>، فنشاط أي جماعة وأسلوبها في العيش والكسب هو الذي يحدد نوع الصنعة التي ينتحلها الفرد، وحتى البيئة والوسط الذي يعيش فيه سواء بدوي أو حضري، وبهذه الصورة فإن تحول المجتمع البدوي إلى مجتمع حضري إنما هو نتيجة تطور معين في الأساس المادي للمجتمع، وهو ما يمكن أن نقيسه على واقعنا اليوم، فالدول التي لا تعتمد أشكال رزق حضرية وتكتفي بما هو تقليدي معروف منذ زمن، دون البحث عن التجدد في مواردها المادية تبقى متخلفة وبدائية بشكل ما - إن صح التعبير- (وهو حال معظم دول المغرب الإسلامي والجزائر خاصة)، أما الدول التي تعتمد على مقوماتها المختلفة فتجدد طاقاتها ومنابعها الاقتصادية، تتطور وتزيد من حضارتها، فرفاهية المجتمع وتطور الحياة الاجتماعية يتحددان بكمية الإنتاج

الاجتماعي، وبذلك يكون التاريخ الوسيط في آراء ابن خلدون قد رسم لوحة التاريخ المعاصر لواقعنا في أدق أشكالها استشرافا.

كان هذا المنطق الخلدوني حول التطور الاجتماعي انطلاقا من تطور احتياجات أفراد المجتمع، تمهيدا لنظرية أخرى صاغها في علم الاجتماع هي نظرية التطور التقدمي للمجتمع<sup>25</sup>، إذ نجد حسب ما جاد به ابن خلدون من آراء " التمدن غاية البدوي والحضري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لضرورة تدعوه إليها"<sup>26</sup>، وفي هذا الترتيب أو التراتب الاجتماعي الذي صاغه ابن خلدون وضع لنا نظرية التطور التقدمي للمجتمع، بداية من مراحل السفلى إلى العليا، من البداوة وصولا إلى الحضارة والتحضر، وما يتزامن مع ذلك من تطور في النسيج العمراني البشري، متخذًا من نوع النشاط الإنساني، وقوة التجمع البشري من أجل العمل المشترك والإنتاج الجماعي، عاملا هاما وباعثا قويا على التطور العام، فيكون المجتمع بذلك يملك قوة تطوره ونموه في لحمة البشرية، ولعل الصين والمجتمع الصيني من أهم القوى البشرية التي برهنت للعالم في عصرنا هذا عن مدى أهمية العمل الجماعي والإنتاج المشترك في تطور المجتمع ونموه على جميع الأصعدة خاصة الاقتصادي منها.

يؤكد ابن خلدون أن التطور يتحدد بطموح الناس وسعيهم إلى الحياة الآمنة وإلى الترف، ويعتبر أن هذا السعي يظهر في الوقت نفسه الذي تظهر فيه بالمجتمع شروط أولية مادية لتوفير المدخرات، وعلى هذه الصورة يتوقف سعي الناس إلى حياة أفضل من تلك

الحالة المادية و يتوقف طموحهم، وبذلك يكون ابن خلدون قد بلغ ذروة الفهم الممكنة في عصره لقوانين تطور المجتمع، وتوصل إلى اكتشاف كثير من القوانين المهمة في التطور الاجتماعي، وإلى إيضاح ما جعله صاحب فضل على العلوم في تاريخ العصر الحديث<sup>27</sup>، وكل ذلك ضمن إطار علمي واضح يصطبغ بالصفة التاريخية الظاهرة، مع إبطان لما وراء البحث في علل وأسباب الحوادث التاريخية، وما تودي إليه من نتائج هي لبُّ أو كُنْه العلم الجديد.

كان التاريخ في العصر الوسيط يُصنّف ضمن العلوم الدينية أو الأدبية، ولكنه كان بعيداً نوعاً ما عن صفة العلمية، إذ أنه لم يكن ذا قاعدة نظام علمي<sup>28</sup> واضحة المعالم، ما حمل ابن خلدون على محاولة تنظيم وتأطير الخبر التاريخي، ليأخذ صفة العلم الوضعي<sup>29</sup>، وقد قسّم عمله ذلك إلى ثلاث مراحل، أولها نقد التعريف التقليدي للتاريخ من حيث كونه أخبار الماضين لا أكثر، تروي مآثرهم في نسق تسلسلي للأحداث "...اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفائدة، شريف العائدة، إذ هو يقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك، لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا..."<sup>30</sup>، حيث ركّز ابن خلدون في نقده على نبد مجرد الاكتفاء بنقل الخبر التاريخي<sup>31</sup>، المبني على الملاحظة البسيطة الساذجة

المعنى، وإنما وجّه عناية كل مؤرخ إلى ضرورة السعي للبرهنة عن مدى صدق تلك الأخبار، ومدى واقعية أحداثها، وبالتالي خلق ارتباطات واقعية لها مع الوقت الراهن قياساً على زمنها الماضي، "فإن فن التاريخ... في باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبانيها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"<sup>32</sup>، إضافة إلى ضرورة استخدام بعض العلوم والمعارف الأخرى في تحليل الحادثة التاريخية، وأخذها بعين الاعتبار ليكون التعليل منطقياً وأكثر واقعية ومجانبة للخطأ، إذ يقول في ذلك: "...فهو (أي فن التاريخ) محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبيت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتد فيها مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فرمما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم، والحيد عن جادة الصدق"<sup>33</sup>، هذا النقد الذي قدمه ابن خلدون لتعريف التاريخ يرمي إلى إعادة النظر فيه، وضرورة تحليل تلك الروابط المختلفة للحادثة التاريخية مع الواقع - خاصة الاجتماعية منها - وإظهار ذلك المكنون الخفي لها.

المرحلة الثانية في محاولة ابن خلدون لإثبات علمية التاريخ - إن صح التعبير - تتمحور حول كيفية ربط الحادثة التاريخية بالواقع، وعن إمكانية وضعها من جديد داخل المجتمع الذي تنتمي إليه<sup>34</sup>، والتي تركز أساساً على دراسة العمران البشري وهيكلته، والذي يُعد لبّ التاريخ وموضوعه الواجب الاهتمام به، ثم كمرحلة أخيرة دراسة أسباب تطور وقوة



المجتمع أو هذا النسيج العمراني الراهن، قياسا على سابقه والاعتبار من أحداث الماضي، وهي الغاية التي يجب من أجلها دراسة التاريخ، فبفضل نتائجها يمكن إثبات علمية التاريخ وقيمتها الجمة في مَصَفِّ العلوم الأخرى، بإضفاء صفة الواقعية والتحدد عليه، ولا يتأتى ذلك طبعاً دون الاستعانة بعلم الاجتماع، وهو ما جعل ابن خلدون ينشئ لنا هذا العلم، ويضع قواعده الأولى، ثم يُنظَرُّ لعدة ظواهر اجتماعية فيه انطلاقاً من نسقها التاريخي، مثبتاً أصالة ومتانة الرابطة بين علمي التاريخ وعلم الاجتماع، والنتائج القيمة التي يمكن أن تُستفاد من الدراسة العميقة لهذه المتلازمة، ودورها في إحداث التغيير العام في شتى المجالات، على ضوء ما يمكن أن يصيب ذلك النسق من العمران البشري، في حال دراسة كل من التاريخ وعلم الاجتماع منفرداً والاكتفاء بسفاسف الأحداث دون الذهاب إلى تحليلها والاعتبار منها.

#### خاتمة:

في الأخير يمكننا القول أن ابن خلدون وانطلاقاً من كونه مؤرخ، ألَّف كتاباً ضخماً في التاريخ جعل عُزَّتَهُ جزءاً هاماً، يكاد يكون لوحده منهلاً تاريخياً واجتماعياً فريداً من نوعه، أبرز فيه ماهية التاريخ، ومدى أهميته كعلم يدرس أخبار الماضي، ويعالج الحاضر مما قد يصيب العمران البشري من مهالك، يمكنها أن تؤدي به، ولا يتم ذلك إلا بتحليل الحادثة التاريخية في نسق اجتماعي<sup>35</sup>، تُستقى منه العبر وتستخرج منه النظريات الهامة، التي جعلت من الفكر الخلدوني رغم تقادم عهده الزمني، يظل فعّالاً ومتجدداً يناسب مختلف

الهياكل العمرانية البشرية الراهنة، وإنما تأتي ذلك لابن خلدون نتيجة حسن تدبر وتحليل للحوادث التاريخية، التي عاصرها أو كان قريبا منها، أو حتى تلك التي استقى معلوماتها من كتب التاريخ السابقة لعهدده، فالأحداث التاريخية التي ميّزت مجتمعات المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، وما صاحبها من علل وأسباب، جعلت من ابن خلدون بعد تحليلها ربطا بالواقع، واستشرافا للمستقبل قياسا على الحاضر-الذي هو ماضي بالنسبة لنا اليوم- يصل إلى نتائج جد مهمة ترسم هندسة فريدة تضمن على الأقل النأي بالمجتمع عن المهالك المفنية، وهو ما أبدع فيه من خلال علمه الجديد "الاجتماع الإنساني والعمران البشري"، وما كانت دراسته للخبر التاريخي ونقده إلا لغرض فهم طبائع العمران، ويمكننا في الأخير أن نخلص إلى بعض النتائج حول نظرياته الاجتماعية الإسلامية-كونها نابعة من مفكر وعالم مسلم جعل من تاريخ العالم الإسلامي حقلًا لتجربة التحليل الاجتماعي التي طبقها على أخباره، متخذًا منها مادة أولية لعلمه الجديد- ذات الفحوى البناء والمتجدد بما تحمل من غايات وأهداف لتنمية المجتمعات الإسلامية عامة والعربية خاصة، وكل ذلك من خلال تبنيها لعمق آراء ابن خلدون وأفكاره حول علمه الجديد ومبادئه، وكذا اقتفاء آثاره في تحليل الحوادث التاريخية الماضية وحتى الراهنة وعدم الاكتفاء بقبولها وإنما استنطاقها واستقراءها، وما تلك النظريات السالفة الذكر سوى فيض من غيض، وجزء يسير مما حاولنا التعرّيج على ذكره في هذه الأسطر.

— التاريخ خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو العمران البشري، ومن ثمَّ فإنَّ تنقيته من الزيف وتصويب أحداثه يشكّلان المنطلق الأول لتصور العمران البشري، ولذلك وضع ابن

خلدون منها لتصحیح أحداث التاريخ وأخباره يقوم على الجرح والتعديل والتحليل واستنتاج الأحداث للوصول إلى صواب الاستنتاج.

— الإنسان مدني بالطبع، ومن ثم كان لابد من أن يعيش وسط مجتمع يسري في حدوده التعاون على إنتاج القوت، وبالتالي التطور في أساليب العيش لتصبح أكرم، متخذاً في ذلك حل الوسائل التي تضمن له الدفاع عن حياته، والاستمرارية فيما يكفل له إعمار الأرض والاستخلاف بها.

— يتشكل العمران في أصله من قسمان، بدوي وحضري، يشكل الثاني غاية الأول، ويشكل الأول أصل الثاني ومنهله، يختلف كل منهما عن الآخر في أساليب العيش وعادات وسلوكات أفراد، وذلك لما تفرضه الطبيعة على كل منهما، وإن كانت أقل وطأة ولينا في المجتمع الحضري، كونه أكثر قابلية للتغيير والتطور من المجتمع البدوي، ما قد يؤدي به إلى مسالك الملك والدولية، لكن ذلك سرعان ما يتقلص وينحسر في أقصى توسعته، ما قد يشكل قانوناً ثابتاً لقيام وتداعي الدول.

— لا يتطور العمران البشري ويرتقي إلا بالاعتماد على مختلف الصنائع، التي توفر أكبر قدر من الكسب، خاصة الاقتصادية منها، ما ينعكس بالرفاء على المجتمع.

العصبية تؤدي إلى المنعة والغلبة، والعصبية تسمو إلى الرياسة، والرياسة تبعث على التطلع إلى الملك، ومن ثم فإن الملك لا يقوم أصلاً بغير العصبية، ويظل قويا بقوتها ويضعف بضعفها<sup>36</sup>.

القرآن أصل هام لفهم الظواهر الاجتماعية الماضية وحتى الحاضرة واستشراف المستقبل، انطلاقاً من حسن تدبر آياته، والدين الإسلامي بقواعده الأساسية أساس كل نخضة وأقوى عصبية يمكن للمجتمعات الإسلامية والعربية خاصة أن تقوى وتشتد إذا ما تمسكت به، وعادت إلى مقوماته وتركت ما دونها من عصبيات جنسية وعرقية لا طائل منها سوى زيادة الهوة والفرقة بين أفراد المجتمع الواحد ناهيك عن الأمة الواحدة.

### الهوامش:

<sup>1</sup> - عبد الله العروي، ابن خلدون وماكيا فيللي، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار الساقية، ط: 01، 1990م، ص: 09.

<sup>2</sup> - سامية حسن الساعاتي، ابن خلدون مبدعاً (قراءة جديدة لفكره ومنهجه في علم الاجتماع)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة - مصر، 2006م، ص: 36.

<sup>3</sup> - سورة البقرة، الآية: 251.

<sup>4</sup> - سورة يوسف، الآية: 14.

<sup>5</sup> - سامية حسن الساعاتي، المرجع نفسه، ص: 39.

- <sup>6</sup> - السُّوقَةُ: بمنزلة الرعية التي تسوسها الملوك، ثُمَّ سوقة لأن الملوك يسوقونهم، فينساقون لهم، فيقال للواحد سوقة وللجماعة سوقة. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة - مصر، مادة: سوق، ص: 2156.
- <sup>7</sup> - الأعغال: هي جمع عُغْلٍ، أي غير المسمى ولا المعروف، أي المجهولون. ينظر: ابن منظور، المصدر نفسه، مادة: غفل، ص: 3278.
- <sup>8</sup> - الأقيال: ملوك باليمن دون الملك الأعظم، واحدهم قَيْلٌ، ويكون ملكا على قومه ومُخْلَافُهُ، وهو الملك من ملوك الحيرة يَتَقَيَّلُ من قَبْلَهُ من ملوكهم يشبهه، وجمعه أقيال. ينظر: ابن منظور، المصدر نفسه، مادة: قيل - قول، ص: 3780 - 3798.
- <sup>9</sup> - خَلِيقٌ: يُقال خَلِيقٌ لكذا أي جدير به. ينظر: ابن منظور، المصدر نفسه، مادة: خلق، ص: 1247.
- <sup>10</sup> - عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج: 01، تحقيق: أ.م. كاترمير، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، 1992م، ص: 02.
- <sup>11</sup> - "... فللعمران طبائع في أحواله يرجع إليها الأخبار وتحمل عليها الروايات والآثار..."، ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 04.
- <sup>12</sup> - "... وأنا المفلس أحسن السوم فأنشأت في التاريخ كتابا رفعت فيه عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا، وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عملا وأسبابا، وبَيَّنته على أخبار الجيلين الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار، وملأوا أكناف الضواحي منه والأمصار، وما كان لهم من الدول الطوال والقصار، ومن سلف لهم من الملوك والأنصار، وهما العرب والبربر، إذ هما الجيلان الذان عرف بالمغرب ما وهما وطال فيه على الأحقاب مثواهما..."، ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 05.

- 13 - " يظهر مما كتبه ابن خلدون في المقدمة أنه كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظاهر الاجتماعية وشمولها لجميع الأنواع، وأنه لم يغادر أي قسم من أقسامها إلا عرض له بالدراسة". ينظر: جورج لايبكا، السياسة والدين عند ابن خلدون، تعريب: موسى وهبة وشوقي الدويهي، دار الفرابي، بيروت - لبنان، ط: 01، 1980م، ص: 82.
- 14 - محمد العبد، البداوة والحضارة نصوص من مقدمة ابن خلدون، المنتدى الإسلامي، لندن - بريطانيا، ط: 01، 1993م، ص: 60.
- 15 - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 02، ص: 526.
- 16 - هو المجتمع بتعريف بسيط في حين يُعرفه ابن خلدون قائلاً: "ال عمران هو الت ساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير، واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش". ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 67.
- 17 - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 02، ص: 892.
- 18 - "أما الظواهر الاجتماعية في بني الإنسان فلم بظن أحد من قبل ابن خلدون إلى خضوعها لقوانين كسائر الظواهر الأخرى، وبالتالي لم يعن أحد من قبله بالكشف عن هذه القوانين". ينظر: جورج لايبكا، المرجع نفسه، ص: 86.
- 19 - " تطلق كلمة القوانين في العرف العامي على الأصول العامة التي تبين ارتباط الأسباب بمسبباتها، والمقدمات بنتائجها اللازمة، أو بعبارة أخرى التي تنبئ بحدوث نتائج معينة لازمة، إذا حدثت أسباب خاصة، وترجع النتائج الحادثة إلى أسبابها، أو كما يقول مونتسكيو: " التي تعبر عن العلاقات الضرورية التي تنجم عن طبيعة الأشياء". ينظر: جورج لايبكا، المرجع نفسه، ص: 84.
- 20 - "يرمي ابن خلدون في مقدمته من وراء دراسته للظواهر الاجتماعية إلى الكشف عن القوانين التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها وتطورها وما يعرض لها من أحوال". ينظر: جورج لايبكا، المرجع نفسه، ص: 84.

- 21 - سامية حسن الساعاتي، المرجع نفسه، ص: 47.
- 22 - سامية حسن الساعاتي، المرجع نفسه، ص: 55 بتصرف.
- 23 - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 67.
- 24 - "...اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون وتحصيله". ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 22.
- 25 - سامية حسن الساعاتي، المرجع نفسه، ص: 77.
- 26 - عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 224.
- 27 - سامية حسن الساعاتي، المرجع نفسه، ص: 78.
- 28 - عبد القادر جغلول، الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، دار الحدائث بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية، ط: 02، 1981م، ص: 30.
- 29 - "غفل عدد غير قليل من الدارسين إلى أن الأداة التي توسلها ابن خلدون للوصول إلى نظريته الجديدة أو علمه الجديد، هي علم التاريخ بعد تجريده من الأخبار الخاطئة والأحداث الزائفة". ينظر: مصطفى الشكعة، الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، الدار المصرية اللبنانية، ط: 03، 1992م، ص: 37، 38.
- 30 - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 08.
- 31 - "إن منهج ابن خلدون في نقد التاريخ دقيق، مع استفاضة في البيان وثراء في ضرب الأمثال التي يستقيها من الأخبار المسطورة في كتب المؤرخين السابقين... ولا يقف الأمر بابن خلدون عند نقد الروايات التاريخية وتجريحها ثم رفضها، وإنما يدلف إلى بعض ما ذكره المفسرون أيضاً، ولم يكتف ابن خلدون بالوقوف عائد أخطاء بعض المؤرخين وإنما عمد أيضاً إلى الفصول التي تحمل عناوين متصلة الأسباب بالعمران، مثل الفصل الذي عقده عن "طبيعة العمران والخليقة" ليسهب القول عن التاريخ باعتبار أنه خبر عن الاجتماع

الانساني، أي أن التاريخ هو وسيلة كل إنسان للتعرف على المجتمعات الإنسانية من خلال دقة الخبر وصدق الرواية، ويستعرض أمثلة من أخبار التاريخ ووقائعها حسبما رواها بعض المؤرخين ويخضعها للأسس النقدية التي وضعها". ينظر: مصطفى الشكعة، المرجع نفسه، ص: 40، 41.

<sup>32</sup> - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 02.

<sup>33</sup> - عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر نفسه، ج: 01، ص: 08، 09.

<sup>34</sup> - عبد القادر جغلول، المرجع نفسه، ص: 31.

<sup>35</sup> - " وليس من شك في أن المحاولات الجادة التي قام بها ابن خلدون في هذا الميدان قد جعلت منه صاحب منهج دقيق في التحليل، ورؤية صادقة في الاستنتاج، ونعني بذلك

استقراء أحداث التاريخ وتحليلها واستنتاجها، وفرز الحقائق، والتنبه إلى الأكاذيب، ثم استثمار العطاء التاريخي في النطاق الاجتماعي الإنساني، وتوصل ابن خلدون من خلالها إلى النتائج التي صارت فيما بعد منهجا اختص به، وقوانين عزيت إليه". ينظر: مصطفى الشكعة، المرجع نفسه، ص: 51.

<sup>36</sup> - مصطفى الشكعة، المرجع نفسه، ص: 77.



## رحلة بونمان فرنسوا لويس

من تفرقت إلى غدامس ودورها في الكشف التجاري للصحراء.

أ/ دعاشي سميرة /جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02

samer\_dach@yahoo.fr

ملخص:

تعد رحلة بونمان فرنسوا لويس ذات أهمية تاريخية كبيرة، من خلالها نفهم أبعاد السياسة الفرنسية حول التجارة الصحراوية وسرّ اهتمامها ببلاد الطوارق، إذ تكشف لنا الرحلة كيف كانت فرنسا تسعى جاهدة لمعرفة كل ما يتعلق بهذه التجارة والمتحكمين فيها لهدف استدراجهم بالمعاهدات والاتفاقيات إلى غاية إحكام السيطرة على هذه التجارة.

### Abstract :

Bonman's Fransoi Lwis trip counted as a great important in history, from his trip we understand fransh politic dimentions about saharian trade and its sacret interesting to Touareg town, the trip detect for us how France was looking for knowing every thing related to this trade and its own controlers aiming to draw them by alliances and agreements till dominate this trade.

## مقدمة:

ظلت التجارة الصحراوية محل اهتمامات الفرنسيين طيلة تواجدهم على السواحل الجزائرية في القالة وعنابة، إلى أن تهيأت لهم الظروف خلال القرن التاسع عشر، فكان عامل التجارة الدافع الحقيقي لاحتلال الجزائر، لأنها الشريان الرئيسي الذي يربط بين مستعمراتها اقتصاديا من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، وفي إطار التنافس الأوروبي على هذه المناطق، سعت فرنسا كمثيلا لها من الدول الأوروبية لمعرفة خبايا الصحراء، لتحويل تجارة الإنجليز من غات وغدامس باتجاه الجزائر، وهكذا أخذت تستغل كل الوسائل لبلوغ مرادها، فكانت البعثات الكشفية أحد وسائلها.

لما كان السيد بونمان عارفا للغة البلد أشتتت فيه هذه الميزة، فكلف من قبل المارشال راندون للقيام برحلة من تقرت إلى غدامس لغرض معرفة أسعار منتجاتها، ليقدرها أسعار منتجاتهم أثناء التبادل التجاري وأغراض أخرى نكتشفها من خلال تناولنا للجوانب التي عالجتها الرحلة .

عموما توظف هذا البحث إشكالية رئيسية تتعلق بأهداف الرحلة التي قام بها بونمان وما أضافته هذه الرحلة لتاريخ المنطقة. وتتفرع عنها مجموعة من الأسئلة منها؛ ما هي ظروف ودواعي الرحلة؟ وما هي نتائجها وكيف ساهمت هذه الرحلة في تبيين معارف فرنسا حول المنطقة؟ وما القيمة التاريخية والمعرفية التي أضافتها الرحلة لتاريخ المنطقة؟.

## أولا: التعريف بصاحب الرحلة.

ولد بونمان فرنسوا لويس في باستيا (كورسيكا) بتاريخ: 18 أكتوبر 1817م، والده كان حاكما عسكريا، نزل بالجزائر مع عائلته فاستقروا بمدينة صغيرة، على ما يبدو ببئر مراد رابيس الواقعة جنوب الجزائر العاصمة وهذا استنادا إلى ما قاله فوكون

(Faucon) حين ذكر أن بونمان قد جذبتة الحياة العربية بشكل غريب، فأخذ يخالط الأهالي باستمرار في مقهى شعبي بيئر مندرايس (Birmandreis) (1) الذي يعتبر مدرسته الأولى، أين تعلم لغة البلد وتمكن منها بشكل جيد (2).

في أحد الأيام أتت مجموعة من فرسان قبيلة حجوط (Hadjouth) (3)، برئاسة الشيخ البشير أمام هذا المقهى وعند عودتها إلى مُعسكرها قام بونمان المعروف بفضوله وحبهِ للمغامرة، فتبع هذه المجموعة من الخيالة، عند وصوله إلى هناك قام بن علال (4) (Ben-Allal)، باستقبال هذا الشاب المسيحي في خيمته ومنحه اسما عربيا وهو مصطفى (Mustapha)، هذا الاسم الذي ظهر في كتابات أبي القاسم سعد الله باسم مصطفى بونمان الجزائري، وأن حياته تشبه حياة إسماعيل بوضرية في مهنته وتكوينه.

منذ ذلك الحين أصبح بونمان بنفس منزلة محمد بن علال (5) الابن الصلب للشيخ. وقد عاش بونمان ظروفًا صعبة في البداية، لكنه حظي فيما بعد بإعجاب الجميع لأنه أصبح فارسًا لا يُشَقُّ له غبار، غير أن آثار تربيته الأولى جعلت بونمان يفهم بالفعل أنه يسير في الاتجاه الخاطيء ورأى أن طريقه لنيل عزته وشرفه هو الأنسب لشخصيته المغامرة.

في ديسمبر 1836م، انخرط كمتطوع في الفرقة الأهلية للدرك بالجزائر وكلف كمتزجم عسكري مساعد وكان عمره تسعة عشر عامًا. تقلد عدة مناصب منها رقيب في فرقة الصبايحية، إثر عودته من قسنطينة 1838م، ثم قائد الفرقة الثالثة للصبايحية عام 1856م، وبعد عودته من رحلته إلى غدامس عُيِّن ضابطًا في الفيلق عام 1857م.

في عام 1863م تمت ترقيته إلى قائد السرية خارج المصلحة التي كان يعمل بها، وكان في كثير من الأحيان يكلف بالبعثات التي تستلزم الثقة والخطورة ، هذه البعثات التي يضطلع بها دائما إلى أقصى درجات الارتياح في قيادتها<sup>(6)</sup>.

في عام 1837م وقع بونمان في مواجهة مع فرسان حجوط ، مع واحد من أقوى الفرسان وهو الشيخ البشير وقد طلب منه الاستسلام وكان جريحا فقال له الشيخ البشير: « وداعا أخي مصطفى ، يمكن لي الآن قتلك مثل الآخرين ولكن يجب أن تتذكر حق الخبز والملح الذي أكلناه معا تحت خيمة بن علال [...] . اسمح لي أن ابتعد، لأنك تعرف جيدا أنني لن أستسلم أبدا<sup>(7)</sup>».

كما شارك في كثير من الحملات التي شنت على إقليم قسنطينة وقبائل الصحراء، خاصة المنطقة التي كانت تابعة للكولونال ديفو (Desvaux) في تشرت. هناك كُلف من قبل المارشال راندون (Marechal Randon)<sup>(8)</sup> للقيام ببعثة إلى غدامس وسط الصحراء في 26 نوفمبر 1856م<sup>(9)</sup>.

بعد ثلاثين عاما من الكد المتواصل والبعثات الشاقة لبونمان؛ هذا الرجل الذي كان واحدا من تلك الفئات الاستثنائية التي خُلقت للحرب في أفريقيا كما وصفه فوكون. توفي في كال (Calle) بتاريخ: 13 جانفي 1887م، بينما كان في مهمة تفتيشية.

حضر جنازته بعض ممثلي الطرق الصوفية من التيجانية والرحمانية وبحضور المسؤولين الفرنسيين، أخذ التابوت على أكتافهم وهو يمر من واحد إلى آخر وتم حمله إلى مخيم الزيتون في جو منسجم من الصلاة والنشيد<sup>(10)</sup>، كما ذكر سعد الله حول تشييع جنازته بأنهم حملوا النعش ثم وضعوه في عربة حملته في تابوت وقد دفن في الماء البارد

خارج قسنطينة حيث كانت أملاكه (D'El-Ma-BERD)<sup>(11)</sup> على مقربة من قسنطينة<sup>(12)</sup>.

وهنا يشك سعد الله في شخصية مصطفى بونمان بقوله: « إن وجود الكنيسة والتابوت والعربة لا يدل على أن مصطفى بونمان كان من المسلمين<sup>(13)</sup> ». حسب هذه المصادر يمكن القول بأن بونمان مسيحي وغير جزائري، عاش زنديقا ودفن وفق مزيج من الدين المسيحي والإسلام<sup>(14)</sup>.

### ثانيا: ظروف ودوافع الرحلة.

إن ما تعرضت له فرنسا من مضايقات من طرف جورج وارنغتون الإنجليزي بطرابلس لهدف طرد الفرنسيين من المنطقة والمنافسة التجارية عبر الصحراء، ردت عليه فور احتلالها للجزائر، حيث شكلت لجنة الاستكشاف العلمي بالجزائر عام 1837م من أجل؛ القيام بدراسة التجارة الصحراوية من خلال معرفة المبادلات، أنواع السلع، وسائل الدفع، المراكز التجارية وطرق منافذها خارج الصحراء<sup>(15)</sup>، ولإنجاح العملية وظفت كل الوسائل لبلوغ هدفها، فكانت البعثات الكشفية أحد وسائلها.

ولما كانت غدامس من المراكز التجارية التي يسيطر عليها الإنجليزي، قامت بإرسال عدة بعثات إلى تلك المناطق لدراسة تجارتها والسبل الكفيلة لتحويل هذه التجارة من يد الإنجليزي في غدامس لصالحهم في الجزائر، حيث قامت بالتوغل جنوبا إلى غاية أن احتلوا الأغواط، فجعلوا منها نقطة ارتكاز باعتبارها بوابة الصحراء كلها وأملا في استمالة سكان الصحراء؛ عمد الفرنسيون إلى أسلوب الاتفاقيات ومعاهدات الحماية مثلما حدث مع بني ميزاب سنة 1853م والنتيجة كانت التوغل جنوبا حتى مشارف تفرت وسوف<sup>(16)</sup>.

في هذه الأثناء كان الرحالة بوغمان متواجدا بتقّرت، فقام الحاكم العام راندون بتكليفه بمهمة إلى وسط الصحراء حيث غدامس، لغرض معرفة أسعار منتجاتها، ليقدروا أسعار منتجاتهم أثناء التبادل التجاري مستثمرين فيه معرفته للغة البلد.

هذه الرحلة تمت في غضون شهرين من يوم: 26 نوفمبر 1856م إلى غاية: 15 جانفي 1857م، ودونت بشكل نهائي من طرف صاحبها بالوادي في: 07 جانفي 1867م. بدأها صاحبها من تقّرت أين كان يقوم بشن حملات عسكرية على مناطق الصحراء يوم: 26 نوفمبر إلى واد سوف، هناك انضم إلى قافلة السوافة (Souafas)<sup>(17)</sup>، لأن الفرنسيين كانوا مهتمين بسوف بدليل الوصف الدقيق الذي قدمه الرحالة حول تنظيم قوافل سوف والتركيز على علاقات غدامس معهم ومنتجاتهم.

عند وصولهم إلى غدامس ذهب بوغمان وجماعته إلى بيت الحاكم **عصمان باي (Osman Bey)**، فرحب بهم وتحدث إليه الرحالة حول ما يمكن أن توفره غدامس من موارد لتجار الجزائر، وطُلب من الحاكم الدخول في علاقات تجارية مع فرنسا، حيث برر له بأن هذا من مصلحة ومصصلحة فرنسا، لأن التجارة هي الرابط بين الأمم وفرنسا لا تطلب سوى الحصول على علاقة معهم.

هنا ردّ عليه الحاكم بقوله: « إن غدامس إنتاجها قليل ولكن واحتنا تشكل مخزن لسلع السودان وتُسوّق إلى تونس، طرابلس والشرق دون صعوبات في الطريق، كما نأخذ من الجزائر القمح والتمور التي لا تتوفر لدينا<sup>(18)</sup> ». بعدها تم استضافتهم بأمر من الحاكم عند أحد الأثرياء المقيمين في المدينة وبقوا فيه حتى عودتهم، ذلك البيت الذي شبهه الرحالة بالسجن<sup>(19)</sup>، ربما يعود ذلك إلى الشائعات التي وصلت الحاكم، أن المقصود من رحلته هي استكشاف المدينة ووضع مخطط لها ودراسة إمكانياتها للاستيلاء عليها<sup>(20)</sup>.

هذا ما جعل الرحالة في الغد يذهب إلى بيت الحاكم ليعلمه بمهمته لتبديد كل اشتباه به، فذكر أنه أخبر الحاكم بشأن الرسالة التي وصلته من وادي سوف قبل وصوله، فصارحه بأنه في خدمة فرنسا وقال بأنه نقيب في فوج الصبايحية لدى الحاكم العام للجزائر، الذي وثق به وطلب منه أن يقوم بدراسة واستطلاع حول الطريق من وادي سوف إلى غدامس وتفحص كل شيء يتعلق بالمصالح التجارية في غدامس.

هنا يُبرر موقف فرنسا من هذا كله؛ بحجة أن الفرنسيين يعرفون أن نقص المياه يشكّل عقبة رئيسية أمام تنقل القوافل بأمان وهي تريد مساعدة شعب الصحراء وصممت على حفر الآبار ، إذا كان ذلك ممكنا عبر الخطوط الأكثر شعبية<sup>(21)</sup>. فتحدثا عن نهر تامرنة ووادي ريغ وما يقدمانه من فوائد ، لهدف رواج التجارة وتسهيل عملية المعاملات بسرعة، مشيرا أن الفرنسيين يريدون أن يمتدوا إلى المناطق التي تحيط بالجزائر لتكون القاعدة للتحكم في ممتلكاتهم الأفريقية، وهو يتمم ويقول: "إن الحاكم لا يفهم كلامي ولا يبصر حقيقة مهمتي"<sup>(22)</sup>، وبالفعل بعدما أنهى الرحالة كلامه أعرب الحاكم عن ارتياحه.

منذ ذلك اليوم أصبحت علاقتهما لطيفة جدا<sup>(23)</sup> وبعد مكوثه هناك لمدة أسبوع قرر العودة لأن الأوامر التي تلقاها لا تسمح له بالبقاء أكثر من أسبوع في غدامس<sup>(24)</sup>، إلا أن إصرار الحاكم في بقاءه لمدة خمسة عشر يوما آخرين، جعل عودته إلى الجزائر تُستأنف يوم: 15 جانفي 1857م<sup>(25)</sup> بدلا من: 24 ديسمبر 1856م<sup>(26)</sup>. خلال هذا الوقت استفاد الرحالة من معرفة أماكن المياه في جميع النقاط وجمع كل المعلومات الأساسية التي يبدو من المرجح أن تجعل مهمته ناجحة، رغم صعوبة هذه المهمة ، لأن الشعب الذي زاره لأول مرة كان كثير الأسئلة مقابل الرد على أسئلته<sup>(27)</sup>.

ثالثا: أهمية الرحلة ونتائجها.

إن هذه الرحلة كنص تاريخي هامة جدا ، رغم صغر حجمها إلا أنها تحتوي على معلومات قيّمة في جل جوانبها التاريخية، السياسية ، الاقتصادية، الثقافية ، العمرانية والاجتماعية، غير أن الجانب الاقتصادي قد غلب على الرحلة لأن غرض الرحلة تجاري في الأساس.

### أ. الجانب التاريخي والسياسي:

تقدم لنا هذه الرحلة معلومات تاريخية وسياسية مهمة حول مدينة غدامس والأوضاع السائدة آنذاك، حيث أفادتنا الرحلة أنه خلال سنة 1956م كانت غدامس لا تزال تحت حكم الدولة العثمانية، حيث أشار الرحالة إلى الضرائب التي تدفعها المدينة كل ثلاثة أشهر للباشا في طرابلس تدعى اللزمة (Lezma) ، بالإضافة إلى ذلك؛ الحاكم عصمان باي يحصل على فوائد أخرى مثل بيع العبيد ويستفيد أيضا من ضرائب دخول الإبل وخروجها من المنطقة<sup>(28)</sup>.

باعتبار أن شعب الطوارق كانوا محل اهتمام الفرنسيين، فقد استطاع الرحالة الحصول على بعض المعلومات من خلال مشاهداته وعن طريق روايات تجار غدامس حول هذا الشعب القوي، وبهذا قدمت لنا الرحلة معلومات مهمة حول أقسام الطوارق، ونظام حكمهم ومدى قوتهم وتحكمهم في مساحات شاعة من الصحراء، حيث قال عنهم الرحالة بأنهم منقسمين إلى إقليمين كبيرين طوارق الغرابة وطوارق الشراقة، وهذان القسمان بهما العديد من الفرق وكل فرقة يحكمها رئيس من النبلاء والأشراف<sup>(29)</sup> يعين عن طريق الاقتراع، يقول عنهم الرحالة بأن هذه الفئة ذات مكانة عالية في المجتمع التارقي، يتكونون من محاربي البدو الرحل ويسكنون الهضبة<sup>(30)</sup>.

كما أورد الرحالة قائمة بأسماء أهم قادة الطوارق؛ في الجهة الشرقية ذكر: سي الحاج محمد خنوخن (أقوى من الجميع)، سي محمد بن سلطان، عثمان بن بكري، محمد



بن جبور، موسى بن كلبية، البركة وفنديقون، ومن الناحية الغربية نجد: سي الحاج أحمد بن بكري من الاهقار، محمد بن قيوق، محمد بن بيسة، الشيخ بن آفو<sup>(31)</sup>.

### ب. الجانب الاقتصادي:

لقد غلب على هذه الرحلة الطابع التجاري، فصاحب الرحلة كان مكلفا من قبل المارشال راندون الحاكم العام للجزائر، ليجمع له أكبر قدر ممكن من المعلومات التي تهم الفرنسيين في هذا المجال وهكذا زدتنا هذه الرحلة بمعلومات هامة عن تنظيم القوافل وسيرها والأخطار التي قد تتعرض لها وكيفية مواجهتها.

ففي طريقه إلى غدامس رافق قافلة السوافة وقام بوصفها وصفا دقيقا كما لو أنها محورا أساسيا في رحلته؛ فيذكر أنها تتكون من رئيس ، دليل، تجار وبعدها أشار إلى وظيفة كل من الرئيس والدليل؛ الرئيس مكلف بتسوية النزاعات واتخاذ التدابير اللازمة في حالة تعرض القافلة للهجوم والدليل يوجه طريق القافلة ويبين أماكن التوقف والاستراحة.

كما يبين لنا الرحالة نظام سير القوافل؛ فيقول أن التجار يسيرون على الأقدام مع الدليل أمام الحيوانات المحملة بالأمتعة والإبل تمشي من وراء، على مسافة من هؤلاء هناك جماعة من الخلف تراقب الإبل التي تخرج عن الطريق ، إضافة إلى وجود اثنين أو ثلاثة من الإبل مزودة بالمؤن؛ من تمر، دقيق، شعير ، لحوم الأغنام المجففة وقليل من الزيت ويضيف أن لكل تاجر اثنين من قرب الماعز مملوءة بالماء ، أما عن كالأ الإبل فتحصل عليه من المراعي في الطريق.

وعن فترات سير القوافل يشير إلى أن القافلة تبدأ سيرها بعد شروق الشمس، ثم تستريح في مكان يخيم فيه كل تاجر مع سلعه وإبله حوله، حتى العصر تواصل سيرها،

كما يفيدنا بهذا الصدد أن هناك مدة استراحة في الصباح حوالي العاشرة صباحا لا تدوم أكثر من خمس وعشرين دقيقة.

عن مجابهة المخاطر؛ يذكر الرحالة أنه يتم تسليح جميع الرجال وفي حالة الهجوم تتوقف القافلة وتضع البضائع والإبل حولها والأشخاص من وراء البضاعة وهنا يتم إضرام النار وإطلاقها. في ختام حديثه عن القوافل أشار إلى القافلة التي صحبها، فذكر عددها الذي يتألف من خمسة عشرة فردا وقائد اسمه أحمد بن التواتي (**Ahmed Ben Touati**) ودليل، خمسة تجار وثمانية إبل، إضافة إلى خمسة وعشرين جملا محملين بالبضائع وستة دواب مستخدمة للركوب<sup>(32)</sup>.

وفي إطار مهمة تفقد مصادر المياه للمنطقة، أتى الرحالة على ذكر نافورة نسبة تدفقها معتبر، لكنها تكفي لتزويد المدينة والبساتين بالمياه، فهي محصورة في بقعة مستطيلة طولها 25 متر وعرضها 15 متر وتشكل حوضا يسمى البرح (barh)، تنطلق من كل زوايا قنوات يصرف جزء منها في المدينة والجزء الآخر للبساتين، يقوم عليها حارس يقضي يومه في كوخ يقع على بعد حوالي 150 متر من رأس الساقية التي يجرسها، لأنه مكلف بتوزيع المياه المخصصة للسقي على أصحاب الأراضي، حيث يستفيدون من الماء بمدة متساوية. كما يوجد بالمنطقة العديد من الآبار يقوم عليها السود، حيث يتم دفع أجور لهؤلاء بـ 50 سنتيم يوميا، اثنان من هذه الآبار تعود للسيد الحاج محمد متيتان (hadj Mohammed Mettitan) أحد أعيان المدينة<sup>(33)</sup>.

هذا وتزودنا الرحلة بمعلومات هامة عن تنظيمات وقوانين غدامس، إذ يذكر الرحالة أن بها متجر في وسطها على رأسه نقيب من مهامه رصد العملات ووزن النقود وغبار الذهب، أهمية غدامس لا تكمن في منتجاتها بل في التبادل التجاري، حيث أشار إلى أهم السلع والمبادلات التجارية بين غدامس والمتعاملين معها من سوافة، سودانيين، تونسيين، طرابلسيين وفيلاليين.

عن السلع التي يجلبها السوفيون ذكر أنهم يجلبون معهم كل من التبغ، القمح، الشعير، الزيت، التمور بنوعيهما دقلة نور، قارس ولحم الغزال . كما يجلب السودانيون أسنان الفيلة بكميات كبيرة، الأقمشة القطنية، جلود الماعز الفيلاي، البخور، غبار الذهب (Poudre d'Or) والصمغ الأبيض.

وعن المبادلات التجارية يذكر صاحب الرحلة ما يحمله التونسيون والطرابلسيون من أسواق غدامس إلى بلاد السودان من المرجان، الحرير بكميات هائلة، السكاكين والأقمشة من كل الألوان، البرانس، الفساتين، الشاشيات، المصنوعات الزجاجية والتمور. بالإضافة إلى ذلك يشير الرحالة إلى أنه لا توجد أية قافلة عائدة من الجنوب بدون عبید وهم يباعون علناً في أسواق غدامس.

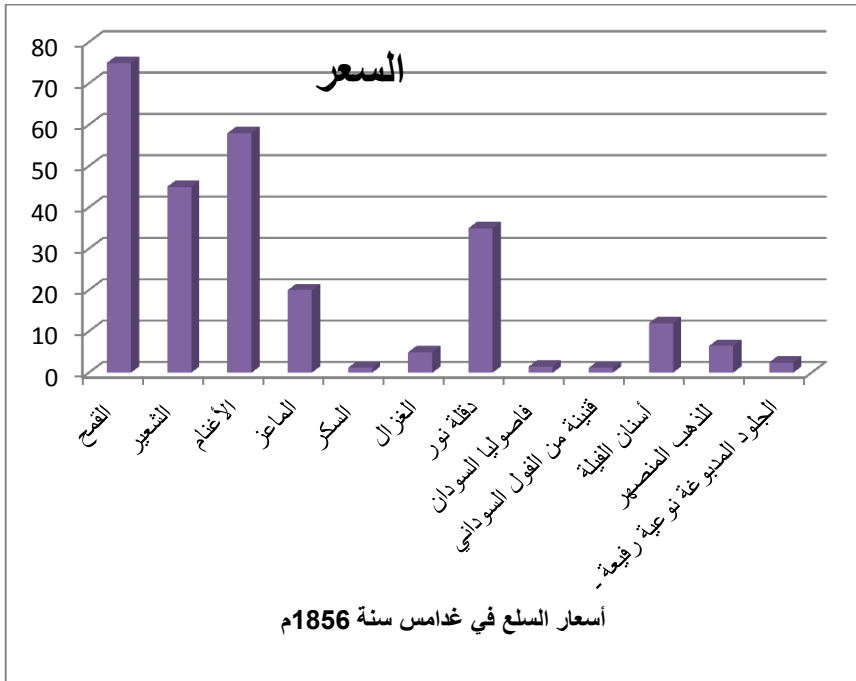
كما تفيدنا الرحلة في معرفة وسائل التبادل التجاري المستعملة وقتها ، تحدث صاحب الرحلة عن المكاييل التي عادة تستعمل لكييل الحبوب وما شابهها من المواد اليابسة وكذا المواد السائلة مثل الزيت والعسل، حيث أشار إلى مكيال يسمى الصّاع (Saâ) في الجزائر يساوي 160 لترا، غير أنه في غدامس يساوي 120 لترا، يذكر أن سعر نفس الصاع من الفول السوداني يساوي: 1 فرنك و50 سنتيم ، نفس الصاع من الشعير يساوي: 75 فرنك، كما حدد المكيال (la Livre) كيل القهوة والسكر.

أما عن الأوزان<sup>(34)</sup>؛ فيذكر المثقال (Mitkal) لوزن غبار الذهب وسبائك الذهب المنصهر، أما عن العملة فذكر الفرنك والدورو ولم يشير مطلقاً للمقايضة.

عن الأسعار؛ سنة 1856م، أفادنا الرحالة بشيء من التفصيل عنها ، فتطرق إلى ذكر أسعار كل السلع التي تصل غدامس من الشمال كما يلي:

المادة	السعر	المادة	السعر
--------	-------	--------	-------

صّاع 120 لتر من القمح	75 فرنك	الأغنام	58 فرنك
صّاع 120 لتر من الشعير	45 فرنك	الماعز	20 فرنك
دقلة نور	35 فرنك	الغزال	5 فرنك
قنينة من فاصوليا السودان	1,50 فرنك	50 كيل من أسنان الفيلة	600 فرنك
قنينة من الفول السوداني	1,20 فرنك	1 مثقال للذهب المنصهر	6,50 فرنك
ليرة من السكر	1,20 فرنك	الجلود المدبوغة نوعية رقيقة.	2,50 فرنك <sup>(35)</sup>



من خلال الجدول والمخطط البياني نستنتج أن السلع التي تصل غدامس من الشمال والسودان تكون غالية الثمن نتيجة بعد المسافة، كما أن بعض المنتجات مصدرها الشمال مثل الحبوب التي تصل الصحراء، الأمر الذي يفسر غلاءها.

كما أشار الرحالة أن أسعار بعض السلع تتغير من مكان إلى مكان وبالأخص تجارة العبيد، إذ ذكر أن سعر الشاب القوي قيمته من 5 إلى 6 دورو (Dourou) وعند وصولهم إلى الواحة يدفعون 35-40 دورو لسبب اقتراهم من مواقع الماء، كذلك مسحوق الذهب يباع في قسنطينة 22 فرنك لـ 1 مثقال، في حين يباع في غدامس بـ 11 فرنك وهذا يدل على نسبة الفوائد الكبيرة التي يحصل عليها التجار من الأسواق الغدامسية.

كما تفيدنا الرحلة في ذكرها لأهم المراكز التجارية التي كانت تتعامل معها قبائل صحرائنا الجزائرية مثل غدامس، تيبكتو، المغرب وغات، غير أن غدامس ليست سوى محطة تخزين للسلع بين شمال إفريقيا وجنوبها، وأهم هذه المراكز هي غات لأنها أكبر أسواق إفريقيا الذي يدوم أربعين يوماً، أين يتم إيداع جميع منتجات القوافل من الشمال والجنوب.

يبدو أن صاحب الرحلة لم يترك شيئاً يتعلق بالتجارة إلا وذكره، بالإضافة إلى ذكر السلع وأسعارها ووسائل التبادل التجاري، تحدث عن الضرائب فيقول أن غدامس تدفع ضريبة كل ثلاثة أشهر للباشا في طرابلس تدعى اللزمة (Lezma) وتقدر بـ: 9.000 فرنك بالإضافة إلى ذلك؛ الحاكم يحصل على فوائد أخرى مثل:

- بيع الزنوج بـ: 35 فرنك،
- الإبل بـ: 5 فرنك،
- دخول وخروج الإبل بـ: 10 فرنك من المنطقة<sup>(36)</sup>، ...إلخ.

إن ما يفسر لنا حماية الطوارق للسلع المارة مقابل أتاوى تقدمها القوافل، يظهر لنا جلياً من خلال ما أشار إليه الرحالة عن أسعار نقل البضائع وفقاً لمعلومات يقدمها النقيب التجاري في غدامس للتجار مثل:

- من غدامس إلى الواد بـ 40 فرنك لـ 200 كلم،
- من غدامس إلى غات بـ: 30 فرنك،
- من توات إلى تنبكتو بـ 90 فرنك، ... الخ.

وفي الأخير أشار الرحالة إلى أسماء القبائل التي تنتمي إليها هذه القوافل التجارية وهي: صنعون (Les Sinaoune)، رونجبان (Les Rondjebane)، المحاميد (Les Et Mahamid)، الحوامد (Les El Haouamed)، المحموديين (Les O. Mahamoud)، الجرجيين (Les Djerdje)، دوقاتيين (Et les Degatta)<sup>(37)</sup>.

### ج. الجانب العمراني:

لقد تحدث الرحالة بشكل مفصل عن الجانب العمراني لمدينة غدامس التي امتزجت بين سحر الطبيعة الصحراوية والبنيان، فقال مدينة غدامس كبيرة جدا محاطة بالنخيل وبها حصن يتمثل في جدار طوله أكثر من ثلاثة أمتار، يتم الدخول إليها من عدة أبواب أهمها الباب الشرقي، من هذه الجهة هناك تلٌّ من الرمال في شكل نصف دائري من خلالها نستطيع رؤية كل نخيل المدينة، بين هذا التلّ والحصن توجد مقبرة أين لاحظ الرحالة قبورها مزينة بأناقة بواسطة بيض النعام، وقبل تجاوز باب الغربي للولوج إلى المدينة نفسها، يجب عبور البساتين التي تشكل حول غدامس حصناً ثانياً أكثر صعوبة من الأول، فكل قطعة أرض محاطة بجدار وبالتالي بين الحصن والمدينة يتخللها النخيل والجدران.

ولما دخل المدينة ذكر أنها تنقسم إلى سبعة أحياء بها تسعة شوارع رئيسية، ولكل حي شيخه ومسجده، المساجد تتميز بأنها مقسمة إلى جزأين واحد

للنساء والآخر للرجال، أما البيوت فجزئها العلوي مغطاة بسقف مسطح، بها شوارع على شكل أروقة جد مظلمة، فقط توجد بعض النوافذ التي ينفذ منها ضوء خافت، على سطح كل بيت هناك سرير مبني على شكل قبر بزّي إسلامي.

أما عن حي الطوارق فهو معزول عن باقي المدينة ويقع على يمين باب الدخول، يتكون من سبعة إلى ثمانية بيوت، بحيث كل مسكن معزول عن المساكن المجاورة له كما هو الحال في بيوت شمال إفريقيا<sup>(38)</sup>، هذا وأشار إلى بيوت الطوارق الذين يعيشون تحت الخيام فقال خيامهم من جلد الثيران ومصبوغة بالأصفر وهي خيمات ذات أشكال تشبه الخيمة العربية، الخيمة من الداخل مزينة بزراي جميلة يجلبونها من تركيا وطرابلس هذا عند الأثرياء، أما الفقراء فداخلها مزينة بجلد النمر أو جلد الثيران<sup>(39)</sup>.

هذه المدينة لا يتوفر بها فنادق، أما التجار الذين يؤمونها من هنا وهناك ينزلون عند بعض الأصدقاء، وفيهم من المسافرين من يذهب إلى دار الضياف<sup>(40)</sup>.

#### د. الجانب الثقافي والاجتماعي:

في إطار المسح الاثنوغرافي والانثربولوجي للمجتمعات الصحراوية، اهتمت الرحلات بهذا الجانب اشد الاهتمام وهذا حتى يفهموا عقلية سكانها ومعتقداتهم وعاداتهم لاستدراجهم لتقبل الطرف الآخر، وهكذا جاءت رحلة بونمان استجابة لهذا الغرض، حيث أولى الرحالة اهتماما بالغا بالمجتمع التارقي لأنهم العقبة الكبيرة التي تقف أمام الفرنسيين لعبور الصحراء.

حيث أشار إلى الجانب التعليمي لهذا المجتمع فقال أن سكان غدامس يهتمون بتعليم أطفالهم حيث يترك الأولياء أبناءهم في المدرسة طيلة اليوم حتى لا يتجولون في الشوارع، لكن تراه يقول من جانب آخر أنه قلما تصادف غدامسي يعرف القراءة، أما

نسائهن يحسن القراءة والكتابة<sup>(41)</sup> بالبربرية التي هي لغتهم، حيث أطلعه عصمان باي بأن النسوة يتعلمن في المساجد القرآنية.

كما يشير الرحالة إلى الديانة والطريقة الصوفية التي يتبعها الطوارق فيقول عنهم مسلمون وينتمون إلى الطريقة التيجانية لكن عاداتهم وسلوكهم يختلف عن العرب، فالرجل التارقي له زوجة واحدة شرعية ويفضون الدعارة ولا يقبلون الطلاق، وللنساء تأثير كبير على الرجال المخلصين لهم<sup>(42)</sup>، كما أن سكانهم قليلو المعاشرة لبعضهم البعض وكل عائلة تعيش تقريبا في عزلة عن العائلات الأخرى.

أما شوارعهم تخلو من النساء عدى الخاديات والزنجيات والرجال العبيد والأحرار، وتقتصر حركة نسائهم في الطابق الأول من البيوت أو على السطوح كميدان مخصص لهم، حيث يوجد سوق الخضر والسلع والمنتجات المتنوعة، أما الرجال يتحولون في المدينة لقضاء حاجياتهم أو في الداخل لحراسة بساتينهم ونخيلهم، ويحتلون الطابق الأسفل من البيوت والأروقة المظلمة، أما شوارعهم بها محلاتهم المغلقة لأنها تمثل كمخازن يجمعون فيها سلعهم التي يتبادلونها مع التجار الذين يقدون إلى المدينة<sup>(43)</sup>.

يملك الطوارق قطعان كبيرة من جنس ممتاز، جاهلهم جميلة وقوية في السباق وهذا يعني أن الجمال التي تستخدم للركوب جد نادرة في الجزائر، أما غنمهم من جنس سوداني ومعزهم مختلطة؛ البعض منها به شعر طويل والأخر شعره قصير، كما لديهم بعض الأحصنة من السودان أو المغرب، أما أحصنة السودان يقول عنها الرحالة حسب الأوصاف التي ذكرها له تجار غدامس بأنها ذات قامة قصيرة ورؤوسها صغيرة وآذانها قصيرة.

كما يطلعنا الرحالة عن خصال أهل الطوارق في الكرم والجود، فقال أن شعب الطوارق مضياف إذا مرّ مسافر بديارهم فإنه يستقبل من طرف أحد النبلاء، فيقوم هذا الأخير باختيار ناقة من قطيعه ويذبحها ويتقاسمها مع أهالي العشيرة، ولا يحتفظ إلا بجزء



صغير ليهديه إلى ضيفه مع الطعام، هذا الطعام يقدم في قصعة كبيرة مملوءة بالكسكسي ولعصيدة وحليب النوق وهو المشروب المفضل أثناء الوجبات، أما الطوارق لا يأكلون ولا يشربون أمام الضيوف، وإنما يتناولون طعامهم فيما بينهم، لا ينزعون اللثام الذي يغطي جزء من وجوههم ويمررون فوق هذا اللثام طعامهم وشراهم.

هذا وذهب الرحالة بعيدا بوصفه الدقيق للمرأة التارقية في زينتها وشكلها ولباسها، فقال نساء الطوارق يضعن على أجسادهن وأوجههن مادة النيلة الزرقاء وعلى وجنتيهن يضعن بقع حمراء وأيديهن سوداوات بواسطة مادة تضيئي اللون الداكن، أما شكلهن فقال بأن أعينهن واسعات سوداوات وشعرهن طويل ينزل على ركبتيهن ورؤوسهن مكشوفة يقسمن شعرهن بخط مثل الفرسان، أما أذرعهن طوال مفتوحان يمسان الأرض، أما لباسهن فهن يرتدين جُباب من قماش سوداني ومطرز بألوان متنوعة، وفوق هذا اللباس ترتدي النساء الترقيات رداء من القطن أو الحرير مخطط بالأبيض، الأسود والأحمر فيزيدهن أنيقة، جزء من هذا الرداء يغطي الجسم والجزء الآخر مرفوع على الكتف الأيسر ومقدمة أذرعهن مزينة بحلي سودانية من ذهب وفضة<sup>(44)</sup>.

#### خاتمة:

من خلال ما تقدم نستنتج أن هذه الرحلة لا تخلو من فوائد تاريخية هامة بحيث:

- قدم لنا الرحالة وصفا دقيقا حول تنظيم القوافل والمسالك المؤدية إلى جهة غات وغدامس، فقد ركز على المسالك المؤدية بجهة الصحراء الجزائرية والسودان، باعتبارها محل اهتمام الفرنسيين، محمدا الهدف وهو غات لأنها أكبر أسواق السودان، كما أوضح بدقة أسعار كل السلع وفصل بين سلع الشمال وبيع السودان.

- هذه الرحلة أتت بنتائج قيّمة، الأمر الذي حفز فرنسا على بعث رّحالة آخرين إلى غدامس في وقت لاحق مثل **دوفيري (Duveyrier)**، للتعرف بشكل كامل على البنية الاجتماعية والدينية والنفسية لسكانها، بدليل ما ورد في رحلة بونمان أنه تأسف كثيرا لأنه لم يستطع زيارة كل البلاد وتمنى أن يزورها أحد آخر ليقدم معلومات عن هذه القبائل بشكل مفصل أكثر مما ذكره.
- كما أن المعلومات التي جمعها عن القادة الرئيسيين للطوارق وحرص سكان غدامس وحاكمها على فتح علاقات تجارية مع الجزائر الفرنسية، تجلّى ذلك في استدعاء زعيم الطوارق الديني **الشيخ عثمان** لزيارة العاصمة وقسنطينة خلال فترة حكم **المارشال راندون** ومرة أخرى في عهد **المارشال الدوق دومالاكوف بيسلي** لزيارة العاصمة وباريس، انتهت بإمضاء المعاهدة التجارية من طرف **الشيخ ايخنوخن** نيابة عن القبائل الأخرى.

### الهوامش:

- (1). كانت تدعى أنذاك بيموندرايس وهو تحريف للتسمية العربية بمراد رايس (Bir-Mourad-Rais).
- (2). Faucon Narcisse , **Le livre d'or de L'Algérie**, T.1, librairie Algérienne et coloniale, Paris, 1889, p 88.
- (3). **قبائل حجوط**: هم خليط من الفرسان المغامرين، يسكنون قبائل متيجة الغربية والوسطى، كما تسكن قبائل بني علال متيجة الوسطى، خلال العهد العثماني وُضعوا تحت أوامر خوجة الخيل التابع لدار السلطان وهم قبائل كثيرة القتال في الفترة الاستعمارية. للمزيد أنظر:
- Louis Rinn , **le royaume d'Alger sous le Dernier Dey** , Imp. libraire Editeur, Alger, 1900, p 22 ,27,
  - Faucon Narcisse , Op.cit, p 87.

- Lacène Khelil El Berkani , **Au pays des Hadjoutes ou Hadjout, tribu et ville (1052-1952)**, T.1, S.M.E, S.L.E, S.D , p 5.

(4). ابن علال: ينتسب لإحدى أكبر العائلات الشريفة، التي تنحدر من سيدي علي مبارك الذي استقر في القرن 17 قرب زاوية القليعة ، في وسط متيجة ، للمزيد أنظر:

- Louis Rinn , Op.cit , p27

(5). محمد بن علال بن مبارك: ولد حوالي سنة 1814م تلقى تكويننا دينيا صوفيا ، تربي على يد عمه الحاج محي الدين الصغير سيدي أمبارك، شارك إلى جانب عمه في أكتوبر 1832م في معركة بوفاريك وهي أول مواجهة كبيرة ضد الجيش الفرنسي منذ الاستيلاء على العاصمة في جويلية 1830م، تم إلقاء القبض عليه فيما بعد وسجن في العاصمة لمدة عامين، ثم أطلق سراحه سنة 1834م بعد المعاهدة التي وقّعها الأمير عبد القادر مع الجنرال دي ميشال. ولكن السّلم لم يدم فشارك محمد بن علال في عدة معارك ضد الفرنسيين إلى جانب عمه في سهول متيجة. تم استئناف الحرب بعد وفاة محي الدين الصغير في جويلية 1837م وخلف محمد بن علال عمه الحاج محي الدين في مليانة، أعاد تجديد الحلف الذي جمع بين عائلته والأمير عبد القادر من أجل تنظيم المقاومة وأصبح بداية من 1837م خليفة الأمير في مليانة. استشهد في معركة واد المالح قرب الحدود المغربية على يد الجيش الفرنسي في 11 نوفمبر 1843م. أنظر:

- مؤلف مجهول، مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف (دراسة خاصة بمدينة متوسطة في الجزائر)، د.د.ن، د.م.ن، د.ت، ص 143-144.
- محمد بن علال، مقال بالموقع الإلكتروني لبلدية القليعة.
- يوم: 25 ديسمبر 2014 ، على الساعة: 22 و 47 د. [www.apcdekolea-dz.com](http://www.apcdekolea-dz.com)

(6). faucon , Op.cit, p 91.

(7). Ibid, p 89.

(8). المارشال راندون: عمل المارشال راندون في معسكر كقائد المقاطعات العسكرية سنة 1841م وكقائد ملازم عام سنة 1848م، ثم مدير أعمال بالوزارة الحربية للجزائر ، استمر في استخدام حماسه وخبرته في خدمة المستعمرة السودانية، بفعل مؤهلاته العالية تم لفت الانتباه له، حيث استدعته الخلية الحربية سنة 1851م وقفل راجعا إلى الجزائر كحاكم عام 11 ديسمبر 1851م إلى غاية إنشاء إدارة خاصة للمستعمرات بالجزائر في 24 جوان 1858م. تميزت حكومته بإرسال شحنات كبيرة من الجيوش إلى بابور وقبائل جرجرة وحتى الجنوب لاحتلال الأغواط وتقرت وخضوع بني ميزاب وسوف حتى الصحراء الكبرى. توفي في جنيف 16 جانفي 1871م. أنظر:

- Ibid, p 461-462 .

- أحميدة عميراوي وآخرون، عميراوي أحميدة و آخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية ( 1916-1844)، درا هومة، الجزائر، 2009 ، ص 45.

(9).Faucon ,Op.cit p 89-91.

(10). Ibid , p 95.

(11). أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ( 1954-1830م)، ج7، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2007 ، ص 462-463.

(12).faucon, Op.cit, p 95.

(13). أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 462-463.

(14). faucon , Op cit , p 95.

(15). جمال فنان ، قضايا و دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر، المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر ، الجزائر، 1994، ص 139

(16). أحميدة عميراوي وآخرون، المرجع السابق، ص 45-46.

(17). faucon, Op.cit , p 90.

(18).Bonnemain, « Voyage à R'ADAMÈS », R.A.C, décembre 1859, , Imp. de CH.LAHURE et C<sup>IE</sup>, Paris , 1859, p 118.

(19).Ibid, p 119.

(20). faucon, Op.cit, p 91.

(21). Bonnemain , Op.cit, p 120.

(22).Ibid,p 120.

(23).Ibid,p 121.

(24). Faucon, Op.cit, p 91.

(25). Bonnemain , Op.cit, p 117.

(26). Faucon, Op.cit , p 90.

(27). Bonnemain , Op.cit , p 132.

(28). Ibid, p 126-127.

(29). يسمون عند الطوارق بالإيماجاغن (Imajaghen) مفردها أجماغ ومؤنثها تاماجاكن وهي طبقة النبلاء أو الأشراف وتحتل المرتبة العليا في المجتمع، وهي الأقلية الارستقراطية وأصحاب السلطة السياسية مشكلة من أناس اشتهروا بالحروب في الماضي، وأهمها قبائل كال غلة في كونفدرالية الأهقار وقبيلة أورارن عند كبل ازجر. ينظر:

- إبراهيم بتقة، "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدى قبائل الطوارق خلال القرن 19 م"، مقال نشر في كتاب الملتقى الوطني الثاني حول، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر من خلال المصادر المحلية، مطبعة منصور ، الوادي، 2012، ص، 271.

(30). Bonnemain , Op.cit , p 127

(31). Ibid, p 130-131

(32). Ibid, p116- 117.

(33). Ibid, 122-123.

(34). Ibid, p 125.

(35). Ibid , p 126.

(36). Ibid, p 126-127.

(37). Ibid, p 125.

(38). Ibid, p 121- 122.

(39). Ibid, p 128.

(40). Ibid, p 122.

(41). يقصد هنا كتابة التيفيناغ.

(42). Ibid, p 127.

(43). Ibid, p 123.

(44). Ibid, p 127-128.

اهتمامات الرأي العام التونسي بقضايا الثورة الجزائرية جريدة الصباح التونسية

نموذجا 1958/1954

د. أحمد مسعود سيدعلي / قسم التاريخ / جامعة المسيلة

sidali\_280@yahoo.fr

ملخص الدراسة باللغة العربية:

شكلت الصحافة التونسية كمنبر إعلامي منبعها نهلته منه الثقافة التونسية وبلورتها في اتجاهات كثيرة أهمها الاتجاه السياسي حيث كرس الوحدة بين شعوب منطقة المغرب العربي وبلورة الفكر المغاربي، فاهتمامات الصحافة التونسية بالشأن الجزائري جاءت مبكرة قبل اندلاع الثورة الجزائرية وبعدها وخلالها غدت بشكل أو بآخر الناطقة باسم الثورة تسجل في أحداثها العسكرية والسياسية وتشهر بسياسة القمع الاستعماري التي طالت الشعب الجزائري، لكن ظلت هذه المنابر تخضع لمشارب مختلفة كانت تنهل منها لأجل ذلك، اختلفت درجة تفاعلها مع أحداث الثورة باختلاف تلك المشارب السياسية والمصالح الضيقة لإيديولوجية الأحزاب المعبرة عنها، وجريدتي الصباح والعمل التونسيين وإن كانت الثانية لسان حال الحزب الدستوري الحر والأولى مقربة منه إلا أن هذه الأخيرة كانت تعبر بشكل أكثر راديكالية من العمل عن مواقف حازمة ناصرته فيه الثورة الجزائرية واعتقدت في ضرورة ربط كفاح الشعب التونسي قبل الاستقلال في مارس 1956، باستقلال الشعب الجزائري بل ومنطقة المغرب العربي برمتها، فهي كانت تساير خط القائد صالح بن يوسف وانتهجت فيما بعد نهج اليوسفية التي اختلفت عن البورقيبية في التعامل مع الوضع الإقليمي للمنطقة وتسوية الملف التونسي مع الإقامة العامة الفرنسية.

## ملخص الدراسة باللغة الانجليزية:

Tunisian press formed as a media outlet found drank it Tunisian culture and fleshed out in many directions the most important political trend where devoted unity among the peoples of the Maghreb region and the development of the Maghreb thought, Vahtmamat Tunisian press the Algerian affairs came early before the outbreak of the Algerian revolution and after her and which has become more or less a spokeswoman for Revolution sign up for military and political events and be declared a policy of colonial repression, which affected the Algerian people, but these platforms have been subject to different walks were draws them to order it, different degree of interaction with the events of the revolution according to those political stripes and narrow interests to ideological mouthpiece of her parties, and the newspapers the morning and work Altoncetin albeit second mouthpiece destour and the first close to it, but the latter was crossing the more radical than working for the positions determined which championed the Algerian revolution and believed in the need to link the struggle of the Tunisian people before independence in March 1956, the independence of the Algerian people and even the Maghreb region as a whole, they were keep pace line Salah Ben Youssef commander and later pursued Yusufiya differed from Bourguibism in dealing with the regional situation of the region and the settlement of the Tunisian file with the French public accommodation approach

## 1 - موقف تونس من دعم الثورة الجزائرية :

إن التوجه المغاربي المشترك في تعميم الكفاح المسلح سرعان ما فتر إثر تصريح قرطاج ومباشرة الحزب الحر الدستوري لمفاوضاته مع فرنسا، وقد كانت العناصر المؤثرة في الحزب تحرص على أن يكون إطار العمل المسلح محدود المجال والزمان، فهو مجرد عنصر ضغط على فرنسا لإلغاء نظام الحماية والجلوس إلى المفاوضات، لكن هذه السياسة ما كانت لتثمر في رأي الكثيرين لولا الانعكاسات التي أفرزتها الثورة الجزائرية، فقد أدى اندلاعها بعد أشهر من تصريح قرطاج إلى تسريع فرنسا لوتيرة التفاوض مع التونسيين، وسلمت في جوان 1955 بالاستقلال الذاتي لتونس، وعززت موقف بورقيبة في مواجهة الرافضين لهذا الاتفاق والداعين إلى مواصلة الكفاح ومساندة الجزائر<sup>1</sup>.

وفي الوقت الذي كانت فيه الثورة الجزائرية تمد نفوذها إلى تونس وتتعاون مع أنصار صالح بن يوسف لتمير السلاح وشن الهجمات المشتركة على القوات الفرنسية كان الصراع السياسي على أشده بين بورقيبة وصالح بن يوسف ، إذ كان كل منهما يحاول تأكيد اتجاهه ونفوذه ، ولكن حدة الصراع خفت إثر إعلان فرنسا استقلال تونس في مارس 1956<sup>2</sup>، والظاهر أن تطور موقف السلطات التونسية بقيادة لحبيب بورقيبة تجاه الدعم الفعلي للثورة الجزائرية والسماح بإقامة قواعد خلفية لجيش التحرير الوطني على الأراضي التونسية -على الرغم مما كان سيشكله هذا التوجه من مخاطر على تونس كما سنرى لاحقا- ، كان رهين باتساع حجم التضامن الشعبي وتمسك المعارضة التونسية بمواقفها الداعي إلى ضرورة دعم القضية الجزائرية .

لم يكن بوسع تونس عشية استقلالها أن تعلن دعمها للثورة الجزائرية، أو تبدي تأييدها لأهداف جبهة التحرير الوطني في كفاحها، خاصة وأن النفوذ العسكري



والاقتصادي الفرنسي بقي سيد الموقف ولم يتحقق استقلال تونس التام، ولهذا قررت تونس مباشرة مفاوضات التعاون النهائية لتعزيز الاستقلال القطري، وقد قدمت دعمها لنشاط الثوار الجزائريين بصورة خفية من جهة، وسعت من خلال بذل الجهود السياسية لإيجاد حلول للقضية الجزائرية من جهة أخرى.<sup>3</sup>

إن نظرة جبهة التحرير الوطني لاستقلال تونس كانت متباينة، إذ أن مسؤولي الوفد الخارجي وثور المناطق المتاخمة لتونس كانوا يفضلون استمرار تونس في الكفاح، ويرتاحون للتعامل مع أنصار ابن يوسف في تزويد الثورة بالسلاح، حيث واصل عبد الحفي الأوراسي ومحساس التعاون مع المعارضة عبر الجنوب التونسي، أما مسؤولو الداخل فأدركوا أنه لا مناص من التعاون مع الحكومة الجديدة التي ابدت رغبتها في ذلك بفضل تضامن الشعب التونسي، وتقرر في مؤتمر الصومام بعد دراسة الوضع بتونس الاعتماد على المسعى الحكومي وتنسيق العمل مع حكومة بورقيبة في الميدان السياسي والتعبوي وخاصة إيجاد آلية محكمة لتمير الأسلحة<sup>4</sup>

لقد تدعم نشاط جبهة التحرير الوطني بتونس منذ شهر ماي 1956، و ذلك بإنشاء النظام السياسي والعسكري للثورة الجزائرية تحت مسؤولية عبد الحفي الأوراسي وجماعة "الداخل"<sup>5</sup> وبعدها بإشراف محساس<sup>6</sup> حيث توطن النشاط السياسي والعسكري بقاعدة تونس وأطرت الجالية الجزائرية، كما ازدادت قوة التأييد الشعبي التونسي مع القضية الجزائرية، وقدمت الحكومة التونسية تسهيلات معتبرة للثورة الجزائرية، وأصبح لهذه الأخيرة نفوذها الخاص في تونس منذ سنة 1956.

وكان موقف الحكومة التونسية التضامني مع الجزائر يعبر عن الرغبة في احتضان الموقف الشعبي التونسي، وهو رهان مهم لتحقيق الانتصار السياسي على المعارضة اليوسيفية، كما أنه كان يهدف إلى كسب الجزائريين إلى جانبها وتنظيم نشاطهم بشكل

يحقق الاستقرار والأمن في تونس، ولهذا بادرت حكومة بورقيبة الى كسب الجزائريين لصفها والحصول على اعتراف جبهة التحرير الوطني بنظامها، وتحقيق الاستقرار والنظام في تونس بشكل يؤهل بورقيبة لإقامة علاقات التعاون مع فرنسا<sup>7</sup>، وفي إطارها يسهل معالجة مشاكل الشمال الإفريقي، غير أن المشكل الجزائري وقف عائقاً أمام سياسة التعاون التي أملت الحكومة التونسية إقامتها مع فرنسا، وتعرضت المفاوضات التونسية - الفرنسية حول اتفاقية التعاون إلى الانقطاع المستمر نتيجة تصلب الموقف الفرنسي وإصراره على بقاء القوات الفرنسية في تونس وضرورة إيقاف مساعدة الثوار الجزائريين، والتزام موقف الحياد بخصوص المشكل الجزائري.<sup>8</sup>

وعلى الرغم من التسهيلات المدعمة لنشاط جبهة التحرير الوطني في تونس فإن الموقف السياسي للحكومة التونسية لم يرق إلى مستوى أهداف ومبادئ الثورة الجزائرية، وذلك نظراً لاختلاف التوجهات السياسية وتباين طبيعة القضية الجزائرية عن القضية التونسية، ويتجلى لنا أن تصور المشكل الجزائري في نظر بورقيبة ينم عن تجاهل حقيقة الثورة الجزائرية، إذ لم يكن بورقيبة يسلم بأن الجزائريين أدرى بخلافاتهم وأعرف بحلول قضيتهم. وبالرغم من اعترافه أن المشكل التونسي يختلف عن المشكل الجزائري وتسليمه باختلاف الوضع الدستوري بينهما، فإنه كان يظن أن فرنسا كما تنازلت عن تونس والمغرب ستلجأ للتفاوض مع الجزائريين وأن على هؤلاء ألا يعولوا على الحل العسكري فيقبلوا بسياسة التفاوض مع فرنسا ولو أدى ذلك للقبول بمبدأ الحكم الذاتي<sup>9</sup>، ولم تكن مثل هذه الاقتراحات لترضي جبهة التحرير الوطني، كون طبيعة المشكل التونسي تختلف تماماً عن مشكل الجزائر لأن فرنسا كانت مصممة على عدم الاعتراف بالهوية الجزائرية، فضلاً عن حق الشعب الجزائري في الاستقلال، وقد أكد أحد مسؤولي جبهة التحرير الوطني في نهاية 1955 مشيراً إلى الاتفاق الفرنسي التونسي: "إننا نستنكر هذا الاتفاق ولو عرض علينا اتفاق مماثل في الجزائر فإننا نرفضه"<sup>10</sup>.

ولم يكن بإمكان الحكومة التونسية أن تعترف بسياسة جبهة التحرير الوطني ومبادئها الكفاحية منذ البداية، وحددت موقفها بالإعراب عن أملها في إيقاف الحرب وحل المشكلة بين الطرفين بالطرق السلمية، وهذا ما أكده الرئيس بورقيبة بقوله: "إن تونس المستقلة تتألم من الحرب الفاشية المسلطة على الشعب الجزائري الشقيق وتصرح هذه الحكومة بأنها سوف تبذل كل ما في وسعها لتساعد على إيجاد الحلول السلمية التي تضمن للشعب الجزائري الشقيق حقوقه الوطنية ليسود الاطمئنان كامل أقطار شمال إفريقيا ويزول آخر عامل يكدر صفو العلاقات بين الشعبين التونسي والفرنسي" <sup>11</sup>.

## 2- جريدة الصباح:

هي جريدة سياسية إخبارية صدرت بداية من الفاتح من نوفمبر 1951، قريبة من الحزب الدستوري الحر مديرها الحبيب شيخ روحه، توقفت عن الصدور من 21 أوت 1957 إلى 21 مارس 1958 حيث عادت للصدور من جديد. شكل خط الجريدة الأكثر راديكالية بالمقارنة مع جريدة العمل لسان حال الحزب الدستوري الحر شكل لها هذا الخط أكثر مقروئية بالمقارنة أيضا مع العمل خاصة لدى الجزائريين وعلى الخصوص بالشرق الجزائري، حتى أن الحكومة العامة بالجزائر قررت منع دخولها إلى الجزائر بالنظر لما كانت تروج له من أفكار تحررية وبذلك صدر قرار حجزها بتاريخ 09 جوان 1951. <sup>12</sup>

## 1-2- البعد المغربي في خط الجريدة:

لقد ساهمت جريدة الصباح بشكل واسع في بلورة الوعي المغربي بين شعبي تونس والجزائر، بل وراحت تغطي ما كان يدعو إليه الأمين العام للحزب الحر الدستوري صالح بن يوسف صاحب فكرة مغربة النضال التحرري بالمنطقة لتخليص المنطقة من براثن الاستعمار، في إطار الانتماء العربي الإسلامي. <sup>13</sup>

كما ندد باستعمال الجنود التونسيين في حرب الجزائر لاستعمالهم كدروع بشرية لقتال أشقائهم من الجزائريين بل اعتبرت هؤلاء من المغرر بهم، خاصة بعد أحداث الشمال القسنطيني أي هجومات العشرين من أوت 1955، حيث شاركوا في القمع الذي تعرض اليه الجزائريون، القومية من التونسيين والمغربيين وعبرت الجريدة عن أسفها العميق وألمها في أن يشارك أبناء الأمة الواحدة في قتال بني جلدتهم مناصرة للاستعمار.<sup>14</sup>

كما احتجت الجريدة على إبعاد الصحفي الجزائري الحاج محمد الناصر مراسل جريدة الرأي المغربية ومندوب إذاعة المغرب الذي استدعته مصلحة أعوان أمن الحدود وأبلغته بقرار الإبعاد إلى الأراضي الجزائرية.<sup>15</sup>

وشهرت الجريدة بهذه الإجراءات التعسفية وسياسة الكيل بالمكيالين في حق اللاجئين الجزائريين بتونس من خلال القضاء حيث كانوا يخضعون لمحاكمات خاصة.<sup>16</sup>

ركزت أيضا الجريدة على حملات التوعية التي قادها صالح بن يوسف ضد اتفاقية الاستقلال الذاتي التي انتهجها بوقبية مع الإقامة العامة الفرنسية واعتبرها تخليا صارخا للفكر التحرري المغربي واعتبرها مؤامرة تخدم الدوائر الاستعمارية لتتفرغ فرنسا للجزائر وتركز قواها على أرض عقب بن نافع، ففي أكتوبر من سنة 1955، أشرف صالح بن يوسف على اجتماع جماهيري بجامع الزيتونة ندد فيه باتفاقية الاستقلال الذاتي، واعتبره صفقة سياسية خاسرة كما أشاد بنضال الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي ونوه بضرورة مؤازرة ثوار جيش التحرير الوطني ومناصرتهم، لأنه من غير المنطقي أن يحقق شعب من شعوب منطقة المغرب العربي الكبير الاستقلال في الوقت الذي يظل فيه شقيقه يئن تحت نير الاستعمار، ذلك أن مستقبل المنطقة ومصيرها واحد.<sup>17</sup>

لقد نوهت الجريدة لقضية خطيرة أشار إليها صالح بن يوسف وهي أن الاستقلال الذاتي الذي ستتحصل عليه تونس كان في الحقيقة على حساب الثورة الجزائرية وعلى حساب سيادة تونس ذاتها التي انتقصت ولم تتحقق كاملة بقبول وفد الأمانة العامة للحزب الحر

الدستوري بقيادة بورقيبة الدخول في مفاوضات، غير آبه بمواقف المكتب السياسي وبقية القوى الوطنية الأخرى والحركات التحررية المغاربية، لأجل ذلك أكدت الجريدة على البعد المغاربي في النضال من أجل تحقيق الاستقلال الكامل والذي لا يكون إلا باستقلال كافة شعوب المنطقة.

لقد اقتنفت الجريدة أثر صالح بن يوسف الايديولوجي وانتهجت نهجه بتبنيها لأفكاره فهي كانت تحذر من مغبة الانخداع وراء أسطورة الاستقلال الذاتي الذي كان يروج له البورقيبيون وكانت تنبه الجزائريين من محاولة التفرقة التي كانت تروج لها بالجزائر إدارة الاحتلال من أن قبائل ميزاب هم ضد الثورة وهو ما أشار اليه صالح بن يوسف في أدى التجمعات التي عقدها بجامع الزيتونة حيث دعا إلى رص الصفوف ومواصلة النضال، لتحقيق الاستقلال الكامل لشعوب المنطقة.<sup>18</sup>

من جهتها رصدت جريدة الصباح المواقف الخارجية التي تبناها صالح بن يوسف لصالح القضية الجزائرية، فبعد توجيهه لبرقية إلى ممثل الكتلة الأفروآسيوية بهيئة الأمم المتحدة على اثر تسجيل القضية الجزائرية عبر عن كامل تضامن الشعب التونسي مع الثورة الجزائرية في كفاحه ضد الاحتلال الفرنسي، كما سجلت الجريدة اتمنان الفودين المغربي والجزائري المنضويين ضمن كتلة الدول الأفروآسيوية امتناهما على الربقية التي أرسل بها صالح بن يوسف واعتبرها مؤشر خير يرموا الى تحقيق وحدة شعوب المنطقة بعد تحقيق الاستقلال.<sup>19</sup>

إن هذه المواقف هي التي أخذت تعطي للثورة الجزائرية زخما قاريا بعد أن حققت التلاحم الاقليمي مع شعوب المغرب العربي لتتجه صوب الدول الإفريقية والآسيوية ضمن كتلة كانت تحضر لإنشاء تكتل عالمي جديد يقف في وجه الظاهرة الاستعمارية لن ترسم ملامحه إلا بعد أن تتعزز قوة الثورة في الميدان بمواجهتها جحافل جيش الاحتلال الفرنسي وتوخر الدبلوماسية الفرنسية في المنابر العالمية، هذه المواقف هي أيضا التي طرقت للثورة

الجزائرية أفاقاً واعدة وخصبة لخرق الستار الفرنسي المضروب على الجزائر منذ 1830، وولوج أروقة الأمم المتحدة لطرح القضية الجزائرية، لأجل ذلك فإن مواقف راديكالية كتلك التي عبر صالح بن يوسف كانت تتلج صدر مبعوثي جبهة التحرير الوطني بالخارج وتؤكد لهم تضامن الشعب التونسي مع الثورة الجزائرية، وهو ما عبر عنه السيد محمد خيضر ممثل جبهة التحرير الوطني بالقاهرة، الذي أشاد بالمواقف التقدمية لصالح بن يوسف سواء تجاه الثورة الجزائرية أو بخصوص المسألة التونسية وموقفه من قضية الاستقلال الذاتي التي كان بورقيبة يعتمز إتمامها مع الجانب الفرنسي.

كان صالح بن يوسف على حدة تعبیر جريدة الصباح مدركا لدسائس الاستعمار الفرنسي، وفي هذا السياق أدلى بحوار لجريدة لوفيقارو الفرنسية، نفى فيه الدعاية المغرضة التي كانت تروج لها سلطات الإقامة العامة بتونس ومفادها أن اتفاقية الاستقلال كانت تجري على قدم وساق بين كافة تيارات الحركة الوطنية التونسية، وأن ما يجري من أحداث هي معزولة ولا علاقة لها بما يجري من أحداث بالجزائر، بل راح يؤكد على رفض الشعب التونسي لاتفاقية الاستقلال الذاتي ويعلن تبنيه للمقاومة العسكرية وجهود التنسيق بين جيش تحرير تونس وجيش التحرير الوطني خاصة على الحدود الشرقية<sup>20</sup>.

كان للجريدة مواقف جد مشرفة من الثورة الجزائرية وحازمة تجاه الحكومة الفرنسية التي كانت تعتبرها دولة استعمارية تنتهك في المواثيق الدولية، كم أشادت الجريدة بمساندة التونسيين لأشقائهم الجزائريين واعتبرت هذه المساندة روح المغرب العربي الكبير، بل وشكلت الجريدة في بالكثير من الأحيان لسان حال الثورة إذ لم تقتصر على نشر أخبار الثورة في أعمدها بل راحت تخصص صفحات لتتبع مسار الثورة.<sup>21</sup>

كما كانت الجريدة تقوم بالدعاية الإعلامية والسياسية لصالح جبهة التحرير الوطني، من مثل نقلها للندوات والمؤتمرات الصحفية التي كان يعقدها قادة الثورة بتونس، كتلك التي

عقدتها مبعوثي الثورة من الداخل السيدين فرحات عباس ومحمد لأمين دباغين، من جهة ومبعوثي الثورة بالخارج آيت أحمد وأحمد محساس، وقد ضم هذا اللقاء أيضا الرشيد بن عبد العزيز الكاتب العام لاتحاد العام للعمال الجزائريين وعمر أو عمران و ابراهيم مزهودي ومصطفى بن عودة، وفي أثناء هذا اللقاء أشاد لامين دباغين بموقف تونس من الثورة وأعرب عن امتنانه لاحتضان الشعب التونسي للثورة الجزائرية.<sup>22</sup>

لقد ظل خط جريد العام ينتتبع في تطورت القضية الجزائرية عبر الكفاح المسلح الذي شنته وحدات جيش التحرير الوطني والنضال الذي خاضه قادة جبهة التحرير الوطني إن على المستوى المحلي أو الاقليمي لتدويل القضية الجزائرية والخروج من العزلة الاستعمارية التي فرضتها جل الحكومات الفرنسية بذريعة أن ما كان يحدث في الجزائر هو شأن داخلي، لكن المتتبع لأعداد الجريدة ومدى تغطيتها للحدث عبر اهتمامات الرأي العام التونسي يدرك كيف تمكنت هذه الأخيرة من بلورة النضال المغاربي لدى الرأي العام التونسي ومنه لدى لشعوب المنطقة برمتها ويمكن تتبع عينات من هذا الرأي الذي رصدت جريدة الصباح مختلف مواقفه من تطورات الثورة الجزائرية في:

### 1-الحركة الزيتونية:

الزيتونيون هم تلك الفئة المتخرجة من جامعة الزيتونة الذي غدا منذ القرن الثالث للهجرة فضاء للتعليم ثم منارة علمية في عهد الدولة الحفصية، وبالرغم من حالة التردّي التي أصابت هذه المنارة خلال العهد الاستعماري إلا أنّها حافظت على فاعليتها ضمن هيئات - مثل هيئة صوت الطالب المسلم- استحدثها الزيتونيون أنفسهم، ساهمت في بلورة رأي عام تونسي زيتوني على الساحة التونسية و الإقليمية

لقد تفاعل الزيتونيون مع الثورة الجزائرية وعبروا عن تأييدهم المطلق لنصرة الشعب الجزائري بل راحوا يسعون لايجاد أليات لتجنيد التونسيون في صفوف وحدات جيش التحرير

الوطني المقاتلة بالجزائر، وخلال انعقاد المؤتمر الزيتوني<sup>23</sup> في حريف 1955، أصدر المؤتمر لائحة سياسية بخصوص القضية الجزائرية، عارض فيه تجنيد التونسيين ضمن الفيالق الأجنبية التي كانت تعبئهم فرنسا لمقاتلة وحدات جيش التحرير الوطني .

كما اجتمعت هيئة صوت الطالب المسلم ونددت في تطورات القضية الجزائرية والأعمال الوحشية التي كان يمارسها جيش الاحتلال بالقوى والمداشر الجزائرية، كما أيدت هيئة صوت الطالب المسلم مطالب الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بعد الإعلان عن الإضراب بفرنسا أولاً والالتحاق بالثورة، واعلنت الهيئة تضامناً الكامل مع إخوانها الطلبة الجزائريين المضربين عن الطعام بفرنسا وكبرت فيه روح النضال من أجل الحرية، وأكدت الهيئة محاولة طمأنت الجانب الجزائري من شريحة الطلبة على الخصوص أنه بالرغم من البعد الجغرافي ومحاولات التفرقة التي تمارسها السلطات الفرنسية فإن الزيتونيين مصممون على مواصلة دعم أشقائهم الجزائريين.<sup>24</sup>

من جهتها أعلنت هيئة التدريس بجامع الزيتونة بيان بتاريخ 29 مارس 1956، أبرزت فيه بوضوح موقف النخبة التونسية من القضية الجزائرية وإيمانها العميق بضرورة استرجاع الجزائر لسيادتها ونصرتها لكفاح وحدات جيش التحرير الوطني ونددت بالعمليات القمعية التي كانت تطال الأبرياء جراء تطبيق سياسة العقاب الجماعي التي كان يمارسها جنرالات الجيش الفرنسي، كما ناشدت الهيئة الحكومة الفرنسية ممثلة في رئيس الوزراء ورئيس البرلمان للعودة الى منطلق الحوار والحكمة وتوقيف العمليات الحربية بالجزائر، والاعتراف باستقلال الجزائر والدخول مع ممثلي الشرعيين في مفاوضات جادة ترفع اللبس حتى عن الحكومة الفرنسية وعلاقتها مع الدول الغربية فضلاً عن العالم الاسلامي.<sup>25</sup>

## 2- موقف اللجنة التونسية للحرية والسلم:

هذه اللجنة تأسست منذ 13 مارس 1949، على يد علي البلهوان ثم خلفه الدكتور سليمان بن سليمان وكانت هذه اللجنة من المناصرين الأوائل للثورة الجزائرية اثر اندلاعها



و ذات عنها خلال المؤتمرات التي كانت تعقدتها داخل وخرج وتونس وغدت الثورة من اهتماماتها الأولية واعتبرتها قضية الشعب التونسي، ولتحسيس الرأي العام المغاربي والرأي العام العالمي بمحوم القضية الجزائرية كانت ترسل برسائل إلى رؤساء وزراء الدول الكبرى تعبر فيها عن احساس الشعب التونسي وتضامنه العميق مع ما يجري في الجزائر من وحشية يرتكبها جيش الاحتلال، كما احتجت على الحكومة الفرنسية التي كانت ترسل بوحدات من الجنديين التونسيين الى الجزائر لمقاتلة أشقائهم الجزائريين<sup>26</sup>.

كما عملت اللجنة على التعبئة المستديمة للشعب التونسي بما يجري في الجزائر من تقتيل وتشريد للأبرياء، عبر بيان أصدرته نددت فيه بشدة بسياسة القمع الأعمى التي كان يمارسها جيش الاحتلال واقترحت تنظيم يوم وطني للجزائر وتوجهت بندااء للنقابات التونسية للنظر في قضية إنزال العمال التونسيين للأسلحة في الموانئ التونسية والتي كان يقتل بها الجزائريون، وعبرت عن دعوتها إلى اللجوء للحلول السلمية لحل القضية الجزائرية حقن للدماء والاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره.<sup>27</sup>

### 3- موقف الجامعة التونسية للقدماء المحاربين:

تشكل هذه الجامعة من قدماء الحنود التونسيون الذين حاربوا الى جانب الجيش الفرنسي في الحربين العالميتين الأولى 1914/1918- والثانية 1939/1945، اثر سياسة التجنيد الاجباري التي كانت تمارسها سلطات الاحتلال الفرنسية في مستعمراتها، مجندون شاركوا الى جانب الجيش الفرنسي في آسيا وافريقيا وأمريكا، وقد أسست هذه الفئة من شرائح المجتمع التونسي جمعية تدافع عن مصالحها، ولأنها شاركت في الحروب الكبرى فقد ذاقت ويلات الحروب و أدركت حقيقة معانات الشعوب المستعمرة التي كانت تطالب بالحرية والكرامة، الأمر الذي جعل منها تندد منذ الوهلة لانطلاق الثورة بردود الفعل الجهنمية التي مارسها جيش الاحتلال في منطقة الأوراس بفرضه حالة الطوارئ واستعمال النبال لضرب

القرى والمداشر، كما استنكرت كل أساليب التعذيب التي مارسها جيش الاحتلال في حق المعتقلين الجزائريين خاصة أولئك الذين نقلوا من الجزائر و اقتيدوا إلى سجن منوبة بالتراب التونسي، لقد استنكر أعضاء هذه الجامعة هذه التصرفات واعتبروها مساسا بالسيادة التونسية التي كانت حديثة النشأة حينها بعد تحقيق الاستقلال الذاتي في مارس 1956، كما نددوا بشدة بأساليب الاعتقال التي طالت حتى الجزائريات المناضلات في جيش التحرير الوطني و اللواتي تم نقلهن إلى سجن منوبة حيث مورس في حقهن التعذيب وطالب أعضاء الجمعية بسرعة اطلاق سراحهن وتسليمهن الى السلطات التونسية.<sup>28</sup>

كما نددت الجامعة بمحاكمة اختطاف طائرة التي كانت تقل زعماء جبهة التحرير الوطني في 1956/10/22، واعتبرت الحادثة سابقة لا مثيل لها وخرقا للمواثيق الدولية واعتبرت هذا العمل اعتداء على تونس ودعت مناضلي الجمعية للاستعداد للدفاع على تونس ثانية إن تطلب الأمر إعلان الثورة على فرنسا لتحرير كافة الشمال الافريقي.<sup>29</sup>

#### 4- موقف حركة التعاون الحر التونسي الفرنسي:

تأسست هذه الحركة من قبل مجموعة من الشخصيات التونسية والفرنسية اثر اندلاع الثورة الجزائرية، ودعت عقب اندلاع الثورة إلى ضرورة الاستجابة لمطالب ثوار جبهة التحرير الوطني والجلوس على طاولة المفاوضات، لأجل ذلك نددت بشدة بمحاكمة اختطاف زعماء جبهة التحرير الوطني في 1956/10/22، واعتبرت الحادث مساسا بالمواثيق الدولية وانتهاك للسيادة التونسية لأنها كانت الراعي الشخصي للمفاوضات التي كان قادة جبهة التحرير الوطني يعتمون خوضها مع الجانب الفرنسي بواسطة مغربية تونسية، كما نشرت الحركة بيانا استنكرت بشدة الحادث وعبرت عن استيائها لهذا النوع من العمل الذي مس بسيادة الدولة التونسية والمغربية على حد سواء وحط من صورة

فرنسا كما حذرت من عواقبه واعتبرتها لا تنبأ بأي حل سلمي للقضية الجزائرية على الأقل في الآجال القريبة.<sup>30</sup>

هذا وقد أرسلت الحركة وفد عنها إلى الحكومة الفرنسية بباريس وشرحت للمسئولين الفرنسيين انعكاسات هذه الحادثة على مسار العلاقات التونسية الفرنسية وتأثيراتها على الجالية الفرنسية بتونس، كما أرسلت الحركة ببرقية إلى رئيس الوزراء الفرنسي غي مولي، استنكرت فيها حادث الاحتطاف، واعتبرته مساسا بمبدأ الضيافة التونسي والذي هو مقدس لدى المجتمع التونسي ومن شأنه أن يخل بالعلاقات التونسية الفرنسية، كما دعتهم إلى ضرورة إطلاق صراح زعماء الجبهة والعودة إلى تبني الحلول السلمية لحل القضية الجزائرية.<sup>31</sup>

### 5- موقف دائرة الإفتاء:

لقد أسست هذه الهيئة لجنة دينية ضمت علماء وفقهاء تونسيين للدفاع عن المدنيين الجزائريين في 17 سبتمبر 1957، وتولى رئاستها مفتي الديار التونسية الشيخ عبد العزيز جعيط وباشرت عملها بتوجيه نداء إلى شعوب العالم المتمدن وحكوماتهم للدفاع عن المدنيين الجزائريين.<sup>32</sup>

كما استنكر شيوخ وعلماء دائرة الإفتاء الأعمال الإجرامية التي كان يرتكبها جيش الاحتلال الفرنسي في حق الجزائريين وشجب سياسة القمع الاستعماري ممثلة في إقامة المناطق الممنوعة والمحرمة خاصة على المناطق الحدود التي تضرر كثيرا منها سكانها الذين شردوا وغدوا في تعداد اللاجئين.<sup>33</sup>

### 6- موقف المجلس القومي التأسيسي التونسي:

هذه الجمعية تأسست بقرار من الإقامة العامة في 23 فيفري 1907، وقد أخذت اسم مجلس الشورى حينها، ثم تحول إلى المجلس التأسيسي التونسي، وقد اهتم هذا المجلس بقضايا الثورة الجزائرية منذ اندلاعها واعتبر حل المسألة الجزائرية من صميم استتباب

الوضع في تونس، كما كان المجلس يستنكر الأعمال الإجرامية التي كان يمارسها جيش الاحتلال الفرنسي بالجزائر، وعبر عن تأييده للكفاح البطولي الذي كانت تخوضه وحدات جيش التحرير الوطني وأعرب عن تضامن تونس مع الشعب الجزائري وحقه في استرجاع سيادته المغتصبة.<sup>34</sup>

كما ساهم المجلس في تدويل القضية الجزائرية بمشاركته في المؤتمرات العالمية التي كان يعقدها مع البرلمانيين العالميين، مثلما كان الأمر اثر مشاركته في الندوة الثامنة والأربعين التي عقدها الاتحاد البرلماني الدولي الذي انعقد بفرضوفيا حيث تولى عبد الرحمان النبي تلاوة اللائحة التي صاغها المجلس التأسيسي التونسي في حق المسألة الجزائرية واعتبر من خلالها حرب الجزائر حرب إبادة ضد الشعب الجزائري.<sup>35</sup>

كما أشاد المجلس التأسيسي التونسي بالموقف الذي اتخذته السناتور الأمريكي جون كيندي بخصوص القضية الجزائرية فبعث له ببرقية عبر فيها عن امتنانه لهذا الموقف.<sup>36</sup> كما عبر المجلس عن صادق ارتياحه للجوء كل من الطرف الفرنسي والجزائري الى خوض غمار المفاوضات بداية من جوان 1960، واعتبر هذا السبيل الخيار الأمثل لحل المسألة الجزائرية على أساس حق الشعب الجزائري في تقرير مصيره.<sup>37</sup>

### 3-العدوان على الساقية فيفري1958:

غطت جريدة الصباح الفاجعة التي حلت بمنطقة ساقية سيدي يوسف اثر العدوان الغاشم الذي طال المنطقة من طرف جيش الاحتلال، هذا الأخير الذي احتج بحجة متابعة فلول وحدات جيش التحرير الوطني التي كبدته خسائر كبرى بجمال الكوشة يوم 1958/01/11، فاختارت قوات الاحتلال الفرنسي يوم السبت الذي يمتلئ فيه سوق قرية ساقية سيدي يوسف لتنفيذ انتقامها.

صورته الجريده أيضا حدة المأساة بعدد أسراب الطائرات الفرنسية العسكرية المشاركة في العدوان- عشرة قاذفات وأربع مطاردات- و التي حامت فوق سماء الساقية وجعلت تقصف-بمحجة تعقب ثوار جيش التحرير الوطني الجزائري- في العزل وتطاردهم بغارات متكررة في سماء القرية ومنجمها الذي لجأ اليه الكثيرين للاحتباء، كما دامت العمليات من الحادية عشرة صباحا الى منتصف النهار، وانتهت بسقوط 68 قتيل من بينهم تسع نساء وأثنا عشر طفلا والبقية من الرجال، كما تم العثور على سبع وخمسين جثة هامدة وعشرة جرحى استشهدوا بعد نقلهم الى المشافي.

أما الجرحى فقد قدرة الجريده عددهم بسبعة وثمانين جريح، علاوة عن الخسائر المادية متمثلة في تحطيم خمس سيارات عسكرية وخمس أخرى مدنية واحدة تابعة للصليب الأحمر الدولي و أخرى للهلال الأحمر، وتهدم دار المندوبية وثلاثة وأربعين مسكنا وأربعة وثمانين متجر ومركز الجمارك وارده البريد ومدرسة ابتدائية ومركزين للحرس الوطني.<sup>38</sup>

في حين شكلت الخسائر بمنطقة المنجم التابع للساقية، فاجعة حيث تم تدمير ستة وتسعون مسكن وإدارة الغابات والمناجم ومركز الحرس الوطني.

كما نوهت الجريده بطبيعة الأسلحة التي استعملها جيش الاحتلال الفرنسي خلال عمليات القصف من قنابل حارقة والقنابل المدمرة ونيران الرشاشات مما أدى إلى إضرار النيران في العديد من المناطق.<sup>39</sup>

لقد علقته الجريده بطريقة تنمو عن إدراكها كنه السياسة الاستعمارية الفرنسية، التي راحت تتعذر وتحتلق في الحجج التي دفعتها إلى تنفيذ عملياتها الإجرامية بمحجة ملاحقة فلول وحدات جيش التحرير الوطني التي كانت تنفذ في عمليات عسكرية ضد الطيران الفرنسي انطلاقا من الأراضي التونسية. وتتبع تصريجات المسؤولين

العسكريين الفرنسيين بخصوص مبررات العدوان بحيث اعتبروا الحدود بمثابة منفذ لثوار جبهة التحرير الوطني، وأن الثوار القادمين من تونس يمدون الثورة بالداخل بالسلاح.<sup>40</sup>

كما صرح وزير الدفاع الفرنسي جاك شابان دلماس أن الطيران الفرنسي لم يقم عدا بتطبيق حقه الشرعي في الدفاع.<sup>41</sup>

كما غطت الجريدة مختلف المواقف التي اتخذتها الحكومة التونسية اثر العدوان والتي يمكن أن نوجزها في :- دعوة السفير التونسي بباريس للالتحاق بتونس للاستفسار.

- إحاطة سفير تونس بالأمم المتحدة لاتخاذ الإجراءات القانونية.

- حجر على الوحدات الفرنسية المتواجدة بالأراضي التونسية من مغادرة ثكناتها إلا برخصة.

- التأكيد على ضرورة جلاء القوات الفرنسية من بنزرت.<sup>42</sup>

كما تقدمت تونس بشكوى رسمية إلى مجلس الأمن الدولي مطالبة باتخاذ قرار حاسم لصالحها ومؤكدة " أن حرب الجزائر ونتائجها لا تهدد تونس فقط بل تهدد السلام العالمي "، وردت الحكومة الفرنسية برفع شكوى مماثلة ضد تونس عنونها كالتالي " الموقف الناجم من العون الذي تقدمه تونس إلى الثوار لتمكينهم من متابعة عملياتهم على الأراضي التونسية موجهة ضد وحدة الأراضي الفرنسية".<sup>43</sup>

أدت حادثة الساقية وإثارة المشكل التونسي-الفرنسي بمجلس الأمن إلى إعطاء بعد سياسي وتعبوي لصالح تدويل القضية الجزائرية، لأن تونس أصرت على ربط الخلاف بالمشكل الجزائري وقلبت الاحتكام إلى القرارات الدولية قصد فرض ضغوط دولية على الحكومة الفرنسية، وخوفا من التدخل السوفياتي في قضايا الشمال الإفريقي سارعت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا لعرض وساطتها على فرنسا وتونس في إطار المساعي

الحميدة التي قبل بها الطرفين، وتمسك كل منهما بشروطه لإنجاحها، فقد أرادت فرنسا تقييد المساعي الحميدة وحصرها في المشكل التونسي والتمسك ببقاء القوات الفرنسية بتونس، في حين كان الموقف التونسي يؤكد صراحة " أن على العالم الغربي أن يغتنم الفرصة لحل المشكل الجزائري كضمان وحيد للحفاظ على السلم بالمنطقة، وقد عولت الحكومة التونسية كثيرا على المساعي الحميدة الأمريكية البريطانية لوضع حد لتواجد القوات الفرنسية بالبلاد، وتحسيس العالم الغربي بخطورة المشكلة الجزائرية على مصالحه بالشمال الإفريقي، وأنذر الرئيس بورقيبة الرأي العام الدولي والأوساط الأمريكية بخطورة الوضع في الشمال الإفريقي إذا لم تتم الاستجابة" إلى ندائي بشأن إنهاء الحرب الجزائرية"، وأكد إثر اجتماعه برجلي المساعي الحميدة ( الأمريكي روبر مورفي والبريطاني هانولد بيلي) تداخل الأزمة التونسية -الفرنسية مع قضية الجزائر قائلا: " إن مهمتكما سيكون محكوما عليها بالفشل إذا لم تعالجوا جوهر المشكل وهو حرب الجزائر"، وتؤكد فشل جهود الوساطة نظرا لاختلاف مواقف الطرفين الفرنسي والتونسي، ورغم ذلك فإن المساعي الحميدة أثارت تدخل الولايات المتحدة الأمريكية لتعرب عن موقفها بضرورة حل القضية الجزائرية في إطار العالم الحر وأثار هذا التدخل مشاكل سياسية للحكومة الفرنسية أضعفت من موقفها بالشمال الإفريقي.

مما سبق يتضح لنا أن تضامن الرأي العام التونسي مع الثورة الجزائرية أعطى دعما سياسيا مهما لكفاح الشعب الجزائري، وقدم ضروبا مختلفة من الدعم والمؤازرة، وذلك بالشكل الذي جعل السياسة الفرنسية تفشل في عزل الجزائر عن عمقها التونسي، وإن ضغوط فرنسا واعتداءاتها على تونس زادتها تأكيداً على ضرورة وضع حد لحرب الجزائر، وتعزيز مواقف جبهة التحرير الوطني بالدعم العسكري والسياسي الذي كان له تأثيره على تدويل القضية الجزائرية وتوسيع نشاط الثورة التحريرية، وإن كل هذه المواقف

أضفت على العلاقات الجزائرية . التونسية في المرحلة المدروسة تحسنا ملحوظا خدم سياسة التضامن المشترك والأخوة المغاربية.

\*الهوامش:

<sup>1</sup> رخييلة عامر، الثورة الجزائرية والمغرب العربي: المصادر، مجلة يصدرها م و د ب ح و ث 1954، الجزائر، العدد 1 (صيف 1999)، ص 142-143.

<sup>2</sup> الديب فتحي: عبد الناصر وثورة الجزائر، ط1، دار المستقبل العربي، القاهرة 1984، ص 180.

<sup>3</sup> Aleya sghaier .les tunisiens et la revolution algerienne in Methdologie de l histoire des mouvements nationaux au Maghreb le 1<sup>er</sup> congre duforum d histoire contemporaine , publications F TRESI tunisie 1998 pp 123 135

<sup>4</sup> المدني أحمد توفيق : حياة كفاح مذكرات، الجزء الثالث ، ط 2، م و ك ، الجزائر ، 1988 ، ص 152 .

<sup>5</sup> ارسل عبان رمضان كلا من حامد رواجية و آيت أحسن لتمثيل جبهة التحرير الوطني بها عوض عبد الحي الأوراسي لكن هذا الأخير لم يتقبل الأمر بسهولة و أدت الخلافات بينه وبين جماعة الداخل إلى تدخل السلطات التونسية التي طالبت من مسؤولي الوفد الخارجي تنحية عبد الحي فأرسل ابن بلة علي محساس كممثل لجبهة و جيش التحرير الوطني بتونس ، ينظر شهادة رواجية حامد ب ، عباس محمد : رواد الوطنية ، ط 1 ، مطبعة دحلب ، الجزائر ، 1992 ، ص ص 246 – 248 .

<sup>6</sup> أحمد محساس علي : من الأعضاء البارزين في حزب الشعب ، ساهم في تأسيس اتحادية الجبهة بفرنسا ثم انتقل إلى القاهرة سنة 1955 ليكلف بمسؤولية التسليح بليبيا ثم عين مسؤولا سياسيا و عسكريا بتونس ، حيث قام بتنظيم القاعدة و تفعيل نشاطها و نظرا لمولاته لابن بلة عارض جماعة الداخل ، فتمت تنحيته من قبل لجنة التنسيق والتنفيذ .

<sup>7</sup> أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 154.



<sup>8</sup> تقرير رئيس بعثة جبهة التحرير الوطني بتونس الى الحكومة المؤقتة المؤرخ يوم 7 نوفمبر 1960

ANA GPRA la tunisie de bourguiba devant la revolution  
algerienne . b.302.dos 7..4

<sup>9</sup> الحبيب بورقيبة: من أقوال المجاهد الأكبر الرئيس الحبيب بورقيبة، ط1، شركة فنون الرسم والنشر  
والصحافة، تونس 1984، ص. 75.

<sup>10</sup> جوان غليسي: الجزائر الثائرة، ترجمة خيري حماد، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1961، ص.

154. وشهادة عبد الحميد مهري، مقابلة مع الباحث، الجزائر، 2 اوت 2005

<sup>11</sup> خطاب الرئيس الحبيب بورقيبة في مجلس الأمة التونسي يوم 19 أفريل 1956، الرائد التونسي  
، عدد يوم 21 افريل 1956.

<sup>12</sup> حمدان محمد: حمدان محمد: دليل الدوريات التونسية الصادر بالبلاد التونسية من 1938/الى

20 مارس 1956، بيت الحكمة قرطاج تونس 1989 ص 84/85

<sup>13</sup> نفسه ص/58

<sup>14</sup> الصباح: ع 1160: 04 أكتوبر 1955، تعليق على مشاركة التونسيين.

<sup>15</sup> الصباح: ع 1284/25 فيفري 1956.

<sup>16</sup> الصباح: ع 1429/17 جويليه 1956.

<sup>17</sup> الصباح/ع: 1164/04 أكتوبر 1955.

<sup>18</sup> الصباح/ع: 1165/09 أكتوبر 1955.

<sup>19</sup> الصباح/ع: 1169/14 أكتوبر 1955.

<sup>20</sup> الصباح/ع 1290/04 مارس 1956

<sup>21</sup> الصباح: ع 1573، 01 فيفري 1957.

<sup>22</sup> الصباح: ع: 1616/23 مارس 1957

<sup>23</sup> العمل: ع: 12/06 نوفمبر 1955. لائحة المؤتمر الزيتوني

<sup>24</sup> الصباح، ع 1255/22 جانفي 1956 تضامن صوت الطالب المسلم مع الطلبة الجزائريين.

<sup>25</sup> الصباح، ع 1312/29 مارس 1956/بيان هيئة التدريس بجامع الزيتونة.

- <sup>26</sup> الطليعة ع14/11 نوفمبر1955. رسائل الى وزراء الخارجية الأربعة الكبرى.
- <sup>27</sup> الصباح ع1386/27 جوان1956
- <sup>28</sup> الصباح ، ع:1415/،12 أوت1956، بيان الجامعة التونسية لقدماء المحاربين.
- <sup>29</sup> الصباح:1487/24 أكتوبر1956. بيان الجامعة التونسية لقدماء المحاربين
- <sup>30</sup> العمل ع:311/24 أكتوبر1956.
- <sup>31</sup> الصباح:ع/1487/24/10/1956/برقية حركة التعاون الحر التونسي الفرنسي لرئيس الوزراء الفرنسي غي مولي.
- <sup>32</sup> الشابي محمد لطفي: الدولة التونسية الجديدة والثورة الجزائرية1954/1958، الجزائر2002
- <sup>33</sup> العمل ع18/592 سبتمبر1957 اللجنة الدينية للدفاع عن المدنيين الجزائريين.
- <sup>34</sup> العمل ع188/31 ماي1956.
- <sup>35</sup> العمل ع1202/02 سبتمبر1959.
- <sup>36</sup> الصباح ع 21 أبريل1960
- <sup>37</sup> الصباح ع جوان1960
- <sup>38</sup> العمل: العدد 09/715 فيفري1958.
- <sup>39</sup> اعتداءات على ساقية سيدي يوسف، العمل نفس المصدر السابق.
- <sup>40</sup> العمل نفسه تصريحات الجنرال لاکوست.
- <sup>41</sup> نفسه تصريحات وزير الدفاع الفرنسي.
- <sup>42</sup> نفسه اجراءات تونيسة.
- <sup>43</sup> بلاسي نبيل: الاتجاه العربي والإسلامي ودوره في تحرير الجزائر، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990، ص 187

## مظاهر الوقف العلمي في الحضارة الإسلامية

أ/ الكاملة فرحات - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الشهيد حمّ

لخضر

rimalfarhat@gmail.com

## ملخص

يتلخص مضمون بحثنا في الحديث عن الوقف في الشريعة الإسلامية، وبالتحديد على مظاهر الوقف العلمي في حضارتنا الإسلامية عبر تاريخها في مراحلها المختلفة، فقد كان للوقف العلمي دور فعّالا في نشر العلم والثقافة، وتنوير العقل المسلم، بحيث ساعد في القضاء على ظاهرة الأمية في المجتمعات الإسلامية على مر العصور، كما أنه ساعد المعوزين في التحاقهم بالمدارس والكتاتيب، فأدى كل ذلك لازدهار الحركة العلمية والثقافية، وقد تمثلت مظاهر هذا الوقف العلمي في بناء المساجد والمدارس والكتاتيب ووقف الكتب والمكتبات وإنشاء الربط والخوانق والزوايا والخلاوي، وغيرها من الأماكن والأشياء التي تخدم طلبة العلم والمتعلمين في مختلف تخصصاتهم وأعمالهم، وتساعد في ذات الوقت الأساتذة والباحثين في بحوثهم وإبداعاتهم المختلفة ما أنتج لنا الآلاف من الكتب في الفنون المختلفة.

**Abstract :**

The research's content is summed up to tackle the endowment in the Islamic law (Shari'a) and more precisely the endowment's aspect in our Islamic civilization throughout its different historic periods, Scientific endowment had a crucial role in spreading knowledge and culture and enlightening the Muslim psyche in the sense that it helped to eradicate illiteracy in Islamic societies

throughout history as well as helping the less fortunate to join schools and madras which lead the flourishing of the scientific and cultural movement. The scientific endowment's aspects were seen in the erection of mosques, schools and koranic schools and the endowment of books and libraries and the establishment of ribat, khankahs, zawiyahs and khalwa and other places that help scholars in their specialties and works in one hand and teachers and researchers in their researches and creations in the other hand, Thus, we have thousands of books in a variety of arts.

#### مقدمة

إن شريعة الإسلام خاتمة الشرائع، وأفضلها وأتمها وأكملها، فقد جاءت وافية بحاجات الناس ومتطلباتهم في شتى أمورهم، فشرعت لهم فعل الطاعات وترك المنهيات، تقرباً إلى الله وابتغاء مرضاته، ولم يقتصر تحصيل الأعمال الصالحة في ظلها على الحياة الدنيوية فحسب، بل أمتد ليشمل الحياة الآخروية، حيث شرعت من الأسباب ما يحقق تلك الغاية بعد الوفاة، وهي الصدقات الجارية، والتي من أهمها الوقف، ومن المعلوم أن الأوقاف الشرعية في شتى أصنافها كانت رافداً عظيماً لاستمرار حركة العلم والتعليم والتنمية، من عهد الصحابة إلى عصرنا الحاضر، وعبر العصور الإسلامية المختلفة.

ولهذا تعد الحضارة الإسلامية من أكبر الحضارات رُقياً في تاريخ البشرية، فقد تفردت عن غيرها من الحضارات بعديد المزايا، فبرزت ظاهرة الوقف كشاهد عيان على سمو روح المسلم وبذله أعز ما يملك في سبيل العلم وتنوير الألباب امتثالاً للنصوص الشرعية التي تحث على ذلك الخلق والترغيب فيه بالثواب الجزيل للمحسنين ذوي الأوقاف، الذين

بفضلهم ازدهرت الحركة العلمية والثقافية في المجتمعات الإسلامية وبذلك يُعد الوقف العصب الأساسي والعمود الفقري في حياة الحركة العلمية في الأمة الإسلامية، وبالتالي كان هذا البحث بعنوان: "مظاهر الوقف العلمي في الحضارة الإسلامية".

وقد تمثلت إشكاليته: في الوقوف على أصالة الوقف العلمي في حضارتنا الإسلامية عبر تاريخها الطويل والعريض، وبيان أشكاله ومظاهره المختلفة، ويمكن أن نصوغ ذلك في السؤال الآتي: ما هي مظاهر الوقف العلمي في الحضارة الإسلامية؟.

ولعل من أهم الأهداف التي نود تحقيقها من خلال هذه المقالة هي تبيان مظاهر الوقف في الجانب العلمي في الحضارة الإسلامية وكيفية الاقتباس منها، وبيان نتائجها وفوائدها والاستفادة منها اليوم، والتاريخ الإسلامي خير شاهد على ما نقول، ولا يسع المتأمل لمسيرة تاريخ الوقف الإسلامي عبر العصور الإسلامية الماضية، إلا أن يقدر لهؤلاء الكرام جهدهم وأن يدعوا لهم بالرحمة والمغفرة.

ومن كل هذا فإن طبيعة البحث اقتضت أن نقسمه بعد المقدمة إلى ستة مطالب، أولها يتعلق بتعريف الوقف العلمي لغة واصطلاحاً ومشروعيته، وباقي المطالب تختص بمظاهر الوقف المختلفة في تاريخنا الإسلامي، والتي هي:

المطلب الأول: تعريف الوقف العلمي.

المطلب الثاني: المساجد

المطلب الثالث: المدارس

المطلب الرابع: المكتبات

المطلب الخامس: الكتابات

المطلب السادس: الربط والخوانق والزوايا والخلاوي

ثم في الأخير الخاتمة التي نحوصل فيها أهم النتائج المتوصل إليها من خلال هذا

البحث.

والآن نشرع في تفصيل هذه العناصر على النحو التالي:

### تمهيد:

يكتسي الوقف العلمي أهمية بالغة في تاريخ الحضارة الإسلامية؛ حيث يعتبر الوقف في المنظومة الإسلامية من أهم مظاهر الرقي والتقدم في منظور الإسلام، لما يحققه من تكافل اجتماعي، ولما يغطيه من عجز ونقائص داخل المجتمع المسلم، ولما يقوم به من معالجات لقضايا مختلفة، وذلك لأن من مقاصد الوقف الحفاظ على هوية الأمة، وجبر النقائص فيها، لتكون قوية بذاتها وبأموال أبنائها، فالعلم هو الركيزة الكبرى لنهوض الأمم، واتخاذ مكانة لها بين الأمم والدول، وهذا ما يجعل الوقف على مدارس العلم وطلبتها والباحثين فيها من الأولوية بمكان، نظراً لما يحققه من مقاصد كثيرة، منها الحفاظ على الأمة، وتحريك حركة الإنتاج فيها وتقوية نسيجها الداخلي، وإتاحة الفرص لكل أبنائها من الاستفادة من الفرص المتاحة في نيل العلم، وفتح الباب أمام الباحثين والمبدعين ليدلوا بدلوههم في النتاج العلمي، كما أن من مقاصده الحفاظ على العقل المسلم بما يحمله من خصائص ومميزات، وقيم ومبادئ، يكون بها رحمة على العالمين، وهذا ما جعل العلماء والباحثين يتوجهون لوقف الكتب العلمية المختلفة لأنها توجه فكر المسلم نحو معرفة خالقه ومعرفة حدود شريعته<sup>1</sup>، وواجبه نحوه مجتمعه والإنسانية جمعاء.

### المطلب الأول: تعريف الوقف العلمي ومشروعيته

#### أ - الوقف لغة

الوقف مفرد وجمعه أوقاف<sup>2</sup>، ووقف<sup>3</sup>. وهو من أصل مادة (وقف)، يقول ابن فارس: «الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكن في شيء ثم يقاس عليه»<sup>4</sup>. وقد اتفق اللغويون وعلماء الشريعة بأن الوقف مصدر<sup>5</sup>، وهذا المصدر يراد به اسم المفعول، بمعنى الشيء الموقوف<sup>6</sup>.

والوقف عندهم يدور حول معاني، هي: التحبيس<sup>7</sup>، والتسبيل، وكلها بمعنى واحد. ففي لسان العرب لابن منظور: «وفي الحديث: ذلك حبس في سبيل الله؛ أي موقوف على الغزاة يركبونه في الجهاد، والحبس فعيل بمعنى مفعول. وكل ما حبس بوجه من الوجوه حبس...»<sup>8</sup>.

### ب - الوقف اصطلاحاً:

عندما نقف مع أقوال الفقهاء حول تعريف الوقف نجد أنها اختلفت، وهذا راجع لاختلافهم في شروط وأركان الوقف، وإليك تعريفاتهم:

- فعند الحنفية: «حَبَسُ الْعَيْنِ عَلَى حُكْمِ مَلِكِ الْوَأَقِفِ وَالتَّصَدَّقُ بِالْمَنْفَعَةِ»<sup>9</sup>.  
- وعند المالكية: «جَعَلَ مَنْفَعَةَ مَمْلُوكٍ وَلَوْ بِأَجْرَةٍ أَوْ غَلَّتِهِ لِمُسْتَحِقِّ بِصِيعَةٍ مُدَّةً مَا يَرَاهُ الْمُحَبِّسُ»<sup>10</sup>.

- أما الشافعية: «حَبَسُ مَالٍ يُمَكِّنُ الْإِنْتِفَاعَ بِهِ مَعَ بَقَاءِ عَيْنِهِ بِقَطْعِ التَّصَرُّفِ فِي رَقَبَتِهِ عَلَى مَصْرَفٍ مُبَاحٍ مَوْجُودٍ»<sup>11</sup>.

- وعند الحنابلة: «تَحْبِيسُ الْأَصْلِ، وَتَسْبِيلُ الثَّمَرَةِ»<sup>12</sup>.

ففي الأول حبس عين، والثاني حبس منفعة، والثالث حبس مال، والرابع حبس أصل، وهذا الاختلاف في تعريف الوقف تكمن ثمرته في استثماره في توسيع دائرة الوقف وحاجة الناس لذلك في كل زمان، وتماشياً مع مستلزمات العصور بروح الشريعة الغراء الصالحة لكل زمان ومكان، وهذا ينعنا في مجال الوقف العلمي في هذا العصر الذي تعددت فيه وسائل المعرفة، وتكاثرت فيه أدواتها، وتعددت فيه مجالاتها، وخاصة مع فرض التخصصات نفسها، فلم يعد الأمر متوقفاً على علوم اللغة والقرآن والشريعة، ولا على الوسائل التقليدية القديمة فنحن في عصر التطور والتقدم التكنولوجي، وهذا يحتم علينا النظر لعصرنا برؤية أشد وضوحاً وأشمل مما كانت عليه في السابق.

### ج - الوقف العلمي:

فمن خلال ما سبق يمكن أن نحدد مفهوم الوقف العلمي بأنه: حبس عين أو أصل أو منفعة أو مال لأغراض علمية.

#### د - مشروعية الوقف العلمي

لقد رغب الإسلام في فعل الخيرات، فقال تعالى: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>13</sup> ، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾<sup>14</sup> وأثنى على رسله فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾<sup>15</sup> .

ولأجل تحقيق هذا الغرض الكبير تتابع نزول الآيات الدالة على فعل الخيرات، ومن هذه الخيرات التي رغب فيها الشرع؛ الوقف، فقد جعل - الله تعالى - له جزءاً متميزاً لا ينقطع بموت صاحبه؛ وذلك لبقاء أثره ودوام نفعه، ف جاء ذلك تحت عموم الإنفاق في الكتاب والسنة من نصوص عديدة، التي تدعو إلى البذل والإنفاق في سبيل الله؛ قال - تعالى - : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾<sup>16</sup> .

ولهذا أدرك المسلمون الأولون هذه المعاني العظيمة، لمثل هذه التوجيهات الربانية الحكيمة، فراحوا يسارعون في الخيرات، ويستبقون في النفقات، ويتخيرون أفضل الصدقات، وأنفع الأعطيات، فتعاونوا في بناء المساجد وسائر المرافق، وكل ما ينفع الدين والأمة، استجابة لدعوة الإسلام الداعية إلى الوقف الخيري؛ منها قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنُ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، أَوْ وُلْدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا كَرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، تَلَحُّقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»<sup>17</sup> .

فقد ذكر أن من الأعمال التي تلحق صاحبها بعد موته؛ العمل العلمي فهو من الأعمال الصالحة التي يوقفها الإنسان في حياته وتبقى تدر عليه في الأجر بعد موته، لما فيها من نفع لغيره بعد رحيله، كما جاء في صحيح مسلم، أنه - صلى الله عليه وسلم -



قال: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»<sup>18</sup>.

ولقد فسرت الصدقة الجارية بالوقف لاستمرار منفعتها للناس وثوابها<sup>19</sup>؛ فقال العلماء: «معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع بتحدد الجواب له، إلا في هذه الأشياء الثلاثة؛ لكونه كان سببها؛ فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية، وهي الوقف»<sup>20</sup>.

وكل هذه تعتبر من الآثار التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾<sup>21</sup>. فمن آثارهم كعلم علموه، أو كتاب صنّفوه، أو مسجد بنوه... الخ<sup>22</sup>.

فكان من بذرة الوقف العلمي أن أوقف بنو النجار أرضهم على مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان المسجد هو النواة الأولى للمدرسة في حضارتنا، فلم يكن مكان عبادة فحسب؛ بل كان مدرسة يتعلم فيها المسلمون القراءة والكتابة والقرآن وعلوم الشريعة واللغة وفروع العلوم المختلفة، ثم أقيم بجانب المسجد الكتاب وخصص لتعليم القراءة والكتابة والقرآن وشيء من علوم العربية والرياضة<sup>23</sup>...

وهكذا فهم المسلمون مشروعية الوقف العلمي بشتى صورته وأشكاله، فاستمد هذا النوع من الوقف مشروعيته - كذلك - من عمل الأمة، حيث فاستمرت على العمل بهذه الخصلة السنّية، الرفيعة العلية، جيلا بعد جيل طيلة دهور عديدة وأزمنة مديدة، فقامت على توجيه الحركة العلميّة، وتشبيد العديد من المدارس ودور العلم من الكتاتيب وغيرها، وإنشاء مساكن للطلّبة والمكتبات الخازنة للكتب<sup>24</sup>؛ ليتسنى لطلّاب العلم الاطّلاع عليها، وما أتاحه ذلك من الاهتمام بالعلماء والمعلّمين، والمؤدّبين والعرفاء، وغيرهم.

وكتب التاريخ والتراجم مليئة بأخبار الأوقاف العلمية ومنافعها، وأنواع الموقوف عليه؛ من مدارس ومكتبات وكتاتيب، وأوقاف لحملة القرآن، وأخرى للمحدثين، وقد كان أرباب المذاهب الفقهية يتنافس أثرياً وهم للوقف على فقهاء المذهب، أو نسخ كتبه أو غير ذلك، وما هذا التراث الضخم من العلوم الشرعية وكتبها التي وصلتنا إلا والوقف سبب من أسبابها المؤثرة.

ومن هذا الذي ذكرناه عن بعض أشكال الوقف نبدأ في المطالب التالية في الحديث عن بعض تلك المظاهر للوقف العلمي في حضارتنا الإسلامية.

### المطلب الثاني: المساجد

كان للوقف دور هام ومؤثر في نشر الدعوة الإسلامية وتعليم المسلمين أمور دينهم وديناهم، وذلك من خلال عدة مؤسسات كان في مقدمتها المساجد التي ليست أماكن للعبادة فقط في نظر الإسلام، وإنما هي أماكن تنهض برسالة التثقيف والتنوير ونشر الوعي الديني السليم، ولقد كان للوقف الخيري دور فعال في دعم المساجد لأداء هذه الرسالة واستمرارها.

لقد كان المسجد هو محور سياسة الوقف سواء من حيث إنشائه أو الصرف على مصالحه ومهماته وعمارته، أو من حيث ترتيب من يقومون بإمامة الناس في الصلاة والخطابة والأذان والاهتمام بنظافة المسجد وتوفير المياه اللازمة له والإضاءة، ولذا فقد نال الوقف على إنشاء المساجد والإنفاق عليها اهتمام المسلمين منذ عهد النبوة بأول وقف في الإسلام: وهو مسجد قباء الذي أسسه النبي صلى الله عليه وسلم حين وصوله المدينة ثم المسجد النبوي الذي بناه في السنة الأولى للهجرة، ومن ثمة انتشر بناء المساجد والوقف عليها في عهد الخلفاء الراشدين وفي عهد بني أمية وبني العباس، واتسع نطاق الوقف على المساجد ومن اشتهر بذلك الفاطميون والدولة الأيوبية والزنكية في بلاد الشام ومصر وفي عهد المماليك والعثمانيين<sup>25</sup>.

وتنافس الأمراء والوزراء والولاة ورجال الاقتصاد والأغنياء على بناء المساجد في كل مدينة وقرية في شتى ربوع العالم الإسلامي ووقفوا عليها أموالاً طائلة لعمارته ورعايتها<sup>26</sup>. وهكذا ساهم الوقف في زيادة انتشار المساجد في مختلف البلاد الإسلامية، فعلى سبيل المثال بلغ عدد مساجد دمشق في القرن الثالث للهجرة نحو ألف وخمسمائة مسجد، كما ساهم الوقف في تقديم التمويل اللازم للمساجد من أفرشة وأثاث ومصاحف وكتب وغيرها، بالإضافة إلى المكافأة والتخصيصات المالية والرواتب التي كانت تدفع للعلماء والفقهاء والقراء وطلاب العلم وغيرهم ممن يقومون بملازمة المساجد والاهتمام بها وخدمتها، وأهم تلك الوظائف الإمامة والأذان والصيانة والنظافة والتربية والتعليم والخطابة والوعظ والإرشاد وقراءة القرآن الكريم وتعليم أبناء المسلمين، وكل هذه الوظائف دامت بفضل الوقف الذي كان يمدّها بالأموال<sup>27</sup>.

فلم تكن المساجد في البلاد الإسلامية إلا مساجد وفاقية، وكل خدماتها وصيانتها كانت مما حُبس عليها من الأموال الوفيرة لتأدية وظائفها المتعددة، وأكثر ما استخدمت المساجد له، أنها مراكز للتعليم، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم أول من استخدم مسجده مكاناً للدعوة والتعليم والإرشاد واتبع الصحابة رضي الله عنهم خطواته من بعده، فاستمرت حلقات العلم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة والمسجد الحرام بمكة المكرمة، وهكذا لولا المسجد لما تعلم عامة المسلمين أحكام دينهم وتنظيم أمور دنياهم، واستبصار الحلال والحرام في حياتهم<sup>28</sup>.

ومن الوظائف التي كان يهتم بها الواقفون هي وظيفة قراء القرآن ومعلميه ليقوموا بمهام تدريس أبناء المسلمين آيات القرآن الكريم وطرق الأداء والتلاوة، ليكون المسجد دورة متكاملة لجميع أنواع العبادة المشروعة ومن أجل أن يؤدي المسجد دوره في تثقيف المسلمين وتربيتهم وتهذيبهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية وآدابها.

كما كان للوقف أثره الطيب في استقلال رجال العلم والأئمة والدعاة عن السلطة الحاكمة غير خاضعين لها معتمدين على الأموال الموقوفة لهم<sup>29</sup>، فقد ذكر أن مئات الآلاف من دنائير الذهب وقفت مرارًا عبر العصور الإسلامية على حُطباء المساجد وأئمتها وعلى المعلمين والطلاب والمؤذنين فيها<sup>30</sup>، وذلك من أجل استمرار المساجد ودوامها<sup>31</sup>، وبفضل ذلك ظلت المساجد تؤدي رسالتها الدينية من غير انقطاع على امتداد تاريخ الإسلام<sup>32</sup>، وتشع منها الثقافة الإسلامية الأصيلة وينبعث منها الوعي الديني والمعرفي<sup>33</sup>، إذ شملت حلقاتها العلمية معارف عدة كالطب والفلك والحساب وغيرها<sup>34</sup>.

ومن أشهر المساجد الموقوفة في التاريخ الإسلامي منها:

ففي عصر الخلفاء الراشدين بلغ وقف المساجد ذروته، إذ كثرت المساجد في زمن الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأمر بنائها في مختلف الأمصار الإسلامية، وأمر سعد بن أبي وقاص بتأسيس مسجد الكوفة، كما أن الخليفة عمر قام بتوسعة المسجد الحرام؛ حيث اشترى بعض المنازل المجاورة له وأدخلها فيه، أما في عهد الخلافة الأموية اتسعت مساحة الدولة الإسلامية أضعافا مضاعفة، ودخل الناس في دين الله أفواحا، وقد تزامن ذلك مع انتشار الأوقاف وتغلغلها في المجتمع الإسلامي، وحرص الجميع على إنشاء الأوقاف بكل أنواعها، ومن أشهر الأوقاف التي تميز بها العصر الأموي وظلت ماثلة حتى يومنا هذا الجامع الأموي في مدينة دمشق، الذي بني في عهد الوليد بن عبد الملك زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز فقد رُوي أنه أحضر العمال من كل صوب وعُدَّتْهم اثنا عشر ألف رجل، وأنفق عليه مالا كثيرا وامتد بناءه عشر سنوات، ورتب للقراء أموالا وأرزاقا<sup>35</sup>، ولا يزال هذا الجامع مركزا علميا وثقافيا مهما خلال فترات طويلة من تاريخ الإسلام وكان له أثر كبير في تعزيز المعرفة وتنمية الحركة العلمية، وكم ترد عليه من علماء ملؤوا الأرض علمًا ومعرفة وتصنيفًا وتأليفًا<sup>36</sup>.

وفي عهد الدولة الفاطمية في مصر بُني جامع الأزهر وهو بمثابة المدرسة، فهو مسجد تقام في أرجائه حلقات للدراسة، وتحيط به من كل جهاته غرف لسكن الطلاب؛ تسمى بالأروقة، يسكنها طلاب كل بلد بجانب واحد، فَعُرِفَ للشاميين، ورواق للمغاربة، ورواق للأتراك، ورواق للسودانيين ... وهكذا، ولا يزال طلاب الأزهر حتى اليوم يأخذون راتباً شهرياً مع دراستهم المجانية من ريع الأوقاف التي أوقفت على طلاب العلم بالأزهر<sup>37</sup>.

ومن أشهر المساجد الموقوفة في بلاد المغرب جامع القيروان بتونس، الذي أنشأه عقبة بن نافع الفهري في القرن الأول الهجري زمن الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب، إذ كان بمثابة جامعة إسلامية متطورة بجوار كونه مسجداً، ولذلك أوقف كثير من كبار أعلام تونس كتبهم عليه حتى أصبحت مكتبته تضم من النوادر والمصادر الموقوفة ما لم يوجد في غيرها، وقد تبعه من خلفه من أمراء الدول التي تتابعت على المغرب والأندلس حتى عهد الخلافة العثمانية.

واللأف للخطر أن بناء المساجد الموقوفة لم يكن حكراً على الخلفاء والأمراء والأغنياء، بل اشتركت حتى النساء في هذا العمل العظيم، فقد أنشأت في عهد الأدارسة في المغرب الأقصى السيدة فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري جامع القرويين بفاس عام 245 هجري، وأوقفت عليه الأموال الدارة<sup>38</sup>، وازداد الوقف مع ازدياد الحواضر ونموها، وازدادت عناية الحكام بالوقف ومبادرات المحسنين فتكاثرت المساجد ورُصدت لها الهبات المالية، ووقفت عليها الأراضي والعقارات<sup>39</sup>، وعكف فيها الطلاب لتلقي العلوم الشرعية والعلمية وعلوم اللغة<sup>40</sup>.

### المطلب الثالث: المدارس

لقد حُظيت المدارس الوقفية باهتمام كبير من جانب الواقفين، والتي تأتي في المرحلة التالية في سلم ترتيب أولويات الوقف، لما لها من أثر كبير في التنمية العقلية للإنسان بزيادة قدراته ومهاراته<sup>41</sup>، وهذا ما جعل الأمراء والأغنياء والتجار يتسابقون في بناء

المدارس والوقف عليها بما يضمن استمرارها وإقبال الطلاب عليها، وهناك الكثير ممن جعلوا بيوتهم مدارس وجعلوا ما فيها من كتب وما يتبعها من عقار وقفا على طلاب العلم الدارسين فيها<sup>42</sup>.

وهكذا كثرت المدارس في البلدان الإسلامية وخاصة بلاد المشرق، وكان التعليم فيها متاحاً للغني والفقير وحتى الغريب مجاناً مع إيجاد السكن والمطالعة والطعام للمحتاج<sup>43</sup>، واختير للتدريس فيها العلماء الأكفاء وطلاب متفرغون للعلم، ووقفت لهم المصاريف والمعيشة فضلاً عن الدراسة والعلاج<sup>44</sup>.

ولقد تفرعت تلك المدارس في عدة تخصصات منها الطب والصيدلة والهندسة واللغة العربية والعلوم الإسلامية كتدريس القرآن الكريم وتفسيره وحفظه وقراءته، وأوقفت عليها أوقاف كثيرة للإنفاق على مُدرسيها وطلابها وعمالها وصيانتها<sup>45</sup>، وهذا ما أثار دهشة الرحالة منهم ابن جبير الأندلسي أثناء رحلته إلى بلاد المشرق، حيث دعا المغاربة أن يشدُّوا الرِّحال للمشرق لتلقي العلم فقال "وتكثر الأوقاف على طلاب العلم من البلاد المشرقية كلها وبخاصة دمشق، فمن شاء الفلاح من أبناء مغربنا فليرتحل إلى هذه البلاد، فيجد الأمور المعينة على طلب العلم كثيرة وأولها فراغ البال من أمر المعيشة"<sup>46</sup>.

ومع تطور الأوقاف وتوسعها في الحضارة الإسلامية طُورت المدارس مناهجها التعليمية فبينما كان التعليم في الكتاتيب انتقل إلى مرحلة التعليم النظامي في بدايات القرن الخامس الهجري، إذ أصبح له فصول ووظائف تعليمية وطرق تدريس<sup>47</sup>، وكان بعضها بمثابة كليات وجامعات، حيث بُنيت أول مدرسة في دمشق سنة 391 هجري وسميت بالمدرسة الصادرية نسبة إلى مؤسسها شجاع الدولة صادر بن عبد الله، ثم أسست المدرسة الرشائية نسبة إلى مقرئ دمشق رشاً بن نظيف سنة 400 هجري، وكان الطلبة يدرسون في هذه المدارس وتُوقف عليهم وعلى شيوخهم أموال كثيرة ويُوفر لهم الطعام والشراب وتوفر لهم كل أسباب التعليم<sup>48</sup>.

ومن أشهر المدارس الوقفية في تاريخ الحضارة الإسلامية هي سلسلة المدارس النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقي في عهد الدولة العباسية نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (توفي 485 هجري) وسميت باسمه، إذ يعتبرها المؤرخون أول ظهور للمدارس التعليمية بمعناها المعروف في القرن الخامس الهجري، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة واختار لها الأكفاء من الأساتذة وأول هذه المدارس النظامية أنشأت ببغداد عام 458 هجري<sup>49</sup>، حيث هيئاً لطلابها كل سبل العيش والتعليم، وقد خصصت المدارس النظامية لتعليم الفقه والحديث، وكان الطلاب يتناولون فيها الطعام ويتقاضون فيها رواتب شهرية، ونتيجة لهذا العمل امتلأت العراق وخرسان بعشرات المدارس، وكان الوزير نظام الملك كلما وجد في بلدة عالماً تميز وتبحر في العلم بنى له مدرسة ووقف عليها وقفاً، وجعل فيها دار كتب والتلاميذ يتعلمون بالجمان، وللطلاب الفقير فوق كل ذلك شيء معلوم يتقاضاه مع الربيع المخصص لذلك<sup>50</sup>.

ونتيجة هذا الاهتمام حتى أصبحت المدارس النظامية من أشهر الجامعات في تاريخ الحضارة الإسلامية لأنها وفرت المناخ العلمي المساعد على الدراسة والبحث<sup>51</sup>، حيث تخرج منها أكابر العلماء وأشهرهم: كالغزالي والشيرازي، وكان لها أوقاف وعقارات للإنفاق عليها وعلى الدارسين فيها<sup>52</sup>.

ثم بدأ التوسع في إنشاء المدارس وهو ما يدل على اهتمام الخلافة العباسية بالعلم وطلابه معتمدة على الأموال الموقوفة، كبناء المدرسة المستنصرية الموقوفة التي أسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة 631 هجري عندما كان التتار يجتاحون العالم الإسلامي، وهي أعظم جامعة متطورة في تاريخ الإسلام<sup>53</sup> حيث وقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وسبعون فقيهاً، وأربعة مُعيدين ومُدبر لكل مذهب وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين وشيخ للطب وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم

الطب، ومكتب للأيتام، وقرر للجميع من الخبز واللحم والحلويات والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد<sup>54</sup>.

ومن المدارس الوقفية العظيمة في القدس الشريف المدرسة العُمرية التي أسسها ابن قدامة المقدسي بعد تحرير القدس من الصليبيين عام 583 هجري وخصص لها أوقافا كثيرة، ويتضح ذلك من نفقاتها منها: ألف خبزة يوميا للنزلاء والدارسين وهذا يدل على ضخامة عدد طلابها وأضحية يوم عيد الأضحى لكل نازل بالمدرسة، ووفقا على حلوة توزع في شهر رجب وشعبان ورمضان للطلاب، ووقف على ثياب للنزلاء كل سنة ووقف لأباريق للوضوء والاغتسال وتدفئة الماء في الشتاء ووقف لزيت الإضاءة<sup>55</sup>.

ومن أشهر المدارس الموقوفة في القدس أيضا مدرسة صلاح الدين الأيوبي التي أنشأها عام 588 هجري ووقف عليها خيرا كثيرا، ولقد اهتمت هذه المدرسة بتدريس العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية، إضافة إلى علوم الحساب والهندسة والفلك والاقتصاد مع اهتمامها بدراسة الفقه الشافعي<sup>56</sup>.

كما اهتمت الدولة المملوكية بإنشاء المدارس الموقوفة والمكاتب حتى إنه لا يُعرف على وجه الدقة عدد المدارس الموقوفة في ذلك العصر من كُتبتها، ومن أشهر المدارس في عهد المماليك المدرسة الظاهرية التي أنشأها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في القاهرة وذلك سنة 662 هجري وأوقف عليها المال وأغدق عليها مما جعلها أجمل مدرسة في مصر، فقد حوت هذه المدرسة الجامعة على أقسام عديدة في العلوم العقلية والنقلية، فضلا عن دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف وحوث مكتبة تضم أنواع كثيرة من الكتب ومدرسة ابتدائية لتعليم الأيتام، وكان يتكفل بالإطعام حيث يعطي لهم وجبة منتظمة من الطعام والخبز يوميا، فضلا عن إعطائهم ملابس للشتاء والصيف<sup>57</sup>.

وفي عهد الدولة العثمانية بنى السلطان سليمان القانوني أربعة مدارس بمكة المكرمة سنة 927 هجري وأوقف عليها أموالا طائلة لتدريس المذاهب الأربعة، وهناك مدارس



وقفية عديدة يصعب حصرها منها: المدرسة الصالحية بمصر التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة 641 هجري التي أوقف عليها أوقافاً ضخمة والمدرسة المسعودية ببغداد التي بناها مسعود الشافعي وجعلها وقفاً على المذاهب الأربعة بجانب تدريس العلوم والطب<sup>58</sup>.

وهكذا ساعد الوقف وبشكل فعال في تقدم العلوم والمعارف المتنوعة، حيث أن الأموال الموقوفة كانت أحد الأسباب والعوامل المهمة في تنشيط الحركة العلمية، ونشر التعليم والارتقاء بالمستوى الثقافي، ومكافحة الأمية وبناء الحضارة الإنسانية الإسلامية، وقد تربي في أحضان المدارس الموقوفة الكثير من الفقهاء والمفكرين والأدباء والوعاظ والمصلحين الاجتماعيين وكانت الأوقاف موعيناً لهم، ومن أشهر العلماء الخوارزمي وجابر بن حيان والرازي وغيرهم<sup>59</sup>، كما أن الكثير من تلك المدارس الموقوفة كانت تستضيف الطلاب في إقامة كاملة بل وتعطيهم راتباً دورياً<sup>60</sup>، وكفلت للعديد من العلماء أرزاقهم كي يتفرغوا للعلم وشؤونهم<sup>61</sup>.

كما أن للوقف دور كبير في نشر التعليم في الدول الإسلامية وذلك بتشيد صروح العلم والثقافة وتأمين الظروف المناسبة للفقهاء والعلماء والأدباء في محراب التأليف والنشر، إن الأوقاف العلمية كانت من أهم ما اعتنى به المسلمون في تاريخهم، فقامت أوقاف المدارس والجامعات ولقد أغدق المسلمون في الإنفاق الوقفي على العلماء والدارسين بشكل لم يكن له سابقة قبلهم<sup>62</sup>.

### المطلب الرابع: المكتبات

إن من أهم المظاهر التي يتجلى فيها البعد العلمي للوقف هو إنشاء المكتبات وفتح أبوابها لطلاب العلم وهو ما يعكس حب المسلمين للعلم ويعتبر من مفاخر الحضارة الإسلامية ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات<sup>63</sup>.

وبما أن المكتبات تعد من أقوى وسائل نشر العلم، ولأهمية الكتب لطلاب العلم والعلماء قام المحسنون ومُحِبو العلم والمقتدرون بإنشاء المكتبات الوقفية وفتحها أمام طلب العلم، ووقفوا عليها الأموال الكثيرة تقرباً إلى الله تعالى وسعياً إلى التقدم العلمي<sup>64</sup>، ولذا نشأ عن هذه الروح العلمية انتشار العديد من المكتبات في شتى ربوع العالم الإسلامي، فقلماً كانت مدرسة ليس بجانبها مكتبة، وقلماً أن تجد قرية صغيرة ليس فيها مكتبة، أما العواصم والمدن فكانت تَعَجُّ بدور الكتب بشكل لا مثيل له في تاريخ العصور الوسطى<sup>65</sup>.

ولقد اتخذت تلك المكتبات أسماء عدة منها: خزانة الكتب وبيت الكتب ودار الكتب ودار العلم وبيت الحكمة، ولم يكن الأمراء والخلفاء والوزراء وحدهم الواقفون للمكتبات في سبيل الله بل كان إلى جانبهم العلماء والأغنياء<sup>66</sup>، حتى انتشرت خزائن الكتب الوقفية في معظم أرجاء العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري وأصبحت المكتبات بما فيها من كتب قبلة طلاب العلم تُعينهم على التزود بكل جديد، وتوفر لهم فرص مواكبة الأفكار والآراء المدونة لمؤلفين من أصقاع العالم الإسلامي.

ولقد تنوع الوقف في مجال المكتبات فشمّل وقف مكتبات بأكملها، ووقف الكتب على المدارس والمساجد والمستشفيات، كما كان هناك نوع من الوقف يتمثل في وقف كتب عالم بعد وفاته على أهل العلم أو على ورثته للمحافظة عليها حتى لا تتبدد أو تتبعثر بعد وفاته، واهتم واقفوا المكتبات بتوفير دخل مادي ثابت لها لصيانتها وترميمها وتحمل التكاليف المادية للعاملين فيها<sup>67</sup>.

لقد ظهر نوعان من المكتبات الموقوفة في العالم الإسلامي عامة وخاصة، فأما العامة فقد كان يعتني بإنشائها الخلفاء والأمراء والأغنياء وكانت تُشيد لها أبنية خاصة، وأحياناً كانت تلحق بالمساجد والمدارس الكبرى، أما الخاصة فقد كانت تشتمل على حجرات متعددة تربط بينها أروقة فسيحة وكتبها توضع على رفوف مشبّعة بالجلدران، تخصص كل

غرفها لفرع من فروع العلم، وفيها أروقة خاصة للمطالعين وغرف للنسّاخ الذين ينسخون الكتب، وغرف لحلقات الدراسة والنقاش العلمي بين رواد تلك المكتبات، وكانت جميعها تؤثت تأثيثاً فخماً ومريحاً، وكان في بعضها غرف لطعام روادها وغرف لمبيت الغرباء منهم<sup>68</sup>، وكانت هذه المكتبات العامة والخاصة وراء حركة الازدهار الفكري والثقافي التي شهدها العالم الإسلامي على مدى قرون طويلة<sup>69</sup>.

كما أدى وقف المكتبات إلى نشر الثقافة وتوسيع سبل المعرفة لدى الطلاب والدارسين على مدى قرون طويلة، وبفضل الوقف وُفرت الكتب والنسخ الكثيرة في وقت لم تكن فيه الطباعة ولقد ساعدت الكتب الموقوفة على حركة التأليف والقضاء على الأمية والجهل<sup>70</sup>.

ومن أشهر المكتبات الوقفية في التاريخ الإسلامي:

#### أ - دار العلم في الموصل بالعراق:

تعتبر أول مكتبة وفقية في الإسلام وقد أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلية (توفي 323 هجري) الفقيه الشافعي في أوائل القرن الرابع الهجري، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب العلم وكان مُعسراً أعطوه كتباً ومالاً فهل سمعتم اليوم بمكتبة في لندن أو واشنطن أو عاصمة من عواصم العالم الكبرى تمنح العلم والأموال لطلبة العلم؟ فأبي حضارة أروع من هذه الحضارة؟<sup>71</sup>.

#### ب - دار العلم في بغداد:

وهي مكتبة عامة قام بوقفها وزير في عهد الدولة العباسية يسمى سابور بن اردشير في سنة 381 هجري وجعل فيها كتباً متعددة، ووقف عليها غلة كثيرة وكانت تحتوي على أكثر من عشرة آلاف مجلد.

#### ج - دار الحكمة في القاهرة:

وهي مكتبة تم افتتاحها بعد سنوات من افتتاح المكتبة الوقفية في بغداد، وهي مكتبة وقفية على درجة كبيرة من الأهمية في تاريخ المكتبات في الإسلام أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة 395 هجري وحملت الكتب إليها من خزائنه في سائر العلوم والآداب وحرصا على توفير موارد مالية كافية تُعين على استمرارها في أداء رسالتها العلمية قام بوقف منازل ودكاكين بنيت ليُستغل ريعها في الصرف على هذه المكتبة، ويقال أنها كانت تشمل أكثر من ستمائة ألف كتاب<sup>72</sup>.

### المطلب الخامس: الكتاتيب

إن أول ظهور لمؤسسة تعليمية غير المساجد كانت تسمى الكُتَّاب، وهو مرفق تعليمي بمثابة المدرسة الابتدائية في عصرنا الحالي<sup>73</sup>، فهو المكان المخصص لتعليم الصبيان الصغار القراءة والكتابة والقرآن الكريم قراءة وحفظا وتجويدا، وبعض العلوم الشرعية والعربية والخط والرياضيات، ويكون ملحق بالمسجد الجامع عادة<sup>74</sup>.

ولقد تطور أمر الكتاتيب وانتشرت وعمت أرجاء العالم الإسلامي عبر عصوره المختلفة، وكل كُتَّاب يتسع لمئات التلاميذ ينفق عليهم وعلى الدراسة فيها من أموال موقوفة لهذا الغرض<sup>75</sup>، حيث جرت العادة تخصيص جزء من ريع أوقاف المسجد لصالح تعليم الصبيان، ويُصرف منه نفقة على المعلم ومكافأة التلاميذ.

ومن أشهر العصور الإسلامية التي كثرت فيها أوقاف الكتاتيب هي العصر المملوكي والأيوبي والزنكي بحيث اهتم المماليك بالكتاتيب فأنشئوا الكثير منها لتعليم الأطفال، وأخذ منشئوها يجسسون الأوقاف عليها للعناية بأمر الأيتام والفقراء وتعليمهم، وتوزيع الغذاء والثياب عليهم مثل: مكتب السبيل الذي أنشأه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس بجوار مدرسته، وقرر لمن فيه من الأيتام المسلمين الخبز في كل يوم والكسوة في فصلي الشتاء والصيف<sup>76</sup>.

كما اهتم أمراء الدولة الزنكية والأيوبيية بإنشاء الأوقاف والحض عليها، وتأتي الكتابات أو مكاتب الأطفال على قائمة أهم الأوقاف التي أنشأت في العهد الزنكي، فقد نصّب محمود الزنكي جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وخصص للمعلمين أموالاً بقدر ما يكفيهم، وجمع الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها وإذا أتم الصبي تعليمه في الكتاب انتقل إلى المدرسة إذا رغب في مواصلة دراسته وله النفقة إلى أن ينهي دراسته، ولقد شاع العمل الخيري في العهد الزنكي حيث وجدت العشرات من الكتابات تنشأ ملاصقة للمدارس أو قرية منها، حيث ساهمت تلك الكتابات في تنشئة الأطفال وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة وتعليمهم القراءة والكتابة وجانباً من العلوم الإسلامية.<sup>77</sup>

### المطلب السادس: الربط والخوانق والزوايا والخلاوي

ومن أهم مظاهر الوقف العلمي الديني في الحضارة الإسلامية ما يعرف بالأربطة أو الربط التي انتشرت بين المسلمين زمن الفتوحات الإسلامية، وهي عبارة عن أبراج وحصون وأماكن مخصصة لإقامة المجاهدين وكانت لها أوقاف استثمارية تعود غلتها على السلاح والمجاهدين وأهلهم، ثم تطور أمرها وامتزجت مهمتها لتشتمل على تدريس مختلف العلوم للمجاهدين وطلبة العلم، إذ كانت في بدايتها تستعمل فقط للجنود وحراسة الثغور في معظم الدول الإسلامية وبمرور الزمن ومع إقبال الناس على المربطة، أضافت تلك الأربطة إلى وظيفتها الجهادية العسكرية وظيفة التدريس والتأليف من قبل العلماء والفقهاء المرابطين فيها، وهكذا ازدهرت الأربطة وخاصة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين بسبب ما وقف عليها أهل الخير من الأمراء خاصة فقصدها طلاب العلم من كل صوب لطلب العلم، ومما ساعد على ذلك وجود السكن وتأمين العيش الكريم<sup>78</sup> ضف إلى ذلك أن العلماء كانوا يقومون بالتأليف ويجسسون تصانيفهم على طلابهم، ونتيجة لذلك نمت المكتبات وتكاثرت المخطوطات الموقوفة بتلك الربط التي تحولت إلى دور علم وتعليم خاصة لما استقرت أحوال البلاد الإسلامية.

أما الخوانق والزوايا والخلالوي فهي مؤسسات تُشبه الربط في وظائفها الدينية والتعليمية، ولقد لقيت العناية من طرف المهتمين بأعمال البر والخير، فالخانقاه جمعها خوانق، وهي كلمة فارسية بمعنى البيت تبنى على هيئة مسجد بدون مئذنة، ويُحيط بها عدد من الغرف مخصصة لإقامة الفقراء وعابري السبيل<sup>79</sup>، ومن أهم الوظائف التي كانت تُؤديها هي أن العلماء والمشايخ رتبوا فيها دروسا في مختلف العلوم<sup>80</sup>.

وأما الزوايا فهي كالخانقاه، ولكنها اصغر مساحة، وتقام على الطرق والأماكن الخالية، وقد تقام في أحد أركان المسجد، وكان هناك من يقف عليها وعلى مُرتادها من الفقراء ويخصص لهم شيخ لتدريس القرآن وعلومه الشرعية، أما الخالوي فهي جمع خلوة، وهي مدرسة لتدريس القرآن الكريم والعلوم الشرعية، وكانت تقام تحت المسجد، ويقال أنها سُميت بذلك لأن المعلم يخلو فيها بطلابه، أي يتعد عن الأماكن التي يكثر ارتيادها، ولقد انتشرت الخالوي في بعض الدول الإفريقية وخاصة السودان، وقد وقف عليها وعلى مشايخها وطلابها أهل الخير أوقافا مكنتها من أداء مهمتها<sup>81</sup>.

### الخاتمة

وفي ختام هذا البحث، بعد وقوفنا على أهم مظاهر الوقف العلمي في الحضارة الإسلامية؛ فإننا قد توصلنا إلى عدة نتائج، نذكر منها:

- 1 - لقد كان للوقف العلمي دور فعالا في نشر العلم والثقافة، بحيث ساعد في القضاء على ظاهرة الأمية في المجتمعات الإسلامية على مر العصور.
- 2 - كما أن الوقف العلمي ساعد أبناء الفقراء والمساكين حتى يزاولوا دراستهم ويصبحوا علماء وفقهاء ومفكرين في مجتمعاتهم.
- 3 - وأيضا ساهم الوقف العلمي في تبادل الثقافات بين أرجاء العالم الإسلامي بسبب تسهيل سبل العيش الكريم للطلاب والعلماء.

- 4 - وساعد الوقف العلمي على نشر العلم وتحصيله وازدهار الحركة العلمية والثقافية في شتى بقاع الحضارة الإسلامية.
- 5 - إن وقف المساجد والمدارس والمكتبات كان من مفاخر الحضارة الإسلامية ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات.
- وفي الأخير من بين التوصيات في هذا المجال هو القيام بنشاطات تحسيسية حول الوقف في شتى مجالاته وخاصة الجانب العلمي والعمل على إعادة إنمائه وتطويره.

### الهوامش

- 1 - عبد القادر بن عزوز: فقه استثمار الوقف وتمويله في الإسلام ( دراسة تطبيقية عن الوقف الجزائري) رسالة جامعية لنيل دكتوراه في العلوم الإسلامية جامعة الجزائر قسم الشريعة، 2003-2004، ص6.
- 2 - أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1429 هـ - 2008 م، 3/ 2485.
- 3 - محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1408 هـ - 1988م، ص: 508.
- 4 - أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: 1399 هـ - 1979م، 6/ 135.
- 5 - أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: مجمل اللغة، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، 1406 هـ - 1986 م، ص 934.
- 6 - قاسم بن عبد الله بن أمير علي القونوي الرومي الحنفي: أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء، المحقق: يحيى حسن مراد، دار الكتب العلمية، 2004م-1424 هـ، ص 70.
- القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري: دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2000م، 3/ 317.

- 7 - محمد بن أحمد بن الأزهرى الهروي، أبو منصور: تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2001م، 9/ 251.
- 8 - محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منطور الأنصاري الرويفعي الإفريقي: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ ، 6/ 45. مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقشوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة، 1426هـ - 2005م، ص 537.
- 9 - ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي: الدر المختار وحاشية ابن عابدين (رد المحتار)، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، 1412هـ - 1992م، 4/ 337.
- 10 - أبو العباس أحمد بن محمد الخلوئي، الشهير بالصاوي المالكي: بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بمحاشية الصاوي على الشرح الصغير، دار المعارف، الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ، 97/ 4.
- 11 - شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، دار الفكر، بيروت، الطبعة: ط أخيرة ، 1404هـ- 1984م، 5/ 358.
- 12 - أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي: المغني، مكتبة القاهرة، بدون طبعة، تاريخ النشر: 1388هـ - 1968م ، 6/ 3.
- 13 - الحج: 77.
- 14 - البقرة: 148.
- 15 - الأنبياء: 73.
- 16 - آل عمران: 92.



- 17 - رواه ابن خزيمة في صحيحه، في كتاب جماع أبواب الصدقات والحبسات، باب فضائل بناء السوق لأبناء السابلة، وحفر الأنهار للشارب، رقم: 2490، المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، 4 / 121.
- 18 - أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم: 1631، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، 3 / 1255.
- 19 - عبد القادر بن عزوز: مرجع سابق، ص 25.
- 20 - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، 1392هـ، 11 / 85.
- 21 - يس: 12.
- 22 - معتز محمد مصبح: دور الوقف الخيري في التنمية الاقتصادية ( دراسة تطبيقية لقطاع غزة) فلسطين، 2013، ص 23.
- 23 - مصطفى السباعي: من روافع حضارتنا، دار الوراق للنشر والتوزيع بيروت، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 1999 م، ص 205.
- 24 - الطاهر زباني: الوقف في الإسلام تاريخ وحضارة، www.alukah.net، ص 35.
- 25 - محمد بن أحمد بن صالح: الوقف في الشريعة وأثره في تنمية المجتمع، الرياض، الطبعة الأولى، 2001، ص - ص 171 - 172.
- 26 - راغب السرجاني: روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية تحفة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2010، ص 10.
- 27 - عبد الرحمان معاشي: البعد المقاصدي للوقف في الفقه الإسلامي مذكرة ماجستير جامعة الحاج لخضر، كلية العلوم الاجتماعية والإسلامية، باتنة، 2005-2006، ص 223.
- 28 - محمد بن أحمد بن صالح: مرجع سابق، ص 173.
- 29 - عبد الرحمان معاشي: مرجع سابق، ص 225.
- 30 - محمد محمود كالو: دور الوقف في تعزيز المعرفة، الإمارات العربية، 2011، ص 11.

- 31 - محمد بن عبد العزيز بن عبد الله: الوقف في الفكر الإسلامي، المملكة المغربية، 1996، الجزء 1، ص - ص 431-432.
- 32 - عبد الرحمان معاشي: مرجع سابق، ص 221.
- 33 - معتز محمد مصبح: مرجع سابق، ص 48.
- 34 - محمد بن أحمد بن صالح: مرجع سابق، ص 173.
- 35 - راغب السرجاني: مرجع سابق، ص 90.
- 36 - محمد محمود كالو: مرجع سابق، ص 10.
- 37 - مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص 208.
- 38 - راغب السرجاني: مرجع سابق، ص - ص 127-122.
- 39 - محمود أحمد مهدي: نظام الوقف في التطبيق المعاصر (نماذج مختارة من تجارب الدول والمجتمعات الإسلامية)، جدة، طبعة الأولى، 2003م، ص 13.
- 40 - معتز محمد مصبح: مرجع سابق، ص 51.
- 41 - المرجع نفسه، ص 51.
- 42 - مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص 214.
- 43 - عبد الرحمان معاشي: مرجع سابق، ص 252.
- 44 - محمد بن أحمد بن صالح: مرجع سابق، ص 181.
- 45 - عبد الرحمان معاشي: مرجع سابق، ص 252.
- 46 - مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص 214.
- 47 - معتز محمد مصبح: مرجع سابق، ص 51.
- 48 - راغب السرجاني: مرجع سابق، ص 100.
- 49 - سليمان بن عبد الله بن حمود: الوقف وأثره في تنمية موارد الجامعات، المملكة السعودية، الإدارة العامة للثقافة والنشر، ص - ص 45-46.
- 50 - راغب السرجاني: مرجع سابق، ص 100.
- 51 - المرجع نفسه، ص 100.

- 52 - عبد الرحمن معاشي: مرجع سابق، ص 253.
- 53 - راغب السرجاني: مرجع سابق، ص 101.
- 54 - سليمان بن عبد الله بن حمود: مرجع سابق، ص 48.
- 55 - عبد الرحمن معاشي: مرجع سابق، ص 254.
- 56 - راغب السرجاني: مرجع سابق، ص 112.
- 57 - المرجع نفسه، ص 112.
- 58 - محمد بن أحمد بن صالح: مرجع سابق، ص - ص 183-184.
- 59 - المرجع نفسه، ص 184.
- 60 - راغب السرجاني، مرجع سابق، ص 112.
- 61 - محمد بن عبد العزيز بن عبد الله: مرجع سابق، ص 30.
- 62 - معتز محمد مصباح: مرجع سابق، ص 50.
- 63 - عبد الرحمن معاشي: مرجع سابق، ص 259.
- 64 - معتز محمد مصباح: مرجع سابق، ص 53.
- 65 - مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص: 248.
- 66 - عبد الرحمن معاشي: مرجع سابق، ص: 259.
- 67 - محمد بن أحمد بن صالح: مرجع سابق، ص - ص 185-186.
- 68 - مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص - ص 248-249.
- 69 - محمد بن احمد صالح: مرجع سابق، ص 189.
- 70 - عبد الرحمن معاشي: مرجع سابق، ص - ص 262-263.
- 71 - مصطفى السباعي: مرجع سابق، ص 249.
- 72 - محمد بن أحمد بن صالح: مرجع سابق، ص - ص 187-188.
- 73 - سليمان بن عبد الله بن حمود: مرجع سابق، ص - ص 43-44.
- 74 - عبد الرحمن معاشي: مرجع سابق، ص 244.
- 75 - سليمان بن عبد الله بن حمود: مرجع سابق، ص 44.

- 76 - عبد الرحمان معاشي: مرجع سابق، ص - ص 245 - 246.
- 77 - راغب السرجاني: مرجع سابق، ص - ص 109 - 110.
- 78 - الطاهر زباني: مرجع سابق، ص - ص 70 - 71.
- 79 - معتز محمد مصبح: مرجع سابق، ص - ص 48 - 49.
- 80 - محمد بن أحمد بن صالح: مرجع سابق، ص - ص 176 - 177.
- 81 - معتز محمد مصبح: مرجع سابق، ص 49.

## الحرية الدينية ودورها في ترقية الإنسان.

عند محمد أبي القاسم حاج حمد\*

أ. بابيز محمد الأمين/ قسم العقيدة/ جامعة الأمير عبد القادر/ قسنطينة

## الملخص:

يعلل أبو القاسم حاج حمد حاجة الإنسان إلى الحرية الدينية بتفوق الحرية الروحية على الحرية المادية؛ ورغم أن الحضارة الغربية قد أسهمت في تحرير الإنسان عبر بناء مؤسسات كفلت بعض الحريات الليبرالية والاشتراكية، إلا أن المبدأ الذي ظل يتحكم في الحضارة الغربية هو (الصراع) في غياب المصلحة المشتركة.

والقاعدة الدستورية التي راهن حاج حمد على صلاحيتها في شتى المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، هي قاعدة الدخول في " السلم" كافة، وأثبت هذا المبدأ القرآني بأدوات معرفية منهجية، منطلقاً من واقع معاناة الإنسان المتزايدة في ظل الأنظمة التي أنتجت منظومة شرائع قاصرة عن تلبية نداء الروح الذي يجمع الإنسانية تحت مظلة (السلم).

**ABSTRACT:**

This study aimed to explore the religious freedom in Aboul'kacem Hadj Hamed study, which named " The Human Freedom in Islam" compared to the Materialistic Freedom.

HADJ HAMED distinguished between two levels of freedom: spiritual and materialistic, The peace principle is the link between the people and societies, in the spiritual level, while, the materialistic societies are built in conflict principle.

### تمهيد:

يعرب راهن العالم عن مدى افتقاره إلى الحرية، رغم الادعاء العريض بحفظ الحريات، بل وزيادة معاناة الإنسان - المتقدم تكنولوجيا- من أنماط العبودية الحديثة والأكثر شراسة في مسار تاريخ الإنسان، ويصوّر رئيس جنوب إفريقيا عالم اليوم كجزيرة أغنياء تحوطها بحار واسعة من الفقراء يتحكمون في مصائرهم وأنفاسهم، وتبقى أصوات الأغلبية الساحقة من سكان الكرة الأرضية تتوسّل أبسط حقوقها كالمساواة والعدل، من نظام عالمي أغلق كلّ منافذ الخصوصية والتحرر.

ويبدو أن الإنسان يتملّكه نزوع نحو التسلط والاستعباد، لا يصدر في ذلك عن طبيعته، تبعاً لما تذهب إليه فلسفات الاستعلاء والصراع، وإنما نتيجة تخليه عن مبادئه العليا، وسعيها إلى امتلاك الأداة التي يسوغ بها لنفسه أن يفتس حقوق الضعفاء من بني جنسه ويهضم حقوقهم، بل ويستعلي على العوالم التي تفوق عالمه، متستراً في ذلك بشعارات الإنسانية عبر هياكل المنظمات الحقوقية العالمية.

وحتى حرية التعبير والاعتقاد أصبحت مراقبة في ظل هذه البيئة المتسلّطة، مما يهدد وجود الإنسان في معناه الديني والثقافي<sup>1</sup>، هذا المستوى الذي يستعصي على التنميط؛ ذلك لأن الإنسان يتميّز عن العوالم الأخرى، الحيوان والنبات والجماد، بأنه كائن راشد

ومكلف، ولا يتأتى له ذلك إلا بكمال الحرية على جميع مستوياتها الكونية، ووفق ذلك يتحمل جميع تبعاته ومسؤولياته.

وفي ظل هذا النظام العالمي الذي يتهدد الحريات هل بوسع الدين الإسلامي أن يسهم في رفع مستوى الحريات في العالم؟ أم لا مجال لأن يفسح فيها بل ولن يزيدها إلا تقزيمًا وإلغاءً؟ وإن أمكنه ذلك فما هو نوع الحرية التي يمنحها الدين للإنسان في ظل مفهوم العبودية الذي يقتضي الانقياد والخضوع لأوامر الدين؟

وفي هذه الورقة يزعم محمد أبو القاسم حاج حمد أن المستوى الذي يقدمه الدين من الحرية يتفوق على المستوى الذي يقدمه الإنسان لنفسه أو لأخيه الإنسان من الحرية. وفي سبيل عرض ذلك سأشير إلى واقع الحريات الإنسانية اليوم، وإلى دور الدين في تحرير الإنسانية، ثم أخلص إلى مقارنة حاج حمد بعد ذكر أسسها ومستنداتها المنهجية في مؤلفه (حرية الإنسان في الإسلام)، من حيث هي أطروحة مؤسسة على أسس معرفية ومنهجية<sup>2</sup> ضمن مشروع الفكر، الذي يستند على الجمع بين القراءتين أي قراءة الواقع إلى جانب القراءة الغيبية<sup>3</sup>.

### - مفهوم الحرية:

الحُرُّ بالضم نقيض العبد والجمع أَحْرَارٌ وحرارٌ، والحُرُّ من الناس أختيارهم، وأفاضلهم وحرِّيَّةُ العرب أشرفهم، يقال هو من حرِّيَّةِ قومه أي من خالصهم والحُرُّ من كل شيء أعْتَقَهُ<sup>4</sup>.

وفي اللغة الإنجليزية تأتي الحرية بلفظتين Liberty و Freedom، وتردان بمعنى ترادفي في القواميس. إلا أن التدقيق يفصل بينهما؛ فلفظة Liberty تكتسب حمولة حسية كالحريات العينية (السياسية والاقتصادية والاجتماعية)، في حين أن Freedom أكثر دلالة على المعنى الوجودي الميتافيزيقي المطلق، وعلى ذلك فإن Freedom أقرب إلى حرية، وأما Liberty فأقرب إلى تحرر.

وتشيران في معناهما إلى: "وضع اجتماعي يفيد منزلة رفيعة وسجايا كريمة"، وأساسه الانعتاق من العبودية والأسر والسجن والجزية، كما تشير أيضا إلى غياب القهر والقسر والإجبار والإرغام على الفعل أو الاختيار أو القرار.<sup>5</sup>

الانعتاق من العبودية والمنزلة الرفيعة واختيار الفعل والقرار.. وغيرها، محدّدات لمفهومي الحرية والتحرر كما تثبت القواميس، وقد تلتقي هذه المحدّدات مع مقاصد الدين، في تحرير الإنسان من كل ما سوى الخالق<sup>6</sup>، كما تتضمن منظومة الدين ما يعاكس هذا التحرير، كمفاهيم العبودية مثلا<sup>7</sup>. فكيف تعلّل الحرية الدينية في ظل الحريات الإنسانية التي تخضع لواقع الإنسان في العالم المتقدّم؟

وهنا تجدر الإشارة إلى مفهوم العلاقة بين العبد وربّه هل هي علاقة استلاب وتقيّد تام بالنصوص التي تصادر فهم المتدين وتفاعله مع واقعه الذي يعيشه؟ أم هي علاقة تحريرية للعبد مما سوى الخالق؟

### تعليل الحرية الدينية:



سعى الأمريكيون-على خلاف الأوروبيين- في تعليل الحرية وفق رؤيتين؛ الأولى تتأسس على محددات مشتركة بين المنطلقات الدينية وغير الدينية على السواء، والثانية تتأسس على المنظور الديني، والإبراهيمي منه بالخصوص.

وبصدد تعليل الحريات الدينية في المستوى المعرفي، نستلهم المنظور الأول من خلال إعلان فرجينيا للحريات الدينية<sup>8</sup>، حيث صاغوا الحريات الدينية على أسس مشتركة في الحس الإنساني، ومعللة في المنطق المعرفي، فقالوا: " إن لهذا العالم خالقا رحيمًا، قادرا على كل شيء، وقد أراد سبحانه أن يلفظ بعباده الذين هم أحرار، وليسوا عبيدا، وأن يؤدّي له الشكر من طريق عبادته بالروح وبالحقيقة وبطهارة الضمير"<sup>9</sup>.

تعليل الحرية الدينية يكون - وفق ميثاق الفرجينيين - على أسس محددة وهي:

- إثبات وجود خالق الكون، وإثبات رحمته وقدرته المطلقة.
- العباد هم أحرار، وليسوا عبيدا.
- إرادة الله تعالى من عباده هو تأكيد الشكر له بالروح والحقيقة وبطهارة الضمير.

تعتبر هذه الأسس مسوّغاتٍ لضبط معنى الدين، وتأكيدٍ تحريره للإنسان في منظور نخبةٍ داخل المجتمع الأمريكي الحديث، في حين تجاوز المجتمع الأوروبي الحديث الدين السماويّ تدريجياً نحو الدين الطبيعي. فما هو الموقف الأسلم للمجتمعات المعرفية الحديثة؟ هل هو ضبط الحريات الدينية وفق مقاصد الدين وغاياته الكبرى كما هو موقف

إنجيلي أمريكا؟ أم أنّ تجاوز الرؤية الدينية أسلم حتى لا يقع في جبرية مفرطة، كما هو الأمر مع المجتمع الأوروبي الحديث الذي تجاوز الكنيسة نحو الدين الطبيعي.

هذا التحدي الذي يواجه المتدينين اليوم في ظل الموجات التحررية الواسعة التي تستقطب أتباع الأديان، وتضعهم في مواجهة ما يسميه حاج حمد بمشكلة ابتعاث النفس المؤوودة (المخنوقة). وهذا ما أقصد بتعليل الحرية الدينية في ظل الحريات الكونية المختلفة. فما هي صيغة تحرير الإنسان في إطار الدين الإسلامي؟

### التحرر في سياق الخطاب الإسلامي.

إن المعنى العميق الذي يملكه الدين لإنقاذ الإنسانية من عالم اللامعنى الذي آلت إليه فلسفات العدمية، إنما هو معنى الحرية والتحرر. ذلك لأن الخطاب الإلهي خطاب مفارق، وبالتالي فهو منزه عن النقص والالتزام، وهو بذلك محايد غير منحاز، واسع غير محدود، ثر لا ينضب ولا ينتهي، ولذلك تُلغى عمومًا من يحدوه من المعدمين والمعوزين والواقعين تحت نير العبودية والفقر، وفي مقابل هؤلاء فإن الطبقة التي تقف ضد الأنبياء والفلاسفة الإنسانيين - غالبًا - هم المترفون وذوو المصالح والنفوذ. وفي الحقيقة لم يكن يضير فرعونَ وأبا لهب أن يعبد الناسُ ربًّا غير الذي كان يعبده هو، إنما الخطر في أن يذوب نفوذه ويفقد مكانته ومصالحه!

ونجد أن التراث الإسلامي مليء بما يؤكد مقصد التحرر على سبيل التمثيل الخطبة التي ألقاها ربيعي بن عامر أثناء الفتح الإسلامي لبلاد فارس، والتي تظهر لنا جليا أن الأوصاف التي ميّزت الإسلام عن الجاهلية لم تكن غير المعاني الإنسانية والأخلاقية، وفي

مقدمتها الحرية. يقول " ابتعثنا الله تعالى لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة"، وفي مقولة عمر بن الخطاب " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"، ولم يبق ذلك حبيس المقولات ورهين الشعارات وإنما انعكس على منظومة من الأحكام التي تتغيًا تخلص المجتمع من نظام الاسترقاق ليضطلع كل أفراده بمسؤوليات اجتماعية ومعرفية، على سبيل التمثيل، شهادة عمر بن الخطاب في بلال بن رباح حين قال فيه: " أعتق سيدنا -أي أبو بكر الصديق- سيدنا -أي بلال بن رباح" وهذا معنى أساس أرسته الديانات السماوية في سبيل تحرير الإنسان. ولكن هل حافظت الأجيال اللاحقة على هذا المكسب في واقعها واستثمرته أم ظل تاريخنا تتغنى به وتعجز أن توجد له آليات عملية تحوله إلى واقع ثر ومتجدد؟

تعرض هذا المسار تدريجيا عبر التاريخ إلى الانحراف، ووقف بعض ممثلي الدين إلى صف الطغاة وسوّغوا لهم أفاعيلهم ، والسبب في ذلك يعود إلى:

- استبداد الحكام ضد المتدينين وغير المتدينين باسم الدين: وأدى ذلك إلى تشويه التاريخ الديني، بواسطة استعمال اسم الله والدين والمذهب والطائفة لأغراض قبلية أو حتى شخصية.
- بناء منظومة استبدادية متكاملة، لمجاهة كل أبواب الحرية والتحرر، وتصنيف ذلك في خانة التفلت والخروج عن القائد والمجتمع أي بالمصطلح الديني (الخروج عن الإمام والأمة)، والتوسل في ذلك بالتنصيص الروائي والتأويل القرآني

في سبيل خدمة أغراض المستبد، لذا يرى صاحب كتاب "السلطة في الإسلام" أن " ينابيع النصر الأولى قد تم سحقها إلى حد بعيد تحت مطارق الاستبداد والقهر، وكانت شريعة التوحيد الصافية والبسيطة المستمدة أساسا من النص الخالص، قد شابه كدر كثيف من أوشاب الوضعية البشرية، فتضاءلت منها مساحة الحق خلف ركाम من الروايات والخزعبلات الصوفية وأقوال الرجال . وكانت مفردات كثيرة من مباحج القيم العليا كالحرية والعدالة والعلم والحضارة وحمل أمانة الخير إلى هذه البشرية، قد خفت وهجها في ذاكرة الوعي العام"<sup>10</sup> .

- استمرار الاستبداد بأشكال حديثة ما بعد الكولونيالية فيما يسمى الديمقراطية<sup>11</sup>، أو عصر الميغا إمبريالية<sup>12</sup>، وبحسب المهدي المنجرة فإن الانهيار هو المستديم وليس التنمية التي يرفع شعارها الغرب، وتاريخ الاستعمار ينبئ عن تدمير للبنية الفوقية للشعوب المستعمرة وإن كان قد صاحبه بناء تحتي، وقد عم ذلك جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. "ونحن نقرأ في آخر تقرير لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية المتعلق بالتنمية البشرية أن خمسة وأربعين بلدا أصبحت أفقر اليوم من سنة 1991، وأن معدل العمر قد تراجع في أربعة وثلاثين بلدا في الوقت الذي تزايدت فيه المجاعة في اثني عشرة بلدا .. ويأتي بعد ذلك الاستلاب الثقافي الذي يمكن اعتباره الذل الأكثر خطرا على المستوى البعيد، لأن الأمر يتعلق بعدوان على أنظمة القيم"<sup>13</sup> .

وقد أفاض محمد أبو القاسم حاج حمد في بيان حقيقة الحرية، في مؤلفه "حرية

الإنسان في الإسلام"، وأهم ما يميّز رؤيته ما يلي<sup>14</sup> :

- تجاوز حاج حمد الحدود التي رسمتها المنظومات المذهبية تجاه حرية الإنسان، من خلال رؤيته المطلقة لإمكانات الإنسان. فبرى في الإنسان ذلك الكائن كامل الحرية والإرادة، الذي يعيش في كون لامتناهي في الصغر (تحت مستوى المرئيات)، ولا متناهي في الكبر (فوق مستوى المرئيات)، ويحيط بكل هذا إلهٌ أزليٌّ فوق الزمان والمكان<sup>15</sup>.

- حرر مفهوم "الغيب" ومحتواه من المعرفة إنسانية الخاضعة للأيديولوجيات والمذاهب المتعلقة بانتماءات الأئمة واتجاهات المتكلمين، وقراءة التراث الإسلامي في إطاره التاريخي النسبي؛ الذي تنتمي أغلب إشكالاته إلى ملابسات مغايرة لإشكالات الحاضر الإنساني؛ من مثل إشكالات جبرية الإنسان واختياره لمصيره، أو خلق العبد لأفعاله ومدى مسؤوليته في ذلك تجاه ربه.

واستعان حاج حمد في ذلك بآليات الحفر المعرفي، لأجل الغوص في دلالات المفاهيم المؤسسة للمنظومة التراثية، والتي أسهمت في توجيه مسار الواقع وصياغة الرؤية الكونية للإنسان المتدين.

- تجاوز الإطار الطبيعي المادي الذي حصر الإنسان في إطار قوانين العالم التجريبي المحسوس، القوانين التي اختزلت إطلاقية الكون وتعدد أبعاده ولا محدوديته في المادية ذات البعد الأحادي، والمقصود أن المستوى التجريبي الذي يتعامل معه العلم يتجاوز ويهمل قوانين أخرى تفوقها في الأهمية، مثل حركة النفس التي هي خلاصة جدلية كونية وتفاعل بين حركات الليل والنهار

والشمس والقمر والسماء والأرض، مستتبطا هذا من سورة الشمس. واستعان في ذلك بنتائج حلقة فيينا من خلال تفكيكها للمسلمات الدوغمائية لفلسفة العلوم الطبيعية.

هذا الاستيعاب والتجاوز ينضبط وفق مفهوم الأسلمة، التي يميزها عن ادعاءات التأصيل الإسلامي وجهود الإعجاز العلمي التي تخالف منهجه، فيقول هي " فك الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري والإحالات الوضعية بأشكالها المختلفة، وإعادة توظيف هذه العلوم ضمن نظام منهجي ومعرفي ديني-غير وضعي"<sup>16</sup>.

### المحددات التي يعلل محمد أبو القاسم حاج حمد وفقها الحرية الدينية<sup>17</sup>:

يعتمد حاج حمد على مجموعة من المحددات التي يستوعب فيها المقاربات السابقة لمفهوم الحرية ثم يتجاوزها نحو المفهوم القرآني وتمثل في:  
أولاً: نفي (دستورية) القرآن؛ أي حصره في التشريعات والأحكام، وإنما يذهب إلى إثبات شموليته وهيمنته على غيره.

ثانياً: من لوازم هيمنة القرآن على الكتب السابقة، نسخه لشرعة الآصار والأغلال نحو شرعة التخفيف.

ثالثاً: دستور الأحكام الإسلامية ليس هو القرآن الكريم، وإنما في وصايا جبل عرفات، فالقرآن أشمل من ذلك.

رابعاً: للعقوبات في الشريعة الإسلامية حدان؛ الأول (أدنى) تعتمد على العفو والاستتابة والاعضال، والثاني (أعلى) يأتي بصورته المخففة.

خامساً: يؤدي عدم القول بشرعة التخفيف إلى إبطال (هيمنة) القرآن ودور النبي في رسالته الخاتمة.

سادساً: إثبات الآيات الخوارق (المعجزات) يناهز رسالة القرآن في إطلاق الوعي الإنساني.

سابعاً: وصايا جبل عرفات تصلح تشريعات تنظم علاقة المسلمين بغيرهم، ويبقى باب الاجتهاد مفتوحاً في مواضع الخلاف.

### مقومات الحرية في الإسلام<sup>18</sup>:

يحدد حاج حمد شروط الحرية أولاً في إدراك مقومات الوعي (السمع البصر والفؤاد)، وهذا يتكرر في النص القرآني من خلال الكثير من الآيات التي تحض على استعمال أدوات المعرفة، بل وتربط سلامة مسار الإنسان في الدنيا والآخرة بمدى تفعيله لمقومات وعيه<sup>19</sup>.

ويسند الحرية في الإسلام إلى وعي الإنسان وإطلاق عقله كونياً، بدل حصرها في الهيئات العرفية والاجتهادات السابقة المرتحنة لنصوص بشرية؛ وهذا لأن الإنسان بفطرته كائن حر، واستعداداته تؤهله لذلك استدلالاً بقوله تعالى: "والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (النحل: 78)، وقد ضرب الله تعالى في هذا السياق مثلاً واضحاً لإطلاقية حرية الإنسان

وهو (الطير في جو السماء) " ألم يرو إلى الطير في جو السماء ما يمكنه إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون" (النحل: 79)، هنا يتحمل الإنسان كامل مسؤوليته.

### الحرية بين المستوى المادي والمستوى الروحي:

وفي المستوى الروحي يتميز المنظر القرآني عن التصور الغربي ببعده الإنساني التحرري مقابل النزعة الحيوانية المادية، لذا يعقد المؤلف مقارنة بين الحرية الإسلامية ومقابلها في الفكر الغربي، ويقرر أن الحرية في الفلسفة الليبرالية تتم عبر إشباع حاجات الفرد على حساب الجماعة، فيستحوذ الإنسان الليبرالي من خلال شعارات التحرر على حقّ اللباس وحق الإنتاج وحق التدخين، ويغرق في المطالبة بحقوقه ولكن ليس لأجل استكمال إنسانيته، وإنما استحابة لحاجاته ونوازه الغريزية الفردية.

وأما الحرية في المنظر الاشتراكي السوفياتي فمناطها الطبقة أو الحزب على حساب المجتمع والأمة. إذ تغلب مصلحة الطبقة على مصلحة الفرد ومصلحة الأمة، وتتكاثر الطبقات المتصارعة، وعض أن تؤول الأجيال إلى وفاق وتعاون فإنها تصير إلى صراع وتنازع، وتلتقي الحرية في الإطار الطبقي مع الحرية في الإطار الليبرالي على عدم استحابتها للبعد الروحي في الإنسان، وهو ما يغيب في الحريات الإنسانية على الرغم من استهلاكها لشعارات الإنسان والحرية.

الناتج من حصر الحرية في إطار الفرد أو الطبقة أن تخضع الإرادة الإنسانية إلى المشيئة الكونية، أي أن يظل الإنسان عبدا حتى لحاجاته الحيوانية الدنيئة، ليبقى الصراع هو المبدأ الحاكم بين الأفراد والمؤسسات " هنا تختزل علاقات الإنسان بنفسه ومحيطه العائلي والاجتماعي وبيئته الكونية. ليصبح كل منا هدفا بسبب الخبز والملح عوضا عن أن يكون هذا الخبز والملح سببا لتأخينا بما يؤكد القيمة الروحية والإرادية المتعالية للإنسان"<sup>20</sup>.



وهذا ما يؤدي إلى نسبية الحرية الدينية -أي إلى تضييقها- أو إلى إبطائها حتى، وهو مما صارت إليه الحريات الغربية رغم الجهود الإنسانية لتحرير الإنسان. ويتوافق مع ذلك ما يصدر من كتابات كثيرة حول موضوع الحرية، والكثير منها يدّعي التحديد ويحاول تحديث الفكر الإسلامي لمقارنته بالديمقراطية الغربية المعاصرة، ردًا على التيار التقليدي الذي رفع شعارات "الحاكمية" و"دستورية القرآن"، دونما تفعيل حقيقي لمثل هذه الشعارات، ومجاورة الإطار القديم الذي صاغ أحكامه في إطار مفهوم (دار الحرب ودار الإسلام) من ناحية التوزيع الجغرافي السياسي للعالم، وعلى مفهوم (المسلم والذمي) من ناحية توزيع مستوى الأهلية في المواطنة.

### نسبية الحرية الدينية في إطار الفكر الإسلامي:

وفي هذا الصدد يدعو حاج حمد إلى قطيعة معرفية مع التصورات الأيديولوجية المرتبطة بمعطيات الواقع (الزمكاني)، والمتخلف عن العصر والمخالف لمعطيات الواقع؛ ومعضلة هذا الاتجاه أنه أسقط فهمه البشري القاصر على كليات الدين وأصوله، ثم قفز بهذا الفهم خارج إطاره الزماني والمكاني بعدما اعتمده مرجعا أوحدًا لكل الاجتهادات والمقاربات اللاحقة، فسحب علاقة (الملك - العبد) على علاقة (الله - العبد)، وطبقه في قراءته لنصوص القرآن وفق منظور تراثي تاريخي. لذا يؤكد حاج حمد دائما " أن المعرفة الدينية قد أحيطت في مراحل التنزل المختلفة ببيئة المفاهيم الأيديولوجية التاريخية السابقة لمرحلة الانعتاق البرجوازي الفردي الليبرالي، فقيم الحرية لم تكن مرتبطة بالإنسان لذاته فردا إلا ضمن المشروع البرجوازي، ففي السابق، كان ينظر إلى هذه الحرية من زاوية ارتباطها

بالوضع الاجتماعي للسيد في مقابل العبد"<sup>21</sup>. من خلال هذا النص يمكن تحديد أسباب تنسب الحرية في الفكر الإسلامي من منظور حاج حمد في:

- قوة تأثير المفاهيم الأيديولوجية التاريخية على موضوع الحرية.
- ارتباط قيمة الحرية بالمشروع البرجوازي الفردي الليبرالي.
- قياس علاقة الإله-العبد على علاقة السيد-المملوك.

لذلك يُصعّد حاج حمد الخطاب تجاه الحركات الدينية الفاعلة في العالم الإسلامي، الحركات التي تتجاهل سؤال الحرية في أدبياتها أو تكتفي بالشعارات دون أن تأبه بجوهرها، ويقول عنهم "هؤلاء هتوا الناس في دينهم وحكم الله واضح فيهم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفٰسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ (206) ﴾<sup>22</sup>. وأما حاج حمد فيرى أن هؤلاء يحاولون سرقة رصيد إنساني كونه الله عبر أربعة عشر قرناً.. تريد السلطة لتنفيذ تشريعاتها بفقهاها الخاص بها فهم ينشطون ضمن نموذج صراعي خارج القاعدة الإلهية الدستورية التي يدعون احتكارها وهي قاعدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (208) ﴾<sup>23</sup>، والهدف منها " هو اتخاذ القرار الدستوري بإجماع قوى المواطنين بحيث لا يكون ثمة صراع"<sup>24</sup>.

### مبطلات الحرية الإنسانية:

قد تتعرض قيمة الحرية إلى الانتهاك بالاستعباد المطلق للإنسان، وكذلك من خلال مظاهر الاستعباد الحديثة التي تتدخل في شؤون وقرارات الدول والأفراد من غير مسوغ إنساني مقبول، وهذا ما يسميه حاج حمد بالإبطال الموضوعي للحرية الذي يتم عبر انتقاص الواقع الموضوعي لحرية الفرد أو الجماعة، في مقابل الإبطال الذاتي الذي هو تعطيل لمقومات الوعي الإنساني بعدم تفعيل السمع والبصر والفهم، وكما أن تكريم الإنسان بالحرية الذاتية كان من خلال نفخ الروح فيه كما يقول الله تعالى: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا" (الإسراء:70)، فإن السبيل إلى تحقيق درجة التكريم الفعلي والوصول إلى درجة الرشد الإنساني لا يتم إلا عبر تفعيل هذه المقومات لأداء الشكر للخالق، يقول تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" (النحل:78).

يخلص حاج حمد إلى أن البعد الرابع (الروحي) هو مناط تكريم الإنسان. فحرية الإنسان لديه مقيدة إلى أخلاق الروح لا إلى امتدادات الجسد الحسي بالمنفعة الليبرالية، وأن الإسلام يلغي كل سلطة معرفية سوى الكتاب اعتمادا على مقومات وعيه وهي السمع والبصر والفؤاد، ومؤدى ذلك هو تحمل المسؤولية الفردية ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (95) <sup>25</sup>، لكن على المستوى التطبيقي يشير حاج حمد إلى تعرض الحرية الدينية إلى التحجيم أو حتى إلى الإلغاء وذلك لأسباب ثلاثة وهي: الأدلجة التاريخية

لموضوعة الحرية، وفهم علاقة الإنسان فهما متأثراً ببيئة العبودية، وكذلك ربط معنى الحرية بالسقف الفردي الليبرالي.

وفي الأخير يؤكد محمد أبو القاسم حاج حمد أن المستوى الذي يقدمه الدين من الحرية يتفوق على المستوى الذي يقدمه الإنسان لنفسه أو لأخيه الإنسان من الحرية، لذلك لا بد من استمداد الحرية رأساً من الدين تجاوزاً للوصايات السياسية والأيدولوجية.

\* محمد أبو القاسم حاج حمد: كاتب سوداني. عمل مستشاراً علمياً لـ"المعهد العالمي للفكر الإسلامي" في واشنطن. أسس عام 1982 "مركز الإنماء الثقافي" في أبو ظبي وأقام أول معارض الكتاب العربي المعاصر بالتعاون مع العديد من دور النشر اللبنانية. أسس في قبرص "دار الديونة" لإعداد موسوعة القرآن المنهجية والمعرفية، ومجلة "الاتجاه" التي تعنى بشؤون الفكر والاستراتيجية في نطاق الوسط العربي والجزوار الجغرافي. مصدر الترجمة هو غلاف مؤلفات حاج حمد عن دار الساقى بيروت.

<sup>1</sup> برغم وجود المادة 18 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة التي تحفظ حقوق التدين والتفكير ونصها: "لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة." إلا أن الدراسات تشير أن أكثر من اثنتين من كل خمس حكومات تتدخل في حق الفرد في العبادة وأن ثمانين عشرة بالمائة منها تدخلت بشدة. عند تجميع فهرس موجزة عن الحريات الدينية في العام 2009 قدم منتدى الدين والحياة العامة التابع لمركز بيو للأبحاث Pew Research Center أن لدى حوالي ثلث جميع البلدان "قيوداً شديدة أو شديدة جداً على أساس الدين". وعلى ذلك يمضي التقرير بالشرح أنه بسبب أن لدى العديد من الدول الأكثر سكاناً قيوداً شديدة فإن "ما يقرب من سبعين بالمائة من سكان العالم الـ 6800000000 يعيشون في بلدان تفرض قيوداً شديدة على الدين" (The Pew Forum, Public Life 2009 & on Religion).

- <sup>2</sup> مفهومها (المعرفية والمنهجية) يضبطان مفهوم أسلمة المعرفة في فلسفة حاج حمد وهي:
- المنهجية: الناظم الشمولي للكون في وحدة مظاهره المتكاثرة التي لا تقبل أشكالاً جزئية من المعرفة المادية أو الوضعية أو اللاهوتية، ولا تجزئ بين نظرات القوانين بتقييد استخدامها في مجالات دون أخرى.
  - المعرفية: إرجاع المفردات اللغوية والأفكار والاتجاهات ومحتوى الثقافات إلى أصولها البنائية التي تحدد دلالاتها.
- انظر : مدخل توضيح دلالات المصطلحات، ملحق كتاب : منهجية القرآن المعرفية، محمد أبو القاسم حاج حمد، مراجعة وتحقيق: محمد العاني.
- <sup>3</sup> الجمع بين القراءتين: الربط بين القرآن بوصفه معادلاً موضوعياً للوجود الكوني وحركته. انظر: المصدر السابق، ص 145.
- <sup>4</sup> ابن منظور: محمد بن مكرم، لسان العرب، الطبعة الأولى، بيروت، 4/177، باب: حرر.
- <sup>5</sup> حنفي: حسن، أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشر، تنظيم الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة، فلسفة الحرية (دراسة)، ص 429.
- <sup>6</sup> تَرَدُّ فِي ذَلِكَ الْعَدِيدِ مِنَ النُّصُوصِ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (البقرة: 256).
- <sup>7</sup> في ذلك شواهد كثيرة، لكن الملاحظ فيها أنها جميعاً تأتي في سياق التكريم، من ذلك قوله تعالى: " وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (الأنبياء: 26).
- <sup>8</sup> دُونَ عام 1776 من قبل الفرجينين : توماس جيفرسون وجورج ماسون وجيمس ماديسون.. وغيرهم.
- <sup>9</sup> نونفاك: مايكل، الحرية في ظل الله : المفهوم الغربي للحرية الدينية ومقاربة الرؤية الإسلامية مجلة التسامح ، مسقط عمان ، العدد 14 ، ربيع 1427هـ/2006م.
- <sup>10</sup> يس: عبد الجواد، السلطة في الإسلام: العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 2000، الدار البيضاء/بيروت، ص 7.

- <sup>11</sup> **الذلقراطية:** " النظام السياسي والثقافي الذي يستغل التفاوت في علاقات القوة الداخلية والخارجية معا". وأول استعمال للمصطلح من طرف المهدي المنجرة في كتابه : انتفاضات في عهد الذل قراطية، منشورات البوكيلي ، القنيطرة ، 2001.
- انظر: المهدي المنجرة، الإهانة في عصر الميغامبريالية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب/بيروت-لبنان، ط5، 2007، ص 9 .
- <sup>12</sup> **الميغامبريالية:** "الإمبريالية العظمى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتحالفاتها". المصدر السابق، ص 8.
- <sup>13</sup> المصدر السابق، ص 9.
- <sup>14</sup> حاج حمد: محمد أبو القاسم، حرية الإنسان في الإسلام، مراجعة وتعليق: محمد العاني، دار الساقى، بيروت لبنان، ط1، 2012، ص33-34.
- <sup>15</sup> الحاج حمد، المصدر السابق، ص32.
- <sup>16</sup> المصدر السابق، ص41.
- <sup>17</sup> حاج حمد: محمد أبو القاسم، حرية الإنسان في الإسلام، مراجعة وتعليق: محمد العاني، دار الساقى، بيروت لبنان، ط1، 2012، ص33-34.
- <sup>18</sup> نبيل سيساوي، مرجع سابق.
- <sup>19</sup> يقول المولى تبارك وتعالى: " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَدَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ" (الأعراف:179).
- <sup>20</sup> حاج حمد، حرية الإنسان في الإسلام، ص63.
- <sup>21</sup> المرجع السابق، ص41.
- <sup>22</sup> البقرة: 204 - 206.
- <sup>23</sup> البقرة: 208.
- <sup>24</sup> حاج حمد، حرية الإنسان في الإسلام، ص25.
- <sup>25</sup> سورة مريم: 95.

محمد الخامس ودوره في لقاء أنفا جانفي 1943 من خلال مصادر مغربية  
الباحثة/ آيت بلقاسم فاطمة زهرة/ قسم التاريخ/ جامعة تلمسان

fatimaait58@yahoo.com

ملخص:

لقد عاش المغرب تحت السيطرة الفرنسية من جهة والإسبانية من جهة أخرى، وعرف منهما مختلف السياسات القمعية، فازداد نضال الشعب المغربي ضدّ المحتلين، وامتدّ ليشمل أماكن واسعة من الأراضي المغربية.

وقد شهد المغرب عدّة وقائع مرتبطة بالحرب العالمية الثانية، وما ترتب عن ذلك من ردود فعل أدت إلى حدوث توتر في العلاقات بين الملك والإقامة العامة، بالرغم مما تعرض له الوطنيون قبيل الحرب من قمع ونفي، فلا الملك ولا هؤلاء الوطنيون وقفوا موقفاً معادياً لفرنسا عندما اندلعت الحرب، إذ أعلن محمد الخامس مساندة المغرب وشعبها لفرنسا عن طريق تجنيد شبابها إلى جانب جيوش الحلفاء.

وقد حملت الحرب العالمية الثانية من الأحداث ما جعلت علاقات محمد الخامس بالحركة الوطنية ترقى إلى مزيد من التشاور وتبادل الآراء في لقاءات سرية.

وبعد انهزام فرنسا وسقوط جزء كبير من أراضيها تحت سيطرة الألمان، تزعزعت مكانتها لدى سكان المستعمرات، وتعزز هذا التوجه بنزول القوات الأمريكية بنقاط مختلفة من السواحل المغربية لاستعمالها كمرتكزات في حرب الحلفاء ضدّ المحور وهو السياق الذي انعقد فيه مؤتمر أنفا في جانفي 1943م ودارت خلاله محادثات حول مستقبل المغرب.

وأعطت هذه الوقائع بالإضافة غلى مساندة محمد الخامس ودعمه دفعة جديدة لنشاط الحركة الوطنية وتطلعاتها، عن طريق الاحتجاجات والعرائض التي طوّرت المطالب الوطنية إلى مطالب استقلالية خاصة عريضة 11 جانفي 1944 لحزب الاستقلال.

### **Abstract:**

Morocco has lived under French control on one side and Spanish on the other hand, knew their various repressive policies increasingly hired the struggle of the Moroccan people against the occupiers, and extended to wide areas of the Moroccan territory.

Morocco has seen several facts related to the Second World War, and the ensuing from that of reactions led to tension in relations between the king and public accommodation, despite what he suffered patriots such as the war of repression and exile, there is no king nor those patriots stood hostile to France when he broke war, as Mohammed V declared support for Morocco and its people to France by recruiting young people to the side of the Allied armies.

World War II events have brought what made Mohammed V relations national movement amount to further consultation and exchange of views in the secret meetings.

After the defeat of France and the fall of a large part of its territory under German control, shaken prestige among the population of the colonies, and reinforce this trend landing of American troops different points of the Moroccan coast to be



used as stepping stones in the Allied war against the Axis, a context in which the conference was held earlier in January 1943 and took place during which talks about Morocco's future.

And given these facts as well as boiled support of Mohammed V and support for a new batch of the activity of the National Movement and aspirations, through protests and petitions that have developed national demands to the demands of special autonomy widescreen 11 January 1944 to the Independence Party.

#### مقدمة:

دفعت التطورات التي جدت على الوضعية الدولية خلال الحرب العالمية الثانية، الحركة الوطنية المغربية إلى تطوير أساليب نضالها ضد الاستعمار، وقد برز خلال الحرب ملك المغرب محمد الخامس في مستوى الأحداث كزعيم سياسي ملهم، إذ تحمّل مسؤولية قيادة شعبية في طريق التحرر من الاستعمار، والعمل على إلغاء معاهدة الحماية، تلك المعاهدة التي خرج عن إطارها مقيمون عسكريون بفرض حكم مستبد مباشرة لا يولي اهتماماً بحقوق المغاربة في بلادهم ولا يلق اعتباراً لما تبقى من مظاهر سيادة ملك البلاد. وقد انتهز محمد الخامس فرصة الحرب العالمية الثانية ليعزز المغرب كدولة تستطيع تحمل المسؤولية وتنتظر من الآخرين الاعتراف بالجميل.

وهكذا أعلنت الحركة الوطنية وعلى رأسها محمد الخامس تضامناً مع فرنسا في مواجهة الخطر الألماني، واستغل الملك نزول جيوش الحلفاء في المغرب ليلتقي برئيس الولايات المتحدة الأمريكية روزفلت ورئيس وزراء بريطانيا تشرشل، ليعقد اللقاء التاريخي بين الملك والرئيس الأمريكي، هذا اللقاء الذي قيل عنه الشيء الكثير واختلفت الروايات

حول المباحثات التي دارت بين الرجلين، بيد أنّ مضامين هذا اللقاء ظلت غير معروفة لفترة طويلة.

فما هي ظروف انعقاد مؤتمر أنفا؟ وكيف استفادت القضية المغربية منه؟

### 1- مسيرة محمد الخامس قبل الحرب العالمية الثانية:

ولد سيدي محمد بن يوسف بالقصر الملكي بفاس يوم الجمعة 23 رجب 1327هـ/10 أوت 1909م<sup>1</sup>، وبويع لتولي زمام الملك يوم 18 نوفمبر 1927م، وفي سنة 1933م طالب الشباب الوطني باعتبار يوم جلوسه على العرش يوماً وطنياً، فأقيمت عملياً في بعض المدن المغربية احتفالات شعبية بعيد هذا الجلوس، ووجهت برقيات التهنئة من المنظمات والهيئات الشعبية، وفي سنة 1934م اضطرت السلطات الاستعمارية أمام الضغط الشعبي أن تجعل يوم 18 نوفمبر يوم وطني<sup>2</sup>.

وفي 08 ماي 1934م قام الملك بزيارة رسمية إلى فاس، فدخلها دخولاً رسمياً لم يسبق له مثيل في تاريخ الزيارات التي كان يقوم بها لمختلف المدن والأقاليم المغربية، وعلقت الأعلام الوطنية في طرقات مرور السلطان وخرجت جماعة من الوطنيين خارج المدينة للتعبير عن ولائهم له.

وقررت السلطات الاستعمارية منعه من أداء الصلاة بجامع القرويين كما كان مقرراً، والاكتماء بأدائها في أحد المساجد القريبة من القصر الملكي، فقرر العودة إلى الرباط محتجاً على هذا القرار، وعند وصوله أبلغ وفداً من رجال الحركة الوطنية بواسطة الصدر الأعظم رضاه وشكره على ما أبدوه من مظاهر التكرم والولاء مؤكداً لهم بأنّ الملك أبلغ وزير خارجية فرنسا بأنّه لا يرضى إلاّ بإلغاء الظهير البربري، وكانت هذه المرحلة بداية اتصالاته بالحركة الوطنية والذي كان بدوره يضع مخططاته من أجل مواجهة الإدارة الاستعمارية في إطار تحقيق رغبات شعبه من أجل تحقيق الاستقلال<sup>3</sup>.

## 2- موقف محمد الخامس من الحرب العالمية الثانية:

في نفس الوقت الذي أعلنت فيه فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا، وجه الملك سيدي محمد بن يوسف يوم 03 سبتمبر 1939م نداء إلى الشعب المغربي يطلب منه الوقوف إلى جانب فرنسا وحلفائها في محنتهم العصيبة، وتقديم جميع المساعدات الممكنة لهم، ولقد تلي هذا النداء في مختلف مساجد المملكة<sup>4</sup>، وأهم ما جاء فيه قوله: "...فمن هذا اليوم الذي اتقدت فيه نيران الحرب والعدوان، إلى اليوم الذي يرجع فيه أعداؤنا بالذل والخسران، يتعين علينا أن نبذل لها الإعانة الكاملة، ونعضدها بكل ما لدينا من الوسائل، غير محاسبين ولا بخيلين، فقد كنّا معاهدين لفرنسا ومشاركيها في ساعة الرخاء، ومن الإنصاف أن نشاركها اليوم في ساعة الشدة والبأس، حتى يكمل النصر أعمالها ويظهر سرور النجاح أيامها، والله ولي النصر والتوفيق والسلام..."<sup>5</sup>.

ورأى علال الفاسي أنّ موقف الملك كان له الأثر الفعال في توجيه السياسة الوطنية في وقت الحرب، وقد أظهر الملك رغبته الأكيدة في أن يظهر المغرب في مظهر الحليف الوفي، ولم يرد أن يكون الجيش المغربي مجرد جيش مقاتل، بل أحب أن يعتبر المغرب كدولة مقاتلة من أجل العنصرية واضطهاد الشعوب، حتى يستي له أن يطالب باسم هذا المبدأ فيما بعد الحرب<sup>6</sup>.

## 3- انعقاد لقاء أنفا 24 جانفي 1943م:

بعد نجاح عملية الانزال ومع بروز البوادر الأولى لانتهاة الحرب العالمية الثانية لصالح الحلفاء، قرر قادة الحرب عقد اجتماع من أجل التخطيط لما بعد الحرب وتحديد مصير العالم الجديد وملامح العلاقات الدولية رافعين شعارات الحرية ومبدأ الحوار وسلوك الطرق

السلمية لفض مختلف النزاعات وبؤر التوتر عبر أرجاء العالم والاعتراف بحق كافة الشعوب بتقرير مصيرها<sup>7</sup>.

وقد انعقد هذا الاجتماع التاريخي بفندق أنفا بالدار البيضاء ما بين 14 و24 جانفي 1943م باقتراح من الرئيس الأمريكي روزفلت-Roosevelt- والوزير الأول البريطاني تشرشل-Churchill- فيما تخلف ستالين-Staline- عن اجتماع القادة بحكم مسؤولياته الكبيرة في الحرب، بينما حضر كل من الجنرال ديغول-Degaulle- قائد المقاومة الفرنسية وشريك الحلفاء في الحرب والجنرال هنري جيرو-Henry Girand- بصفته الرئيس القائد المدني والعسكري لمستعمرات فرنسا بالشمال والغرب الإفريقي<sup>8</sup>.

وجه الرئيس الأمريكي روزفلت-Roosevelt- في 22 جانفي 1943 دعوة للسلطان محمد الخامس لحضور مأدبة العشاء التي أقامها على شرفه بمقر إقامته في دار السعادة بحي أنفا وكان السلطان مصحوباً بولي عهده الحسن الثاني ومحمد المقرري الصدر الأعظم ومحمد المعمري رئيس التشريعات الملكية<sup>9</sup>، ويضيف الحسن الثاني في كتابه التحدّي: "استدعانا رئيس الولايات المتحدة لعشاء أقامه على شرف أبي، كان هذا بأنفا قرب الدار البيضاء وفي المكان الذي أعلنه منه روزفلت-Roosevelt- بأنّ الحرب ستستمر إلى الاستسلام اللامشروط لدول المحور"<sup>10</sup>، كما وصف قائلاً: "وعندما كنا نترك مائدة العشاء استأذن البعض في الإنصراف فأذن لهم بينما تمسك بنا الرئيس الأمريكي ورجانا أن نبقي، وهكذا وجدنا أنفسنا مجتمعين مع فرانكلين روزفلت-Roosevelt- وونستون تشرشل-Churchill-، وروبرت مورفي-Morphy- ووالدي وأنا، وبعد حديث دار حول الحالة العامة أخذت المحادثة شكل محوري بين الرئيس ووالدي... وأكدّ الرئيس الأمريكي أنّ النظام الاستعماري عفا عليه الزمن وأصبح في رأيه محكوماً عليه بالزوال"<sup>11</sup>.

ويتأكد استناداً إلى ماورد في كتاب ذاكرة ملك<sup>12</sup> وكتاب التحدي للحسن الثاني أن الملك عرض في حديث صريح مع الرئيس الأمريكي قضية المغرب وتطلعات الحركة الوطنية، وإذا كان هذا الأخير قد تجنب تقديم وعد صريح لمساندة قضية المطالب الوطنية المغربية، إلا أنه أبدى تفهماً كبيراً لرغبة المغاربة في التحرر قائلًا: "... إننا لم نعد الآن في سنة 1850 ولا في سنة 1912 ونتطلع لليوم الذي سيصل فيه المغرب بسير إلى الاستقلال وفقاً لمبادئ الحلف الأطلسي متمنياً أن يكون هذا اليوم قريباً، يوم أن تضع الحرب أوزارها..."، وأكد أيضاً للملك أن تغييراً جذرياً سيحصل على خريطة العالم بعد انتهاء الحرب قائلًا: "بعد الحرب ستصبح إعادة التنظيم السياسي والاقتصادي للمجتمعات الإنسانية ضرورة ملحة...".

كما عبر عن استعداد الولايات المتحدة لتقديم المساعدات الاقتصادية الضرورية لتحسين الأوضاع المتردية لمجتمع المغربي بعد حصوله على الاستقلال، "...إنّ الولايات المتحدة تكتفي يومئذ بوضع أية عراقيل في وجه استقلال المغرب فحسب، بل إنّها ستخص المغرب المستقبل كذلك بمعونات اقتصادية..."<sup>13</sup>.

وكرر روزفلت -Roosevelt- نفس الموقف الذي إلتزم به أمام الأمير فيصل ابن سعود عندما تحدث إليه عن لقاء أنفا وعن موقف الولايات المتحدة من القضية المغربية<sup>14</sup>.

وقمت محادثة رسمية كما سماها محمد حسن الوزاني في 23 جانفي 1943 بين المغرب والولايات المتحدة، مثل المغرب فيها كل من الصدر الأعظم محمد المقرري ومدير التشريفات محمد المعمري، ومثل الولايات المتحدة هوبكينس -Hopkins- مستشار روزفلت -Roosevelt- الخاص، لكن ماورد في تلك المحادثات ظل سراً وظل غير

معروف لأحد، ولولا عثور محمد الوزاني على نسخة الإنجليزية من وثيقة الاجتماع لما عرف تلك المحادثات، والوثيقة عبارة عن أربعة أسئلة طرحها ممثلاً المغرب على هوبكينس - Hopkins - وهذا نصها:

"لقد شرح الصدر الأعظم أن الموضوع الذي سنتناوله المناقشة لن يطلع عليه إلا الرئيس، بحيث لاتعرف المحاوره أية سلطة أخرى باستثناء الولايات المتحدة، وقد يكون الأفضل عدم مناقشة أي شيء لم يتوصل إلى الاتفاق حول الموضوع المشار إليه أعلاه.

وأكد السيد هوبكينس - Hopkins - للصدر الأعظم أن مايرغب فيه سيحرم تماماً وأن الموضوع الذي سيناقش لن يعلمه غير الرئيس، فصرح الصدر الأعظم بأن أربعة أسئلة تحتاج إلى أن تعرض على اهتمام الرئيس.

\*السؤال الأول: لقد سمع جلالة الملك بأن اجتماعاً للتباحث يدور الآن بين الجنرال جيرو - Giraud - والجنرال ديغول - Degaulle - وأن فرنسا التي تشعر بعدم الأمن تريد أن تغير هذه الحالة قبل الاتجاه إلى غيرها، ومنذ 08 نوفمبر (يوم نزول الجيوش الأمريكية في المغرب) ظلت العلاقات مع فرنسا مضطربة وذلك نتيجة وجود عدد من الفرق المنشقة، وليس للملك أي اعتراض على الجنرال نويس - Nogues - فهذا الأخير رجل إداري كفء وعلاقته مع الملك والحكومة والشعب جيدة، ولكن الجنرال نويس - Nogues - اقترح منذ 08 نوفمبر برنامج عمل وعلى الفور عارضه بعض الديغوليين أو أصحاب جماعة فيشي<sup>15</sup>.

إنّ الملك متخوف بسبب ما ذكر آنفاً، وقد تلقى بسرور مجيء جيوش الولايات المتحدة اتجاه المغرب؟ وأية علاقة ستوضع مع الولايات المتحدة؟ ومن أجل أن يقرر سياسته المستقبلية يود الملك معرفة السياسة القارة للولايات المتحدة فيما يخص المغرب.

\*السؤال الثاني: لم يكن اليهود الشعب المتفوق في المغرب، بل كانوا دائماً وبكيفية محددة جداً ثانويين عدداً ونفوداً، وكانوا يعاملون معاملة حسنة من المسلمين، ولما حلت لجنة

الهدنة الألمانية بالمغرب ألح أعضاءها أول الأمر على معاملة اليهود فيه كما كانت معاملتهم في ألمانيا، فامتنع الملك بقوة من أن يفعل هذا.

إنّ الحالة الراهنة ناشئة عن قرون من التعايش، فالمسلمون محتاجون إلى اليهود كما كان اليهود محتاجون إلى المسلمين، ولا توجد مشكلات يهودية في المغرب، ولن تكون في المستقبل إذ بقي هذا الموضوع كما هو الآن، وقد ظن بعض اليهود أن مجيء الجيوش الأمريكية يعني أنه سيضعهم في مراكز قوة ونفوذ بالنسبة للمسلمين، وهذا ما يجب أن لا يقع.

\*السؤال الثالث: إنّ للمغرب احتياجاً كبيراً للتزود ببعض مواد التموين والألبسة والأجهزة...، وقد تعرض نفوذ الولايات المتحدة بكيفية أو بأخرى في هذه المسألة كما دلت عليه التصريحات التي أكّدت أنّ هذه المواد الضرورية ستصل، والمؤمل أن احتياجات المغرب الأكثر أهمية يمكن تنفيذها قريباً.

\*السؤال الرابع: إنّ الملك متأكد من أن الحرب ستنتهي بانتصار الولايات المتحدة، وستعقب هذا الانتصار معاهدة سلام، وعندما يحين وقت التداول في شروط السلم ينوي الملك أن يرمي بين يدي السيد روزفلت-Roosevelt- بشروط قبول السيد روزفلت-Roosevelt- وكذلك بلاده<sup>16</sup>.

فإذا قبل السيد روزفلت-Roosevelt- عروض الملك الرامية إلى استفتاء شعبه فإنه متأكد من أن شعبه كله سواء في المنطقة الفرنسية أو الإسبانية سيكون موافقاً وراضياً بأن يضع مستقبله بين يدي روزفلت-Roosevelt-

وصرح الصدر الأعظم بأن للسؤال الأخير أهمية تتطلب أن يحفظ بمنطلق السرية والكتمان، وبأنه يرغب في أن يعرض على السيد روزفلت-Roosevelt- وحده،

فأكد السيد هوبكينس أن هذا السؤال لن يعرفه إلا السيد روزفلت، وبما أن السيد هوبكينس -Hopkins- كان مطلعاً على وجهات نظر السيد روزفلت -Roosevelt- فقد أعلن أنه يستطيع أن يعطي فوراً جواباً مقنعاً عاماً.  
\*الجواب العام:

إنّ السيد روزفلت -Roosevelt- يعتقد أن هذه الحرب معركة حياة أو موت، وفي الوقت الراهن يجب أن تبدل كلّ الجهود لهزم ألمانيا وإيطاليا واليابان، ومعتقد أننا سننجح وأنّ انتصارنا تاماً سيتحقق. وستواصل الحرب إلى أن تقبل ألمانيا وإيطاليا واليابان الاستسلام بلا قيود ولا شرط.

ويعي الرئيس الصعوبات التي تواجهه الآن المغرب، كما يدرك أن الملك كان عالماً بما حاولته لجنة الهدنة الألمانية لإكراهه على الامتثال لمطالبها، فقد ظهر كرجل حازم وقوي، وهذا ما يهنئ به الرئيس نفسه، ويعلم كذلك أنّ الملك رجل عظيم. وفي الماضي دخل الجيش البلاد، وبعد إعادة السلم إليها بقي فيها بدعوة أو بأخرى، أمّا الجيش الأمريكي فلن يبقى في المغرب.

وقد استغلت البلاد القوية البلاد الفقيرة، وامتصت الثروة والخيرات فأخذت خارج البلاد لمنفعة البلاد القوية، وراح السيد هوبكينس -Hopkins- أن يؤكد الصدر الأعظم للملك أن الولايات المتحدة لا تنوي استغلال المغرب، بل يتمنى وضع علاقة اقتصادية وثيقة، خصوصاً وأنّ الطائرات ووسائل النقل البحري الأخذة في التقدم ستسمح للبلدين بأن يكونا أكثر تقارباً.

ويعلم الرئيس أن كثيراً من شعوب هذا العالم لم تظفر بقسطها العادل من الخيرات، كما يعلم أنّها تستطيع التمتع بها، وستتوفر على هذه الخيرات بعد الانتصار، ويعتقد الرئيس أنه لا توجد أسباب تدعوا إلى تغيير الحكومة الحالية في المغرب، لأن هذه الأخيرة



سمحت له بزيارة هذا البلد وبالعلاقات الملك وقد تأثر الرئيس تأثراً عميقاً، وستكون زيارته ذات فائدة حيث أنه أصبح صديقاً كبيراً للملك وللبلاد<sup>17</sup>.

وصرح السيد هوبكينس -Hopkins- لأنه لا يستطيع أن يعطي جواباً نهائياً على كل الأسئلة، وفيما يخص التمويل من أجل المدنيين فسيرسل، وتبقى الأسئلة للحاجيات العسكرية، ويعرف الرئيس أنّ الشعب المغربي هو صاحب الشأن، ويجب أن لا يكون هذا بكيفية غير عادلة، ويمكن انتظار النتيجة النهائية بدون شك أو ريب.

وشكر السيد هوبكينس -Hopkins- الصدر الأعظم على صراحته معلناً أنه سيبلغ الرئيس التقرير الكامل والصحيح عن هذه المناقشة<sup>18</sup>.

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أجاب الرئيس الأمريكي عن الأسئلة التي طرحها الجانب المغربي؟ وبأية كيفية؟

لقد كان الجواب الذي قدمه الرئيس في رسالتين لم يعثر لهما على أثر، وعلى حسب الوزاني ربما كان مصيرهما الضياع، وبضياعهما ضاعت الوعود المبذولة والآمال المعلقة عليهما لصالح المغرب بعد الانتصار في الحرب.

لقد فتح هذا اللقاء عهداً جديداً في علاقات المغرب مع الخارج وقذف به في أحضان الصراعات الدولية كفاعل يتحاور حول مصير الحرب وتوجهاتها خارج إطار الدولة الحامية، كما فتح غي الوقت ذاته آفاقاً واسعة أمام الحركة الوطنية المغربية وأمدّها بمزيد من التطلع لتقدم مطالبها للاستقلال<sup>19</sup>.

لا يجب أن يفهم موقف الولايات المتحدة وبريطانيا المتقرب من الملك أن الدولتين كانتا تسعيان فعلاً إلى استقلال المغرب، فهذهما لم يكن أقل من الحفاظ على الهدوء بالمنطقة وضمان حيادها حتى يتسنى لهم استعمالها استراتيجياً فيما يخدم توجه الحرب والقضاء على المحور، يقول حسن الثاني في هذا الصدد: "... لم يمر وقت طويل حتى أدركنا أن روزفلت -Roosevelt- وتشرشل -Churchill- لم يكن ههما في

يناير 1943 تحرير المغرب من النير الاستعماري، وإثما كان اهتمامهما منصباً بالأساس على تحييد المغرب ليهزم المارشال رومل -Rommel- وتتمكن قوات الحلفاء من النزول في إيطاليا...<sup>20</sup>.

### خاتمة:

من خلال ما سبق عرضه نستنتج مجموعة من الأفكار أهمها:

- 1- لأول مرة منذ عقد الحماية اجتمع ملك مغربي برئيس دولة دون حضور المقيم العام الفرنسي الذي كان يشغل منصب وزير الخارجية بمقتضى معاهدة الاحتلال المؤرخة في 30 مارس 1912.
- 2- ظهور المغرب في هذا اللقاء بلد ذو سيادة في شخص ملكه الذي أصبح المخاطب الوحيد المتكلم باسم المغرب، فأكسبه ذلك ثقة أكبر في النفس وأعاد له هيئته وكرامته، وكان هذا اللقاء منطلق النضال السياسي المباشر للملك على المستوى الدولي ضد الاستعمار.
- 3- أخرج الملك في هذا اللقاء القضية المغربية من الحوار الثنائي المغربي الفرنسي إلى الإطار الدولي (تدويل القضية المغربية)
- 4- وحتى وإن لم يف الأمريكيون بالوعود التي التزم بها روزفلت -Roosevelt- في لقاء أنفا، فإن ذلك اللقاء قد شكل امتحاناً للجميع في عدم الاعتماد الكلي على المساعدة الخارجية في خدمة القضية المغربية في هذه المرحلة، والاعتماد قبل كل شيء على توحيد الصفوف الداخلية للحركة الوطنية وتنسيقها التام مع الملك المغربي.

**الهوامش:**

- <sup>1</sup> - أبو بكر القادري، محمد الخامس... ملامح من حياته وصور من جهاده، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1995، ص 4.
- <sup>2</sup> - أبو بكر القادري، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1941 إلى 1945، ج 2، ط 1، (د.م.ن)، 1997، ص ص 55-60.
- <sup>3</sup> - نفسه، ص ص 46-47.
- <sup>4</sup> - نفسه، ص 128.
- <sup>5</sup> - أبو بكر القادري، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية من 1930 إلى 1940، ج 1، ط 1، (د.م.ن)، 1992، ص 484.
- <sup>6</sup> - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية، تطوان، (د.س)، ص 229.
- <sup>7</sup> - التهامي نعمان، مذكراتي في تاريخ الكفاح المسلح، ط 1، دار أبي قراق للطباعة والنشر، الرباط، 2009، ص 47.
- <sup>8</sup> - نفسه، ص ص 47-48.

<sup>9</sup> - الحسن الثاني، التحدّي، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1990، ص 45.

<sup>10</sup> - نفسه، ص 48.

<sup>11</sup> - نفسه، ص 45.

<sup>12</sup> - Hassan II, La mémoire d'un roi, librairie plon, paris, 1993, p.16.

<sup>13</sup> - الحسن الثاني، المصدر السابق، ص 50.

<sup>14</sup> - محمد الحسن الوزاني، مذكرات حياة وجاهد، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ت)، ص 29.

<sup>15</sup> - نفسه، ص ص 46-47.

<sup>16</sup> - نفسه، ص ص 47-48.

<sup>17</sup> - نفسه، ص ص 48-50.

<sup>18</sup> - نفسه، ص ص 50-51.

<sup>19</sup> - نفسه، ص 52.

<sup>20</sup> - الحسن الثاني، المصدر السابق، ص 68.

## مساهمة المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية بالولاية الخامسة من خلال الشهادات

الحية

أ/ بكرادة جازية- قسم التاريخ - جامعة تلمسان

zahia.amat@gmail.com .

ملخص .

إنضمت المرأة الجزائرية إلى الثورة التحريرية بالولاية الخامسة منذ إنطلاقها، و بصفة تلقائية، حيث شاركت فيها كمسبلة، إذ قامت بإيواء المجاهدين و إطعامهم و حتى حراستهم، لتكّلف بمهام أخرى تمثلت في جمع الإشتراكات و نقل السلاح و الأدوية من منطقة إلى أخرى . و لما رأت القيادة الثورية جدارة المرأة في تنفيذ المهام التي أوكلت إليها، عمدت إلى تدريبها لتقوم بأعمال أكثر أهمية و تتطلب الكثير من الحيطة و الحذر و تمثل ذلك في جمع المعلومات حول جنود العدو و الإدارة الاستعمارية و كذا اعوانهم من الجزائريين، فظهرت امرأة الإستعلامات و المراقبة السياسية، فأعطت دفعا قويا للثورة الجزائرية بهذه الولاية.

**Abstract :**

Algerian woman joined spontaneously the Algerian revolution in the fifth(5<sup>th</sup>) state from its beginning she participated as a civilian. She fed and observed the martyrs. She had other missions as

collecting money and carrying weapons and medicines from region to another.

When they saw her capacities in doing difficult works, they trained her to do more important works that needed carefulness like collecting information about the French enemies and the Algerian betrayers. So, she appeared the woman of the political control and that gave powerful push to the Algerian revolution in this state.

حملت المرأة الجزائرية على عاتقها تربية الجيل و تنشئته تنشئة صالحة، للمحافظة على عروبته و إسلامه، وغرست فيه كره المستعمر الفرنسي، و ما إن اندلعت أول شرارة للثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر 1954، حتى دفعت بأولادها إلى ساحات القتال، ولم تكتف بذلك بل إنها شاركت في الكفاح المسلح إلى جانب الرجل وخدمت الثورة في مجالات عديدة ، مع تسجيلها نجاحا معتبرا في المهام التي أسندت إليها والتي أنجزتها بكل تفان وإتقان.

في هذه المقالة المعتمدة بالدرجة الأولى على الشهادات الحية سوف أحاول تسليط بعض الأضواء على جوانب من مشاركة المرأة في الثورة بالولاية الخامسة التاريخية. بعد التعريف بهذه الولاية سأعرض إلى دور المرأة في الكفاح المسلح كمسبلة ، ثم دورها في الاستعلامات والجوسسة.

## 1-تعريف الولاية الخامسة:

عرفت الولاية الخامسة في البداية بالمنطقة الغربية وأيضا بالقطاع الوهراني (ORANIE)<sup>1</sup> وكذا المنطقة الخامسة، ليستقر الرأي على تسميتها بالولاية الخامسة بعد انعقاد مؤتمر الصومام في أوت 1956.

ويقول العقيد لطفي عن الولاية الخامسة في حديث لجريدة المجاهد: "تمتد الولاية الخامسة من البحر الأبيض المتوسط الى أقصى الجنوب الجزائري، ومن حدود المغرب الأقصى الى الحدود الإدارية لعمالة الجزائر شرقا، وهي تمثل ثلث مساحة القطر الجزائري، فهي بذلك تعتبر أكبر الولايات الشمالية مساحة أثناء الثورة الجزائرية وتتكون الولاية الخامسة من تسع مناطق؛ سبعة مناطق داخل الوطن ومنطقتان خارج الوطن حدوديتان احدهما شمالية وأخرى جنوبية<sup>2</sup> .

وهذا ما يوضحه المجاهد مصطفى عبيد حيث ذكر أن حدود الولاية الخامسة هي على الشكل التالي:

- اتجاه الغرب: من مرسى بن مهدي مروان بحدود المملكة المغربية، مغنية، عين الصفراء، بشار، حدود الجزائر الغربية إلى حدود الجمهورية الموريتانية .

- اتجاه الجنوب: جزء من حدود الجمهورية الموريتانية ثم جزء من حدود جمهورية مالي .

- اتجاه الشرق: من حدود جمهورية مالي، برج باجي مختار، أدرار، أفلو غربا، قصر الشلا، تيارت، تسمسيت، غرب الشلف (الأصنام)، إلى غاية التنس .

- إتجاه الشمال: من تنس، مستغانم، وهران، بوزجار، بني صاف، الغزوات الى غاية مرسى بن مهدي

هذه الحدود تنطبق على المنطقة سابقا قبل وبعد مؤتمر الصومام<sup>3</sup>.

فالولاية الخامسة تمتد من حدود الولايتين الرابعة والسادسة شرقا إلى الحدود المغربية غربا ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى أقصى جنوب الجزائر الغربي، وتقطعها مرتفعات الظهرة وبني شقران وجبال الضاية التابعة لسعيدة، وتسالة ومرتفعات تلمسان وطرارة و إلى الجنوب يقطعها الجزء الأكبر من سلسلة الأطلس الصحراوي من مرتفعات القصور إلى جبال عمور .

كما تشرف المنطقة الخامسة على مساحات واسعة من السهول والسهول المرتفعة على نحو ثلثي المساحة الإجمالية للمنطقة الإجمالية وثلث مساحة الجزائر، وضمت كل من وهران (عاصمة الغرب الجزائري)، مستغانم، عين تموشنت، تلمسان، معسكر، تيارت، سعيدة، بشار، تندوف، سيدي بلعباس، فرندة، مشرية، عين الصفراء، البيض، آفلو<sup>4</sup>.

هذه السهول الواسعة كانت بها أجود وأخصب الأراضي الفلاحية الأمر الذي جعلها قبلة للعديد من المعمرين الذين استوطنوا بها، وقد بلغت نسبتهم فيها حوالي الثلث، هذا ما جعل السلطات الإستعمارية تشدد الخناق على الولاية الخامسة من كل الجهات وتشيد بها أكبر المؤسسات العسكرية وكذا الثكنات العسكرية كثكنة للقوات الليف الأجنبي بمدينة سيدي بلعباس كما أسست بها أهم المؤسسات الأمنية والإستعلامية<sup>5</sup>. ومن هذا نستنتج



أن المنطقة الخامسة (الولاية الخامسة لاحقا) تمتاز بتنوع التضاريس الذي يساعد على العمل الثوري والعسكري .

وتكمن أيضا أهمية الولاية الخامسة في أنها تشترك في الحدود مع المغرب الأقصى ،وهذا ما شكل عاملا استراتيجيا بالنسبة للثورة في انشاء القاعدة الغربية (القاعدة الخلفية للثورة) وقيادة الحدود ،فكانت لها علاقة بجيش التحرير الوطني في المغرب <sup>6</sup> .

قبيل إندلاع الثورة ثم تقسيم المنطقة الخامسة جغرافيا إلى أقسام مع تداخل كبير فيما بينها ،فمن أول نوفمبر 1954 و إلى جويلية 1955 كانت كالاتي :

- 1-من الحدود الغربية (مرسى بن مهدي) الى الرمشي المسؤول العسكري محمد فوطاس .
- 2-من الرمشي إلى حاسي الغلة :واضح بن عودة .
- 3-من حاسي الغلة إلى وهران :الحاج بن علا .
- 4-من سيق إلى المحمدية ،طفراوي ،سيدي بلعباس :أحمد زبانه .
- 5-من مستغانم إلى الظهرة:بن عبد المالك رمضان <sup>7</sup> .

و من جويلية 1955 إلى ما قبل أوت 1956 بقليل خضعت المنطقة إلى تقسيم جديد :

- 1-الغزوات ،بورمالي ،فلاوسن ،الى الحدود المغربية .
- 2-سيدي وشع ،هنين ،سوق الأربعاء .

3- سيدي سفيان ،سوق الخميس ،عريمة .

4- الحدود المغربية ،العريشة ،بني واسين ،بني بوسعيد ،بني سنوس ،أولاد نهار .

5- حمام بوغراة ،بني بهدل ،اللوريط ،سيدي العبدلي ،بن سكران .

6- سبدو ،العريشة ،المشرية ،سيدي السنوسي الى شمال سيدي بلعباس .

7- سعيدة .

8- المشرية ،عين الصفراء ،بشار، تندوف ،أدرار<sup>8</sup> .

وبعد مؤتمر الصومام 20 أوت 1956، تمّ إستحداث مؤسسات وتنظيمات أعطت للثورة التحريرية أكثر شمولية وفاعلية ومن بين تلك التنظيمات التي نص عليها ميثاق الصومام هو تقسيم الجزائر الى ست ولايات وتقسيم الولاية الى مناطق والمناطق الى نواحي حيث يكون لكل ولاية مجلس يرأسه عقيد يساعده أربعة ضباط برتبة رائد وكل رائد يكون مسؤولاً عن قطاع معين<sup>9</sup> .

وبهذا أصبحت المنطقة الخامسة تسمى بالولاية الخامسة وقد قسمت إلى ثماني مناطق وهي :

\*المنطقة الأولى :تلمسان ومغنية .

\*المنطقة الثانية :الغزوات وبني صاف .

\* المنطقة الثالثة: وهران، عين تموشنت وضواحيها<sup>10</sup>. \* المنطقة الرابعة: مستغانم، غليزان

\* المنطقة الخامسة: سيدي بلعباس.

\* المنطقة السادسة: معسكر، سعيدة.

\* المنطقة السابعة: تيارت، السوقر.

\* المنطقة الثامنة: عين الصفراء، البيض، بشار، تندوف، أدرار<sup>11</sup>.

كانت الولاية الخامسة (المنطقة الخامسة) تتمركز بغرب الوطن، فبداية كانت في المنطقتين الأولى والثانية بنواحي تلمسان، وبمنطقة الريف المغربي نواحي الناظور وأحيانا بوجدة ومنطقة الخميس (بني سنوس) ونواحيها، وبعد إستقلال المغرب الأقصى تركزت في مدينة وجدة، وبعد سنة 1958 إنتقلت إلى فكيك (فقيق) واستقرت أخيرا ببوعرفة إلى غاية الإستقلال.

12

## 2- المرأة المسبلة.

وقفت المرأة الجزائرية إلى جانب الرجل تتحمل المسؤولية، فكانت سندا قويا للزوج و الابن و الأخ الذي حمل السلاح ضد الاستعمار الفرنسي، فأبليت بلاء حسنا أظهرت من خلاله أنها الدعامة الثانية التي تقف عليها الثورة التحريرية.<sup>13</sup>

و قد أسندت إليها عدة مهام من بينها العمل كمسبلة، و قد إرتائنا أن نعرّف بها، فهي إذن مواطنة عادية غير متفرغة للقتال، تقوم بأعمالها اليومية و في نفس الوقت تقوم بأعمال لصالح

جيش التحرير الوطني، وكنظيراتها من الفدائيات هي الأخرى يشترط فيها أن تتحلى بصفات و أخلاق حميدة لأن تكون بين صفوف جيش التحرير مثل: النزاهة، العفة، الصبر و الصرامة، و كل هذه الخصال كانت محببة لدى قادة الثورة.<sup>14</sup>

في البداية إنضمت المرأة إلى الثورة بصفة تلقائية و ذلك بحكم التحاق رب البيت بالنضال، و في هذا الصدد تقول المجاهدة سهولي فاطنة زوجة الشهيد بن عياد بوزيان: "كان زوجي في بداية الثورة التحريرية قائد عرش ومسؤول عن جمع الاشتراكات في قرية الناجية<sup>15</sup>، فكان يأتيني بالأموال التي جمعها لأخبأها له. كنت أضعها في قارورات زجاجية و أحكم إغلاقها، ثم أدرسها في حفرة خارج البيت و أضع علامة على المكان حتى يسهل علي إيجادها عندما يطلبها مني، و تردف قائلة: " .. كان يأمرني أنا و باقي نساء البيت بتحضير الطعام للجنود، فكاننا نفعل ما يأمرنا، و كنت احرص على أن يذهب الأولاد إلى النوم باكرا حتى لا يفتشوا سر وجود الجنود في المخبيء- الموجود تحت غرفة النوم - إلى جنود العدو دون قصد منهم.<sup>16</sup>

فكان بيت المرأة الجزائرية مأوى للمجاهدين الذين كانوا يستعملونه مركزا لهم سواء للراحة من معركة خاضوها أو للتجمع تحضيرا لها، أو لدراسة أوضاع الثورة، فعملت على تجهيز الطعام لهم و سهرت على حراستهم، و تقول المجاهدة برحال مريم: "التحقت بالثورة منذ بدايتها و ذلك بمجرد انضمام زوجي برحال عبد القادر إليها، الذي أسندت له مسؤولية التموين بمنطقة سبدو (ولاية تلمسان)، وما إن يخبره الاتصال بقدم عدد معين من المجاهدين إلى الدوار، كان يأمرني بجمع نساء الدوار بغرض تحضير الطعام.

و في أحد أيام رمضان قمنا بعجن و خبز 50 خمسين خبزة ، و ما إن انتهينا من تحضيرها حتى رأينا دورية للجيش الفرنسي متجهة نحونا، فوضعنا جزء من الخبز تحت فراش إحدى النساء التي كانت نفساء و التي تظاهرت بالنوم مع وليدها، حتى لا يفتشوا مكانها، كما أمرنا البنات الصغيرات بحمل الخبز في لفافة على شكل طفل لتقمن بتوزيعه على باقي البيوت، أما ما تبقى فأخفيناه تحت الأواني، و حين فتش الجنود الفرنسيون البيت وجدوا الخبز فسألنا قائدهم والذي كان يجيد اللغة العربية: ما كل هذا الخبز، فأجبت أنه صائمون فسوف نأكل نصفه عند الإفطار و ما تبقى عند السحور، فانطلت عليه الحيلة وإنصرف مع جنوده. و ما إن غادر جنود جيش التحرير حتى سارعنا نحن النسوة إلى إطلاق الأغنام لإخفاء آثار أقدامهم، كما كنا نمسح هذه الآثار بواسطة حزميات من الحطب.<sup>17</sup>

لم تكن مهمة المرأة تقتصر على الإيواء وإعداد الطعام فقط، بل إنها قامت بحراسة الجنود عند غياب زوجها، فسهرت طوال الليل في الحراسة فإذا ما لاحظت أي تحرك تخبرهم على الفور، ليتمكنوا من النزول إلى المخابىء، أو الإستعداد للدفاع عن أنفسهم. و كانت المجاهدة تتفق مع جنود جيش التحرير الوطني على إشارة معينة، إن وجدوها يعرفون من خلالها أن الطريق آمن، فيستطيعون الدخول إلى ذلك الدوار أو إلى بيتها، و في هذا الصدد تقول المجاهدة بن زينة رحمونة: "اتفقت مع جيش التحرير الوطني أنهم إذا لحوا راية بيضاء من بعيد فإن المكان و الدوار آمن، و إن لم ترفع تلك الراية، فالعدو يكون محاصرا للمكان، و عليهم تغيير وجهتهم إلى مكان آخر حتى لا يقعوا في يدهم".<sup>18</sup>

و في حالة إلقاء القبض على أحد الثوار الذين خرجوا من بيتها و كشف سرها ، كانت تتحمل بكل شجاعة و صبر ما كان ينجر عن عمليات الانتقام الذي كان يقوم بها جنود الاحتلال، بإذاعتها مختلف ألوان العذاب... و تذكر المجاهدة زهية قلعي<sup>19</sup> بهذا الخصوص: "...بعد وشاية، جاء الجيش الفرنسي مع البياح إلى بيتي<sup>20</sup> ليفتشوا على المخاليء، و تمكن من تفجير أربعين خابية<sup>21</sup> كان زوجي القلعي مختار قد بناها، ثم أخذوني أنا و ابنتي و عذبونا أشد العذاب لمدة أربعة أيام ثم رحلونا إلى سجن مدينة عين تموشنت<sup>22</sup> .

و ابتداء من سنة 1955 عمل مجاهدوا الولاية الخامسة على استقطاب بعض النساء لتكوين خلايا

و فروع خاصة بهن، و ذلك وفق شروط معينة للإبقاء على سرية الثورة، فاتصلوا بنساء عرفن بوطنيتهن و ذلك بتزكية من أحد أفراد العائلة الذي كان قد انضم إلى الثورة في وقت سابق.

و هذا ما حصل للمجاهدة يمينة ورياشي بوحريز التي التحقت بالثورة بعد تزكية من زوجها<sup>23</sup>، فإتصل بها أحد المجاهدين الذي أقنعها بالانضمام إلى الثورة ، و بعد تردد رحبت بالفكرة، فأوكلت لها القيادة الثورية مهمة توعية النساء و تنظيمهن في مدينة السفيزف، فاستغلت توافد نساء المنطقة إلى بيتها لتخيط لهن ملابسهن، و أخذت على عاتقها توعية النساء خاصة من تتوسم فيهن صفة الشجاعة و التضحية في سبيل الوطن. كما كانت تستقطبن عند ذهابها إلى الحمام الشعبي و الأعراس ، و في هذا الصدد تقول المجاهدة ورياشي يمينة: "كنت أقول لهن إن الخير الذي تنعم فيه فرنسا سوف يأتي يوم و نخرجها من بلادنا، فنأخذ استقلالنا، و نعلم من خيرات الجزائر، نحن الجزائريون " ، و كان كل هذا من

أجل إثارة الحماسة فيهن ليقبلن على الثورة و يساندنّها بكل ما أوتين من قوة. فتمكنت من تكوين خلايا و فروع لكل مهمتها: كخلية جمع الاشتراك و شراء الأدوية

و أخرى لشراء البطاريات و الأقلام و كل ما كان يحتاجه المجاهدون، فكانت هؤلاء النساء يأتين لها بكل ما يجمعن لتنقله هي بدورها إلى الجبل<sup>24</sup>.

و في مدينة سيدي بلعباس كانت المجاهدة خيرة الواحلة<sup>25</sup> هي أول من فكرت فيها جبهة التحرير الوطني للقيام بتوعية النساء في هذه المدينة، و هذا بحكم امتلاكها لورشة خياطة لتعليم الفتيات و بحكم أنّها كانت بنتا متحررة، فخروجها و تحركاتها لم تكن تثير الشكوك حولها، فنظمت العديد من المجاهدات أمثال خيرة بن السعيد<sup>26</sup>.

حاولت القيادة الثورية في الولاية الخامسة استقطاب النساء اللائي كن كثيرات الخروج بحكم عملهن أو تعليمهن أو حتى مسؤوليتهن، و هذا راجع إلى أن المجتمع الجزائري كان مجتمعا محافظا لا يسمح للمرأة بالخروج إلا للضرورة<sup>27</sup>. و على هذا الأساس اختيرت المجاهدة عبد المالك فاطمة<sup>28</sup> سنة 1955، لأنها كانت كثيرة التنقل

و الحركة بحكم عملها كتاجرة متجولة بين مدينة عين تموشنت و مدينتي وهران و سيدي بلعباس، فأوكلت لها مهمة جمع الأدوية و الاشتراكات، ثم كلفت بنقل السلاح، من المدينة إلى الجبل أو إيصاله إلى الفدائيين لتنفيذ عملياتهم.<sup>29</sup>

إيماننا بضرورة إشراك مختلف المجتمع الجزائري في الثورة التحريرية، عملت القيادة الثورية على إشراك كل النساء بعد مؤتمر الصومام (20-08-1956) و ضمهن إلى المنظمة المدنية

لجبهة التحرير الوطني، بعدما كان هذا مقتصرًا على النساء المتزوجات من المناضلين و كذا الأراامل و المطلقات، و قامت بتنظيمهن وفق الهرم التنظيمي للثورة: الفروع و الخلايا<sup>30</sup>.

كما واصلت المسبلة عملها في توفير الراحة للمجاهدين من مأكّل و مشرب و غسل الملابس، و قيامها بمراسمتهم أثناء عملياتهم، فكانت تمشي في الصدارة لتؤمن لهم الطريق متحدية بذلك يقظة العدو.

لقد تعدى دور المرأة إلى توعية و تنظيم النساء الريفيات في هذه الفترة بعدما كان مقتصرًا على نساء المدن و القرى الكبيرة، و استطاعت إقناع الفلاحين بالسماح لنسائهم بالمساهمة في الكفاح، فأصبحن يستقبلن بكل فخر وحدات جيش التحرير الوطني<sup>31</sup>، بل و كن أعين الجيش و سمعه تأتي له بكل الأخبار عن جيش العدو.<sup>32</sup>

كانت بعض المسبلات تلجأ إلى حيل المرأة للإفلات من تفتيش الجنود الفرنسيين لها و لففتها، التي كانت تملأها بالقنابل و الأسلحة و تغطيها إما بالخضار أو الملابس<sup>33</sup>، أما في نقلها للرسائل فكانت تلجأ إلى عدة حيل حتى لا تقع في يد العدو لما فيها من أسرار مهمة عن الثورة و المجاهدين و تحركاتهم، فمثلا كانت تأتي برضيع إما ابنها أو ابن أحد معارفها و تضع الرسالة في ملابسه (القماطة)<sup>34</sup>، أو تضعها في ظرفيها أو في جواربها<sup>35</sup>، فكانت المسبلة الطالبة تحفظ الأسلحة و الوثائق السرية لتوصلها إلى المسؤولين داخل محفظتها، لأن المستعمر لم يكن ليخطر في باله أن هذه الطالبة هي مسبلة، هذا إذا ما استدل على أنها جزائرية و ليست أوروبية نظرا لجمالها.<sup>36</sup>



إتبعَت الإدارة الإستعمارية إستراتيجية معينة خلال الثورة (سجون، المحتشدات، المناطق المحرمة، التمشيط..). كادت من خلالها ان تقضي على الثورة في بعض المناطق من الولاية الخامسة لولا النساء اللاتي حملن على عاتقهن إحياءها و العمل على إستمرارية العمل الثوري في منطقتهم، و عن هذا يذكر المجاهد علي مولاي ملياني<sup>37</sup>: "إن المنطقة الثالثة و خاصة عين تموشنت كادت تتوقف بما الثورة و يضمحل التنظيم فيها لولا نضال المرأة المؤمنة بعدالة قضيتها و نشاطها، أمثال المجاهدة فاطمة دحماني،<sup>38</sup> الأخوات دهبي: رحمة هبية والشهيدة زوييدة<sup>39</sup>.. اللاتي ربطن الإتصالمع المناطق المجاورة و كن همزة وصل بين الجبل و المدينة، و هذا بعد أن ألقى القبض على العديد من المناضلين و إستشهاد بعضهم."<sup>40</sup>

و نظرها لعملها الدؤوب كما تقلدت المرأة بالولاية الخامسة مناصبا هامة في الهرم التنظيمي للثورة إبتداء من سنة 1959، فكانت رئيسة خلية و رئيسة فرع، و قائدة عرش، بل و حتى قائدة الناحية و المنطقة لفترة من الزمن بسبب إستشهاد القائد فيها، و هذا ما يؤكد المجاهد الطيب بن أحمد إذ يقول: "كانت الأخت خضرة بوثغرة مسؤولة قطاع بتلمسان، بعدما ألقى القبض على معظم الرجال و زج بهم في السجن و إستشهاد سي عاشور المسؤول على جهة بودغن، و كانت في مدينة الحناية (تلمسان) إمراة إسمها جهيدة مليلية<sup>41</sup>، و أخرى إسمها فاطمة بنت الخوان في الرمشي، أما في أولاد رياح بسبدو فكانت هناك إمراةان الأولى إسمها "فاطنة" و الثانية إسمها "خيرة"، و في زلبون (قرب تلمسان) كانت المجاهدة "مقدم زوليخة"، و كن كلهن مسؤولات أفواج."<sup>42</sup>

### 3- دورها في الجوسسة.

لم تبق القيادة الثورية مكتوفة الأيدي أمام عمليات التجسس التي كانت تقوم بها المخابرات الفرنسية

و أعمالها الدعائية ضد الثورة التحريرية، التي كانت تهدف إلى جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المجاهدين و تحركاتهم و عددهم، و التشويش على الجزائريين لتمنعهم من الانضمام إليها و مساندتها، هدفها في ذلك هو خنق الثورة التحريرية و إخمادها.<sup>43</sup>

و كرد فعل على ذلك، سعت القيادة الثورية بالولاية الخامسة خاصة إلى استقطاب أشخاص مميزين لتجنيدهم في مجال المخابرات (الجوسسة و الجوسسة المضادة)، و لم تستثن المرأة من هذا المجال، إذ اختارت البعض منهن نظرا لسهولة تحركاتهن من منطقة إلى أخرى دون أن تثير نهب الجنود الفرنسيين.<sup>44</sup> وقد مرت مهام المرأة في مجال الجوسسة بثلاث مراحل و هي:

كانت المرأة تستغل علاقتها الجيدة مع جارها الذي يعمل كشرطي، لتجمع المعلومات عن القوات الفرنسية، و هذا حسب شهادة المجاهدة "رحمونة بن زينة"<sup>45</sup> التي قالت: "قام المجاهدون بإستئجار غرفة لي في أحد البيوت بمدينة وهران، و كان يشغل الغرفة بجني جزائري يعمل كشرطي، و كان كل مساء يجلس معنا أنا و زوجته و يبدأ بإخبارنا عن طريقة استنطاق المجاهدين و هو يبكي حزنا عليهم، و منه كنت أعرف أسماء المجاهدين الذين ألقى عليهم القبض، و من أعطى المعلومات عن المجاهدين أثناء التعذيب، ف كنت أحرر تقريرا و أوصله إلى المسؤولين ليأخذوا حذرهم وليغيروا من خططهم، و لكسب ثقة هذا الشرطي كنت أعني بطفله الرضيع يتيم الأم".<sup>46</sup>

أما المجاهدة عمارية ورديعي<sup>47</sup> التي كانت تنشط في المنطقة الثالثة و الرابعة و الخامسة من الولاية الخامسة، فتقول عن طريقة جمع المعلومات أنها كانت تتنكر في زي إمراة ريفية و تذهب هي و زميلتها إلى الثكنة العسكرية مدعية أنهما بائعتا بيض، فالأولى تحاول إلهاء الجنود تتكلم معهم و تفاصيل في السعر،

و تنتهز الأخرى الفرصة لإحصاء عدد الجنود المتواجدين في الثكنة و عتادهم وكل ما يثير الإنتباه".<sup>48</sup>

في نهاية سنة 1956 قرر العقيد عبد الحفيظ بوصوف - قائد الولاية الخامسة - توظيف نساء متعلمات

و ذات مستوى عالي في مجال الجوسسة، و هذا لتطوير جهاز المخابرات، فاختار ثمانية نساء لتكوينهن كمرقيات سياسيات حتى يتسنى لهن العمل في مجال الاتصالات و الاستعلامات كالإشارة و الجوسسة

و الجوسسة المضادة.<sup>49</sup>

و إذا ما أردنا تعريف المراقبة السياسية فنقول عنها أنها شخص مكلف بمهمة من طرف قيادة الولاية الخامسة، تتمثل هذه المهمة في تفقد الأوضاع في الأقسام و النواحي و إحصاء كل النقائص المسجلة في تقارير مفصلة و تتبع الخونة، و قد انفردت هذه الولاية بتكوين هذه المراقبات<sup>50</sup>.

تكونت المراقبات السياسيات تكويننا سياسيا و عسكريا و طبيا صارما نظريا و تطبيقيا في سرية تامة، أشرف على هذا التكوين العقيد عبد الحفيظ بوصوف في الفترة الممتدة من ديسمبر 1956 و إلى غاية 15 جانفي 1957 أي مدة خمسة و أربعين (45) يوما<sup>51</sup>، و بعد الانتهاء من هذا التكوين وجهت كل مراقبة إلى منطقة من مناطق الولاية الخامسة، لتباشر عملها. أول ما كلفت به المراقبة السياسية هو إيصال كل التوجيهات و التعليمات التي أوصى بها مؤتمر الصومام (20 أوت 1956) إلى الجنود، كإبلاغهم التقسيم الجديد للجزائر تعيين الولايات، مع تحديد مناطق و النواحي لكل ولاية، و مختلف الرتب العسكرية و مهامها التي حددها هذا المؤتمر<sup>52</sup>.

أما أهم مهمة تكونت المراقبة من أجلها تمثلت في المراقبة و التجسس على جيش التحرير الوطني بغرض معرفة حالتهم النفسية، و كذا علاقتهم بقائدهم و مسؤوليهم. فإن وجدت مشكلة بينهم تحاول حلها بنفسها إذ تقوم بتغيير مكان تواجد المسؤول أو الجندي، فإن لم تستطع تلجأ إلى القيادة و تكتب تقريرا بذلك و ترسله إليها، لتتخذ الإجراءات اللازمة لفك الخلاف و حل المشكل القائم، و هذا تفاديا للضغائن التي تؤدي إلى إنقسام الجيش، و الذي ستستغله مخبرات العدو لصالحها، كما كلفت المراقبة السياسية أيضا بالإطلاع على مدى درجة مقاومة سكان الأرياف للاستعمار الفرنسي و كيفية التصدي له، و تعمل على رفع معنوياتهم و روح الوطنية لديهم<sup>53</sup>.

أما عن الجوسسة و الجوسسة المضادة فقد عملت المجاهدة خديجة بريكسي سيد<sup>54</sup> و المجاهدة فريدة قادري<sup>55</sup> و بالتعاون مع جيش التحرير الوطني بالمنطقة الثامنة (البيض)

لإيقاف نشاط حركة بلونيس<sup>56</sup> خاصة بمنطقة أولاد نايل و القضاء عليها<sup>57</sup>، كما أرسلت الولاية الخامسة المراقبتان عويشة الحاج سليمان<sup>58</sup> إلى المنطقة الثانية و مليكة حجاج<sup>59</sup> إلى المنطقة الأولى(تلمسان و الغزوات) و هذا للتجسس على الحركة الوطنية الجزائرية"(M.N.A)<sup>60</sup>، و للقيام بهذه المهمة كانت هاتان المراقبتان تلبسان الحايك و تحتك بالجزائريات

و تدخلان منازلهن و تتحاذبا معهن أطراف الحديث حتى تجمعا أكبر قدر من المعلومات عن المصاليين المنضمين إلى هذه الحركة<sup>61</sup>. و قد استغلت المجاهدة مليكة حجاج معرفتها لمنطقة تلمسان و معرفة العائلات هناك (لأنها مسقط رأسها) للتعريف بالثورة و مبادئها.<sup>62</sup>

ومنذ سنة 1959، و بعد التحاق المراقبة السياسية خديجة بريكسي سيد بالقاعدة الخلفية الغربية بالمغرب الأقصى، أصبحت عون مخبرات في مديرية اليقظة و المخبرات المضادة(D.V.C.R)<sup>63</sup> في وزارة الإتصالات العامة و المواصلات ثم في وزارة التسليح و المواصلات العامة(M.A.L.G)<sup>64</sup>، إذ كُلفت بالتجسس على السفارات الغربية و العربية(مصر، تركيا، تونس، المملكة المغربية) الموجودة بمدينة الرباط عاصمة المملكة المغربية، وهذا لجمع كل المعلومات سواء الدبلوماسية أو السياسية أو حتى العسكرية التي ترد إلى هذه السفارات، و التي كانت من شأنها المساعدة على كشف مخططات الإدارة الفرنسية و التحرك في الوقت المناسب للقضاء عليها، وفعلا دخلت هذه السفارات منتحلة شخصية عون رغن و مستخدمة هويات مزورة، فكانت تعتمد تحرير نسخة ثانية

عن كل وثيقة أو تقرير كانت تكتبه بالآلة الرقنة أو رسائل التيليكس التي كانت تتلقاها هذه السفارات، ثم ترسلها إلى مسؤول المخابرات بالقاعدة الخلفية الغربية<sup>65</sup>، و تؤكد نفس المجاهدة أنه و بهذه الطريقة تمكنت قيادة الثورة بالولاية الخامسة في المغرب من الحصول على عدة معلومات مهمة و في غاية الخطورة.<sup>66</sup>

من خلال ما أوردناه عن دور المرأة الجزائرية خلال الثورة الجزائرية بالولاية الخامسة، يمكننا إستنتاج النقاط التالية:

1- إن المرأة الجزائرية بالولاية الخامسة و على غرار باقي الولايات الأخرى قد انضمت إلى الثورة منذ إنطلاقتها،

و يعزى الأمر إلى وعيها بما كان يحدث في الساحة الوطنية، فتعددت مهامها كمسبلة: جمع التبرعات و تنظيم النساء، نفذت كل ما طلب منها بتفان دون كلل أو ملل، فزاوجت في الكثير من الأحيان بين مهمتين أو أكثر: مسبلة و مكلفة بالإتصالات و الإستعلامات، أو مسبلة و فدائية و ممرضة في نفس الوقت.

2- إستمرت المرأة بالولاية الخامسة في مهمة المرأة الإتصال تجمع كل المعلومات عن تحركات العدو و أعوانه و ذلك إلى غاية الإستقلال، رغم تأسيس وزارة المبالغ التي حملت على عاتقها الجوسسة على أجهزة الإدارة الإستعمارية، و قد عملت وزارة المبالغ على تطوير هذا الجهاز ليواكب تطورات الثورة و ليتفوق على أجهزة العدو في هذا مجال .

4- ولأن المرأة أثبتت جدارتها في كل الأعمال الموكلة إليها، إختارتها القيادة الثورية بالولاية الخامسة لتعمل في مجال الجوسسة، والتي كانت عند حسن ظن القيادة بها، فتجسست على جهاز المخابرات الفرنسي الذي كان قويا في ذلك الوقت.

5- الملاحظ أن المرأة بالولاية الخامسة و على غرار الولايات الأخرى قد إنضمت إلى الثورة بشكل تلقائي منذ الوهلة الأولى كمسبلة، لترتقي في المهام لتصبح امرأة إستعلامات، ثم تطورت هذه المهام لتصبح عضوا فعالا في وزارة التسليح و الإتصالات العامة (M.A.L.G).

الهوامش.

1 - عبد المجيد بوحلة، الثورة التحريرية بالولاية الخامسة 1954-1962، أطروحة دكتوراه، جامعة تلمسان، 2007-2008، ص 84.

2 - حوار مع العقيد لظفي، جريدة المجاهد، ج 2، ع(41)، 01-09-1958، ص 06.

3 - مصطفى عبيد، تصميم عن الولاية الخامسة، سلمها إلى متحف المجاهد ملحقه عين تموشنت (بني صاف).

4- بالي بلحسن، أيام العنف خلال حرب التحرير في الجزائر (54-62)، عقب الليل محمد بوزويو الرجل الذي وقف في وجه القيادة، ترجمة، عبد الرحيم آيت منصور، الجزائر، 2010، ص 57.

5- آمال شلبي، التنظيم العسكري في الثورة الجزائرية (54-56)، أطروحة الماجستير، جامعة باتنة، 2005، ص 363، وانظر أيضا: عبد الحق كركب، المنطقة الخامسة من الولاية الخامسة و دورها أثناء الثورة التحريرية (54-62)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة سيدي بلعباس، ص 31-32.

6 عبد المجيد بوحلة، المرجع السابق، ص 84-85.

- 7 مجلة تضحيات الولاية الخامسة، المتحف الجهوي للمجاهد للولاية الخامسة، (ع 01)، نوفمبر 2003، ص 12.
- 8 - عبد المجيد بوجلة، المرجع السابق، ص 86 .
- 9- مجلة تضحيات الولاية الخامسة، المتحف الجهوي للمجاهد للولاية الخامسة، ص 12 .
- 10 - أصبحت هذه المنطقة مشاعة بين المناطق المجاورة: المنطقة الأولى و الخامسة و الرابعة (المجاهد علي مولاي ملياني، مقابلة شخصية بمقر سكنه بشعبة اللحم بعن تموشنت يوم 23-07-2016 على الساعة 14:30، و انظر أيضا: المجاهد نوال أحمد رئيس منظمة المجاهدين لولاية سيدي بلعباس، مقابلة شخصية بمقر منظمة المجاهدين لولاية سيدي بلعباس يوم: 06-03-2016 على الساعة 10:45
- 11- بلحسن بالي، المصدر السابق، ص 57. وانظر الى عبد المجيد بوجلة، المرجع السابق ص ص 86، 87.
- 12- محمد قنطاري، قيادة الحدود والقادة الغربية، الملتقى الوطني حول الحدود المغربية إبان الثورة، 2001، ص ص 27-28.
- 13- حورية غداوية، حماية المدنيين في القانون الدولي الإنساني و وضع المرأة أثناء حرب التحرير، المؤتمر الدولي الخامس لكلية الحقوق، جامعة حسينية بن بوعلي، الشلف، يومي 09-10 نوفمبر 2010، ص 07. (موجودة على شكل pdf).
- 14- عبد الكريم بوبكر، مساهمة المرأة الجزائرية في الجانب العسكري و الاجتماعي، الملتقى الدولي حول دور المرأة الجزائرية في الثورة التحريرية، سكيكدة، يومي 25 و 26 أكتوبر 2010، ص 52.
- 15 - قرية الناجية هي قرية صغيرة تقع في بني مستار بمدينة تلمسان (فاطنة سهولي: مقابلة شخصية بدار الشباب ببلدية زلبون بتلمسان يوم: 12-10-2015 على الساعة 15:00.
- 16- نفسه.
- 17 - المجاهدة مريم برحال، مقابلة شخصية بمقر المتحف الجهوي بتلمسان يوم: 25-10-2015 على الساعة: 10:30.



- 18- المجاهدة رحمونة بن زينة، مقابلة شخصية بمقر سكنها الكائن بعين الأربعاء (عين تموشنت) يوم: جوان 2015 على الساعة 14:30.
- 19- المجاهدة زهية قلعي: مجاهدة من بني صاف ولاية عين تموشنت، ألقى عليها القبض بعد أن إكتشف أمرها الإدارة الإستعمارية (شهادة حية زهية قلعي يوم 23 ماي 2006 موجودة بالمتحف الجهوي لولاية عين تموشنت: ملحقه بني صاف).
- 20- كان مقر سكنها في مزرعة أحد المعمرين اسمه فدريك الواقعة بين حجرة القط و سيدي التابعة حاليا بمدينة الرمشي (نفسه).
- 21- هو مخبأ يكون إما في قبو المنزل أو في المغارات الطبيعية، يستخدم للإختباء من العدو أو كمستشفى لعلاج الجرحى خلال الثورة التحريرية، أنظر المجاهدة شيمسة بابا أحمد، مقابلة شخصية بمقر سكنها الكائن بأوجليدة بتلمسان، يوم: 01-01-2015 على الساعة: 11:00
- 22- نفسه.
- 23- زوجها هو المجاهد البكاي الذي كان ينشط في مدينة سيدي بلعباس و ما جاورها، و كان قد عمل على تنظيمها سياسيا قبل إندلاع الثورة بحكم انضمامه لحركة انتصار للحريات الديمقراطية و حضرها نفسيا للثورة (المجاهدة يمينة ورياشي بوحريز، مقابلة شخصية مع المجاهدة في مقر سكن ابنتها بمدينة سيدي بلعباس، يوم: 16-03-2015 على الساعة 10:00).
- 24- نفسه.
- 25- خيرة الواحلة: ولدت بسيدي بلعباس، ثم، سافرت إلى سويسرا عند أخيها المغترب و تعلمت الخياطة، ثم رجعت إلى الجزائر و فتحت ورشة لتعليم الخياطة لفتيات المدينة، اتصلت بها جبهة التحرير الوطني فإنظمت إلى الثورة التحريرية سنة 1955، و بدأت بتوعية وتنظيم هؤلاء الفتيات من بينهن خيرة بن سعيد و حفيظة بنت السقال، التي عليها القبض و زج بها في سجن المدينة، توفيت في البقاع المقدسة يوم عرفة. ( المجاهدة خيرة بن سعيد، مقابلة شخصية بمقر سكنها بسيدي بلعباس يوم: 04-02-2015 على الساعة 11:30.

26- خيرة بن سعيد ولدت سنة 1938 بمدينة سيدي بلعباس، أصغر والدها أن يدخلها إلى مدرسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أين تحصلت على الشهادة الابتدائية، ثم عملت كمعلمة في هذه الجمعية، انضمت إلى الثورة سنة 1955 ونشطت في جمع الاشتراكات و توعية النساء، ثم التحقت بالجل بأمر من القيادة الثورية سنة 1956 لتتولى مهمة توعية نساء الأرياف، سنة 1958 التحقت بالقاعدة الخلفية الغربية لتواصل نضالها إذ قامت بتوعية النساء و التعريف بمبادئ الثورة، ثم أعطيت لها مهمة أخرى و هي التدريس أبناء المجاهدين و الشهداء، و بعد الاستقلال عملت كمعلمة اللغة العربية في مسقط رأسها(نفسه).

27- المجاهدة بختة بن يحيى(المدعوة فاطمة فولونتيير)،مقابلة شخصية بمقر سكانها الكائن في الكيفان بتلمسان يوم:أكتوبر2014 على الساعة13:30.

28- بوحجر فاطمة:ولدت بتلمسانيوم13أكتوبر1926،درست بالمدرسة الفرنسية بتلمسان أين تحصلت على الشهادة الابتدائية،و بعد وفاة والدها تحملت مسؤولية إخوتها و أمها،فأصبحت تتاجر في القماش بمدينة عين تموشنت،و بعد التحاق أخوها سيدأحمد إلى الثورة أقنعها بالانضمام أيضا، لتوكل لها مهمة الاتصال و نقل السلاح و الرسائل منذ1955،القي عليها القبض عدة مرات، بعد الاستقلال عملت في الاتحاد النسائي و عضوا في حزب الشعب حتى سنة1989، وافتها المنية في 2015(فتيحة عبد المالك ابنة المجاهدة فاطمة عبد المالك،مقابلة شخصية بمقر سكانها بمدينة عين تموشنت يوم:28-04-2015على الساعة16:15).

29- شهادة حية للمجاهد عبد المالك فاطمة(بوحجر فاطمة)مسلمة للطالبة من طرف ابنتها السيدة عبد المالك فتيحة.

30- ياقوتة كرنان، ثورة نوفمبر1954 و المرأة الجزائرية،مجلة أول نوفمبر،'ع،66(1984،ص60.

31- محمد تقيّة،الثورة الجزائرية:المصدر و الرمز و المأل،ترجمة:عبد السلام عزيزي،دار الفصبة للنشر، الجزائر،2010،ص186.

- 32-الطيب بن أحمد المدعو رشيد،مقابلة شخصية بمقر منظمة المجاهدين ولاية تلمسان،يوم31-12-2014على الساعة:11:30.
- 33مقابلة شخصية مع عائلة الشهيدة مغني صنديد فاطنة:بتارقة بعين تموشنت،يوم28-11-2015على الساعة:11:15.
- 34- الطيب بن احمد المدعو رشيد،مقابلة شخصية بمقر منظمة أبناء المجاهدين بني مستار بتلمسان،يوم:02نوفمبر2015على الساعة:11:45 .
- 35-فتيحة طيب براهيم،مقابلة شخصية بمقر المتحف الجهوي لمدينة سيدي بلعباس،يوم30-11-2014على الساعة:09:40.
- 36 -Afroun Mahrez ,La femme Algerienne dans la guerre de liberation,Edition Houma,Alger,2013,p39.
- 37- علي مولاي ملياني :ولد المجاهد في بالرمشي،إلتحق بالثورة التحريرية كجندي بمنطقته، ثم إنتقل مع جيش التحرير الوطني إلى المنطقة الثالثة(عين تموشنت) سنة1955،لإعادة تنظيم الخلايا هناك إستعدادا للقيام بالعمليات العسكرية هناك بعد وصول الأسلحة على متن باخرة ديناء،و قد شارك في العديد من المعارك أهمها: معركة الغوالم بطافراوي،أين ألقى عليه القبض و تعرض للتعذيب البشع،ليلتحق بعد إطلاق سراحه بالولاية الرابعة لمواصلة كفاحه حتى الاستقلال و هو ما يزال على قيد الحياة.(أنظر إلى: علي مولاي ملياني،مقابلة شخصية بمقر سكانه الكائن بشعبة اللحم بعين تموشنت،يوم23-07-2016على الساعة 14:30.
- 38-فاطمة دهماني:ولدت المجاهدة دحمان فاطيمة في 24مارس 1931بعين تموشنت ،و هي من أسرة ثورية، في البداية نشطت كمسبلة ثم أصبحت مندوبة سياسية ،و لما إكتشف أمرها التحقت بالجبل و لبست الزي العسكري،و شاركت في عدة اشتباكات منها:اشتباك واد الكيحل(بالقرب من عين تموشنت)،أدخلت سجن وهران بعد ان عذبت في سجن المالح سنة1958،لترحل إلى سجن الحراش الذي اعتدت فيه على مديره،و كعقاب لها نقلت إلى سجن سركاچی،و بقيت مسجونة مدة سنتين إلى أن

استقلت الجزائر، توفيت سنة 2015. أنظر إلى: شهادة حية للمجاهدة فاطمة دحماني شريط فيديو بحوزة الطالبة مسلم من طرف السيدة عبد المالك فتيحة بنت المجاهدة عبد المالك فاطمة صديقة المجاهدة دحماني فاطمة، و أنظر أيضا: مكتب التراث التاريخي و الثقافي، مديرية المجاهدين لولاية عين تموشنت، نبذة تاريخية للمجاهدة فاطمة دحماني).

39- الأخوات ذهبي رحمة و هيبية و الشهيدة زوييدة، هن من تلمسان و سكن والدهم عين تموشنت، كان من أعيانها و من المناضلين السياسيين فيها، أدخل بناته المدرسة الفرنسية و في نفس الوقت كن عضوات في الكشافة الإسلامية، و بعد إندلاع الثورة، إلتحقن بالثورة في سنة 1955، حيث كلفن بجمعن الإشتراكات و نقل الأسلحة، و نقل الأخبار من المدينة إلى الجبل والعكس، أما زبيدة فكانت جنديية حملت السلاح و إلتحقت بالجبل ثم بالقاعدة الخلفية الغربية ثم إستشهدت، أما هيبية فقد أدخلت السجن و عذبت. (أنظر إلى: رحمة ذهبي: مقابلة شخصية للمجاهدة بمقر سكنها بلاص فاردان بعين تموشنت، يوم 22-04-2015 على الساعة 15:00.

40- المجاهد علي مولاي ملياني، مقابلة شخصية بمقر سكنه الكائن بشعبة اللحم بعين تموشنت، يوم 23-07-2016 على الساعة 14:30.

41- المجاهد الطيب بن أحمد المدعو رشيد، مقابلة شخصية بمقر منظمة المجاهدين ولاية تلمسان، يوم 31-12-2014 على الساعة 11:30.

42- المجاهد بن أحمد الطيب المدعو رشيد، مقابلة شخصية بمقر منظمة المجاهدين ولاية تلمسان، يوم 04-01-2015 الساعة 11:45.

43- عمار قليل، ملحمة الجزائر الجديدة، ج2، دار العثمانية، الجزائر، 2013، ص115.

44- المجاهدة مليكة حجاج، شهادة حية قام بها مركز الدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر (قرص مضغوط بحوزة الطالبة)

45- رحمونة بن زينة من مواليد بعين الأربعاء (ولاية عين تموشنت)، في سنة 1954 تزوجت من رجل كان قد إنضم هو و والده إلى الثورة منذ البداية، فكلفت بنقل الأخبار و السلاح، ثم كلفت بجمع المعلومات عن تحركات العدو و الخونة المتعاونين معهم و هذا في المنطقة الثالثة (عين تموشنت) و المنطقة الخامسة (سيدي بلعباس)، دخلت السجن سنة 1958، و بعد خروجها إستأنفت نضالها إلى غاية الإستقلال (أنظر إلى: رحمونة بن زينة، مقابلة شخصية بمقر سكانها الكائن بعين الأربعاء ولاية عين تموشنت، يوم 16-06-2015 على الساعة: 14:30.

45 - رحمونة بن زينة، مقابلة شخصية بمقر سكانها الكائن بعين الأربعاء ولاية عين تموشنت، يوم 23-07-2016 على الساعة: 14:45.

46 - نفسه.

47- المجاهدة عمارية ورديعي (المدعوة نزيهة): ولدت السيدة عمارية ورديعي في 15 فيفري 1938 ببني صاف، من أسرة ميسورة الحال، تلقت تعليمها الإبتدائي بالمدرسة التابعة لجمعية العلماء المسلمين بمسقط رأسها. إلتحقت بصنوف الثورة منذ إندلاعها سنة 1954 حيث كلفت بجمع الإشتراكات بنقل السلاح بمنطقة بني صاف، و بعد إكتشاف أمرها إلتحقت بالجلب كمرضة، ألقى عليها القبض مرتين وأدخلت السجن مستغانم في المرة الأولى أما المرة الثانية في سجن شاتونوف بالجزائر العاصمة ، و في 19 مارس 1962 أطلق سراحها و عادت إلى بني صاف، ما زالت على قيد الحياة و هي تعيش الآن في الأردن (شهادة حية للمجاهدة ورديعي عمارية المدعوة نزيهة بمقر منظمة المجاهدين ببني صاف يوم 03-جانفي 2016 على الساعة 10:00 الحجم الساعي 124د.

48- نفسه.

49 - المجاهدة خديجة بريكسي سيد، المقابلة الشخصية بمقر منظمة المجاهدين بولاية وهران، يوم: 30-12-2015 على الساعة: 10:00

50 - المجاهدة عوالي ويسبي، شهادة حية موجودة بمركز الدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر، بحوزة الطالبة على شكل قرص مضغوط ، و أنظر أيضا إلى: Abdrrahmen

Berrouane, nom de guerre "Saphar; Aux origines du

M.A.L.G :temoignage d'un compagnon de Bousouf ;Edition  
Barzakh,Alger,2015 ,p83.

51 -نفسه

52 -مليكة حجاج، شهادة حية موجودة بمركز الدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر، بحوزة الطالبة على شكل قرص مضغوط).

53 - المجاهدة خديجة بريكسي سيد،المقابلة الشخصية بمقر منظمة المجاهدين بولاية وهران،يوم:30-  
12-2015 على الساعة 10:00

54 -خديجة بريكسي سيد(المدعوة سميرة و فضيلة):هي من مواليد 29أوت1939بوجدة المغربية،من عائلة تلمسانية غنية جدا،كانت تدرس في السنة النهائية بالثانوية،و في نفس الوقت كانت منخرطة في صفوف الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين(U.G.E.M.A)،و بعد الإضراب عن الدراسة إتحدت بالثورة،كلفت في البداية بجمع المال و الأدوية من الصيدليات في وجدة،كما كانت تعطي للنساء في وجدة الصوف لتحريك الأقمصة و الشالات و الجوارب للمجاهدين،لتختارها القيادة ضمن المراقبات السياسيات،و عينت بالمنطقة الثامنة مع العقيد لطفي.(نفسه).

55 -فريدة قادري: فريدة قادري(المدعوة منصورية):ولدت بوجدة و درست بالثانوية(-franco musulman)،إتحدت بالثورة إثر إضراب الطلبة1956،تكونت لتلتحق بالتراب الجزائري كمراقبة سياسية مع رفيقتها خديجة بريكسي سيد إذ كلفنا بالذهاب إلى الجنوب الجزائري لمراقبة المنطقة الثامنة من الولاية الخامسة،التي كانت تحت قيادة العقيد لطفي ، تزوجت برجل مغربي الأصل و عاشت بالمغرب،و توفيت بعد الإستقلال. ( . Leila Mekachtali, Les combattantes de .  
l'ombre :Farida Kadiri,l'horison,mars2011,pp45-49.

56 حركة بلونيس:هي من بين الحركات العسكرية المناهضة للثورة الجزائرية،ظهرت في العاصمة و منطقة القبائل منتصف سنة1955 تحت قيادة الخائن محمد بلونيس،و بعد إنخامه في هذه المناطق تراجع إلى الجنوب،ليستقر نھائيا في المنطقة الممتدة من بوسعادة-الجلفة-الأغواط،و بهذا حاول الإستيلاء على بعض

المناطق الجنوبية الشرقية للولاية الخامسة.(أنظر إلى: تقرير الملتقى الوطني الرابع لكتابة تاريخ الثورة يوم:10-09-1996،ص33،وإلى: Mohamed Teguia ,L'Algérie en guerre, OPU, Alger, 1988, pp172-175.)

57 - مجاهدة خديجة بريكسي سيد، المقابلة الشخصية بمقر منظمة المجاهدين بولاية وهران يوم:30-12-2015 على الساعة 10:30

58 - عويشة الحاج سليمان(المدعوة فوزية): ولدت سنة 1940 بتلمسان، إلتحقت بالمدرسة الابتدائية ثم الإكمالية بمسقط رأسها، لتنتقل إلى العاصمة لتكمل دراستها بثانوية الثعالبية، إختارها بوصف لتكون مراقبة سياسية و درجها على ذلك، و بعد إنتهاء مهمتها همت بالعودة إلى القاعدة الخلفية الغربية، وما إن وصلت إلى ناحية مسيردة في شهر سبتمبر 1957 محاولة عبور الحدود الغربية من تلك الجهة، لكن طوقتها القوات الفرنسية، فلجأت عويشة و بعض المسؤولين إلى مخبأ في داخل بيت في مسيردة، لكن القوات الفرنسية قامت بتخريب المخبأ على من فيه، لتسقط عويشة في ساحة الفداء و هي في عنفوان شبابها(سبعة عشر سنة). (انظر إلى: المنظمة الوطنية للمجاهدين: مديرية و مكتب المجاهدين ولاية سطيف، جهاد المرأة الجزائرية في ولاية سطيف و تضحياتها الكبرى(1954-1962)، وزارة المجاهدين، الجزائر(د.ت)، صص 86-88.

59 - مليكة حجاج(المدعوة مسعودة): أصلها من مدينة تلمسان، نزحت عائلتها إلى وجدة، إرتادت المدرسة بوجدة ثم الثانوية، إنضمت إلى L'UGEMA، إلتحقت بالثورة كمراقبة سياسية بالمنطقة الأولى(تلمسان) في 15 جانفي 1957، ثم رجعت إلى القاعدة الخلفية بالولاية الخامسة لتعمل في سلاح الإشارة للتصنت على العدو، بعد الإستقلال إلتحقت بسلك التعليم كأستاذة الرياضيات.(أنظر إلى:

Nora Chergui, Les combattantes de l'ombre ;Malika Hadjadj, horison, Mars 2011, PP08-13.

60- الحركة الوطنية الجزائرية هي حركة مناوئة متعاونة مع الإدارة الإستعمارية تزعمها مصالي الحاج و كل من كان يناصره و يؤيده كزعيم لحركة الإنتصار للحريات الديمقراطية، كانت منافسة لجهة التحرير الوطني و رافضة لقيادتها للثورة التحريرية، و قد وصلت إلى درجة الصدام المسلح و الدموي طيلة الثورة داخل الجزائر و خارجها(أنظر إلى : سعاد يمينة شبوط، دور منطقة سور الغزلان في الثورة التحريرية1954-1962، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2005-2006 صص 34-35.

61- خديجة بريكسي سيد، المقابلة الشخصية بمقر منظمة المجاهدين بولاية وهران يوم: 30-12-2015 على الساعة 10:30.

-62 - Nora Chergui, op.cit, p13

63- مديرية اليقظة و المخابرات المضادة(D.V.C.R): أنشأت هذه المديرية في منتصف سنة 1959، أشرف على مسؤوليتها الرائد عبد الرحمن بروان(المدعو صفار)، كان الهدف من إنشاء هذه المديرية هو حماية الثورة داخليا و خارجيا، فقد كانت تقوم بتحذير الثورة من كل الأخطار، و إكتشاف نقاط الضعف و الإشارة إليها، و النقائص و العجز الذي يمكن أن يستغله العدو، كما عملت على مواجهة ضغوط الحرب النفسية التي شنها الإستعمار الفرنسي ضد الجزائريين، أنظر إلى: -

L'association National des Moudjahidines de l'armement et des liaisons générales ; Ministère de l'armement et des liaisons générales le MALg :Abdelhafidh Boussouf on la stratégie au service de la révolution gharnata edition ; ALGER ; 2013, pp120-121، و أنظر أيضا: نجاة بية، المرجع السابق، صص 203-204

64- وزارة المبالغ: تقرر في إجتماع خاص بالعقلاء ضم كل من وزارة التسليح و التموين العام مع وزارة الإتصالات العامة و المواصلات، لتكوّن وزارة واحدة حملت إسم وزارة التسليح و المواصلات العامة (M.A.L.G) سنة 1960، نظرا إلى وجود إرتباط وثيق بين التسليح و الإتصالات و كذلك



- 
- الجوسسة.(أنظر إلى: نجاة بية،المصالح الخاصة و التقنية لجهة التحرير و جيش التحرير الوطني1954-1962، ط1، منشورات الخبر،الجزائر،2010،ص ص 176-177.)
- 65 - المجاهدة خديجة بريكسي سيد،المقابلة الشخصية بمقر منظمة المجاهدين بولاية وهران،يوم30-12-2015 على الساعة10:30.
- 66 - نفسه.

## كتابات أعلام وادي ميزاب في الصحافة الإصلاحية الجزائرية (1925-1939)

### - دراسة تاريخية للأدبيات الصحفية -

أ.د. علي غنابزية: قسم العلوم الإنسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي

أ. محمد بوسعدة: قسم العلوم الإنسانية/ جامعة الشهيد حمه لخضر/ الوادي

#### ملخص:

تتناول هذه الدراسة بعض النماذج لكتابات الأعلام المزابيين في الصحافة الإصلاحية الجزائرية، والتي كانت متأثرة بفكر جمعية العلماء، والدوافع التي جعلتهم يساهمون في مشروعها الإصلاحي، ويشاركون بمقالاتهم في صحافتها، ويترقون شتى المجالات العلمية والأدبية، ومن أبرز هؤلاء الأعلام الشيخ أبو اليقظان، والشيخ سليمان بوجناح المدعو الفرقد، ورمضان حمود، ومفدي زكرياء، الذين سطرُوا بأقلامهم نصوصاً قيمة في المجال الإصلاحي التربوي والتعليمي، ولاسيما الميدان الأدبي.

#### ABSTRACT

This study contains some sorts of the great Mzzabies' writings in Algerian reforming press that was affected by thoughts of the the scholars association. In addition to that the motives that made them contribute in its reforming project, share their articals in its journal and tackle many scientific and literary fields. Some of the well known savants are sheikh Abou El

Yakdan, sheikh souleiman Bou Djanah who known as El Farked, Ramdane Hamoud and Moufdi Zakariya who wrote precious passages in the pedagogical educational reforming fields and especially the literary one.

### مقدمة:

إن تطور الوعي في نفوس الجزائريين، مر بمراحل عديدة، ومهدات سابقة، ساهمت في بلورة الفكر، ورسخت معالم الهوية في الأجيال الجزائرية، ومن هذه المهدات ظهور الحركة الإصلاحية في العشرينيات، وإصدار الصحف السيارة، وأهمها المنتقد التي أسسها ابن باديس سنة 1925، ثم الشهاب، ووادي ميزاب التي أصدرها أبو اليقضان سنة 1926، وتطور العمل الإصلاحي بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، والتي أنشئت كتحدّي قوي للاستعمار الفرنسي الذي فرض نفسه على الجزائريين طيلة رده من الزمن، حيث أقام في سنة 1930م، أكبر احتفالية على مرور قرن من النشاط الاستعماري في الجزائر، ولكن التظاهرة فشلت، وأعقبها تأسيس جمعية العلماء لتتولى - إلى جانب أنصار الاتجاه الاستقلالي - مسؤولية تكوين الوعي الثوري لدى الجزائريين بطريقتها وأسلوبها الخاص.

ونشأت الجمعية، بعد عودة أقطاب العلم والإصلاح من المهجر، ولاسيما الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ السلفي الطيب العقبي إلى الجزائر، وعزمهم على القيام بإنجاز تاريخي يوجه حركة التاريخ الجزائري نحو المسار الإيجابي<sup>(1)</sup>.

فقد قامت جمعية العلماء بنشاط مكثف على مستوى القطر الجزائري، بتوجيه الشعب ومحاربة البدع والحرفات المنتشرة، وتعليم مختلف الطبقات الاجتماعية، وإنشاء المدارس لتنشئة الجيل على القيم الإسلامية الصحيحة، وكما قامت بنشاط صحفي كبير بتأسيس الجرائد والمجلات التي كانت تبث بها الوعي في صفوف الجزائريين، بما تحطه أنامل العلماء والمتقنين من كلمات هادفة، ومواعظ هادية.

وهكذا أبهرت الجمعية مختلف شرائح المجتمع الجزائري بما كانت تقوم به من جهود وأنشطة، مما جعل الشعب يلتف حولها، ويلتحق بركابها، العلماء والمتقنون، فيقول ملك بن نبي عن المشروع الإصلاحى لجمعية العلماء: "وهكذا أتيح للإصلاح أن يمسك مقاليد النهضة الجزائرية، وأمكته أن يبعثها خلقا آخر بالروح الإسلامية التي تخلصت من كابوس الأوثان..."(2).

ومن الذين ساهموا في الجمعية منذ انطلاقتها الأعلام والشيخ المزابيون، بتولي المسؤوليات في هياكلها الإدارية والكتابة في صحفها، فكتبوا مقالات متنوعة في جرائدها الدوارة، سعيا منهم في دعم المشروع الإصلاحى النهضوي، وأبرز الأعلام المزابيين الذين تركوا بصمة في صحافة الجمعية، الشيخ أبو اليقظان، والشيخ سليمان بوجناح المدعو "الفرقد" ومفدي زكريا، وكل منهم خط بقلمه مقالات أفاد بها متبعي صحافة الجمعية.

ومن هذا المنطلق تبرز إشكالية هذه الدراسة على الشكل الآتي: إلى أي فترة يعود تاريخ ظهور الحركة الإصلاحية في وادي مزاب؟ ومتى عرف الإصلاح ظهوره المتميز لدى مجتمع وادي مزاب؟ ومن هم رواد الحركة الإصلاحية المزابيون؟ وهل انخرطوا في جمعية العلماء وساهموا في إدارتها وأنشطتها؟ وما هي أهم الكتابات لدى المزابيين في صحف

جمعية العلماء، والصحف التي تتقاطع مع خطها الفكري؟، وما هي المجالات التي كتبوا فيها؟ وتتم الدراسة بتتبع الأدبيات والأفكار التي تضمنتها مقالات الإصلاحيين الميزابيين.

### أولاً: جذور الحركة الإصلاحية في منطقة وادي مزاب:

يرجع أغلب الدارسين لتاريخ منطقة وادي مزاب، زمن ظهور الحركة الإصلاحية بالمنطقة - بصورة جلية - إلى منتصف القرن العشرين؛ بينما تعود إرهاصاتها أو جذورها الأولى ، إلى القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي، ويؤكد ذلك محمد علي دبور قائلاً: " إن أول عالم مصلح هز وادي ميزاب ليستيقظ من نومه، وأشرق فيه بعلمه وإصلاحه ليقشع عنه الظلام الذي يكلكل عليه، وأخذ بيده ليحتد به من ضلالة الغارق فيه، هو العلامة الجليل المصلح الشيخ أبو زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي" (3) ، وقد مهد هذا الشيخ للحركة الإصلاحية،

والنهضة العربية الإسلامية ، التي ظهرت - لاحقاً - في منتصف القرن العشرين.

لقد برزت الحركة الإصلاحية بوضوح في عهد تلاميذ قطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش، الذي قام ببعث النهضة العلمية والإصلاحية من خلال الجهود العلمية والثقافية التي بذلها لإنقاذ منطقة وادي مزاب من التخلف الحضاري والركود الفكري، وواصل تلاميذه من بعده تلك الجهود، ويؤكد ذلك أحد الدارسين قائلاً: " كما يصح اعتبار عهد القطب عصراً لتعميم فكرة الإصلاح على وادي ميزاب، والتوسيع من رقعتها، بعدما كانت منحصرة في بني يزقن، مسقط رأسها ونشأتها الأولى، وذلك بواسطة

تلاميذه الكثيرين، وبواسطة مريديه ومناصريه، خاصة عندما شهد له بالتمكن العلمي، وبلوغ درجة الاجتهاد في مذهبه ثم في عموم الشريعة<sup>(4)</sup>.

ومن بين تلاميذه النشطاء، الشيخ إبراهيم بيوض، والشيخ إبراهيم أبو اليقظان، والشيخ عبد الرحمن بكلي (البكري)، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش. ولم تنحصر جهودهم في الإطار المحلي بل تعدتها إلى المجال الوطني والإسلامي، والمؤكد لذلك ما نصه: "انتشر طلبة قطب الأئمة الكثيرون في كل قرى وادي ميزاب وفي أرجاء الجزائر وخارجها، في بعض البلدان الإسلامية وفي التجمعات الإباضية في المغرب والمشرق، وكان لهؤلاء الطلبة الفضل في مواصلة مسيرة شيخهم بعد وفاته حيث حملوا لواء نشر العلم وإشاعة الوعي وبث الإصلاح الاجتماعي والنهوض بالنضال السياسي..."<sup>(5)</sup>.

### 1) الإصلاح في عهد الشيخ بيوض والشيخ أبي اليقظان:

لقد أسس الشيخ بيوض بمعية الشيوخ الآخرين مؤسسات تسعى لتجسيد الإصلاح في المجتمع وتحارب الجهل والخرافات والبدع التي وجد فيها الاستعمار الفرنسي ضالته لتثبيت وجوده، وتمثلت هذه المؤسسات في معهد الحياة للتعليم الثانوي الذي أسسه في 18 شوال 1343هـ/21 ماي 1925م<sup>(6)</sup>، وكان يتولى إدارته وتدرّيس العلوم لطلّبه من مختلف قصور وادي ميزاب ومن القطر الجزائري، بل كان يتقبل البعثات التي تقدم من خارج الجزائر، ويرسل بالطلّبة المتخرجين من المعهد إلى الكليات والجامعات العالمية<sup>(7)</sup>.

وفي إطار مساندة معهد الحياة في مساره العلمي والاجتماعي أسس الشيخ بيوض جمعية الحياة في سنة 1937م<sup>(8)</sup>، والتي كانت "تشرف على مؤسساتها المدرسة

الابتدائية، نادي الحياة، مكتبة الحياة، وغير ذلك من فروعها وخدماتها ذات الطابع الثقافي والرياضي والفني...".

وكان الشيخ بيوض يتابع الحركات الإصلاحية في أطراف العالم الإسلامي، ويسعى إلى الاتصال بزعمائها وروادها أمثال الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورشيد رضا وشكيب أرسلان، واستفاد من مناهجهم وأفكارهم ومن كتبهم وآثارهم التي كان يقتنيها ويدرسها، ووجد من يسانده في الحركة الإصلاحية من أصدقائه، ومنهم الشيخ أبو اليقظان والشيخ بكلي عبد الرحمن<sup>(9)</sup>، ولذلك فإن "هذه العوامل مجتمعة ساعدت الشيخ بيوض على المضي قدما في نهجه الإصلاحي فراح يحارب الخرافات والبدع ويقاوم الجمود والتخلف الفكري بواسطة دروسه في المسجد، معتمدا في تبليغ هذه الرسالة على تفسير كتاب الله وشرح سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، والاستفادة من سيرة النبي والصحابة الكرام والاعتبار من نهج السلف الصالح"<sup>(10)</sup>.

أما الشيخ أبو اليقظان فإن آثاره الصحفية قد تجلت بارزة في الصحف التي كان يصدرها وفي الإشراف على البعثات العلمية المزايية إلى تونس، فقد بلغ عدد صحفه ثمانية جرائد حارب بها المستعمر الفرنسي وبثّ من خلالها أفكاره ومشاريعه الإصلاحية، وسميت هذه الجرائد بما يلي: وادي ميزاب، المغرب، النور، البستان، النبراس، الأمة، الفرقان<sup>(11)</sup>. وصدرت هذه الجرائد بداية من سنة 1926م إلى سنة 1938م<sup>(12)</sup>.

وقد أوضح الشيخ أبو اليقظان أن رسالته الإعلامية هي: "السعي في تكوين الأمة تكوينا صحيحا من حيث الأخلاق الفاضلة، والتفكير الصحيح وذلك بمقاومة الأوهام

والرذائل وبث روح الوثام والتفاؤل بين المتساكنين على خطة الإسلام ضمن الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح<sup>(13)</sup>.

وكان لجرائد أبي اليقظان خير مساند لصحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفي إيصال الرسالة الإصلاحية للمجتمع الجزائري الكبير، وقد اعتبرها الشيخ عبد الحميد بن باديس عضدا متينا لصحيفته الشهاب<sup>(14)</sup>، وقد أكد أبو اليقظان هذا المعنى بقوله: "إننا نعد الشهاب عضدا متينا لنا وسندا قويا في تحطيم المفاسد والشورور، وهدم الخرافات والبدع"<sup>(15)</sup>.

وحققت هذه الجرائد نتائج كبيرة، مما أدى بالمستعمر الفرنسي إلى محاربتها وتوقيفها وملاحقة صاحبها لما رأى أن استمرار صدور هذه الصحف لا يخدمه ولا يخدم تواجدته بالجزائر<sup>(16)</sup>.

أما من حيث جهود الشيخ أبي اليقظان في مجال البعثات العلمية فكانت إيجابية وكبيرة، واستشرافا للمستقبل الزاهر، لأن نتائج هذه البعثات استمرت عبر الأجيال، وساهمت في توسع دائرة الإصلاح في المجتمع، حيث تمكنوا من خلالها في رفع المستوى العلمي والثقافي بمنطقة وادي مزاب، وقاوموا سياسة التجهيل التي كانت تقوم بها الإدارة الفرنسية في أوساط المجتمع، وقد استبشر الشيخ عبد الحميد بن باديس خيرا بتلك البعثات الطلابية لما زارها في مقر إقامتها بتونس، ومن قوله: "...وهاهم أولاد إخواننا المزابية سرى فيهم شعور صحيح فولعوا بالتقدم فأخذوا يتمسكون بأسبابه بجد واجتهاد...وها هم اليوم يسعون في طريق العلم ويرحلون في طلبه وأخلق بهم أن ينالوا منه ما يريدون"<sup>(17)</sup>.



وقد سعى تلاميذ قطب الأئمة لتوحيد جهودهم مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأجل المشاركة في الحركة الإصلاحية والنهضة العلمية الوطنية ليستفيد منها كل ربوع الوطن الجزائري.

## 2) تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعضوية أعلام مزاب فيها:

شهدت الجزائر ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كان لها دورها الاستراتيجي في نهضة المجتمع الجزائري وخروجه من الثلاثي الخطير (الجهل - والفقر - والتخلف) الذي فرضه عليه المحتل الفرنسي طيلة قرن كامل، وبرزت هذه الجمعية إلى الوجود بتاريخ 5 ماي 1931م، بعد اجتماع عقد بين مشايخ من مختلف مناطق القطر الجزائري، وذلك في لحظة تاريخية حاسمة في تاريخ الجزائر<sup>(18)</sup>.

ويومها لبيّ أعلام وادي مزاب الدعوة لحضور الاجتماع التأسيسي الذي عقد في الجزائر العاصمة، وقد كان لهم معرفة مسبقة من قبل بالشيخ عبد الحميد بن باديس وغيره، فيذكر محمد صالح ناصر أن الشيخ بيوض: "قد أحكم الصلات بينه وبين العلماء المصلحين الآخرين في محيط القطر الجزائري من أمثال المشايخ عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي وغيرهم..."<sup>(19)</sup>.

وقد رشح كل من الشيخ بيوض والشيخ أبي اليقظان ليكونا عضوين في إدارة جمعية العلماء، ويتولى منصب نائب أمين المال الذي كان هذا الأخير، يتولاه الشيخ مبارك المليي<sup>(20)</sup>.

## ثانيا: نماذج كتابات أعلام مزاب في الصحف الإصلاحية:

لقد دون أعلام مزاب في صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المقالات المتنوعة، فبثوا من خلالها أفكارهم وآراءهم، وساهموا في بعث المشروع الإصلاحي الذي سارت عليه الجمعية منذ البداية، وقد اشتملت كتاباتهم على المجالات التالية:

### أ - كتاباتهم في المجال التربوي:

لقد تفاعل الشيخ أبو اليقظان مع مشاريع وبرامج جمعية العلماء، وكانت له مساهمات، بل ترك فيها بصمته الخاصة، بتدوين مقالات في صحفها، وأهمها المنتقد والبصائر، وقد اخترنا نماذج لمقالاته في هذه الصحف وهي:

مقال في جريدة المنتقد، بعنوان: **معامل العقول**<sup>(21)</sup>. حيث تطرق الشيخ أبو اليقظان في هذا المقال إلى الاهتمام بالعقل الجزائري، وتوفير ما يمكنه من التثقف والتوسع في العلم والمعرفة، وقد بدأ مقاله بإعطاء مثال من الطبيعة الصامتة، ولكن إرادة الله التي أودعت في الكون والطبيعة سننا فعالة بتلك الإرادة والتقدير، هي نفسها التي وهبت الإنسان مواهب أهله لتعمير الكون، وقيادة البشر. وقد صاغ أبو اليقظان فكرته، بأسلوب بسيط، فيقول: "كما أن لمواهب الأرض معامل تحولها إلى مرافق الحياة ووسائل الراحة لبني الإنسان، فكذلك للعقول معامل تهذبها وتجعلها آلة لإصلاح البلاد وإعزاز العباد وهي عديدة على ما ترى"<sup>(22)</sup>.

كما أكد على مشروع النهضة العلمية والثقافية، وحدد معالمها، وبين مراكزها المؤثرة، وفضاءات العمل من أجل تجسيدها في حياة الناس، وتصور عناصرها فيما يلي:

1 - المدارس: يرى الشيخ أن لها دورا مهما في صناعة الفرد وتعليمه وتنقيفه، فالاهتمام بها - أو إهمالها - يظهر أثره على مستوى العلمي والمعرفي لأفراد الأمة<sup>(23)</sup>، وقد كان يشاركه في وجهة نظره هذه مصلحين آخرين من منطقة وادي مزاب، وهو ما يؤكد محمد علي دبور بقوله: " كانت أعمال المصلحين في الجزائر سيما في ميزاب في ذلك العهد منحصرة في ثلاثة أشياء هي قاعدة النهضة وأساسها: فتح المدارس والمعاهد لتربية الناشئة وتنقيفها وتكوين رجال صالحين للوطن، ومحاربة الفساد الخلقى... وكانت التربية والتعليم هي ما يشغل بال زعماء النهضة ويولونه كل عنايتهم..."<sup>(24)</sup>.

2 - النوادي والجمعيات الثقافية: مما يراه الشيخ أبو اليقظان ضروريا في بعث الحياة العلمية والثقافية، تكوين الجمعيات والنوادي الثقافية التي تساهم بقسط وافر في تنشيط الرصيد العلمي لدى الطلبة والتلاميذ، ويكمل من خلالها التقارب المعرفي بين الطالب الناجح والراسب، وهو ما يؤكد الشيخ أبو اليقظان في إشارة مركزة: "...تنضج بها معلومات الفائزين وتستكمل بها معارف الراسبين، فيتلاحقون في ميدان العلوم، ويتسابقون في مضمار العرفان"<sup>(25)</sup>.

3 - المجامع العلمية: ومن المؤسسات التي يرى الشيخ أبو اليقظان وجوب وجودها في المجتمع، المجامع العلمية التي يلتقي فيها العلماء فيعرضون فيها ما توصلوا إليه من أبحاث ودراسات، وتحدث بينهم المناقشات والمناظرات، ويتم من خلال هذه الجوامع عرض المكتشفات والمخترعات الجديدة التي يتوصل إليها الباحثون والعلماء، مما يكون لذلك بالغ الأثر على الروح العلمية في أوساط المجتمع<sup>(26)</sup>، حيث يقول: "...فهي ميدان فسيح يتبارى فيه فرسان العلماء لإظهار علومهم وتتناقض فيه العلوم لإبراز ثمرتها وإظهار نتائج أبحاثها من فك المعضلات وإيضاح المشكلات..."<sup>(27)</sup>.

**4 - المكاتب العامة:** ومما يعتبره الشيخ ضروريا لديناميكية الحركة العلمية والثقافية، المكتبات العامة التي تحتوي على نفائس الكتب والمؤلفات، أو تجمع بين صفحتها علوم ومعارف العلماء والشيوخ السابقين، ومن خلال هذه الكتب والمؤلفات يتم دراسة ومعرفة ما كان عليه السابقون، ليكون منطلقا لمواصلة المشوار إلى الأمام وتجنب تكرار التجربة من الصفر، فيقول عن نفائس الكتب: "...فإنها مجموعة عقول القرون العديدة وخلاصة جهوده فطاحلها ونتيجة قرائها...".

**5 - الجرائد والمجلات:** ويرى الشيخ أن للجرائد والمجلات دورها الجليل في تنشيط الرصيد العلمي والمعرفي للإنسان، حيث يستفيد منها العام والخاص فيقرأها كل قارئ حيثما تواجد، في مكتبه أو في مقر عمله، فتقدم لجمهور القراء فوائد وتخيرهم بالجديد وتنبئهم بالآتي.

تتجاوب الأمم وتتواصل المعارف فيما بينها من خلال الصحافة، فيقول الشيخ عن هدف تأسيس إحدى جرائده قائلا: "...وغايتنا من ذلك ترقية مدارك الأمة، ورفع مستواها المادي والأدبي، وإفادة قرائنا الكرام بما يهمهم من شؤون العالم عموما والإسلامي خصوصا"<sup>(28)</sup>. وهذا دفع الشيخ إلى إصدار صحف عديدة، وكان صامدا في مواصلة إصدارها رغم التضيق الاستعماري، وصادر أول جرائده سنة 1926، "باسم وادي ميزاب" وأعطاه اسم بلده تعبيراً عن أصالته ووطنيته، وكانت تطبع في تونس، وتوزع في الجزائر، ويمكنك أن تدرك حجم المعاناة في ذلك الجهد المبذول، والذي أثمر صحفاً أخرى، وصلت إلى ثماني صحف أصدرت ما بين 1926-1938. ولم يتوقف طموحه عند هذا الحد، فأسس المطبعة العربية سنة 1931.<sup>(29)</sup> التي كانت تطبع الكتب ذات الاتجاه الوطني الإصلاحي، لأن صاحبها عضواً عاملاً في جمعية العلماء، وارتبط

نشاطه بذلك الاتجاه الداعي إلى النهضة، والبعث الإسلامي للجزائر، والعمل من أجل تحريرها باسم الإسلام والعربية.<sup>(30)</sup>

**6 - القيام بالأسفار والرحلات:** يرى الشيخ أن ما يكمل للإنسان تكوينه العلمي والمعرفي هو اطلاعه على أخبار الأمم وطرائق عيشها ونظمها ومعارفها، من خلال شد الرحال إليها<sup>(31)</sup>، مثلما كان الرحالة الأوائل أمثال العلامة ابن خلدون، وقد أكد على هذه النقطة أحد أصدقاء الشيخ المقربين وهو الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش<sup>(32)</sup>، حيث يقول هذا الأخير: "لعمر الحق إن السفر مدرسة عظمى تطبيقية، توجد في الإنسان ملكة يقتدر بها على حفظ مميزاته مما يشاهد من تنافس الأمم في الظهور بها. ويطلع على آداب الأمم واختلافها ومواهب أفرادها وصنائعها، ويعرف سنة الله في الكون، فيكون بذلك بصيرا بأحوال الهيئة الاجتماعية وسياسات الأمم وأغراض حكوماتها ومآلها وعجائب العالم. فبه تتقوى مداركه وتنمو مواهبه وتكثر معلوماته ويقوى على التمييز بين الحق والباطل..."<sup>(33)</sup>.

وبعد تقديم الشيخ أبو اليقظان لشروط النهضة العلمية، يتساءل عن مدى وجود هذه الشروط في الجزائر، ثم يتأسف من عدم وجودها بصفة جدية، وهي موجودة في وضع غير مفيد، ولن تحقق أي نهضة أو تقدم<sup>(34)</sup>.

ويذكر الشيخ أن المسلمين يمتلكون ما يصنع العقول وينمي المعارف والثقافات، إلا أنهم لم يحسنوا استغلاله في أحسن وجه، ولذلك فإنه وجب عليهم أن يصنعوا العقول وينشئوا العلماء وينافسوا الغرب في هذا، لأن هذا الأخير يصدر المنتج ولا يصدر العقول مهما قدم له من ثمن<sup>(35)</sup>، وهو يسعى بكل ما أوتي من قوة وحنكة إلى التوسع في العلوم

والمعارف، والتقدم والاكتشاف فيقول الشيخ: "لئن أمكننا أن نستورد من المصانع الأجنبية ما تصدره من النتائج المادية التي تستجلب موادها من بلادنا العزيزة، فلن يمكن بحال أن نستورد من مصانع عقولهم شيئا من ذلك، فلا حيد لنا إذا من أحد أمرين إما تشييد معامل لعقولنا فيبرز بها ما لدينا من المواهب والمزايا، وإما أن نحمد تلك المادة التي ميز الله الإنسان عن الحيوان إلا بها، فنعيش نحن والحيوان في مستوى واحد" (36).

ويذكر الشيخ أن كرامة الجزائريين وتاريخهم المجيد لن يسمح لهم بأي حال من الأحوال التأخر والتخلف الحضاري، وقد حمس القراء إلى السير وفق المنهج الحضاري القويم، وكما بشرهم بأن الشروط الكفيلة لبعث الحياة العلمية والفكرية قد بدأت تظهر تباشيرها في الجزائر (37) وهي تخطو خطوات نحو التمكين الحضاري، فيقول الشيخ: "فلنتعامل خيرا لمستقبل الجزائر، ولنستبشر يقظتها من سباتها العميق ونهوض شببيتها، فقد لاح لنا فجر حياتها عندما بدأت تضع الحجر الأساسي لبعض تلك المعامل..." (38).

ومن أهم الشيوخ والأعلام المزابيين، الذين دونوا مقالاتهم في صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ سليمان بوجناح المدعو "الفرقد" (39)، وعرف بكتاباته في المجال التربوي، فخط بقلمه مقالات في مجلة الشهاب لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومن أبرزها المقال الذي جاء بعنوان: حركة التعليم بوادي ميزاب، وقد ورد هذا المقال في شكل حلقات متتالية في أعداد المجلة، حيث افتتحه بذكر الاحتفالية التي شهدها قصر بني يزقن بمناسبة قدوم شهر رمضان المعظم، وما أقيم في هذا الاحتفال وما تحقق فيه، فيقول الشيخ قائلا: "احتفلت الشبيبة في بني يزقن احتفالا بمناسبة حلول شهر رمضان المعظم تذكارا لفضله وقيامه بحقوق مآثره الفاخرة فكان الاحتفال سببا لتعارف الوطنيين من الشبيبة ببعضهم، وتحديد عهد للرابطة الفكرية والعمل المشترك لصالح هذا الوطن

الكثيب. فتذكرنا فيه مسائل متعددة إصلاحية ومن جملتها مسألة الإصلاح العلمي...<sup>(40)</sup>.

ثم تطرق - الشيخ - بعد ذلك إلى وصف حالة التعليم بوادي مزاب في عهده، والشاكلة التي هو عليها، وما هو الشيء الذي يسعى إليه الأساتذة والشيخ من ترقية التعليم وتحديثه وفق العصر، وذكر أن ما يحتاجه المزابيون هو السعي نحو التمكن في العلم<sup>(41)</sup>، حيث يقول الشيخ: "...على أن الشعب الميزابي الرصين لم يكن محتاجا إلى قوة - وهو في مبدأ حياة جديدة - احتياجه إلى سلاح العلم الكفيل لكل من تعزز به من الأمم بإبلاغه الغاية القصوى التي يرمي إليها..."<sup>(42)</sup>.

وأورد بعد ذلك، فضل الاهتمام بالعلم ودوره في صناعة الحضارة، وأن كبار أعلام مزاب قاموا بإدخال إصلاحات في مجال التعليم، من أجل مواكبة الحواضر العلمية الأخرى، وقد أحدثت هذه الإصلاحات نقاشات ومناظرات مفيدة بين هؤلاء الأعلام، فيقول الشيخ: "أذن الله لميزاب أن يخطو إلى حيث العزة والرفاء فثار أهل الحفاظ فيه لإزالة ما علق بنفوس أبنائه من رعونة القدم حسبما تقتضيه واجبات الحرص والصيانة، فابتدأوا بإدخال إصلاحات جديدة في مسألة التعليم الخطيرة، وكان هذا الإصلاح شبه ثورة بين رجال الأمة السليبين والإيجابيين، فكان لها رجة عظيمة كثيرة المعاني مقفلة الألباز..."<sup>(43)</sup>.

وقد حركت هذه الإصلاحات ديناميكية الحركة العلمية والثقافية في المنطقة مما أدى إلى ظهور نتائج باهرة لم تكن من قبل، وقد تمثلت في البعثات العلمية المزابية نحو تونس وحادثة تلو الأخرى، وتحول الكتاتيب القرآنية إلى مدارس قرآنية<sup>(44)</sup> وصارت تستقطب

تلاميذ كثيرين، بعد أن تطور الوعي الاجتماعي في المنطقة وأدرك الناس أن من مستلزمات مواكبة الحركة العلمية والثقافية في المنطقة لا يمكن تحقيقه إلا من خلال هذه الإصلاحات، فيقول الشيخ: "من آثار هذه النهضة البعثات المتتالية إلى تونس الخضراء التي لم يبق في الشمال الإفريقي من لم يحط علما بنتائجها وأدوارها... فأضحت الكتابات تتحول مع تحسينات إلى مدارس قرآنية، ولقد أحرزت في هذا المضمار قصب السبق مدينة القرارة، والفضل فيها كله راجع للأستاذين العظيمين الشيخ إبراهيم بيوض والشيخ إبراهيم أبي اليقظان"<sup>(45)</sup>.

ثم ذكر الشيخ "الفرقد" انتقال موجة النهضة العلمية وحركة إصلاح التعليم من قصر القرارة إلى مختلف قصور مزاب الأخرى، وهي العطف ومليكة وبنورة، وقد حضر الشيخ أحد الاحتفاليات بإحدى هذه المدارس، ورأى بنفسه آثار هذه النهضة العلمية على التلاميذ والطلبة<sup>(46)</sup>، ووصف ذلك في مقاله، ليشهد الناس بحقيقة ذلك بنفسه ويوثقه للتاريخ، فيقول الشيخ عن آثار النهضة العلمية: "حقيقة أن مثل هذا المنظر لما يؤثر في النفس تأثيراً عميقاً ويبعث الهمة والنشاط في الأمة إلى الوثوق بالعزيمة..."<sup>(47)</sup>.

وقد قدم الشيخ الفرقد ملاحظته في المجال العلمي لمدير مدرسة بنورة السيد عيسى بن الحاج صالح إدريس اليسجني، المتمثلة في إدراج مادة التاريخ مادة أساسية ضمن مواد التعليم وليس كمادة إضافية، لأن التاريخ كما يقول الشيخ، هو: "أول علم يجب أن يرضعه النشء مع اللبن حتى يمتزج بدمه حب أجداده... وهي القاعدة التي قررها كثير من الباحثين في أسباب التطور والارتقاء سيما أرياب الإصلاح من الأمة الإسلامية..."<sup>(48)</sup>.



وقد واصل الشيخ الفرقد مقاله بنفس الموضوع تحت عنوان: النهضة الوطنية العلمية في مزاب، ضمن الأعداد المتتالية لمجلة الشهاب، حيث تطرق في العدد الرابع والثلاثون، في نفس الموضوع إلى مجلس العزابة والهيئات التابعة له وذكر دوره في تسيير الحياة الدينية والعلمية والثقافية في وادي مزاب<sup>(49)</sup>، فيقول: "درسوا وألفوا وراسوا ونظموا ولم ينفكوا عن العمل كما أنهم لم يحددوا دائرة لأعمالهم ولا لنظراتهم بل كانوا ذوي نفوس كبيرة وبصائر ثاقبة وكانت دائرة أفكارهم واسعة"<sup>(50)</sup>.

وذكر الشيخ جهود رجال هذا المجلس والهيئات التابعة له وما قاموا بها من أجل مواكبة النهضة العلمية والثقافية، والحفاظ على مبادئ الدين الإسلامي، في وقت سيطرت الخرافات وسعى الاحتلال الفرنسي إلى القضاء على مقومات الشخصية العربية الإسلامية، ومن أولئك الرجال الذين ضرب بهم الفرقد المثل في مقاله، وذكر بعضا من جهوده في خدمة المجتمع الجزائري الشيخ محمد بن يوسف اطفيش قطب الأئمة<sup>(51)</sup>، الذي بلغ صيته العالم الإسلامي، فيقول عنه الفرقد: "ولكن ذكرت إجمالا أولئك الفطاحل والعلماء العاملين فإنه يسرني بهذه المناسبة التخصيص منهم بالذكر قطب الأئمة مجتهد الأمة... الذي حصل على مرتبة الاجتهاد، وحق علينا فوق ذلك أن نسميه بالدهية في السياسة ولو قرناه بالسياسيين الدهاة في يومنا هذا نظرا لما كان عليه الأستاذ رحمة الله تعالى ورضي عنه من الحنكة والتضلع في السياسة، لقلنا إنه السياسي الأكبر"<sup>(52)</sup>. وقد واصل الشيخ الفرقد مقاله هذا بعنوان النهضة الوطنية العلمية في مزاب في العددين الخامس والثلاثون، والسادس والثلاثون، متطرقا إلى القضايا التي شهدتها مزاب في تلك الفترة كقضية التجنيد الإجباري، وقضية التعليم العصري الحديث.

ب - كتاباتهم في المجال الإصلاحي:

قلما تجد جريدة في فترة الثلاثينات بدون نفس من أحد علماء ميزاب، ولا سيما الجزائر التي عرفت بمخطها الإصلاحية، وأبرزهم عميد الصحافة الميزابية، الشيخ أبو اليقظان، الذي حرر مقالا في جريدة البصائر تحت عنوان موجة الإصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري<sup>(53)</sup> وقد افتتحه، بالتطرق إلى قضية خطيرة، تهدد المجتمع الجزائري، وهي خضوع المجتمع الجزائري لشبح الخرافات والجهل لمدة من الزمن، وسلبيتها المغربية، أنها تحت سيطرة "الزعماء الروحيين" في المجتمع، مما أدى بالمجتمع إلى الدخول في دوامة من الجهل والخرافات والصراعات والفتن، إلى أن بعث الله من خيرة أبناء الجزائر<sup>(54)</sup> من يصلحون ويوجهون المجتمع الجزائري إلى المسار الإيجابي في حركة التاريخ.

وقد رأى الشيخ أبو اليقظان أن الإصلاح يقوم على مبدئين اثنين وهما: الإصلاح الديني والإصلاح العلمي. فيرى في مجال الإصلاح الديني أنه يجب على المصلحين محاربة البدع والخرافات وتطهير نفوس الناس منها، ليتسنى إيصال الرسالة الإصلاحية كاملة ودون مجادلة الباطل وأهواء النفوس، ولأن ترك النفوس لسيطرة الخرافات والأوهام يؤدي إلى صعوبة تمرير الرسالة الإصلاحية وتقبلها من طرف الأفراد<sup>(55)</sup>، فيقول الشيخ: "... وجوب البداية بتطهير النفوس من تلك الخرافات والأوهام وتنقيتها من الزيغ والضلال والعقائد الفاسدة، وإعدادها لتلقي العلوم الصحيحة..."<sup>(56)</sup>.

أما في مجال الإصلاح العلمي، فإن الشيخ يرى أنه يأتي في المرتبة الثانية بعد الإصلاح الديني، أي بعد أن تهيأ النفوس لتقبل المشروع الإصلاحية، ولذلك فإن المصلحين الجزائريين، ساروا وفق هذا النهج، ودرسوا مكامن الجهل وسبله إلى داخل المجتمع الجزائري، وقاموا بتحديد العلوم والمعارف القديمة وأحدثوا فيها الجديد<sup>(57)</sup>، فيقول الشيخ: "...التفت أولئك المصلحون إلى الناحية الثانية ناحية الإصلاح العلمي، فدرسوا

مسارب الجهل إلى جسم الأمة، وكيف تكون مكافحتها، وأساليب العلم القديمة وكيف يكون إصلاحها، وحاجة الأمة إلى الفنون الحديثة وكيف يمكن جلبها...»<sup>(58)</sup>.

وقد قامت مشاريع هؤلاء المصلحين كما يذكر الشيخ على المؤسسات العلمية والثقافية في ربوع القطر الجزائري، فنجحوا في تخريج ثلة من العلماء والمشايخ والأدباء الكبار، بعد أن كاد المجتمع الجزائري يسقط في متهاتات الجهل والتخلف، ويفقد مرتبته في صفوف الحضارة<sup>(59)</sup>.

وفي إطار حديثه في المجال الإصلاحية تطرق الشيخ إلى التوقف عند نقطة مفصلية في تاريخ الجزائر، ألا وهي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي أسست من أجل القيام بالمشروع الإصلاحية والتربوي في الجزائر من طرف ثلة من رجالات الجزائر الأفاضل، وقد وصلت أمواج الإصلاح المنبثقة من هذه الجمعية إلى كل ربوع الجزائر، وتواصلت أخبارها إلى شرق وغرب العالم<sup>(60)</sup>، فيقول الشيخ عن المرتبة الذي وصلتها الجمعية: "... لم تمض على إنشائها مدة وجيزة حتى ضربت موجة الإصلاح بها من أقصى البلاد إلى أقصاها، ثم تسامع الناس أخبارها، فكان لها دوي هائل في الشرق والغرب، وكان لها صوت مسموع في أقطار الإسلام، وتفاءلوا من وجودها للجزائر خيرا كثيرا..."<sup>(61)</sup>.

ويذكر الشيخ أن الاستعمار الفرنسي، أدرك أن استمرارية هذه الجمعية سيهدد وجوده في الجزائر، ولذلك سعى إلى محاربتها والتضييق على شيوخها، لكنه لم يستمر على هذا النسق في سياسته، فقد سمح للجمعية بمزاولة بعض أنشطتها التي منعت عنها قبل ذلك بمدة، ولكن هذا لم يكن اعتباطا بل يدخل ضمن استراتيجيات الاستعمار<sup>(62)</sup>.

فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين مستمرة في جهادها الإصلاحية، وإعداد النفوس لمحاربة الاستعمار، ولن تتوانى في عملها، ولن يعطلها عن هذه المهام النبيلة لا الاستعمار ولا المعارضين من الجزائريين، ويؤكد ذلك الشيخ قائلا: " تلك هي حقيقة جمعية العلماء، وتلك غايتها في وضوح من النهار ظاهرها باطنها وباطنها ظاهرها لا خفاء فيها ولا لبس، فليفهمها هكذا العقلاء وأنصار الحق، وليخفف المتشائمون من غلوائهم وليريحوا نفوسهم من آلام الهواجس وسوء الظنون وليعملوا مع إخوانهم العاملين يدا بيد وجنبا لجنب" (63).

ومن الأعلام المزابيين الذي تفاعلوا مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتركوا بصمتهم فيها، الشيخ **بوجناح سليمان المدعو الفرقد**، الذي دون عدة مقالات في صحف جمعية العلماء، ومن نماذج مقالاته المدونة في جريدة المنتقد: مقال بعنوان: **علمائنا اليوم** (64) الذي يندرج ضمن الكتابات في المجال الإصلاحية، فقد تناول فيه أحد أهم الأسس التي يقوم عليها المجتمع وبها يفرض وجوده ويستمر تواجده وهم العلماء، وبهم يتم صناعة الحركة التاريخية في مسار إيجابي، ويؤكد هذه النقطة الشيخ قائلا: " العلماء سراة الأمم وأعمدتها فهم لها كالرأس للجسد. نكران جميلهم - لعمري - هو الكفر بنعمة الله وهم رؤساء الدين - ولا فخر - يضيئون السبل لإخوانهم ويذكروهم في واجباتهم يعظون الناس... العلماء زعماء - ولا جرم - لأن الأمة تعتبرهم أكثر من غيرهم وكلامهم لديها حجة وبرهان يستندون إليه في جميع أفعالهم ويقدمونه لأنه خرج من أفواه ورثة الأنبياء" (65).

إلا أن الشيخ الفرقد تشاءم من العلماء الموجودين في زمانه لأنهم فقدوا معنى لمكانتهم وعلمهم وصاروا وسيلة ويذا طولى للاستعمار في تسلطه على المجتمع الجزائري

بعلمهم أو بغير علمهم، يسيرهم ويتحكم فيهم، فينفذون مشاريعه وسياساته، وأفقدتهم - نتيجة لذلك - القدر والاحترام في أوساط المجتمع، وتخلوا عن مهامهم الحقيقية (66)، وفقدت كلمتهم معاني التأثير على النفوس، فيقول الشيخ: "أصبح كلامهم هذيانا وعظاتهم أصبحت غليانا، تهاونوا بشؤون أمتهم، واكتفوا بالقيام بنصف ما أمروا به من العبادة وضربوا على العمل صفحا" (67).

وقد وجه الشيخ الفرقد نداءه في هذا المقال إلى هذا الصنف من العلماء وذكّركم بمسؤوليتهم التي تخلوا عنها، وطالب منهم مواكبة النهضة الحديثة، وقد أكد على هذه النقطة الأخيرة بإلحاح، إلى درجة أنك تدرك أن الشيخ كان يوجه رسائله في هذا المقال إلى علماء أنصار تيار المحافظين الذين نبذوا كل جديد وأردوا البقاء والحفاظ على ما هم عليه، حيث يقول الشيخ: "حل في نفوسهم الجمود والإحجام محل النهوض والإقدام، وصاروا حجرة عثرة في سبيل رقي أمتهم، وما من أمر فيه حكمة لفائدة إخوانهم إلا واستنكروه، وربما حرموه ولو لم يكن محرما شرعا وعقلا زعما في أن كل شيء جديد أو متقن فهو بدعة وحرام" (68).

ويفسر الشيخ الفرقد تصرف هذا الصنف من العلماء، بمدى ارتباطهم بالاستعمار، فيرى أن بقاءهم على هذا المنهج القديم من أجل الحفاظ على مناصبهم ومراتبهم، ولذلك فإنهم يفسرون ويطبّقون شريعة الله حسب ما يخدم مصالحهم، وما هو في الحقيقة إلا دسياسة من دسائس الاحتلال الفرنسي وقد نفذت من خلال الآخرين، وهو الشيء الذي يؤكده مالك بن نبي بقوله: "إن الاستعمار ما زال في حاجة إلى أقلام يكتب بها، وإلى أبواق يتكلم بها، حتى لا يعرف خطه ولا صوته عندما يخادع الجماهير الطيبة..." (69).

وقد أنهى الشيخ الفرقد مقاله ببناء بالغ إلى علماء عصره يستنجدهم من حال الأمة، ويذكرهم بعظم مسؤولياتهم أمام الله، فيقول: "أيها العلماء: اصعدوا بما أمرتم به لتجمعوا بين القول والعمل لأن الإيمان لا يتم بالقول دون العمل، امسكوا زمام أمور أمتكم وخذوا يد شعبيكم ولا تتركوه وشأنه كأنه ليس منكم ولستم منه، حرام عليكم - والله - إذ ترونه ضالا حائرا وترون السبيل وأنتم جامدون صامتون. تكلموا وتحركوا وسيروا فإن هذا الزمان تحرك ما فيه حتى الجماد" (70).

ويظهر مما سبق، مكانة علماء ميزاب، وحسن تشخيصهم، وبلاغة عباراتهم، في الذود عن حياض الأمة، ونصرة الحركة الإصلاحية، والدعوة الإسلامية، في وقت عزت فيه الكلمة، وكان الصدع بالقول، كتابة وتدويننا، من أسمى درجات الجهاد والمقاومة الثقافية.

### ج - كتاباتهم في المجال الأدبي :

ومن المجالات التي كتب فيها أعلام المزابيين في صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مجال النثر الأدبي، والشعر، ولاسيما في مجلة الشهاب، ونورد النص النثري للأستاذ مفدي زكرياء، في العدد الواحد والستين من المجلة بعنوان: مناجاة زهرة في أحد بساتين مزاب<sup>(71)</sup>، حيث تطرق الكاتب إلى استعمال المحاز والتحدث إلى الزهرة الباسمة، وقد شكى في هذا النثر إلى الزهرة من مجازر الاحتلال الفرنسي ودماره، وأمرها بأن تبقى باسمه ومزهرة<sup>(72)</sup>، فيقول الكاتب مناجيا الزهرة بقوله: "فارفعي رأسك إلى محيط الرحمة والحنان، وناشديه العطف على تلك الهامات المتدلية وراء حبال المشانق، على تلك الأيدي المقطعة بسلاسل الفظائع البشرية... على تلك الأرواح المتصاعدة من مجازر الإنسانية إلى سماء الأبدية والسابحة في محيط اللانهاية... وأنت محسنة أيتها الزهرة

الباسمة"<sup>(73)</sup>. فكان هذا النشر عبارة عن تأريخ للاحتلال الفرنسي في الجزائر، ووصفا للفترة التي عاش فيها الكاتب.

والجدير بالذكر - في هذا المجال - الكاتب الشاعر، والشاب الرومانسي الميزابي، رمضان حمود، الذي اقتطفه المنون عام 1929،<sup>(74)</sup> قبل بلوغه لعصر جمعية العلماء، ولكنه وأكب الشهاب، وكتب فيها النشر، ونشر الشعر، في سلسلة مقالات سنة 1927، حين كتب عن "حقيقة الشعر وفوائده" وهو يشير إلى الحس الجمالي الغائب، أو الذي غيبه الاستعمار بغطرسته وظلمه، والكاتب يقارن بين الشعر والفن، فكلاهما يسكبان الرقة، ويلامسان الروح، ومما كتبه حمود: "الشاعر والمصور أجيان للفن والجمال، وكلاهما مدين بالإجادة والتدقيق في النظر والبحث، فهذا في المحسوسات وذاك في الروحيات." ويستطرد في توضيح الصورة في كلا الطرفين، "فكما أن المصور لا يقدر أن يتقن صورته إلا إذا تزود بجانب وافر من الشعور والإحاطة، وكان الشكل أو المنظر الذي يريده أمامه بعيني رأسه، فكذلك الشاعر لا طاقة له على امتلاك العقول والأخذ بأزمة النفوس إلا إذا أجاد تصوير تلك العواطف الهائلة التي تقوم في ميدان صدره الرحب عندما يريد أن يعرب للسامع عن خاطر من خواطره الخاصة أو العامة لا مجرد تنميق وتزوير وتكلف مشين وتعمل بارد وكذب فادح..."، ويفرق بين الشعر والنثر، وتأثير الشعور، والعمل الذهني عند كل منهما فيقول: "الشعر مسطر بريشة الشعور على صحائف لغات الأمم الخاصة بها سواء كانت متمدنة ومتوحشة... خلاف النثر فانه ابن العلم والتمدن، والشعر هو الذي يهيئ له الطريق."<sup>(75)</sup>

أما الشعر ففقد برع فيه مفدي زكريا، الذي كتب في مختلف الصحف، ومنها جريدة المغرب لأبي اليقضان، وكان يمضي قصائده باسم مستعار "فتى المغرب"، ويثير فيها قضايا

مهمة في الاختلافات المذهبية والتعصب الطائفي في " جزائر ما أشقاك بالجهل " ،  
 وتمجيد الجزائر وشوق إلى مستقبل لها أفضل في " خفقة فؤاد " ، ومنها تهنئة الأستاذ أبو  
 إسحاق اطفيش عند عودته من منفاه لزيارة أهله بعد غياب طويل في " مهرجان الزعيم  
 الخطير ". أما أبو اليقضان فكان يوقع قصائده هكذا "أنا" وأحيانا باسمه الصريح، ومن  
 الشعراء، احمد بن الحاج يحيى، وعدون، وغيرهم. (76)

أما رمضان حمود ، فيكتب شعره في الشهاب، يخاطب "الفتى" ويرفع معنوياته، مما يدل  
 على رسالة الشاعر، ودوره الفعال في بث الوعي في أوساط الناشئة، ومما قال في هذا  
 المضمار:

جهودك يا فخر العروبة عبرة له رنة في الخافقين تقام

ستبقى على مرّ الدهور منارة على علم، لا يغريك ظلام

ففي سعيك المبرور خدمة أمة عليها خطوب الدهر يرتمين حسام

حياتك سرّ، سوف يظهر كنهها وفيها لسير الناشئين نظام (77)

هذه بعض النماذج من المقالات التي دونها أعلام المزابيين في صحف الحركة  
 الإصلاحية، وتوجد مقالات الأخرى لا يتسنى المقام لدراستها جميعا، ولكن أغلبها - إن  
 لم تكن كلها - تنضوي في المجالين التربوي والإصلاحي، وفيها الكثير التي تطرقت إلى  
 قضايا منطقة ميزاب في تلك الفترة، وتعتبر كتابات تاريخية تؤرخ لمنطقة وادي مزاب.

**الخاتمة:**



تتجلى أهمية الأفكار المدونة في سجلات المجتمعات، في الأثر الذي ينعكس على الساكنة، ويبعث فيها النشاط، ويدفعها نحو التحرر، والنمو الاقتصادي، والتفوق العلمي، وهذا الذي طبع الأعمال الصحفية في الجزائر في فترتي العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي، وكانت مرحلة خصبة، أسست لعصر الكتابة الرسالية، وتم أدراك هذا المعنى، من خلال دراسة النماذج السابقة، التي ديجتها أنامل الأعلام، وأقلام علماء وادي ميزاب، في الصحافة الإصلاحية، التي نستخلص منها ما يلي:

- كان الانتماء الفكري لخط البعث الإسلامي، ومواكبة النهضة الفكرية في الجزائر، إحدى الملامح التي عرف بها أصحاب الأقلام، بمساهماتهم الجادة في تأسيس جمعيات محلية، وكانوا عصباً في جسد جمعية العلماء، وعرفوا بفاعليتهم ونشاطاتهم، وأريحياتهم وحسن أخلاقهم.

- يعتبر ابن اليقظان رائداً من رواد الصحافة الإصلاحية، وسندا قويا لابن باديس وإخوانه، فقد بدأ الكتابة في الصحف مبكراً، ولم يشف غليله ذلك السعي الحثيث، فبادر سنة 1926، بإصدار أول صحيفة بعنوان "وادي ميزاب" ذات الطابع الوطني - رغم اسمها المحلي - وتطرقت لشتى المسائل العلمية والفكرية والأدبية، ولما كتم المستعمر أنفاسها، عوضها الشيخ بأخرى، ولحقت بها أخواتها في المنع والإيقاف، ولكنهن مثلن خطاً واضحاً للنضال في سبيل تبليغ الكلمة الصادقة؛ ولعل التحدي الأكبر لديه، تمكنه من تأسيس "المطبعة العربية" في فيفري 1931، عشية إشراق نجم جمعية العلماء، ولعبت مطبعته دوراً محورياً في نشر الكتب والدوريات العربية، طيلة ثلاثين سنة، وحققت المبتغى الذي أسست من أجله، لحماية اللغة العربية ونصرتها، ومواجهة السياسة الاستعمارية التغريبية.

- ظهر ثلة من علماء وادي ميزاب ومثقفوها، كان لهم قدم السبق في الكتابة الصحفية، وتطورت اهتماماتهم الملحة لدى المجتمع الجزائري، وأشهرهم الشيخ أبو اليقضان، وسليمان بوجناح المدعو "الفرقد"، واحمد بن الحاج

يحي، والشيخ عدون، ورمضان حمود، ومفدي زكريا، وغيرهم من الأفاضل.

- اقتحمت أقلام الميزابيين، مجالات فكرية وعلمية وأدبية هامة، ضمن المشروع الإصلاحية الجزائري، وتعتبر من روافد المقاومة الثقافية، وبث الوعي، وتفعيل العمل التربوي في مؤسسات عديدة، وتعدى ذلك إلى المجال الإصلاحية، والذوق الأدبي، الموجه للدفاع عن الهوية، والمساهمة في تربية الوجدان الجزائري.

وما يمكن التنويه به في آخر هذه الدراسة، أن الحركة الإصلاحية التي شهدتها المنطقة - وادي ميزاب - كانت دافعا قويا لمشاركة أعلام المزابيين في الأحداث التي عرفتها الجزائر، وتفاعلت مع المؤسسات والجمعيات التي قامت في الجزائر ومن هذه الجمعيات المهمة، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فأزروها بصدق، وخطوا بأقلامهم في صحفها، فكان هدفهم من كل ذلك، هو الحفاظ على مقومات الشخصية الإسلامية الجزائرية، والحفاظ على وحدة الوطن، ومخاربة الاستعمار، وتمير الرسالة الإصلاحية إلى أوساط المجتمع الجزائري بأكمله، ولعل ما يؤكد هذه النظرة هو ما قام به التجار المزابيين، وهم الحاج بكير العنق، وأخوه الشيخ الحاج عمر العنق، ومحمد بن بكير رفقة السيد الحاج عباس بن حمارة التبسي بتأسيس أول مدرسة عربية حرة في مدينة تبسة سنة 1913م<sup>(78)</sup>.

الهوامش:

- <sup>(1)</sup> مازن صلاح حامد مطبقاني: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية (1349هـ - 1358هـ/1931م - 1939م)، مؤسسة عالم الأفكار، ب.ط، الجزائر، 2011م، ص59.
- <sup>(2)</sup> مالك بن نبي: شروط النهضة، ترجمة. عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ب.ط، سورية، 1986م، ص29.
- <sup>(3)</sup> محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، 2013م، ج1، ص253.
- <sup>(4)</sup> قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند إياضية الجزائر (1157هـ - 1744م إلى 1382هـ - 1962م)، جمعية التراث، ط1، الجزائر، 2011م، ص164.
- <sup>(5)</sup> المرجع نفسه، ص166.
- <sup>(6)</sup> المرجع نفسه، ص211.
- <sup>(7)</sup> محمد صالح ناصر: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما، مكتبة الريام، ب.ط، الجزائر، ب.س، ص15.
- <sup>(8)</sup> يوسف الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب - دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية -، ب. د. ن.، ط2، الجزائر، 2006م، ص317.
- <sup>(9)</sup> محمد صالح ناصر، المرجع السابق، صص17 - 18.
- <sup>(10)</sup> المرجع نفسه، ص19.
- <sup>(11)</sup> أحمد محمد فرصوص: الشيخ أبو اليقظان إبراهيم كما عرفته، دار البعث، الجزائر، ب.س، ص119.
- <sup>(12)</sup> عبد الرحمان (البكري) بكلي: مسيرة الإصلاح في جيل (1918 . 1948م)، إ.ع. وتق. مصطفى باجو، نشر مكتبة البكري، ط1، الجزائر، 2004م، ص103.
- <sup>(13)</sup> محمد صالح ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ب.ط، الجزائر، 1980م، صص39 - 40.
- <sup>(14)</sup> المرجع نفسه، ص40.

- <sup>15</sup> نفسه، ص40.
- <sup>16</sup> - أحمد محمد فرصوص: المصدر السابق، ص119.
- <sup>17</sup> عبد الحميد بن باديس: نهضة جزائرية بالحاضرة التونسية، ضمن كتاب: مكانة الإباضية في الحضارة الإسلامية، إ.ع. محمد صالح ناصر، مركب المنار، ط2، الجزائر، 2013م، ص211.
- <sup>18</sup> أسعد لهلاي: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية الجزائرية (1954 - 1962م)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2011 - 2012م، ص27.
- <sup>19</sup> محمد صالح ناصر: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما، المصدر السابق، ص19.
- <sup>20</sup> أنظر: أسعد لهلاي: المرجع السابق، ص28. مازن صلاح حامد مطبقاني: المرجع السابق، ص79. محمد صالح ناصر: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما، المصدر السابق، ص19.
- <sup>21</sup> إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان: "معامل العقول" - في - جريدة المنتقد، جريدة أسبوعية، ع18، الجزائر، 1925م، ص1. ضمن مجلد: دار الغرب الإسلامي، ط1، تونس، 2008م، ص72.
- <sup>22</sup> نفسه، ص1.
- <sup>23</sup> نفسه، ص1.
- <sup>24</sup> نهضة الجزائر الحديثة، ج2، ص179.
- <sup>25</sup> إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان: المقال السابق، ص1.
- <sup>26</sup> نفسه، ص1.
- <sup>27</sup> نفسه، ص1.
- <sup>28</sup> محمد صالح ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، المصدر السابق، ص19.
- <sup>29</sup> أنظر: محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1947 إلى 1939، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980.
- <sup>30</sup> أنظر: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998، ج5، ص292.

- <sup>31</sup> إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان: المقال السابق، ص 1.
- <sup>32</sup> أبو إسحاق إبراهيم اطفيش: من أبرز علماء وادي مزاب، ولد سنة 1888م، التحق بكتاب بلده سنة 1311م، ثم التحق بصفوف العلم في الجزائر العاصمة سنة 1910م عند الشيخ عبد القادر المجاوي، ثم التحق بعد ذلك بمعهد عمه الشيخ محمد بن يوسف اطفيش (قطب الأئمة)، وفي سنة 1917م سافر إلى تونس إلى الاستراحة في العلم، وكان من المشاركين في تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1920م، تعرض إلى الإبعاد من تونس من طرف الاحتلال الفرنسي لنشاطه السياسي. توفي سنة 1965م في مصر. ينظر: الحاج أحمد بن حمو كروم: الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد اطفيش - العالم العامل -، جمعية الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث، ط 1، الجزائر، 2010م، ص ص 6، 9، 10، 15، 17، 40.
- <sup>33</sup> أبو إسحاق إبراهيم اطفيش: الدعابة إلى سبيل المؤمنين، المصدر السابق، ص 140.
- <sup>34</sup> إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان:، المرجع السابق، ص 1.
- <sup>35</sup> نفسه، ص 1.
- <sup>36</sup> نفسه، ص 1.
- <sup>37</sup> نفسه، ص 1.
- <sup>38</sup> نفسه، ص 1.
- <sup>39</sup> سليمان بن يحيى بوجناح (الفرقد): من أحد أبرز الأدباء والصحفيين بوادي مزاب، ولد سنة 1905م، بدأ دراسته بالكتاب بمسقط رأسه، ثم سافر إلى تونس، وبعد عودته إلى الجزائر، التحق بثانوية بوجو بالجزائر العاصمة، شارك في صحافة الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكان من الكتاب البارزين في صحف الشيخ إبراهيم أبي اليقظان، واحد المؤسسين لجمعية الوفاق بالجزائر العاصمة، وكاتبها العام، تعرض للملاحقة وسجن من طرف الاستعمار الفرنسي بسبب نشاطه الصحفي. توفي سنة 1988م. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ص 214.
- <sup>40</sup> مكاتيبكم: الفرقد (سليمان بوجناح): حركة التعليم بوادي ميزاب (احتفال شريف) - في - مجلة الشهاب، ع 21، عبد الحميد بن باديس، الجزائر، 1924، ص 7. ضمن مجلد الأول: دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2001م، ص 415.

- (41) نفسه، ص8.
- (42) نفسه، ص8.
- (43) نفسه، ص8.
- (44) نفسه، ص9.
- (45) نفسه، ص9.
- (46) نفسه، ص9.
- (47) نفسه، ص9.
- (48) نفسه، ص10.
- (49) الفرقد (سليمان بوجناح): النهضة الوطنية العلمية في مزاب - 2 - في - مجلة الشهاب، ع34، لمؤسسها عبد الحميد بن باديس، الجزائر، 1924، ص5، 6. ضمن مجلد الثاني: دار الغرب الإسلامي، ط1، 2001م، ص33.
- (50) نفسه، ص6.
- (51) نفسه، ص6.
- (52) نفسه، ص6.
- (53) إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان: موجة الإصلاح الديني والعلمي بالقطر الجزائري، - في - جريدة البصائر، جريدة أسبوعية، ع1، الجزائر، 1935م، ص5.
- (54) نفسه، ص5.
- (55) نفسه، ص5.
- (56) نفسه، ص5.
- (57) نفسه، ص5 - 6.
- (58) نفسه، ص5.
- (59) نفسه، ص6.
- (60) نفسه، ص6.
- (61) نفسه، ص6.

- <sup>62</sup> نفسه، ص 6.
- <sup>63</sup> نفسه، ص 6.
- <sup>64</sup> الفرق (سليمان بوجناح): علماءنا اليوم - في - جريدة المنتقد، جريدة أسبوعية، ع 17، الجزائر، 1925م، ص 1. ضمن مجلد: دار الغرب الإسلامي، ط 1، تونس، 2008م، ص 68.
- <sup>65</sup> نفسه، ص 1.
- <sup>66</sup> نفسه، ص 1.
- <sup>67</sup> نفسه، ص 1.
- <sup>68</sup> نفسه، ص 1.
- <sup>69</sup> في مهب المعركة، ص 83.
- <sup>70</sup> الفرق (سليمان بوجناح): علماءنا اليوم، المقال السابق، ص 1.
- <sup>71</sup> مفدي زكريا بن سليمان: مناجاة زهرة في أحد بساتين مزاب - في - مجلة الشهاب، ع 61، عبد الحميد بن باديس، الجزائر، 1924، ص 10.
- <sup>72</sup> نفسه، ص 10 - 11.
- <sup>73</sup> نفسه، ص 11.
- <sup>74</sup> رمضان حمود: ولد بغرداية سنة 1906، وعند بلوغه السادسة من عمره، اصطحبه أبوه إلى غليزان، وألحقه بالمدرسة الفرنسية، ولكن نفسه كانت تواقفة إلى المزيد من العلم، فسافر إلى تونس في سن السادسة عشرة من عمره ضمن البعثة العلمية، ودرس في عدة مدارس، منها "الخلدونية" و"الجامع الأعظم"، ولكنه رجع إلى مسقط رأسه، وتزوج، وشرع في نشاطه الفكري، واهتم بالكتابة والتأليف، والبحث والدراسة المتأنية، فكتب في جريدة "الشهاب" و"وادي ميزاب" وأصدر كتابه "بذور الحياة" و"الفتى"، ولكن داء السكر تمكن من جسده، فتوفي في ريعان شبابه سنة 1929.
- أنظر: عمر بن قينة: صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص 138-139. محمد ناصر: رمضان حمود الشاعر الثائر، المطبعة العربية، ط 1، غرداية- الجزائر، 1978.
- <sup>75</sup> عمر بن قينة، المرجع السابق، ص 143-144.

<sup>76</sup> أنظر: محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، المرجع السابق، 102-103.

<sup>77</sup> عمر بن قينة، المرجع السابق، ص 145..

<sup>78</sup> محمد علي دبوز: نخضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المرجع السابق، 1 ج، ص 372.



العلاقات السياسية بين الدولة النصرية والمماليك من خلال بعض المراسلات  
د/ بالأعرج عبد الرحمن - قسم التاريخ - جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان

[dr.bellaredj@gmail.com](mailto:dr.bellaredj@gmail.com)

### -الملخص:

يتعرض المقال للعلاقات السياسية بين الدولتين النصرية في الأندلس ودولة المماليك في مصر والشام خلال الفترة الممتدة بين القرنين السابع والتاسع الهجريين / 13-15م، من خلال المراسلات الدبلوماسية التي كان يتبادلها سلاطين الدولتين في ظل التكالب الصليبي على ما تبقى للمسلمين بأرض الأندلس، ونسعى من خلاله إلى توضيح بعض الأمور المتعلقة بطبيعة هذه العلاقات، وحقيقة اهتمام المماليك بأمر المسلمين بالأندلس، وجهودهم لإنقاذ الأراضي الإسلامية في الجزء الغربي من الحوض المتوسط.

الكلمات المفتاحية: بنو نصر، المماليك، الأندلس، الدبلوماسية، المعاهدات.

### -Abstract :

The article presents political relations between the tow contries Nasrid in Andalus and Mamluks in Egypt during the 13-15 AD through diplomatic correspondence exchanged between the sultans, and the fact that the attention of the Mamluks for muslims in Andalus, and their efforts to save the islamic lands in the western mediterranean.

## -المقدمة-

إن الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها الأندلس خلال القرن 7هـ/13م وإلى غاية سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م كان لها الصدى الواسع في أقطار العالم الإسلامي مشرقا ومغربا، وكانت أخبار حركة الاسترداد التي قادها النصارى ضد المدن الإسلامية تصل أصدائها إلى سلاطين المماليك الذين كان لزاما عليهم نصرته مسلمي الأندلس بكل الوسائل العسكرية والدبلوماسية تلبية لنداء رابطة الدين الإسلامي ورد الخطر المشترك.

وقد اهتم ملوك بني نصر بالمراسلات مع المماليك وإخبارهم بتطورات الأوضاع المزرية التي كان يعيشها مسلمو الأندلس.

وكان المماليك يعتبرون أنفسهم المدافعين عن حقوق المسلمين في العالم الإسلامي، لأن بلدهم هي مقر الخلافة الإسلامية، وكانوا في مراسلاتهم حريصين على إظهار مسألة زعامتهم للعالم الإسلامي، وكان السلطان منهم يلقب في المراسلات بسلطان الديار المصرية والبلاد الساحلية والبلاد الشامية والبلاد الحلبية، وبلاد قلعة المسلمين الأشرفية، سلطان الملوك، ملك الشرق بأسره، سلطان النوبة، بلاد ملك داوود سلطان بيت المقدس، خادم الحرمين.

ويتضح حرص المماليك على حماية مسلمي الأندلس من خلال المراسلات التي كانت توجه من القاهرة إلى الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الإيبيرية، مع مراعاتهم للحفاظ على المصالح السياسية والاقتصادية التي كانت تربطهم بالملوك الإسبان، وفي هذا الصدد تسجل لنا المصادر والوثائق الكثير من المراسلات التي تتضمن هذا الموضوع.

- موقف المماليك مصر من تصاعد المد النصراني في شبه الجزيرة الإيبيرية

عمل المماليك على الاحتفاظ بعلاقتهم مع الدول النصرانية في الأندلس رغم حركهم الشرسة ضد المسلمين، وذلك ما نستشفه من المراسلة التي تمت بين السلطان المملوكي الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (689-693هـ/1290-1293م) وملك أرغون خابمي الثاني<sup>1</sup>.

وكان موضوع الرسالة الأساسي هو عقد الهدنة والمصالحة بين دولة المماليك البحرية وبين الممالك النصرانية بجنوب غرب أوروبا، وجاء فيها: "استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف وبين حضرة الملك الجليل المكرم الخطير الباسل الأسد الضرغام المفخم المبجل دون حاكم الريد أرغون وأخويه دون ولذريق ودون بيدرو، وبين صهره الذين طلب الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم يكونا داخلين في الهدنة والمصادقة، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما التزم به عن نفسه ويتدرك أمرهما، وهما الملك... دون شانجه ملك قشتالة وطليلة وليون وبلنسة وأشبيلية وقرطبة ومرسية وجيان والغرب، الكفيل بمملكة أرغون وبرتقال، والملك دون أنفونش ملك برتقال من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين وستمائة..."<sup>2</sup>.

وتواصل الرسالة عرض وتفصيل بنود اتفاقية هذه الهدنة وهي أن تكون غير محدودة بزمان معين ولا بنطاق جغرافي محدد، بل تكون شاملة ومفتوحة في الزمان والمكان: "استقرار المودة والمصادقة من التاريخ المقدم ذكره على مر السنين والأعوام وتعاقب الليالي والأيام برا وبحرا سهلا ووعرا قربا وبعدا"<sup>3</sup>.

وضمنت بنود الهدنة والمصادقة على أن لا يتعرض المماليك للبلاد النصرانية، وألا يتعرض الأرغونيون وحلفاؤهم للبلاد التي هي تحت الحكم المملوكي والتي جاءت الرسالة بذكرها على وجه التفصيل<sup>4</sup>.

و نلمس من الرسالة اعتراف الملك الأشرف بممالك النصارى في الأندلس، وكذلك سعيه لعقد حلف عسكري معهم ضد القوى والممالك الأوروبية الأخرى حيث يقول: "وعلى أن الملك دون حاكم هو وأخواه وصهره أصدقاء من يصادق الملك الأشرف وأولاده، وأعداء من يعاديهم من سائر الملوك الفرنجية"<sup>5</sup>.

كما تضمنت المعاهدة بنودا متعلقة بالدفاع المشترك وحرية التجارة بين إسبانيا وبلاد المماليك، وحرية زيارة القدس بالنسبة للنصارى الإسبان<sup>6</sup>.

والغريب في الأمر أنها لم تتضمن ولا بندا متعلقا بالمسلمين في الأندلس وما كانوا يتعرضون إليه من اضطهاد، وركز الملك الأشرف على أن تكون هذه المعاهدة أبدية ودائمة وختم الرسالة بقوله: "تستمر هذه المودة والمصادقة على حكم هذه الشروط المشروحة أعلاه بين الجهات على الدوام والاستمرار، وتجري أحكامها وقواعدها على أجمل الاستقرار، فإن الممالك بها قد صارت مملكة واحدة وشيئا واحدا لا تنقض بموت أحد من الجانبين، ولا بعزل وال وتولية غيره، بل تؤبد أحكامها، وتدوم أيامها وشهورها وأعوامها..."<sup>7</sup>.

إن التفسير الذي يمكن أن نقدمه لموقف الملك الأشرف من الممالك النصارانية هو أنه كان يرمي إلى تحقيق مصالحه الإقليمية والدولية، ففي حين كان مسلمو الأندلس في محنة كبيرة بسبب حركة الاسترداد التي قادتها كل من مملكة أرغون وقشتالة، كان المماليك يسعون إلى المهادنة، ربما لكسب الوقت أو لصرف انتباه النصارى في جنوب غرب أوروبا عن نصرة نصارى المشرق، وكذلك للتفرغ من أجل رد الأخطار التي كانت تهدد الدولة المملوكية من الشمال والشرق.

والنقطة الثانية التي تطرح نفسها هي مدى إحاطة ملوك المغرب الإسلامي خاصة بني مرين الذين كانت علاقاتهم جيدة مع المماليك بخبر هذه المعاهدات التي لم تكن في صالح العالم الإسلامي، ربما إلا فيما يخص حرية التجارة والملاحة وحرية زيارة البقاع

المقدسة لدى المسيحيين في المشرق، ولما كان المرينيون هم المسؤولين عن الجهاد في الأندلس فإنهم كانوا في حاجة إلى الدعم المادي والمعنوي من طرف المماليك حتى يتقووا بهم ضد النصارى المتحالفين، لكن ذلك ما لم يكن إلا في المكاتبات الرسمية لا غير. ويمكن القول أنه في ظل الجهاد المستمر للمرينيين والنصرين من أجل الحفاظ على ما تبقى للمسلمين من أراض في الأندلس كان الملك الأشرف يسعى لتحقيق هدنة طويلة الأمد مع النصارى.

وقد استمرت هذه المهادنات والمعاهدات على هذه الوتيرة بين المماليك والأرغونيين والقشتاليين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم المدافعين عن النصارى في بلاد المشرق، وفي عهد الملك الناصر المملوكي نشطت المراسلات بين الطرفين وكانت معظم الرسائل بخصوص الكنائس النصرانية بمصر وحرية التجارة بين البلدين<sup>8</sup>، وفي سنة 723هـ/1323م بعث برسالة إلى ملك أرغون طرح فيها بجدية مسألة المسلمين الأندلسيين الذين كانوا تحت السيادة الأرغونية، فقد كانوا يجرمون من إقامة الآذان والصلاة في المساجد عكس نصارى مصر الذين كانوا يتمتعون بحرية أداء الشعائر الدينية، وجاء في الرسالة المملوكية: "...ونحن نعرفه أنه بلغنا أن جماعة المسلمين الذين في بلاده الذين استقروا بها بعدما استقرت عليهم أحوالهم، لهم عوائد متقدمة بالكرامة والرعاية، وعدم المعارضة في المساجد المستقرين بها، وأنهم الآن ربما تغيرت عوائدهم في ذلك وصاروا لا يتمكنون من التأذين في مساجدهم، وإقامة الصلاة بها"<sup>9</sup>. وتواصل الرسالة أن هدف الملك الناصر المملوكي هو أن يحترم المسلمون في بلاد الأندلس وأن يسمح لهم بأداء الشعائر الدينية في المساجد حيث يقول: "والمراد من محبته الصادقة أن يتقدم بالوصية التامة بجميع من في بلاده من المسلمين وإجرائهم على أجمل عوائدهم، وأكمل قواعدهم، ولا يغير عليهم مغير في مساجدهم، والإعلان بصلاتهم، وكف الضرر عنهم ورعاية جانبهم"<sup>10</sup>.

وختمت الرسالة بتذكير الملك الأرعوني بأن سلطان المماليك هو الحامي للديار الإسلامية والمسؤول عن كل مسلمي العالم ممن لا يقطنون في البلدان الإسلامية: "فهو يعلم أننا قد ألقى الله تعالى إلينا مقاليد سائر أهل الإسلام حيث كانوا وأين كانوا، فأى مكان وجد به أحد من المسلمين كانوا متعلقين بنا ويتعين علينا رعايتهم، فيفعل في أمرهم ما يتخذ له أكمل المودة وأجمل الصحبة، وهمته تغني عن التوكيد في ذلك ..."<sup>11</sup>.

ويمكن القول بأن الملك الناصر المملوكي قد حاول قدر الإمكان ممارسة سلطته كحامي للمسلمين في العالم المسيحي بالخصوص، مستغلا في ذلك ظروف القوة التي كانت تعيشها بلاده، كما لا يجب إغفال الدور الهام لبني مرين في المغرب الإسلامي، ما أعطى دعما لموقف الملك الناصر في علاقاته مع النصارى في الأندلس.

وفي خضم هذا الجو سجلت لنا المصادر وجود الكثير من المراسلات الدبلوماسية بين ملوك بني نصر وسلاطين المماليك دارت في عمومها حول أخبار الأندلس أو الاستنجد بالمماليك فضلا عن وجود مراسلات أخرى من ملوك غرناطة إلى الحرمين الشريفين وعرفت بالرسائل النبوية، وفيما يلي عرض لمحتوى الرسائل ومن خلالها نتبع تطور العلاقات الدبلوماسية بين الدولة النصرية والمملوكية.

- رسالة من السلطان النصري الغني بالله إلى السلطان المملوكي المنصور بمناسبة استرجاع منصبه (شوال - ذو القعدة 763هـ/1362م):

يعد السلطان محمد الخامس الملقب بالغني بالله من أشهر ملوك بني نصر وأقواهم، وقد تولى الحكم على فترتين الأولى من 755-760هـ/1354-1359م<sup>12</sup>، وأعلن ولاءه لملك قشتالة بطرس الأول وعمل على إقامة علاقات ودية مع ملوك

النصارى، كما سعى إلى إرضاء بني مرين بمساعدة وزيره لسان الدين بن الخطيب الذي قدم إلى فاس وتم استقباله بحفاوة<sup>13</sup>.

وفي سنة 760هـ/1357م تولى إسماعيل الثاني الحكم بعد عملية انقلابية داخل الأسرة النصرية الحاكمة، واستمر في الحكم إلى غاية سنة 762هـ/1361م<sup>14</sup> حيث عاد إلى الحكم للمرة الثانية محمد الخامس وتلقب بالغني بالله واستمر في منصبه إلى غاية سنة 794هـ/1392م، وبهذه المناسبة راسل السلطان المملوكي المنصور قلاوون، حيث أن الغني بالله أراد توطيد العلاقات الودية مع المماليك في الجانب السياسي والاقتصادي<sup>15</sup>.

وقد أورد الرسالة كل من لسان الدين بن الخطيب الذي تولى كتابتها عن السلطان النصري في كتابيه ربحانة الكتاب ونفاضة الجراب<sup>16</sup>، والقلقشندي في كتابه صبح الأعشى<sup>17</sup>، والمقري في كتابه نفح الطيب<sup>18</sup>.

وافتححت الرسالة بذكر الألقاب المملوكية مما اختص به سلاطين المماليك في المكاتبات وتم وصف المنصور ب: "هازم الفرنج والترك والتطار، الملك المنصور..."<sup>19</sup>، وهي إشادة بالمماليك الذين بلغوا مرتبة من القوة مكنتهم من مجابهة كل القوى الخارجية التي كانت تهدد العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، وقهرهم للمغول والتتار من الشرق وللصليبيين في سواحل الشام ومصر.

وتواصل الرسالة: "فإننا كتبنا إلى تلك الأبواب الشريفة... من دار ملك الإسلام بالأندلس حمراء غرناطة"<sup>20</sup>، كما تحدثت عن المؤامرات والدسائس التي جرت داخل البيت النصري وما نتج عنها من انقلابات وخلع للأمير الغني بالله وكيفية لجوئه إلى المغرب لاجئاً عند ملوك بني مرين في فاس، والذين اعترف بكرمهم وضيافتهم خاصة السلطان أبي سالم بن أبي الحسن وحسن استقباله: "وجزنا البحر... وتزلنا من جناب سلطان بني مرين على المشوى الذي رحب بنا ذرعه ودل

على كرم الأصول فرعه، والكريم الذي وهب فأجزل ونزل لنا عن الصهوة وتنزل وخير وحكم....<sup>21</sup>.

ثم وصفت الرسالة الكيفية التي عاد بها الغني بالله إلى الحكم والظروف الداخلية السياسية والاقتصادية لمملكة غرناطة التي عانت من المجاعة والضغط العسكري من طرف القشتاليين. وختمت الرسالة بعبارات الولاء للممالك: "ورأينا أن نطاق علومكم المشرفة بهذا الواقع تسبباً للمفاتحة المعتمدة، وتمهيداً للموالاتة المجددة...."<sup>22</sup>.

وتضيف الرسالة: "وبلادكم ينبوع الخير وأهله ورواق الإسلام... ونحن نستوهب مظان الإجابة لديكم دعاءاً يقوم لدينا مقام المدد ويعدل منه الشيء بالمال والعدد"<sup>23</sup>.

- جواب السلطان المنصور المملوكي للغني بالله النصري<sup>24</sup>:

في شهر جمادى الأولى سنة 765هـ/1364م أرسل السلطان المنصور قلاوون رسالة إلى الغني بالله النصري، وجاء فيها: "وأما غير ذلك فقد وصل رسول الحضرة العلية إلينا، وتمثل بمواقفنا المعظمة، ومحال مملكتنا المكرمة، وأقبلنا عليه، وضاعفنا الإحسان إليه، وأدى إلينا ما تحمله من المشافهة الكريمة، ورسائل المحبة والمودة القديمة، فرسمنا بإجابة قصده... وقضاء شغله الذي حضر فيه"<sup>25</sup>. والمقصود أن الرسول النصري الذي حمل الرسالة الأندلسية إلى مصر كان يحمل رسالة شفوية تضمنت طلب مبلغ من المال كإعانة لحزينة غرناطة. وقد ذكرت الرسالة المملوكية قيمة الإعانة المملوكية والمقدرة بـ 1000 دينار مصرية: "ومسامحة الحضرة العلية بما يتعين على ما قيمته ألفا دينار مصرية حسب ما عينه رسوله المذكور"<sup>26</sup>، وهنا يظهر الملك المنصور مدى سخائه مع ملوك الدول الإسلامية في



المغرب إذ يقول في الرسالة: "ولو كان سألنا أضعاف ذلك لأجبنا سؤاله من غير ترو ولا فتور، وقد جهز إليه صحبته ما أنعمت به صدقاتنا الشريفة عليه من الدرياق ودهن اللسان"<sup>27</sup>، وهي إشارة إلى تبادل الهدايا بين الملوك، وقد اعتاد المماليك على أن يبعثوا هذه الأشياء مع رسلهم وسفاراتهم إلى ملوك المغرب.

### - موقف بني نصر من حملة الجنويين على الإسكندرية سنة 767 هـ/1366 م:

في ظل الظروف السياسية المتوترة التي كانت تعيشها الأندلس بسبب الهجمات النصرانية المتكررة على المدن والبوادي والثغور الإسلامية، كان الصليبيون في المشرق يسعون إلى بسط نفوذهم على سواحل بلاد الشام ومصر، وفي هذه الظروف جاءت الحملة التي قادها الجنويون الذين سيطروا على جزيرة قبرص منذ 708 هـ/1308 م واتخذوها منطلقا لحماتهم ضد السواحل المملوكية، وفي يوم الأربعاء 22 محرم 767 هـ استقروا قرب ساحلها ودخلوها يوم الجمعة في النهار بعد أن حرقوا أبوابها منها وقتلوا من أهلها وأسروا الكثير وأخذوا منها الأموال، وأقاموا بها قرابة الأسبوع حتى ليوم الأربعاء الموالي حين قدم إلى المدينة الجيش المملوكي، وانتهت الأزمة بأضرار جسيمة، واتخذ المماليك قرارات خصت النصارى المقيمين في دولتهم، وبدأت الاستعدادات لغزو قبرص كرد فعل على هذه الحادثة<sup>28</sup>.

ولما وصل الخبر إلى الملك النصري الغني بالله أمر وزيره لسان الدين بن الخطيب بكتابة رسالة إلى السلطان المملوكي الأشرف شعبان<sup>29</sup> يبين فيها تضامن النصريين مع المماليك في هذه الفاجعة.

افتتحت الرسالة بذكر عبارات التبجيل التي خص بها سلاطين المماليك في المراسلات " جمال الإسلام، علم الأعلام، فخر الليالي والأيام، ملك البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمل الأمصار والأقطار، عاصب تاج الفخار، هازم الفرنج والترك والتتار، الملك المنصور أبي الفتوح شعبان"، وتواصل بذكر المرسل " من معظم سلطانه، ومجل شأنه المفتخر بالانتظام في سلك خالصانه، أمير المسلمين بالأندلس عبد الله، الغالب بالله، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر، بلغه الله من رضاه أقصى سؤل، وأعانه على جهاد عدوه وعدو رسوله.. فإننا كتبناه لمثابتكم السلطانية دار العز الأحمى... بحمراء غرناطة، دار ملك الجهاد بجزيرة ثغر الأندلس، والى الله عنها الدفاع"، ثم راحت الرسالة تسرد ما بلغ الأندلسيين من أمر الحملة القبرصية الصليبية على مدينة الإسكندرية، وكذلك الفرحة التي عمتهم بعدما تم الانتصار على النصارى وتأديبهم في بلادهم قبرص<sup>30</sup>.

#### - ازدياد الخطر النصراني على المملكة النصرية والاستنجاد بالمماليك:

تزايدت هجمات القشتاليين على المدن والحصون النصرية في ظل الانقسام الذي حل بالبيت النصري، فبعد وفاة محمد الخامس الغني بالله في 793هـ/1391م تولى بعده مجموعة من الأمراء أدخلوا الدولة النصرية في الفوضى والصراعات السياسية، وانتهزت قشتالة الفرصة للتسريع في حركة الاسترداد النصرانية، فتارة يعقد ملوكها الصلح مع النصريين لربح الوقت ثم ينقضون العهد ويباشرون غزو الأراضي الأندلسية<sup>31</sup>.

وفي ظل هذه الظروف عمل حكام غرناطة على مراسلة سلاطين المماليك من أجل الاستنجاد بهم ضد النصارى، وتسجل المصادر أن الأندلسيين قد راسلوا

السلطان المملوكي الملك الظاهر جقمق<sup>32</sup> سنة 844هـ/1440م يستنجدون به لنصرتهم، كما راسلوا السلطان الملك الظاهر خشقدم سنة 868هـ/1463م، لكن يبدو أن المماليك كانوا في انشغال حقيقي بأمورهم الداخلية والخارجية التي تهدد حدودهم خاصة في ظل تنامي قوة العثمانيين الذين سعوا جاهدين إلى الاستيلاء على الشام ومصر والخلافة فلم يتسنى للمماليك تقديم أي نوع من أنواع المساعدة.

### - استنجد الأندلسيين بالسلطان الأشرف قايتباي:

تولى أبو عبد الله الزغل حكم غرناطة عقب أخيه أبي الحسن علي سنة 890هـ/1485م في إمارته الأولى وفي عهده اندلعت فتنة في مدينة غرناطة دامت لمدة سنتين وانقسمت المملكة إلى شطرين<sup>33</sup>.

وفي هذه الأثناء حاصر القشتاليون مدينة بلش ودخلوها صلحا وارتحل سكانها إلى غرناطة وبلاد المغرب، كما قاموا بحصار مدينة لوشة في شهر 26 جمادى الأولى سنة 891هـ/30 ماي 1486م ورحل سكانها إلى العاصمة النصرية<sup>34</sup>. ثم طوق القشتاليون مدينة مالقة من البحر والبر وتحصن بداخلها الأندلسيون المسلمون، وكان الزغل في وادي آش فاستنجد بملوك عدوة المغرب، كما حل الشيخ أبو عبد الله محمد بن الأزرق على السلطان المملوكي يستنجد في شأن إنقاذ الأندلس والذي يقول عنه المقري: "ودخل تلمسان لما استولى العدو على بلاد الأندلس ثم ارتحل إلى المشرق فدخل مصر واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الأندلس، فكان كمن يطلببيض الأنوق أو الأبيض العقوق، ثم حج ورجع إلى مصر فجدد الكلام في غرضه فدافعوه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس...."<sup>35</sup>.

ويبدو من كلام المقرري أن هذا العالم الجليل قد سعى جهده في دعوة المماليك إلى التدخل في الشأن الأندلسي، لكن رغبته لم يكن تحقيقها لمجموعة من العوامل أهمها البعد الجغرافي بين مصر وغرناطة واشتغال المماليك بالمشاكل السياسية والصراع مع العثمانيين إضافة إلى العلاقات الدبلوماسية التي ربطتهم مع ملوك أوروبا عامة والمصلح التجارية المتبادلة، فلم يكن منهم سوى توجيه سفارات مملوكية إلى الممالك الأوربية يطالب فيها بالكف عن أذية المسلمين والتوقف عن طردهم من ديارهم وإلا سيعامل النصارى المشاركة بنفس الأسلوب، وهو ما اعتاد المماليك القيام به في الكثير من المناسبات، لكن القشتاليين والأراغونيين لم يكثرثوا لهذه التهديدات لعلمهم باشتغال المماليك بالأزمات الأكثر قربا من حدودهم<sup>36</sup>.

وفي ظل الصمت الوطاسي والحفصي والزياني والعثماني والمملوكي على الأزمة الأندلسية، واصلت قشتالة حركة الاسترداد في الأراضي الإسبانية واحتلت مدينة مالقة بعد حصار دام ثلاثة أشهر أكل فيها المالقون الجلود وأوراق الأشجار وتعبوا وأصابهم الجوع والمرض فاستسلموا وسمح لهم بالرحيل إلى المغرب سنة 892هـ/1487م<sup>37</sup>. ثم دخل القشتاليون مدينة بسطة صلحا ثم حاصروا مدينة المرية وتم تسليمها في السنة نفسها، وأسرع الزغل إلى الدخول تحت لواء قشتالة ثم تنازل عن كل شيء ودخل إلى المغرب واستقر به المطاف في تلمسان<sup>38</sup>.

وبعد سقوط كل المدن النصرانية بيد القشتاليين بقيت العاصمة غرناطة التي أرسل الإسبان إلى ملكها أبي عبد الله من أجل تسليمها وبعد الرفض تمت محاصرتها من طرف الملك فردناندو والملكة إيزابيلا وفشلت محاولات الاقتحام إلى غاية شهر المحرم من سنة 897هـ/1491م وما ضاق الحال بأهل المدينة تقرر تسليمها وفق معاهدة تم التوقيع عليها في شهر 25 ديسمبر 1491م وهو يوم عيد الميلاد لدى المسيحيين الكاثوليك، وتم دخول النصارى إليها في شهر يناير سنة 1492م<sup>39</sup>.

## -خاتمة:

إن المتتبع لتاريخ العلاقات بين الدولتين النصرانية بالأندلس والمملوكية بمصر والشام طيلة المدة الممتدة بين القرنين السابع والتاسع الهجريين / 13-15م، يلاحظ مدى اهتمام المماليك بتتبع مجريات الأحداث السياسية والعسكرية في الجانب الغربي للحوض المتوسط، ولما كانت الدولة النصرانية هي أضعف حلقات الوجود الإسلامي بالجناح الغربي أمام تصاعد المد النصراني الإسباني، كان لزاما على دولة المماليك الاضطلاع بالدور المنوط بها في حماية المسلمين لكونها تمثل الحلقة الأقوى في عقد الدول الإسلامية، والمتحدث الرسمي باسم المسلمين في المحافل الأوروبية، ورغم الروابط القوية بين الدول الإسلامية خلال العصر الوسيط، إلا أن المصالح الاقتصادية والسياسية والارتباط باتفاقيات دفاع مشترك مع الدول الأوروبية حال دون تقديم المماليك للدعم المناسب واللازم لإنقاذ الوجود الإسلامي بالأندلس وتمديد عمره، وذلك رغم الاستنجات والاستغاثات التي كان يبعث بها حكام بني نصر إلى البلاط المملوكي، وكان التدخل المملوكي في هذا الشأن يتمشى وسياستها تجاه الدول الأوروبية النصرانية.

## الهوامش:

<sup>1</sup> - أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1985، ج14، صص 75-82.

<sup>2</sup> - القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، صص 75-82، ص76- أحمد عزوي، العلاقات بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط، مطبعة ربا نت، الرباط، 2011، ج2، صص 204-205

<sup>3</sup> - عزوي، العلاقات، ج2، ص 205

<sup>4</sup> - القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص 76

<sup>5</sup> - القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص 76

- 6 - عزاوي، العلاقات، ج2، ص ص205-210
- 7 - عزاوي، المرجع السابق، ص210.
- 8 - أحمد عزاوي، العلاقات، ج2، ص211 وما يليها.
- 9 - عزاوي، المرجع السابق، ص287.
- 10 - عزاوي، العلاقات، ج2، ص228.
- 11 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 12 - لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1987، ص113-115.
- 13 - يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، دار الجليل، بيروت، 1983، ص37.
- 14 - لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية، ص126.
- 15 - يوسف شكري، المرجع السابق، ص41.
- 16 - لسان الدين بن الخطيب، ربحانة الكتاب، ج1، ص ص490-501 - نفاضة الجراب، ج3، ص ص193 - 200.
- 17 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص442.
- 18 - أبو العباس أحمد المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر العربي، بيروت، 1998، ج1، ص ص321 - 326.
- 19 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص442.
- 20 - المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص322.
- 21 - المقرئ، نفح الطيب، ج1، ص324.
- 22 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص444.
- 23 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص444.
- 24 - المصدر نفسه، ص ص442-444.
- 25 - المصدر نفسه، ص444.

- 26 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 27 - نفسه.
- 28 - ابن كثير، البداية والنهاية، تح: جودت محمد، ج14، ص 250-252.
- 29 - هو ناصر الدين شعبان بن حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون تولى الحكم 764 هـ إلى غاية 778 هـ. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص 239.
- 30 - لسان الدين بن الخطيب، رحانة الكتاب، ج1، ص ص 295-303 - القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، ص ص 107-115.
- 31 - حول اتفاقيات الصلح بين الدولة النصرية وملوك إسبانيا المسيحيين يمكن الرجوع إلى دراسة أحمد عزايوي، العلاقات، ج3، ص ص 89-136.
- 32 - هو السلطان أبو سعيد جقمق بن عبد الله العلائي الظاهري الرابع والثلاثون من سلاطين المماليك تولى الحكم في 842 هـ إلى غاية 857 هـ وكان ملكا حكيما وعادلا ومحبا للعلم. ابن تغري بردي، المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي، تحقيق: محمد أمين، نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب، القاهرة، 1984-1990، ج4، ص ص 275-312، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1972، ج15، ص ص 256-462 - شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ طبع، ج3، ص 71.
- 33 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 519.
- 34 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص ص 523 - 529.
- 35 - المقري، نفح الطيب، ج2، ص 702.
- 36 - شكري فرحات، المرجع السابق، ص52.
- 37 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص ص 523-529.
- 38 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 522.
- 39 - المقري، نفح الطيب، ج4، ص 526.

استخدام القناصل الفرنسيين كأداة رقابة على المقاومين والمهاجرين الجزائريين

خلال القرن 19 . دراسة وثائقية

د. عثمان زقب / كلية العلوم الاجتماعية والانسانية / قسم العلوم الانسانية /

جامعة الشهيد حمدة لخضر الوادي.

### ملخص المقال بالعربية:

يتناول موضوع المقال التعرض إلى الدور الذي لعبه القناصل الفرنسيين في تونس وطرابلس وبلدان المشرق في القيام بأعمال متنوعة تتمثل أساسا في فرض رقابة على المقاومين الجزائريين الذين لجؤوا إلى هذه البلدان خاصة تونس والمغرب الأقصى وطرابلس. يضاف إلى ذلك القيام بإجراءات تهدف إلى فرض رقابة على المهاجرين الجزائريين في دول الجوار وبالمشرق العربي بما في ذلك رحلة الحج.

### ملخص المقال بالانجليزية:

The article deals with the subject of exposure to the role played by the French consuls in Tunis and Tripoli, and the countries of the Orient, to do a variety of effects, mainly to censor the Algerian resistance fighters who fled to these countries, especially Tunisia and Morocco and the Far Tripoli. In addition, performing procedures designed to censor the Algerian immigrants in neighboring countries and the Arab Mashreq, including the pilgrimage season. It was the purpose of this work is to preserve the interests and security of France in Algeria.

تمهيد:



لقد لعب القناصل الفرنسيين؛ أدوارا فعالة طويلة فترة الاحتلال الفرنسي خاصة خلال القرن التاسع عشر؛ حيث تجاوز هذا العمل الاستخباراتي حدود البلاد بأن عمل القناصل الفرنسيين في دول الجوار، أو في بقية الدول الإسلامية بالشرق، على دعم وزارة الخارجية في باريس أو إدارة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، بكل المعلومات التي من شأنها الإضرار بما يعتبرونه مصالح فرنسا في الجزائر والأمن العام للمستعمرة. تتمثل الإشكالية الرئيسية التي اعتمدها في هذا المقال؛ في البحث عن الأدوار التي لعبها القناصل الفرنسيين خاصة في البلاد العربية خلال القرن 19 في فرض رقابة صارمة عن المقاومين والعناصر الجزائرية المتواجدة في هذه البلدان بمختلف الأشكال.

ولقد تناولت الموضوع ضمن العناصر التالية:

- 1- تدخل القناصل الفرنسيين في متابعة المقاومين الفارين إلى دول الجوار مثل تونس والمغرب وطرابلس.
- 2- فرض القناصل الفرنسيين أنفسهم كطرف ممثل لرعاية مصالح الجزائريين المسلمين.
- 3- مراقبة هجرة الجزائريين إلى سوريا وموسم الحج.
- 4- دور القناصل الفرنسيين في مواجهة الدعاية العثمانية على المهاجرين وأمن المستعمرة.

ويمكننا من خلال هذا العرض استعراض نماذج عن ذلك في الكثير من المجالات:

- 1- أمثلة عن تدخل القناصل الفرنسيين في متابعة المقاومين الفارين إلى دول الجوار مثل تونس والمغرب وطرابلس.

ضمن هذا المجال يذكر الدكتور يوسف مناصرية؛ بأن الفرنسي ليون روش (Léon Roches)<sup>1</sup> قد قام " خلال القرن التاسع عشر بأعمال استعمارية هدامة في المغرب العربي، ارتبطت فيها مغامراته الجاسوسية في الجزائر بمهامه الدبلوماسية في المغرب، وأعماله الاستعمارية التخريبية في ليبيا، بنشاطه التبشيري في تونس"<sup>2</sup>.

يمكننا هنا الاستشهاد بمواقف القنصل ليون روش والدور الذي لعبه في تونس؛ عندما شغل منصب قنصل جنرال فرنسا بتونس. حيث كان هذا الأخير حريصا على مراقبة حركة المقاومين الجزائريين المتمركزين في الحدود، وإعطاء معلومات عن تحركاتهم بل أكثر من ذلك حاول إثارة السلطة التونسية عليهم.

خلال مهمة ليون روش إلى الحجاز، للحصول على مصادقة علماء المشرق والمغرب على فتوى القيروان وجامع الأزهر بعدم جواز مقاومة المسلمين للاحتلال الفرنسي. صادف أن كان بالمجلس الشيخ السنوسي؛ والذي يصفه أنه كان معارضا للحكم الفرنسي بالجزائر، وأكثر من ذلك فان ليون روش أشار، لتقرير استخباراتي حول هذه الشخصية نقلا عن قنصل فرنسا في طرابلس؛ جاء فيه حسب ما يقوله: " لقد لاحظت أكثر من مرة التأثير الخطير لهذا الشيخ المتعصب والذي قنصلنا العام في طرابلس(..) قد شجّب مؤامراته وإثارته للحرب المقدسة"<sup>3</sup>.

في مراسلة لمفوضية وقنصلية فرنسا العامة بتونس (العاصمة) مؤرخة في 8 أوت 1860؛ بتوقيع ليون روش موجهة لسمو حاكم تونس؛ ورد بأنه قد حوّل له ترجمة رسالة استلمها من القائد العسكري بيانته. ومما ذكره ليون روش في مراسلته: " ..منذ عشرون سنة، أحطت علما الحكومة التونسية على السلوك الذي لا يوصف

للجزائري ناصر بن شهرة<sup>4</sup> (Nasser ben Chohra) (..) هذا الرجل الخطير لم يتم توقيفه لحد الآن.. "5.

في الواقع لم يكن جديدا أن اتخذ المقاومون الجزائريين خلال القرن 19؛ دول الجوار الجزائري مثل تونس، المغرب والايالة الطرابلسية، إما بصفة مؤقتة أو دائمة كمناطق لجوء عند محاصرة قوات الاحتلال الفرنسي لها. هذا فعله الأمير عبد القادر في المغرب ومقاومين آخرين في تونس أيضا من بينهم ناصر بن شهرة. لذا نلاحظ من خلال عبارات قنصل فرنسا بتونس ليون روش؛ الحرص منه على التحريض لإثارة السلطة التونسية على ناصر بن شهرة، وإبراز تقاعسها أمام تحركات هذه الشخصية التي ترى فيها خطورة على أمن مستعمرتها في الجزائر. غير أن ما لاحظته في رسائل أخرى سيرد ذكرها؛ تبين لي محاولة ربط بعض الاعتداءات على قوافل سكان وادي سوف بهذه الشخصية واتهامها بالنهب والسلب؛ قد يكون حسب رأيي الهدف منه تشويه صورته لدفع سلطات تونس بالتحرك ضده بحزم.

وضمن هذا التوجه؛ ورد في تعريب مراسلة ليون روش قنصل فرنسا بتونس إلى حاكم المملكة التونسية في 2 أكتوبر 1862 ما يلي كما جاء في نسختها الأصلية: " صار لنا سبع سنين ونحن نطلب من جنابكم عمل تاويل في التمكن على نصر بن شهرة وبن بوغلاق<sup>6</sup> الذين طالما شرعوا بالجرابة والنهب على عروشنا في الجهة القبيلية من العمالة كما بين ذلك المارشال دوك دي ما اكوف حاكم عموم الجزائر بمكتوبه الواصل للسيادة نسخة منه صحبة هذا.. " 7 .

كما ورد أيضا؛ في تعريب نسخة مكتوب المارشال في الجزائر للقنصل ليون روش الوارد مع مراسلته المذكورة: " كنت أعلمتكم رسالة تلغرافية أن أنفارا من أولاد

يعقوب ومعهم نصر بن شهرة وبن بوغلاق دخلوا ترابنا ونهبوا قافلة بقرب أم الطيور وهذا المكان هو بعيد عن بسكرة بثلاثين ليقة (ثلاثة نقاط فوق الفاء) في الطريق المؤدي من البلد المذكور لدقرت (تقرت) والطريق المذكور عامر كثيرا وبه دائما الأمان للنصارى والمسلمين وقد سعينا بأن نجعل في المكان المذكور فلاحا وعمار بقرب الآبار الجدد والعرب الذين كانوا ينتقلون من مكان الى آخر ابتدوا يجتمعوا حول المكان المذكور ويجعلون به دشرة ويزرعون سواقي ونخل وآلأ أهل الشر صاروا يجتمعوا بمعاينة (بمعاونة) عمال الدولة التونسية ويقطعون السحرة (الصحراء) ونهبوا قافلة وسرقوا وقتلوا في نفس(..) ما عدنا نعتبر الا مصالحنا ونباشر بأنفسنا ردع هؤلاء المجرمين الذين ما تطولهم يد دولة الباي..<sup>8</sup>.

إن هذا الكلام الأخير أصبح يحمل تهديدا واضحا؛ لسلطات تونس بأنها إن لم تتحرك ضد ما تعتقده من شر ونهب وقتل في الصحراء الشرقية من أنفار من أولاد يعقوب<sup>9</sup> ومعهم نصر بن شهرة<sup>10</sup> وبن بوغلاق؛ فهي على استعداد لتسوية الأمر بنفسها، وطبعا هذا سيكون فيه اعتداء على سيادة المملكة التونسية. وسيرد لاحقا تشكيك من ليون روش في العلاقة بين العاملين في مناطق الحدود والسلطة التونسية؛ بالإشارة إلى وجود تأمر وتواطىء، من هؤلاء المعاونين. إن هذا الأسلوب الفرنسي في التعامل من شأنه زيادة الضغط أكثر على الحكومة التونسية لضبط الحدود، وهذا يعني حماية مصالح فرنسا بالطبع.

إننا نجد ذلك بوضوح؛ في تعريب رسالة ليون روش المكلف بأمر دولة فرنسا وقنصلها الجنرال بتونس في 2 أكتوبر 1862 إلى حاكم تونس؛ بخصوص هجمات أولاد بوغانم على الأراضي الجزائرية؛ لتذكير السلطة الحاكمة في تونس بتصرفات

ناصر بن شهرة وبن بوعلاق، ومما ورد فيها: " وقد كنت أعلمت جنابكم بمكتوبي المؤرخ في 2 من شهر التاريخ بنهب قافلة جزيرية (جزائرية) من نصر بن شهرة وبن بوعلاق فمن مدة سبع سنين للآن اسم النفرين المذكورين متصل بساير التحييرات الواقعة في الجهة القبليية من العمالة فأسأل جنابكم نفسها أما يوجد بذلك دليل على قلة تأثير الأوامر الصادرة من جنابكم في هذا الشأن أو على خيانة المأمورين المكلفين بتنفيذها فاما مكاتبي مع جنابكم في شأن هذه الأمور الموجهة تشهد بوفور رغبتي بابتعاد اسباب المحاككة بين رعايا دولتين حبيبتين ولاكن ان وقع الغيار بينهما رغما على رغبتي المذكورة فانه لا تترتب على جناب حاكم الجزائر (الجزائر) ولا على أنا أدنى مطالبة.. " <sup>11</sup>.

وهكذا استمرت هذه المراسلات، في القيام بدورها التحريضي ضد ناصر بن شهرة والضغط على سلطة تونس لملاحقته؛ بل واتخاذة كذريعة للتدخل مستقبلا <sup>12</sup>. ففي مراسلة من المكلف بشؤون القنصلية العامة لفرنسا بتونس إلى الوزير الأول التونسي سي مصطفى خزندار (Si Moustapha Khaznadar) مؤرخة في تونس 6 أوت 1868 ورد الخطاب التالي: " السيد الوزير الأول، السيد المارشال الحاكم العام للجزائر، يشتكي (يحتج) بأنه منذ بضعة وقت، عصابات تونسية بقيادة محمد بن بوعلاق الشيخ السابق لأولاد يعقوب ومن ناصر بن شودجا (Nasseur ben Chodja) <sup>13</sup> جزائري لاجئ أحيانا في الجريد، أحيانا في نفزاوة <sup>14</sup>، عادوا للقيام في الصحراء الشرقية للجزائر بتوغلات وغزوات (razzias). ناصر بن خوجة (Nasser ben Khodja) <sup>15</sup> رفع السيد المارشال صلاة للإبلاغ عن حقائقه لحكومة الباي، بأن عرض عليه كم هو ضروري تخليص الحدود

من تواجد هذه العصابات ورؤسائهم، ودعوتهم إلى اتخاذ إجراءات عاجلة لهذا الغرض. قبائلنا للصحراء الشرقية، غاضبة كثيرا من هذه الهجمات المستمرة، عازمون على الانتقام، وأمام الانتهاكات المتكررة. لأراضينا، أما الأضرار من أي نوع التي يمر بها شعبنا(ناسنا gens)، السيد المارشال لا يمكن أن عملياتهم للانتقام، إذا من جهته حكومة سموه لم تبادر إلى إنهاء الوضع الناشئ عن السرقات من محمد بوعلام وناصر بن خوجة (Khodja). أرجوا أن تتقبل، أرجو أن تتقبل،(تكرار في الصفحة الأخيرة) السيد الوزير الأول، أسمى آيات تقديري<sup>16</sup>.

## 2- فرض القناصل الفرنسيين أنفسهم كطرف ممثل لرعاية مصالح الجزائريين المسلمين:

ومن الذين ساروا أيضا ضمن هذا التوجه نجد ليون روش قنصل فرنسا في تونس؛ والذي كان يتدخل باستمرار في كل ما يتعلق بالصراعات في المناطق الحدودية، من أجل اعتماد السلطة الفرنسية كممثل للقبائل الجزائرية المجاورة للحدود التونسية. وإجبار السكان المسلمين للتعامل معها؛ كراعية لمصالحها.

في مراسلة مؤرخة في 2 محرم 1273؛ مرسله من السيد المشير محمد باشا باي صاحب المملكة التونسية إلى ليون روش (Léon Roche)؛ المكلف بأمور الدولة الفرنسية والقنصل جنرال بحاضرة تونس، حيث يذكر فيها بأنه قد بلغه كتابه الذي يتضمن مراسلة "الجنرال حاكم قسنطينة يذكر أن أولاد يعقوب بن نفاوة نهبوا قافلة للسوافة. وفي ذلك مضرة الجانبين..". وسعى حاكم تونس إلى ترديد مسألة تسوية هذه النازلة التي أصابت السوافة وحللتها. وقد ذكر أنه اتصل في الحين بكبير أولاد يعقوب محمد بوعلام<sup>17</sup>.

كما ورد أيضا في مراسلة أمير فرنسا نائب حاكم عموم الجزائر إلى قنصل جنرال فرنسا بتونس مؤرخة في الجزائر في 30 أكتوبر 1857 في نسختها بالعربية؛ والمتعلقة باللاغارة التي تعرضت لها قافلة من سكان وادي سوف من بوغلاق وناصر بن شهرة: "..طلبت منكم أن تمنعوا النظر في نازلة غارة التوانسة في أرضنا على الصوافة (السوافة) والآن الجنرال حاكم عمالة قسنطينة عرفني بغارة جديدة وقعة (وقعت) بقرب المجاهير وهو مكان كاين بعيد بعشرة فراسخ عن قيما (قمار) في الثنية الموصلة من قيما إلى تيندلا (تندلة) وفي الغارة المذكورة ضاع لأهل قيما ستين جمل وأهل زغوم (الزقم) احدي وثلاثين جمل وأهل البهيمه اثني وعشرين وجمله هاته الجمال الذي يبلغ عددها إلى مائة(مائة) وثلاثة عشر(..) وكذلك ثمانية عشر جمل محملة بالقمح تابعة لعشايش الواد في حالة رجوعها من بيسكرا (بسكرة) إلى بيتاني وخلاف المائة وثمانية جمل المذكورة أعلاه التي ضاعت لجماعتنا فقد منهم رجل وانجرح لهم أربعة أنفس والقوم العدو كان تحت رياسة بن بوغلاق (بوغلاق) ونصر بن شورة (ناصر بن شهرة) وخرج من نفاوة..<sup>18</sup>.

في مراسلة بالعربية للسيد ليون روش قنصل الجنرال المكلف بأمر الدولة العظمى الفرنسية بمحروسة تونس 26 رجب 1273 ورد خلالها؛ تأكيد حرص القنصل ليون روش على خلاص دين السوافة في الإغارة التي تعرضت لها قافلته، راغبا عدم قيام السوافة بالرد عما تعرضوا له، والمراسلة مرسلة إلى سيدي علي الساسي ومما ورد فيها: " حفظكم الله تعالى ورعاكم وكان لكم وتولاكم الأجل الأمثل الأسعد الأجد المحترم. محبنا سيدي علي الساسي الحرمة الله تعالى امين السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد بلغنا عن نازلة واد سوف وخلصها وانكم متزهدين في

خلاصها(..) وقد أعطيته الكلمة في خلاص النازلة بكم واني ضمنت له الخلاص كما أني ضامن لكم في خلاص دراهمكم. واني أخاف ان طال أمر هاته النازلة ولم ينضروا خلاصها ربما تحدثهم انفسهم يخلصون(..) حقهم بأيديهم لأنهم أناس لم يخشون العواقب ولهم الحق في ذلك حين طال عليهم الأمر والأمد في الخلاص فالمراد محبنا انكم تجتهدوا وتبذلوا الجهد في خلاص ذلك عجلا من غير تراخي أحسن من المرح ويثبت قولي عند الجنرال في ما خاطبته على الخلاص ولا أزيدكم تأكيدا على ابذال الجهد في الخلاص ليتنور وجهي وتثبت كلمتي لديه ودمتم في أمان الله وحفظه والسلام من محبكم عبد ربه ليون روش قنصل الجنرال المتكلف بأمر الدولة العظمى الفرنسية بمحروسة تونس 26 في شهر رجب سنة 1273 من كاتبه عبد ربه سبحانه ليون روش لطف الله به آمين<sup>19</sup>.

كما تضمنت تعريب رسالة ليون روش المكلف بأمر دولة فرنسا وقنصلها الجنرال بتونس في 2 أكتوبر 1862 إلى حاكم تونس؛ بخصوص غارات أولاد بوغانم على الأراضي الجزائرية الخطاب التالي: " .. أولاد بوغانم مازالوا مصيرين على عاداتهم في التحيير والنهب وأغاروا عدة مرات على بر الجزائر كما أعلمني بذلك أمس الحاكم المشار اليه برسالة تلغرافية(..) ولهذا فان جناب الحاكم المشار اليه لما أخبرني بهذه الأمور الموجهة التي تكاثر وقوعها في الحدادة أعلمني أنه وصل الى حد صبره وأنه يلزمه من الآن وصاعد أن يياشر بنفسه ردع وقاحة من يتجاسر على مضرة عروشنا<sup>20</sup> .

### 3-مراقبة هجرة الجزائريين إلى سوريا وموسم الحج:



كان القناصل الفرنسيين في المشرق خاصة في دمشق، بيروت، تركيا وجدة ومصر؛ حريصين على تقديم كل المعلومات المتعلقة بالمهاجرين وكذا موسم الحج ليسهل متابعة نشاطهم وكل ما من شأنه التأثير على تفكيرهم وبالتالي أمن ومصالح فرنسا في الجزائر. ولقد مكنتني البحث في الأرشيف التونسي من الاطلاع على عدد لا بأس به من تقارير ومراسلات بين هؤلاء القناصل ووزارة الخارجية الفرنسية، وكذا المقيم العام الفرنسي في تونس بحكم أن هذه الأخيرة كانت منطقة عبور للجزائريين في هجرتهم نحو المشرق، مع تواجدهم أيضا بكثافة في تونس إما بصفة مؤقتة أو دائمة. وسأستعرض عينات من هذه التقارير والمراسلات.

لقد ورد في مراسلة من وزارة الشؤون الخارجية في فرنسا، إلى الإقامة العامة لفرنسا بتونس؛ مؤرخة في باريس 19 أكتوبر 1896، بخصوص تسليم جوازات سفر للجزائريين للهجرة إلى سوريا ما يلي: " السيد سوشار (Sochart) أعلمني بأن فرقة من الجزائريين رجال، نساء وأطفال ركبوا في أربعة (..) في تونس على البخارية الإنجليزية دانيش برانس (Danish Prince) وصلوا للتو إلى بيروت باتجاه دمشق. ثمانية منهم أصولهم من تيزي وزو ودلس كانوا حاملين لجوازات سفر لأجل بيروت صادرة من طرف نائب قنصلنا في بنزرت (Bézerte)؛ لكن الكل صرحوا برغبتهم في أن يصبحوا رعايا عثمانيين. فنصلنا العام يضيف، حسب معلوماته، بأن هذه الهجرة حرض عليها أعوان أبناء عبد القادر بعد أن اعتنقوا الجنسية العثمانية. سوف أكون ممتنا إذا ما بلغتني عن هذه الحقائق، والتي أنا مندهش بأن دائرتي لم تحذر منها"<sup>21</sup>.

وفي مراسلة من الحاكم العام للجزائر إلى السيد وزير الشؤون الخارجية الفرنسي، مؤرخة في باريس 9 أكتوبر 1896؛ ورد فيها: "رغبت في كثير من الأحيان إحاطة علم معاليه، عن أن هجرة أهالينا نحو سوريا. منذ، الهجرة، في 1888، لعديد الجزائريين من مناطق واد الزناتي وأم البواقي، دائرة قسنطينة، لم يحدث، ماعدا حالات معزولة، ولا حركة هجرة جديدة سجلت. من الواضح أن هذا الوضع ناشئ بطبيعة الحال، من الوضع المؤسف والمتداعي والذي الأهالي رأوه لدى إخوانهم في الدين بالتعهد لهم بالوعود الكاذبة لترك المستعمرة.."<sup>22</sup>.

في وثيقة عبارة عن منشور (مذكرة) صادرة عن الإقامة العامة لفرنسا بتونس، من طرف قنصلها إلى السادة المراقبين المدنيين ورؤساء الملاحق، مؤرخة في 14 نوفمبر 1896 ورد ما يلي: "المتطلبات القانونية المعمول بها في الجزائر تمنع على كل جزائري رعية فرنسي، السفر بدون جواز سفر. لتهرب من هذه المتطلبات، بعض أهالي الجزائر يحصلون على رخص سفر للذهاب إلى تونس ويخاطبون هنا إلى سلطاتنا القنصلية لأجل الحصول على جوازات سفر تسمح لهم للمغادرة (للكوب) لبلد أجنبي. حتى لا يحصل، في تونس تعارض مع القانون المطبق في الجزائر، السادة المراقبين المدنيين مدعوين، بصورة عامة بعدم استصدار جواز السفر أو رخصة السفر للجزائريين، الرعايا الفرنسيين، الثابتين (fixes)، البقاء أو السفر في تونس، مثلما هو باتجاه نقطة في الحماية أو الجزائر، والامتناع عن استصدار ولا تصاريح سفر لجميع البلدان الأخرى"<sup>23</sup>.

كما ورد في مراسلة من القنصل الفرنسي في دمشق إلى السيد وزير الشؤون الخارجية الفرنسية؛ مؤرخة في دمشق 10 جانفي ما يلي: "يشرفني إعلامك بأن

مجموعة جديدة من الجزائريين، تتكون من ثمانية وثلاثون عائلة، تشكل مجموعة مائة وستون وستة عشر (160 و 16) وصلوا مؤخرًا إلى دمشق. مثل الذين سبقوهم، هؤلاء الجزائريين قادمين من تونس، أين قاموا بإقامة مؤقتة تتراوح بين ثلاثة إلى ثمانية سنوات، إذ يركبون في بنزرت، ويقومون بالترانزيت في ميناء تونس، بدون النزول للأرض، وعلى متن سفينة إنجليزية أخذتهم إلى بيروت. سوف يلتحقوا بإخوانهم في الدين...<sup>24</sup>.

ورد في مذكرة موجهة من الإقامة العامة بتونس، المراقب المدني ونيابة قنصلية فرنسا بتونس، بتوقيع المراقب المدني توشون (Touchon)؛ إلى السيد ريني ميلي (René Millet)<sup>25</sup> المقيم العام للجمهورية الفرنسية؛ مؤرخة في 12 ماي 1899؛ بخصوص ركوب أهالي نحو الشرق حيث ورد فيها؛ أن المراقب المدني في تونس قد وجه "أقصى الانتقادات لشيخ ناس مقاطعة قسنطينة للموقف الذي نسب إليه لركوب أهالي نحو الشرق، في الوقت الذي تلقى فيه التعليمات الأكثر رسمية بأن لا يترك صعود أيا من خاصته وأن أوامر أعطيت له من أجل التقيد مثل الشيوخ الآخرين في خدمة الشرطة لمنع الصعود على متن السفن عوضًا من حمايتهم كما كان يفعل"<sup>26</sup>.

أما بخصوص متابعة موسم الحج؛ فلقد وردت مراسلات بشأن زيادة الرقابة والضبط على المسلمين الجزائريين، المعنيين بالحج لمخافة الفرنسيين من هذا الحدث السنوي الذي يصفه الفرنسيون في الكثير من قراءته خلال بحثي؛ بأنه مصدر للتعصب لذا لم تكن إدارة الاحتلال متحمسة دوماً للسماح به؛ لحجج صحية أحياناً، وسياسية في أحيان أخرى.

لقد ورد في مراسلة وزير الشؤون الخارجية الفرنسية إلى المقيم العام لفرنسا في تونس؛ مؤرخة في باريس 2 فيفري 1901؛ بخصوص الإبلاغ عن جوازات سفر الرعايا الفرنسيين المسلمين واستبدالها بالصورة الفوتوغرافية؛ إبراز مبررات اتخاذ هذا الأمر حسب الوزير، حيث أن ذلك جاء بناء على تقارير للقنصل الفرنسي في مدينة جدّة بالحجاز؛ والذي ابلغ بناء على معلومات المطوّفين بسعي البعض بطريقة غير قانونية التوغل في حوزتنا حسب القنصل؛ وحسب وزير الشؤون الخارجية، فقد دعا معاونه في جدّة، لكي يعلمه بأنه يضمن عدم معارضة الأفكار الدينية للرعايا المسلمين الذاهبين إلى مكة للحج، إذا ما أجبرت سلطاتنا على استكمالها بصورة مسجلة في جوازات سفرهم<sup>27</sup>.

#### 4- دور القناصل الفرنسيين في مواجهة الدعاية العثمانية على المهاجرين وأمن المستعمرة:

كانت إدارة الاحتلال الفرنسي تخشى باستمرار من الدعاية العثمانية؛ رغم نجاح احتلالها للجزائر، لكونها لم تعترف باحتلال الجزائر إلى غاية أواخر القرن 19. وكذا لإدراكها مدى التأثير الروحي والسياسي لحكومة اسطنبول على المسلمين الجزائريين. لذا كان ذلك يمثل باستمرار مصدر تهديد وتخوف رغم تداعي قوة الخلافة العثمانية. كما أن تواجد مهاجرين جزائريين في المشرق بكثافة نسبية قد ضاعف من هذا التهديد من تأثير تواصل هؤلاء المهاجرين مع أقربائهم في الجزائر وتحريضهم على الهجرة أن التحرك ضد الفرنسيين. وكذا من مغبة استخدام الدولة العثمانية هؤلاء المهاجرين ورقة ضغط ومساومة في الصراع العثماني الفرنسي واللذان

يشهدا تنافسا بينهما مرتبطا بفصول المسألة الشرقية. وسأحاول استعراض عينات؛ مما تضمنه الأرشيف التونسي من تقارير ومراسلات بخصوص هذا الموضوع.

لقد ورد في مراسلة من السيد ريفوال (Revoil) المفوض في الإقامة العامة الفرنسية بتونس، إلى السيد ديلكاسي (Delcassé) وزير الشؤون الخارجية الفرنسي؛ مؤرخة في 16 جوان 1899، بخصوص الهجرة إلى سوريا؛ على أن السيد المفوض قد تلقى بريقة في 3 ماي رقم 255 من حضرة الوزير أراد من خلالها تمرير تقرير للقنصل الفرنسي في دمشق (Damas) يعلمه بالمأزق الذي يعرفه الجزائريون والتونسيون الذين غادروا الحماية (la régence)، للذهاب إلى سوريا. كما ذكر المفوض أيضا بأنه يقدر سعي فخامته لحماية أهاليها في مواجهة الوعود الكاذبة التي قد تدفعهم إلى الهجرة من خلال السماح بمعرفة المصير البائس الذي ينتظرهم في سوريا، " تلك منها التي من شأنها أن تضيف مصداقية على المعلومات المضللة التي يتم توزيعها (نشرها) في تونس"<sup>28</sup>.

كما أشار المفوض وفي خطوة جريئة وسريعة للتحرك؛ بأنه لم يتوانى عن إخراج موضوع في مقال بجريدة عربية في تونس، لا يمكن أن يفشل في إقناع قرائه. كما يذكر المفوض الفرنسي لوزير الشؤون الخارجية؛ بأنه يعتقد ويتمنى بأن فخامة الوزير يبادل نفس الشعور، بأن الطريقة الأكثر فعالية لتحقيق الهدف، تتمثل في أن نقترح على الأهالي الذين قدموا من تونس وأعربوا لقنصلنا عن رغبتهم في العودة إلى وطنهم، فكرة الذهاب لهذا الغرض لحكومة الحماية عن طريق والديهم أو أصدقائهم المتبقين في المنطقة<sup>29</sup>.

وفي إطار الحرب الدعائية الدبلوماسية بين الدولتين العثمانية والفرنسية بخصوص ورقة المهاجرين الجزائريين. ورد أيضا؛ في مذكرة مؤرخة في تونس 29 جويلية 1899؛ بأننا نقرأ في جريدة المعلومات (El Mâalumat)<sup>30</sup> القسطنطينية (Constantinople) بأن لجان تشكلت في أنقورا-قونيا (Angora-) (Konie)<sup>31</sup>، أضنه (Adana)<sup>32</sup>، حلب (Alep)، دمشق وأزمير (Smyrne)<sup>33</sup> من أجل تشجيع استقرار المهاجرين المتجهين نحو الإمبراطورية العثمانية. تعمل بنشاط لاستقرارهم في ظروف لائقة، مع ذلك نشعر بالحزن بسبب المراسلات التي تلقيناها من شخص من الشرفاء من الجزائر العاصمة، هذه المراسلات تكشف أن الحكومة المحلية منعت هجرة الناس، هذا الإجراء يضر بشكل خطير أولئك الذين يرغبون في مغادرة البلاد، بالاطافة للذين هم في سوريا. كما يضيف المقال، بأنه في هذا البلد، فالحكومة المحليّة لم تتمكن من منع مغادرة الراغبين في مغادرة سوريا، للهجرة نحو أمريكا، كما يضيف المقال بأنه يأمل: " بأن حكومة الجزائر، التي تستلهم من هذه الحالة، لا توفر فرصة لإساءة معاملة أولئك الذين يرغبون في الهجرة، بما أن هذه العقبات لا يمكن أن تمنع رحيل مهاجر عازم.."<sup>34</sup>.

كما يذكر المقال أيضا؛ " بأنه في هذا العدد، لا يمكننا إلا أن نعبر (نعرب) عن حزننا للمقال المنشور في الحاضرة (El Hadira)<sup>35</sup>، والذي يحذر فيه الجمهور من مغادرة البلد فذكر مثال لبعض الناس ذهبوا إلى سوريا، بناء على المراسلات الواردة من واحد منهم. على الرغم من أننا لم نرى ليومنا هذا من يتهم الحكومة السورية من استخدام أدنى صرامة ضد ضيوفنا المهاجرين. هذه الحكومة احتفظت دوما

بالترحيب الحار للعديد من العائلات المسلمة الذين غادروا روميليا والأناضول والقوقاز، وبلاد التتار، وتركستان والجزائر. هل سمعنا أبداً بأحد، قبل نشر مقال الحاضرة (El Hadira)، يتكلم عن بؤس الذين هاجروا نحو هذا البلد؟ نحن نتمنى أن يلهم الله أفضل زميلنا مدير الحاضرة (El Hadira)، هذه الصحيفة المتميزة<sup>36</sup>.

ضمن نفس الملف يوجد وثيقة أخرى؛ تبرز خطوة طيبة من السلطة العثمانية نالت استحسان الجزائريين؛ ونقلها الطرف الفرنسي كمعلومة من شأنها رفع أسهم العثمانيين لدى الأهالي. حيث ورد فيها نقلا عن جريدة تسامورات الفنو (Tsamorat El Founou)؛ على أنه: " بقرار إمبراطوري، 29 شاب جزائري، أبناء مهاجرين، قبلوا في المدارس الحكومية بسوريا. بهذه المناسبة، الجزائريون المستقرين في آسيا الصغرى. أرسلوا إلى السلطان عنوان الاعتراف والتفاني "<sup>37</sup>.

كما ورد أيضا في مراسلة السيد بيّات (Piat) القنصل العام المكلف بقنصلية فرنسا في دمشق إلى السيد ستيفان بيشون (Stephen Pichon)<sup>38</sup> وزير الشؤون الخارجية لفرنسا، مؤرخة في 2 جويلية 1910؛ بخصوص المهاجرين الجزائريين والتونسيين: حيث ذكر معلومات تتعلق بما تقدمه الحكومة العثمانية لهم، بحيث أن كل واحد منهم يحض باثنين أو ثلاثة قطع خبز يوميا منذ قدومهم إلى غاية حصول كل أب أسرة على أراضي زراعية ومبلغ 600 فرنك لأجل استغلالها<sup>39</sup>.

كما ورد في مراسلة السيد بيّات (Piat) القنصل العام المكلف بقنصلية فرنسا في دمشق إلى السيد ستيفان بيشون (Stephen Pichon) وزير الشؤون

الخارجية لفرنسا، مؤرخة في 27 جويلية 1910؛ بخصوص المهاجرين الجزائريين؛ بأنه: " برسالة في 15 من هذا الشهر، الحكومة العامة في الجزائر رجته لإعلامها إذا ما دعاية السلطات العثمانية بخصوص تشجيع الجزائريين للهجرة إلى سوريا، مستمرة في الممارسة وأن أقدم له، في نفس الوقت، المعلومات عن عدد المهاجرين الجزائريين والوضع الذي يتم لهم في دمشق ". وخلال المراسلة مرّر قنصل فرنسا في دمشق معلومات وقائمة بأماكن تجمّع من وصفهم في مراسلته بالمنشقين ( les dissidents) الجزائريين في المحال السورية لتمريرها إلى السيد جونار (Jonnart) الحاكم العام في الجزائر، بناء على المعلومات " المقدمة من الأمير عمر ( Emir Omar) ابن الأمير عبد القادر، فعدد المهاجرين يرتفع حاليا لأكثر من 18.000، وفي كل يوم، يصل جدد إلى دمشق على شكل مجموعات من 15 إلى 20 شخص " <sup>40</sup>.

كما ورد أيضا؛ في وثيقة صادرة عن وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية، مؤرخة في 3 جانفي 1900؛ بخصوص الهجرة الجزائرية: حيث أشارت في بدايتها إلى أن ممثل فرنسا في مصر أبلغ بنشر جريدة إسلامية تدعى المؤيّد (El Moayad) <sup>41</sup> لمقال يبرّر ويشجّع حركة الهجرة نحو سوريا، لذا فهو يحيط علمنا إلى الاعتراضات حول النشر غير القانوني في الجزائر لهذا المقال، والذي ترجمته وردت في النشرة العربية للمؤيّد (Moayad) في 11 ديسمبر الأخير. كما يضيف التقرير في إحدى فقراته بأن هذا المقال الذي نشرته إحدى الصحف، التي تظهر مع ذلك تعاطفها في معظم الأحيان بالنسبة لفرنسا، يبدو أنه يتعلّق بالحملة القومية الإسلامية الذي ذريعتها أحداث المناطق النائية الطرابلسية. كما أشار المفوض الفرنسي في مصر إلى



أنه يمكن أن يكون هناك بعض التأثير على رعايانا المسلمين إذا كان العدد الذي يحتويه هذا المقال يوزع بشكل سرّي في الجزائر<sup>42</sup>.

وفي وثيقة أخرى صادرة عن وزارة الخارجية في فرنسا، بنفس الملف، مؤرخة في 21 مارس 1900 أشارت إلى منع انتشار جريدة المؤيد (Moayad) في الجزائر بخصوص المقال حول المهاجرين الجزائريين في سوريا<sup>43</sup>. وقد أكد هذه المعلومة وثيقة صادرة في باريس عن وزارة الشؤون الخارجية، مؤرخة في 12 أبريل 1900<sup>44</sup>.

يبدو أن السلطة الفرنسية قد اهتمت أيضا بمتابعة كلّ تحوّل في مواقف العثمانيين وإعلامها تجاه رعاية المهاجرين الجزائريين بسبب المشاكل الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي عانت منها؛ خاصة قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى. وضمن هذا التوجّه؛ ورد في مراسلة؛ على شكل تلغراف، من السيد بيّات (Piat) القنصل العام المكلف بقنصلية فرنسا في دمشق إلى السيد ستيفان بيشون (Stephen Pichon) وزير الشؤون الخارجية لفرنسا، مؤرخة في 8 أوت 1910؛ بأنه بناء على جريدة سورية هي المقتبس (Moktabas)<sup>45</sup> بدمشق فهناك 12 ألف غادروا بلدهم للقدوم إلى سوريا حيث تتساءل الصحيفة: "من سيفي بمتطلبات لقمة عيش هؤلاء المهاجرين الجدد، والسلطات المحلية لم تعد قادرة على توفير رعاية مواطنيهم الذين وصلوا في وقت سابق. وأضافت أن 10 خانات طردوا للتو جزائريين كانوا يقيمون هناك، والولاية ترفض منذ شهرين دفع أتعاجم (مستحقاقهم). هذه المعلومة الأخيرة والتي هي صحيحة تشير بأن الوالي أخذ بوعده بعدم تشجيع الهجرة الجزائرية"<sup>46</sup>.

استنتاج:

إن المتتبع لهذه التقارير والمراسلات يدرك مدى الأهمية التي حضي بها القناصل الفرنسيين في السياسة الخارجية الفرنسية خلال القرن 19 ومطلع القرن 20 فيما يتعلق بالدفاع عن مصالحها في مستعمرتها الجزائرية. لقد لعب القناصل من خلال ما لاحظنا أدواراً متنوعة تفوق الدور المعتاد للدبلوماسي؛ إلى تقمص أدواراً جاسوسية بامتياز، من خلال فرض رقابة صارمة على المقاومين الجزائريين والشخصيات السياسية والدينية المعارضة لنظام الاحتلال الفرنسي في الجزائر. وأكثر من ذلك الظهور؛ بمظهر المدافع عن مصالح المهاجرين الجزائريين بالبلاد الإسلامية واستعمال ورقتها كأداة للتدخل في شؤونها، وفي نفس الوقت الحصول على مبرر للحفاظ على مناطق النفوذ الفرنسي بالبلاد العربية خاصة المشرق العربي.

<sup>1</sup> هو مستكشف ودبلوماسي فرنسي، ذهب للجزائر في 1832، وقدم خدماته للأمير عبد القادر في 1837، حيث أصبح مستشاره باسم سي عمر بن روش، ثم التحق بالمعسكر الفرنسي في 1839، وأصبح المترجم الرئيسي للجنرال بيجو. ينظر: موقع المكتبة الوطنية الفرنسية الرقمية [data.bnf.fr](http://data.bnf.fr).  
<sup>2</sup> يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 7.

<sup>3</sup> Roches Léon , **Trente deux ans à travers l'islam (1832-1864), mission à la Mecque, le maréchal Bugeaud en Afrique**, pp 130-131.

<sup>4</sup> ينتمي ناصر بن شهرة إلى قبيلة الأرباع ، وهو من أتباع الطريقة القادرية بالأغواط، ولد سنة 1804، وبدأت مقاومته للفرنسيين سنة 1851. ينظر، علي غنابرية، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ 19م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،

إشراف د. عمر بن خروف، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، السنة الدراسية 2000-2001، ص 34.

<sup>5</sup> **A.N.T, FA 1881/H/ 0212/0237.** correspondance concerne les évasions de Mohamed Boualeg et Nasser ben Chohra sur les caravanes et tribus Algériens. Correspondance du légation et consulat général de France à Tunis, rédiger le 8 octobre 1860.

<sup>6</sup> اسمه محمد بوغلاق، وهو نائر تونسي، ورئيس أولاد يعقوب المتمردين على السلطة التونسية. ينظر، علي غنابزية، المرجع السابق، ص 43.

<sup>7</sup> **A.N.T, FA 1881/H/ 0212/0237.** correspondance concerne les évasions de Ouled Yahkoub, Mohamed Boualeg et Nasser ben Chohra sur les caravanes et tribus Algériens. Traduction du Correspondance de Léon Roche consul de France à Tunis au gouverneur de Royaume Tunisien, rédiger le 2 octobre 1862.

<sup>8</sup> **A.N.T, FA 1881/H/ 0212/0237.** correspondance concerne les évasions de Ouled Yahkoub, Mohamed Boualeg et Nasser ben Chohra sur les caravanes et tribus Algériens. Traduction du Correspondance de Léon Roche consul de France à Tunis au gouverneur de Royaume Tunisien, rédiger le 2 octobre 1862.

<sup>9</sup> في الواقع إن الحديث عن الغارات بين قبائل الحدود التونسية والمنطقة الحدودية؛ بما فيها حتى المناطق الجزائرية في الجنوب الشرقي عند حدود التماس لم يكن غريبا؛ على بعض سكان هذه المناطق بالنظر لصعوبات العيش وضعف الرقابة الأمنية بسبب شساعة هذه المناطق، حتى أن؛ تقرير قنصل فرنسا في تونس لم يعمم الحادثة وقال "أنفارا من أولاد يعقوب". لذا ما أردت قوله، أن مشكلة التقرير ليست في إشارته إلى الغارات في مناطق الحدود، ولكن في ربطها بشخصية مقاومة مثل ناصر بن شهرة.

<sup>10</sup> يذكر الدكتور علي غنابزية بخصوص هذه الغارات؛ بأنّ أخذ الأموال عنوة له صور عديدة، ويستند في ذلك إلى وثيقة ورد فيها بأنه في " سنة 1865 عندما أغار أولاد يعقوب بمعية الثائر بن ناصر بن شهرة على أناس طرود في بير الدحاح وأخذوا لهم عدد 80 ابل (كذا)، ولحقوا في أثرهم أناس طرود ولم رجعوا (كذا) شيء من الابل ومات من طرود رجلين ". ينظر: بيان بعض الغارات الواقعة من أناس الشرق على أناس طرود، وثيقة أهلية محفوظة في مديرية المجاهدين بالوادي، نقلا عن علي غنابزية، المرجع السابق، ص 51.

<sup>11</sup> A.N.T, FA 1881/H/ 0212/0237. correspondance concerne les évasions de Ouled Bouranem sur les caravanes et tribus Algériens. Traduction de lettre de Léon Roche consul général de France à Tunis au gouverneur de Tunisie, rédiger le 2 octobre 1862.

<sup>12</sup> لم أطلع على علاقة تربط احتلال تونس في 1881، بقضية ناصر بن شهرة، لكن ما أعرفه نسبيا أن ذريعة فرض الحماية الفرنسية على تونس، قد ارتبطت بتجاوز قبائل الخمير التونسية ما تعتبره سلطة الاحتلال؛ السيادة الفرنسية في الجزائر. إن هذا التشابه في الاتهامات مع ما سقته يحتاج إلى بحث؛ فربما أن مسرحية اعتداءات القبائل التونسية قد حضر لها سلفا كذريعة لتوسع فرنسا في تونس؛ وأن هذه المكائد والضغط على سلطة تونس بسبب قضية ناصر بن شهرة تدخل ضمن هذا المخطط.

<sup>13</sup> يقصد من ذلك ناصر بن شهرة حيث يرد كتابته في التقارير الفرنسية بأشكال مختلفة.

<sup>14</sup> تقع في الجنوب التونسي غير بعيدة عن قبلي، نسبة إلى قبيلة نفاوة وهي من أكبر القبائل الأمازيغية.

<sup>15</sup> نفس الملاحظة بخصوص كتابة ناصر بن شهرة، لكن من المستغرب أن يكتب في نفس التقرير بطريقتين مختلفتين، ناصر بن شودجا (Nasseur ben Chodja) وناصر بن خوجة (Nasser benKhodja).

<sup>16</sup> A.N.T, FA 1881/H/ 0212/0237. correspondance concerne les évasions de Mohamed Boualeg et Nasser ben Chohra sur les

caravanes et tribus Algériens. Correspondance du chargé des affaires du consulat général de France à Tunis au premier ministre Tunisien Si Moustapha Khaznadar, rédigé à Tunis le 6 août 1868. la signature n'est pas clair.

<sup>17</sup> **A.N.T, FA 1881/H/ 0212/0237**. lettre en arabe concerne les évasions de Ouled Yahkoub sur le caravane des souafas. Correspondance de Mohamed Bacha à Lion Roche consul de France à Tunis, le 2 mouhareme 1373.

<sup>18</sup> - **A.N.T, FA 1881/H/ 0212/0237**. correspondance concerne les évasions de Mohamed Boualeg et Nasser ben Chohra sur les caravanes et tribus Algériens. Correspondance du gouverneur général de l'Algérie au consul de France en Tunis, rédigé à Alger le 30 octobre 1857 (copie en arabe).

<sup>19</sup> **.N.T, FA 1881/H/ 0212/0242**. correspondances et rapports du consul de France à Tunis concerne les évasions des tribus au frontières tunisiens algériens et les vols, assassinats et chasses des rebelles. Correspondance en arabe de Léon Roche consul général chargé des affaires de France en Tunis , daté le 26 réjab 1273 ou 1373.

<sup>20</sup> **A.N.T, FA 1881/H/ 0212/0237**. correspondance concerne les évasions de Ouled Bouranem sur les caravanes et tribus Algériens. Traduction de lettre de Léon Roche consul général

de France à Tunis au gouverneur de Tunisie, rédiger le 2 octobre 1862.

<sup>21</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1896-1898**. correspondance ce ministère des affaire étrangères au Résident Général de France à Tunis, Paris le 19 octobre 1896.

<sup>22</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1896-1898**. correspondance du Gouverneur Général de l'Algérie au ministre des affaires étrangères, Paris le 9 octobre 1896.

<sup>23</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1896-1898**. Note (circulaire) de monsieur le consul de France à Tunis aux monsieur les contrôles civiles et responsables des annexes, rédiger en 14 novembre 1896, n° 4634.

<sup>24</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1896-1898**. correspondance de consul de France à Damas à monsieur le ministre des affaires étrangères au Résident Général de France à Tunis, Damas le 10 janvier 1898.

<sup>25</sup> ولد في 14 سبتمبر 1849 بباريس، تحصّل على ليسانس في الآداب والقانون سنة 1870، شارك متطوعاً في حرب 1870، وعيّن ثالث مقيم عام في تونس في 27 سبتمبر 1894، توفي في باريس 5 ديسمبر 1919. ينظر: Alain Goinard, René Millet, [www.memoireafriquedunord.net](http://www.memoireafriquedunord.net)

<sup>26</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885–1948**. Note du contrôle civil monsieur Touchon à monsieur R.Millet résident Général de la France à Tunis, n° 374, Tunis le 12 mai 1899.

<sup>27</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 2/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885–1948**. correspondance de monsieur Delcassé ministre des affaires étrangère à Paris à monsieur Benoît le résident Général de la France à Tunis, objet: signalement des passeports des ressortissants français musulmans à remplacer par la photographie, Paris le 2 février 1901.

<sup>28</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885–1948**. correspondance de monsieur Revoil, délégué à la résidence générale à Tunis à monsieur Delcassé ministre des affaires étrangère à Paris sur l'émigration en Syrie, Tunis le 16 juin 1899.

<sup>29</sup> **ibid.**

<sup>30</sup> كانت جريدة المعلومات تصدر عن الدولة العلية العثمانية، صدر عددها الأول سنة 1896، رئيسها محمد طاهر بك، وكانت تصدر أربع مرات في الأسبوع، وهي جريدة مصوّرة خادمة لمنافع الخلافة العثمانية، وما يميّز الجريدة هي مخاطبتها لجمهورها باللّغة العربية، كما يجب التفريق بينها وبين جريدة أخرى تسمّى معلومات. ينظر: الموقع الإلكتروني. [www.coins4arab.com](http://www.coins4arab.com).

<sup>31</sup> تقع جنوب غرب تركيا، تعتبر من أقدم المدن التاريخية، بلغت أوج مجدها عندما كانت عاصمة الدولة السلجوقية الأناضولية. ينظر: الموقع الإلكتروني بطوطة [www. Batuta.com](http://www.Batuta.com).

<sup>32</sup> مدينة على الساحل المتوسطي، تبعد بنحو 30 كلم خلف جبال طوروس، وهي المركز الإداري لمحافظة أضنه، خضعت لحكم المماليك في 1359م، ثم حكمها العثمانيون من بعدهم، وهي خامس المدن التركية. ينظر: موسوعة الجزيرة نت [www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net).

<sup>33</sup> تقع على ساحل بحر ايجة غرب تركيا، وتعد من أهم المدن السياحية في تركيا، تعرف بأنها " جوهرة بحر ايجة "، كما تعد أكثر مدن البلاد سكانا بعد اسطنبول. ينظر: موسوعة الجزيرة نت [www.aljazeera.net](http://www.aljazeera.net).

<sup>34</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie 1885-1948. Note rédigé à Tunis le 29 juillet 1899, concerne les information de journal " El Mâalumat" sur l'émigration en Syrie.

<sup>35</sup> أول جريدة غير رسمية تصدر بالبلاد التونسية بعد الاحتلال الفرنسي، وصدر عددها الأول في يوم 12 أوت 1888، كانت جريدة معتدلة ومهادنة للسلطات، حيث أتمها وجدت تأييدا من قبل السلطة الفرنسية بتونس. ينظر، موقع دار الكتب الوطنية بتونس [bibliothèque.nat.tn](http://bibliothèque.nat.tn)، الموسوعة الحرّة .

<sup>36</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie 1885-1948. Note rédigé à Tunis le 29 juillet 1899, concerne les information de journal " El Mâalumat" sur l'émigration en Syrie.

<sup>37</sup> **Ibid.**

<sup>38</sup> ولد في 10-08-1857 وتوفي في 18-09-1933. صحافي، نائب، دبلوماسي، ثم وزير للشؤون الخارجية الفرنسية في سنوات (1906-1911-1913) ثم سنتي (1917-1920)، عمل سفيرا لفرنسا في بكين بالصين. ينظر: موقع المكتبة الوطنية الفرنسية الرقمية [.data.bnf.fr](http://data.bnf.fr).



<sup>39</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885–1948**. correspondance de monsieur Piat consul général chargé du consulat de France à Damas à monsieur Stephen Pichon ministre des affaires étrangères, n°12, Damas le 2 juillet 1910.

<sup>40</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885–1948**. correspondance de monsieur Piat consul général chargé du consulat de France à Damas à monsieur Stephen Pichon ministre des affaires étrangères, n°21, Damas le 27 juillet 1910.

<sup>41</sup> تأسست في 1889 من طرف الشيخ علي يوسف المولود في محافظة سوهاج بمصر سنة 1863، كان ذلك بمساعدة رجال الحركة الوطنية المصرية آنذاك، حيث تعرضت الجريدة لتحديات جمّة ومنافسة من الجرائد الموالية للاستعمار وقد أنجز الدكتور صالح أستاذ الإعلام بجامعة القاهرة رسالة ماجستير حول الجريدة ومؤسسها بعنوان " الشيخ يوسف وجريدة المؤيد ". ينظر، الموقع الإلكتروني [.almesryoon.com](http://almesryoon.com) الجريدة المصريون وهي يومية مستقلة بمصر

<sup>42</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885–1948**. Document rédigé à Paris de ministère des affaires étrangères, objet: article du journal "El Moayed", n°1, Paris le 3 janvier 1900.

<sup>43</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885–1948**. Document rédigé à Paris de ministère des affaires

étrangers objet: article du journal "El Moayed", Paris le 21 mars 1900.

<sup>44</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885-1948**. Document rédigé à Paris de ministère des affaires étrangères, objet: article du journal "El Moayed", Paris le 12 avril 1900.

<sup>45</sup> صدرت جريدة المقتبس في دمشق، حيث نشر عددها الأول في 24 فيفري 1906، مؤسسها علامة الشام محمد كرد علي (1876-1953)، وهي جريدة يومية سياسية اقتصادية، اجتماعية وأدبية، تعطل إصدارها عدة مرات لتعود من جديد في 1914. ينظر، الموقع الإلكتروني للمكتبة الشاملة والموسوعة الحرة.

<sup>46</sup> **A.N.T, Série: a, Carton: 276, dossier: 13/1**, La livraison des passeports pour les Algériens à migrer vers la Syrie **1885-1948**. télégramme de monsieur Piat consul général chargé du consulat de France à Damas à monsieur Stephen Pichon ministre des affaires étrangères, n°3, Damas le 8 août 1910.

## دور قسم التاريخ بجامعة الشهيد حمة لخضر بالوادي في ابراز الكتابات التاريخية المحلية (دراسة احصائية)\*

أ. عبد القادر عزام عوادي/ قسم التاريخ/ جامعة الشهيد حمة لخضر/ الوادي

### الملخص:

تلعب الجامعة الجزائرية دورا مهما في ابراز الدراسات التاريخية التي تخدم التاريخ الوطني بشكل عام، ومن بين هذه الدراسات التاريخية نجد ما يخص التاريخ المحلي لكل منطقة، ولقد لعب معهد التاريخ بجامعة الشهيد حمة لخضر دورا بارزا في ابراز التاريخ المحلي لمنطقة وادي سوف، ورغم حداثة المعهد الذي تخرجت منه أول دفعة ف التاريخ سنة 2009 الا انه التحف المكتبة الجامعية بنسبة هامة بمذكرات تدرس التاريخ المحلي، وفي هذه الدراسة الاحصائية ستتعرف على نسبة الدراسات المحلية من مجمل المذكرات التي تخرج بها طلبة معهد التاريخ بجامعة الشهيد حمة لخضر.

### Abstract

The Algerian University plays an important role in highlighting the historical studies that serve the national history in general way. Among these historical studies, we find with regard to the local history of each region. The Institute of History has played an important role in ELCHAHID HAMMA Lakhder University which highlights the local history of Oued Souf region. Although the new institute which the first Class was graduate in the History in 2009, it added an important rate to the Library of University with regard to the dissertations that examine the Local History.

In this statistical study, we will recognize about the local studies from all the dissertations that the students have submitted in the Institute of History at ELCHAHID HAMMA Lakhder University.

## مذكرات 2009/2008

الرقم	عنوان المذكرة	اسم المشرف	الطلبة
01	أحداث أبريل 1938 بوادي سوف وانعكاساتها على المنطقة	موسى بن موسى	آمنة العايب - حكيم شحي
02	عبد العزيز الشريف ودوره الإصلاحى بوادي سوف 1923 - 1938	موسى بن موسى	شهر زاد حنكة - عزيزة جراية
03	دور جمعية علماء المسلمين الجزائريين بوادي سوف شعبة قمار نموذجاً 1931 - 1954	رضوان شافو	خولة نعرورة - عائشة مقدود
04	دور منطقة وادي سوف في الإعداد للثورة من خلال عمليات التسليح 1947 - 1957	جمال بلفردى	سهام فطحيزة علي - نعيمه غرائسة
05	التعليم الفرنسى في وادي سوف مدرسة الأهالي بالوادي نموذجاً 1886 - 1962	علي غنابزيرة	بن سالم الشايح - خالد حنة

06	مساهمة منطقة وادي سوف في الثورة الجزائرية معركة غوط شيكة 8 - 9 - 10 أوت 1955	عثمان زقب	حواء عطا الله - فاطمة ماطر
----	--	-----------	----------------------------

مجموع المذكرات في هذا الموسم هو 34 مذكرة بنسبة 17.64%

### مذكرات 2010/2009

الرقم	عنوان المذكرة	اسم المشرف	الطالبة
01	المدرسة الأهلية بقمار بين نشر التعليم وسياسة التغريب	موسى بن موسى	محمد حناي
02	مجازر أفريل 1957 بوادي سوف وانعكاساتها على المنطقة	علي غنابزية	ثرثيا عياشي عمر - صباح هارون - نورة مصباحي

مجموع المذكرات في هذا الموسم هو 28 مذكرة بنسبة 7.14%

### مذكرات 2011/2010

الرقم	عنوان المذكرة	اسم المشرف	الطالبة
01	الدور الاجتماعي والثقافي للطريقة الرحمانية بوادي سوف خلال فترة الاحتلال الفرنسي	عثمان زقب	حمادة وسام - عدائكة سناء - هادية نصيرة
02	الشيخ الأمين غمام عمارة الفقيه	الجباري عثمان	الطيب غمام

عمارة - حمد سبع - الإمام بريك		المصلح (1983/1920)	
-------------------------------------	--	--------------------	--

مجموع المذكرات في هذا الموسم هو 35 مذكرة بنسبة 5.71 %

### مذكرات 2012/2011

الرقم	عنوان المذكرة	اسم المشرف	الطلبة
01	حمزة بوكوشة وجهوده الاصلاحية من خلال جريدة البصائر 1956-1935	موسى بن موسى	اسماعيل زيد
02	الشيخ الحسين حمادي دوره الاجتماعي ونشاطه العلمي والتربوي بتونس ووادي سوف 1982/1902	علي غنابزية	محمد العيد قدع
03	العمران بسوف خلال الفترة الاستعمارية 1962/1830	عمار غرايسة	بن بردي حولة- حميداتو سليمة- شتحونة ريحانة
04	أوضاع المهاجرين الجزائريين في فرنسا من خلال الروايات الشفوية 1973-1954 وادي سوف انموذجا	محمد السعيد عقيب	آسيا غمام نواس- عائشة غمام نواس- محمد العيد مسعي أحمد
05	هجرة سكان وادي سوف الى	الجباري عثمانى	عبد القادر عزام

عوادي	تونس خلال الفترة 1912- 1962 تونس العاصمة نموذجا
-------	--

مجموع المذكرات في هذا الموسم هو 42 مذكرة بنسبة 11.90 %

### مذكرات 2013/2012

الرقم	عنوان المذكرة	اسم المشرف	الطالبة
01	مهاجرو منطقة وادي سوف إلى القرى المنجمية التونسية (1954/1920)	عثمان زقب	مریم نواری - عائشة غربي - يوسف باخالد
02	اسهامات مهاجري وادي سوف في الحياة الاجتماعية والاقتصادية المحلية (1969/1918) من خلال المصادر	علي غنابزية	ابراهيم شويخ - عمار عوادي - لزهارى عوادي
03	الحركة التجارية في وادي سوف (1962/1854)	الجباري عثماني	العيد موساوي - محمد الغالي صحراوي
04	اللباس في مجتمع وادي سوف خلال الفترة الاستعمارية 1962/1854	الجباري عثماني	خولة عمارة - كريمة عازب عبد الله
05	أوضاع اليهودي في منطقة وادي سوف من مطلع القرن 19م الى 1962م من خلال الروايات	عمار غرايسة	أسماء عوادي - ام الخير بان - عفاف زغدي

		الشفوية والمصادر المكتوبة	
06	بلدة الرباح الحياة الاجتماعية والثقافية خلال الفترة 1882-1962	الجباري عثمانى	روضة نصرات - مريم بوغزالة محمد - نحاة بوغزالة محمد
07	زراعة النخيل ودورها في عمران وادي سوف ما بين القرنين 13-14هـ/2019م	موسى بن موسى	تواقي ابراهيم حمزة - بوزيدي خليل
08	دور سيدي علي بن خزان وأحفاده في الحياة الاجتماعية والثقافية ببلدة الدبيلة أواخر القرن 17م الى غاية 1830م	الجباري عثمانى	آمال مولاتي - زينب صحراوي
09	الشيخ محمد تجاني بن يامة ونشاطه الاجتماعي والعلمي والسياسي	محمد السعيد عقيب	حوه محده - نبيهة العائبي
10	هجرة سكان وادي سوف الى الجزائر العاصمة 1900-1962	عمار غرايسة	سوداني عمار - عون مكايي - بشير سباق عبد القادر

مجموع المذكرات في هذا الموسم هو 28 مذكرة بنسبة 35.71%.

### مذكرات 2014/2013

الرقم	عنوان المذكرة	اسم المشرف	الطالبة
-------	---------------	------------	---------



01	الشيخ عبد العزيز الشريف الصوفي الاصلاحي ودوره في الحركة الوطنية والثورة (1962/1937)	رشيد قسيبة	الزهرة غانية، وآخرون
02	العادات والتقاليد في المناسبات والأفراح في وادي سوف في الفترة 1962-1945	الجباري عثماني	محمد ساكر، وآخرون
03	مساهمة منطقة عميش بوادي سوف في الثورة التحريرية	الجباري عثماني	أحلام حميدة، وآخرون
04	مدينة قمار الظروف الاجتماعية والثقافية 1962-1954	الجباري عثماني	أسماء بان، وآخرون
05	نشاط المنظمة الخاصة بوادي سوف 1954-1947	عثمان زقب	سمية كهمان، وآخرون
06	الدور الاجتماعي والثقافي لعائلة الشريف بوادي سوف خلال 1954-1886	رشيد قسيبة	مبروكة شعبان، وآخرون

مجموع المذكرات في هذا الموسم هو 47 مذكرة بنسبة 12.76 %

### مذكرات ماستر 2014/2013

الرقم	عنوان المذكرة	اسم المشرف	الطالبة
01	التواصل الاقتصادي بين منطقة الجنوب الشرقي الجزائري وتونس خلال النصف الأول من القرن	رضوان شافو	صباح مسعودي

		20 (1954-1900)	
نبوية شباح	علي غنابزية	الطالب العربي قمودي ودوره في قيادة الجيش الجزائري بالجنوب التونسي 1954-1957	02
وفاء ديدي	محمد السعيد عقيب	الحركة الكشفية بوادي سوف الكشافة 1947-1962 الجزائرية الاسلامية انموذجا	03

العدد الاجمالي للمذكرات في هذا الموسم هو 26 مذكرة بنسبة 11.53 %

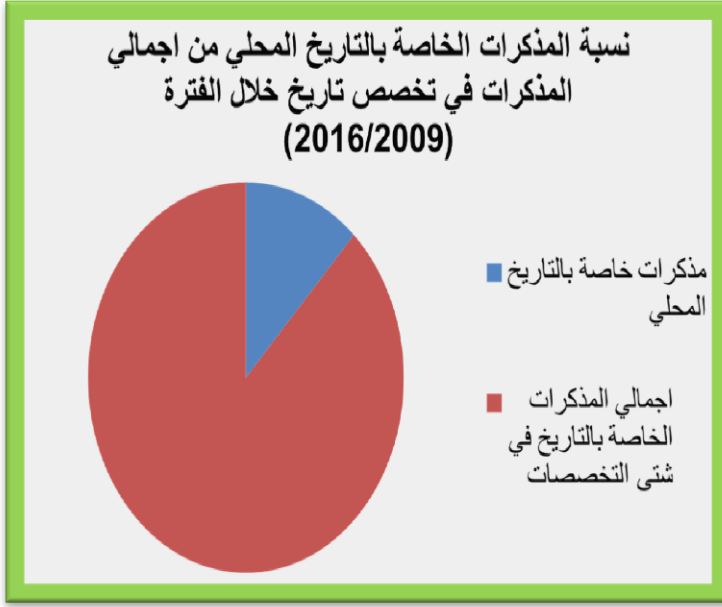
### مذكرات ماستر 2015-2016

الرقم	عنوان المذكرة	اسم المشرف	الطلبة
01	التعليم القرآني بوادي سوف ودوره في تثبيت هوية المجتمع 1882-1962	علي غنابزية	هنية قطوطة
02	الدور الاصلاحى والتعليمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بوادي سوف ووادي ريغ	موسى بن موسى	مصطفى لمين لعويد
03	نشاط الاباضية بمنقطة أسوف وأريغ من خلال المصادر الاباضية	علال بن عمر	صباح موفق
04	نظرة الرحالة والمستكشفين الفرنسيين لمجتمع الجنوب الشرقي الجزائري 1844-1918	الجباري عثمانى	هية كنيوة

## العدد الاجمالي للمذكرات في هذا الموسم في كل التخصصات المفتوحة هو 77 مذكرة بنسبة 5.19 %

نجد أنه في الموسم الجامعي 2015/2014 لم تكن هناك مذكرات تخرج وذلك نظرا أنه في هاته السنة تم اعتماد حلقة بحث بالنسبة لطلبة الليسانس، وأيضا في هذا الموسم لم يكن هناك دفعة ماستر تاريخ، وبهذا لم يدخل هذا الموسم في الدراسة لعدم وجود انتاج معرفي للطلبة، أما الموسم الموالي وهو 2016/2015 فلم تكن هناك أيضا مذكرات تخرج خاصة بطلبة الليسانس حيث تم اجراء تربصات للطلبة في المؤسسات التربوية، ولكن كانت هناك دفعة ماستر تاريخ رأيناها في الجداول السابقة.

إذا أجرينا حساب النسبة الخاصة بمجموع مذكرات التاريخ المحلي من مجموع المذكرات الاجمالي منذ أول دفعة للتاريخ بجامعة الوادي والتي كانت بسنة 2009 الى غاية آخر دفعة قبل هذه الدراسة وهي دفعة سنة 2016 فسوف نجد ان عدد المذكرات الاجمالي هو 317 مذكرة في التاريخ في مختلف الأطوار سواء منها الماستر أو الليسانس، في النظام الجديد والنظام القديم، ومجموع المذكرات التي درست تاريخ منطقة وادي سوف من هذا العدد الاجمالي هو 38 مذكرة، وبذلك تكون النسبة لمدة ثمانية سنوات هي 11.98 %.



ولقد تناولت هذه المذكرات العديد من المواضيع تاريخ المنطقة، فكانت هناك فئة تتناول دراسة شخصيات محلية من جوانب مختلفة سواء في الجانب العلمي والفكري أو في الجانب الاصلاحى والديني، وجوانب سياسية.

ومواضيع تخصصت في دراسة ظاهرة الهجرة والمهاجرين الخاصة بمنطقة سكان وادي سوف باعتبار أهلها خاضوا هذه التجربة الانسانية بدرجة كبيرة، سواء منها المحجرات الداخلية أو الخارجية، ولذلك نجد هناك نسبة مهمة من المذكرات المحلية التي درست وحللت هذه الظاهرة.

ايضا نجد مواضيع حول نشاط الحركة الوطنية وثورة التحرير بمنطقة وادي سوف ولقد تنوعت أيضا هذه الدراسات من حيث تناول الموضوع، فنجد دراسات حول مشاركة

المنطقة في معارك حرب التحرير، وأيضا اسهامات المنطقة في تدعيم الثورة التحريرية بالسلح والمؤونة قبيل وأثناء اندلاع الثورة، وايضا السياسات الفرنسية القمعية التي واجهت بها السكان في تلك الفترة.

كما أنه هناك نسبة حول تاريخ الحركة الاصلاحية بمنطقة وادي سوف، وعن الحركة التعليمية في المنطقة خاصة تحت جناح الحركة الاصلاحية ونشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بها.

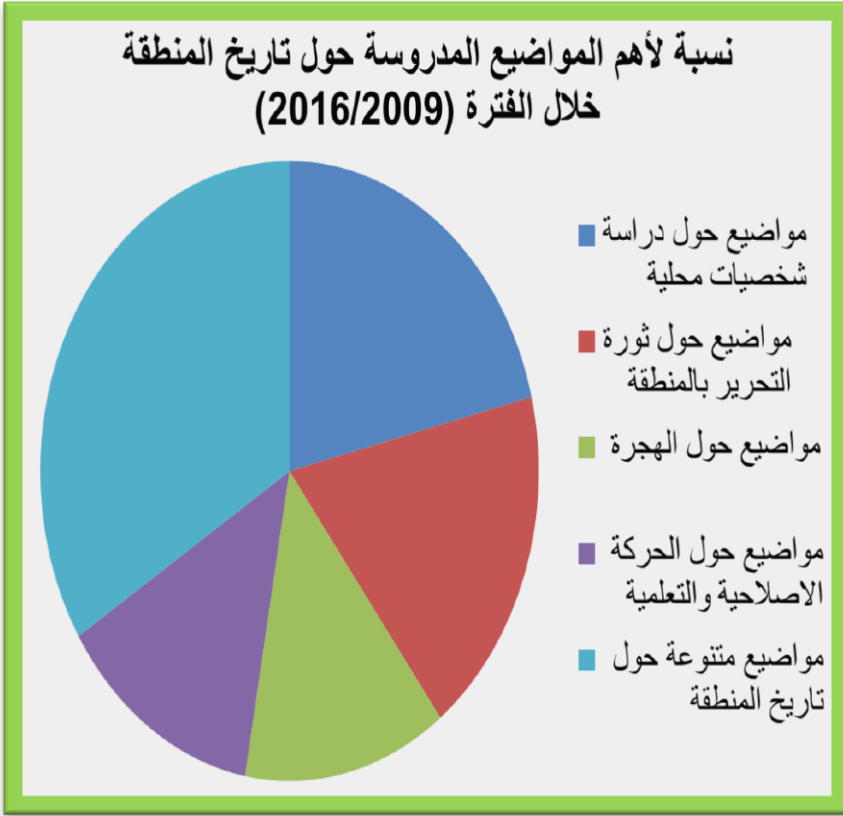
ويمكن ان نعطي ارقاما واحصائيات حول أهم هاته المواضيع فنجدها كالتالي:

مواضيع حول دراسة شخصيات محلية: 8 مذكرات أي بنسبة 21.05 % من مجموع مذكرات التاريخ المحلي

مواضيع حول دراسة نشاط الحركة الوطنية وثورة التحرير بالمنطقة: 7 مذكرات أي بنسبة 18.42 %.

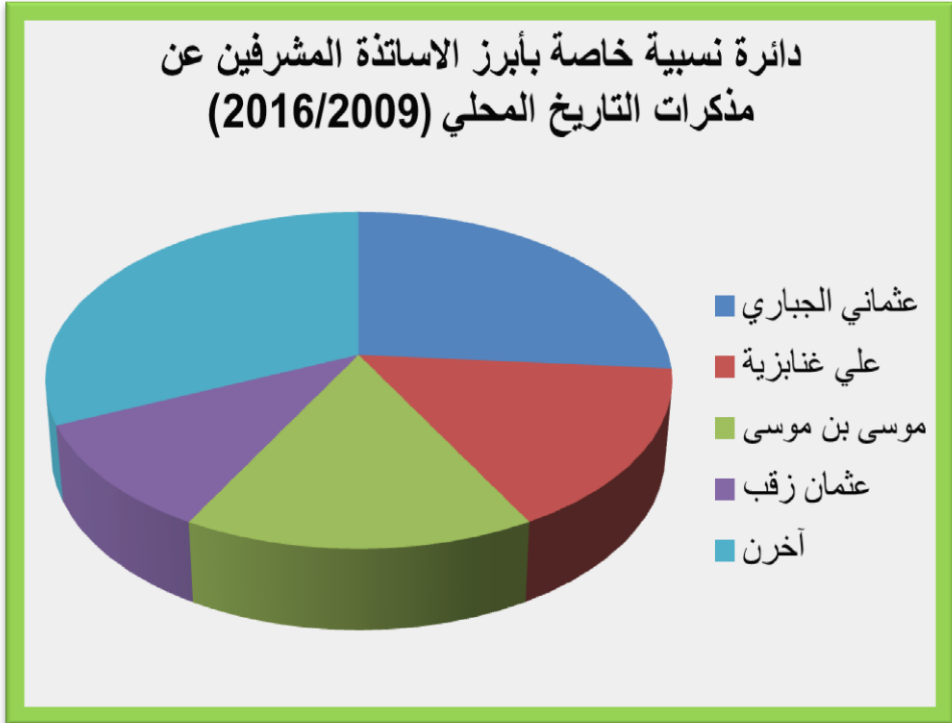
مواضيع حول دراسة حركة الهجرة المهاجرين: 5 مذكرات أي بنسبة 13.15 %

مواضيع حول الحركة الاصلاحية والتعليم بالمنطقة: 5 مذكرات أي بنسبة 13.15 %



ويتميز قسم التاريخ بجامعة الوادي بوجود كوكبة من الأساتذة الذين تخصصوا في دراسة تاريخ المنطقة في دراساتهم العليا، وعلى رأسهم نجل الدكتور علي غنابزية<sup>1</sup>، والدكتور موسى بن موسى<sup>2</sup>، والدكتور الجباري عثمان<sup>3</sup>، الدكتور رشيد قسيبة<sup>4</sup>، والدكتور عثمان زقب<sup>5</sup> والعديد من الاساتذة الآخرين ايضا. وسوف نقدم نسبة أهم الاساتذة الذين كان لهم الاشراف حول التاريخ المحلي، فنجد على الترتيب:

- 1- الدكتور عثمانى الجباري 10 مذكرات من مجموع 38 مذكرة أي نسبة 26.31 %
- 2- الأستاذ الدكتور علي غنابزية 6 مذكرات من مجموع 38 مذكرة أي نسبة 17.78 %
- 3- الدكتور موسى بن موسى 6 مذكرات من مجموع 38 مذكرة أي نسبة 17.78 %
- 4- الدكتور عثمان زقب 4 مذكرات من مجموع 38 مذكرة أي نسبة 10.52 %



## مذكرات من التاريخ المحلي صدرت في كتب مطبوعة:

اسم الطالب	العنوان	سنة النشر ودار النشر
الجباري عثماني الطيب غمام عمارة حمد سبع الإمام بريك	الشيخ الأمين غمام عمارة سيرته وآثاره (1983/1920)	تاريخ النشر: 2011 دار النشر: مطبعة سخري
محمد العيد قدع	الشيخ الحسين حمادي دوره الاجتماعي ونشاطه العلمي والتربوي بتونس ووادي سوف 1982/1902	تاريخ النشر: 2013 دار النشر: مطبعة ذويب
عبد القادر عزام عوادي	هجرة سكان وادي سوف الى تونس خلال الفترة 1912- 1962 تونس العاصمة نموذجا	تاريخ النشر: 2014 دار النشر: دار الأملية للنشر والتوزيع
ابراهيم شويخ عوادي عمار عوادي لزهاري	اسهامات مهاجري وادي سوف في الحياة الاجتماعية والاقتصادية المحلية (1969/1918) من خلال المصادر	تاريخ النشر: 2015 دار النشر: دار هومة
سوداني عمار بشير سباق عبد القادر	هجرة سكان وادي سوف الى الجزائر العاصمة 1900-	تاريخ النشر: 2014 دار النشر: مطبعة سخري

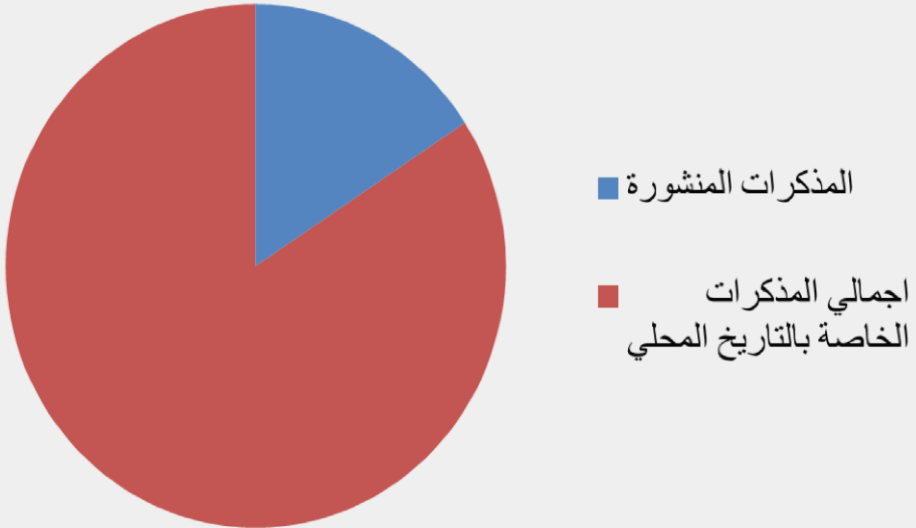


	1962	مكاوي عون
تاريخ النشر: 2016 دار النشر: مطبعة الوادي اصدارات مديرية الثقافة لولاية الوادي لسنة 2016	العادات والتقاليد في المناسبات والأفراح في وادي سوف في الفترة 1945-1962	محمد ساكر

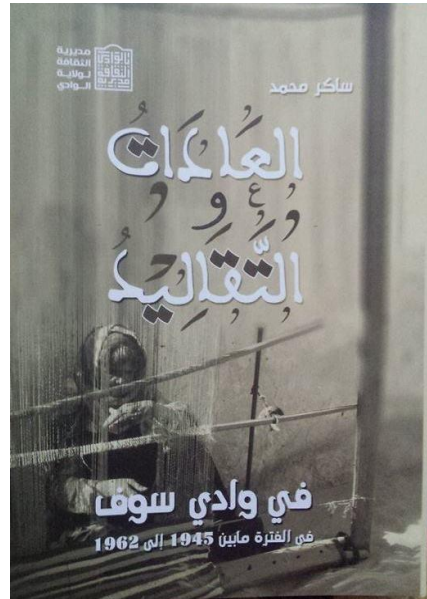
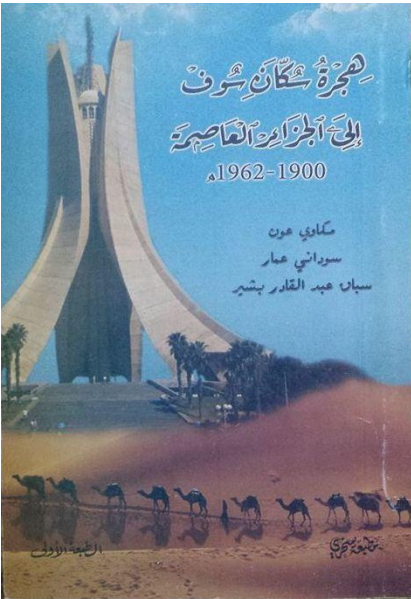
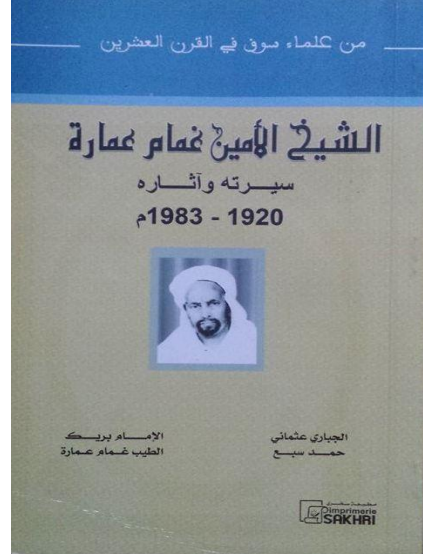
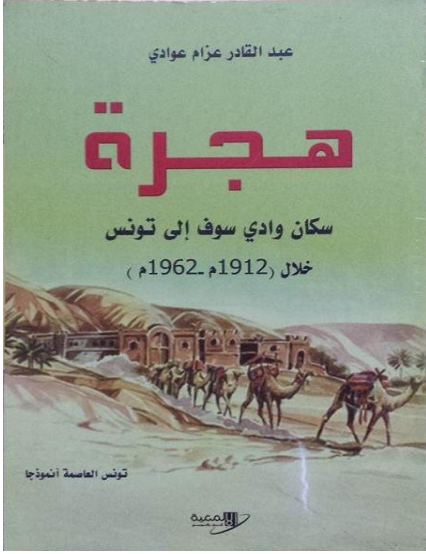
وتعتبر نسبة المذكرات المنشورة من اجمالي المذكرات الخاصة بالتاريخ هي:

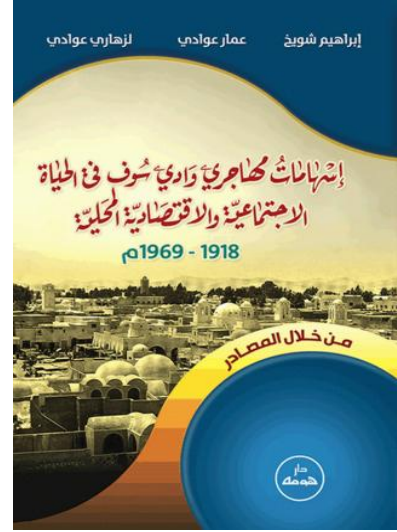
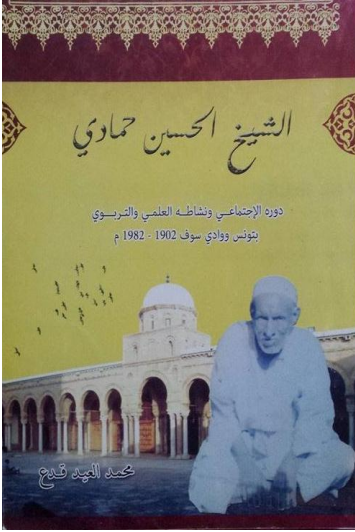
15.78 %.

### نسبة المذكرات المنشورة من مجموع مذكرات الخاصة بالتاريخ المحلي



صور خاصة بالكتب المطبوعة:





### الخاتمة:

وهكذا ومن خلال هذه الدراسة الاحصائية نستنتج أن لقسم التاريخ بجامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي دور كبير وريادي في ابراز تاريخ المنطقة والبحث في اغواره، وذلك من خلال نسبة الدراسات المنتجة في هذا المضمار.

ويتبين لنا ايضا أن لنسبة الاساتذة المتخصصين في هذا المجال دور كبير في التأثير على توجهات الطلبة في اختيار التاريخ المحلي كمجال للبحث.

ان قلة الدراسات التاريخية في المجال المحلي جعلت الطلبة يفدون على البحث في التاريخ المحلي بدرجة كبيرة، وتبقى الاشكاليات المتاحة في هذا الميدان محتاجة للكثير من الدراسات مستقبليا.

## الهوامش:

\*- ان كل هذه الاحصائيات والأرقام التي اخذناها في انجاز هذا الموضوع معتمدة على ما هو موجود في المكتبة المركزية لجامعة الشهيد حمه لخضر بالوادي، والتي تحتوي على كل الدراسات ومذكرات التخرج التي انجزت في قسم التاريخ منذ أول دفعة سنة 2009 إلى غاية انجازنا لهذا الموضوع لدفعة 2016.

<sup>1</sup>- الأستاذ الدكتور علي غنابزية من مؤسسي معهد التاريخ بجامعة الوادي، وهو متخصص في التاريخ المحلي، حيث كانت دراسته في رسالة الماجستير تحت عنوان "مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي، أما اطروحته في الدكتوراه فكانت تحت عنوان "مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي الى بداية الثورة التحريرية"، ولديه الكثير من الدراسات والأبحاث حول تاريخ منطقة وادي سوف.

<sup>2</sup>- الدكتور موسى بن موسى، هو أحد الاساتذة المتخصصين في التاريخ المحلي بقسم التاريخ بجامعة الوادي، ومتخصص بدرجة أكبر في تاريخ الحركة الاصلاحية بمنطقة وادي سوف/ وكانت رسالته في الماجستير حول "الحركة الاصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939)". ولديه ايضا العديد من الدراسات والبحوث حول تاريخ المنطقة.

<sup>3</sup>- الدكتور عثمان الجباري، من الاساتذة الباحثين في التاريخ المحلي وله العديد من المقالات والبحوث في هذا السياق خاصة ما يخص الجانب الاجتماعي والاقتصادي للمنطقة وكانت رسالة الماجستير التي انجزها عنوانها كالتالي: "مدينة الوادي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية من خلال سجلات المحكمة الشرعية في النصف الثاني من القرن 19م". / وأما الدكتوراه فالعنوان كالاتي: "الحياة الاجتماعية والاقتصادية في وادي سوف بين عامي 1854-1918م من خلال سجلات المحاكم الشرعية".

- <sup>4</sup> - الدكتور رشيد قسيبة باحث في التاريخ الحديث والمعاصر مهتم بتاريخ المنطقة ويصب اهتمامه أكثر حول الجانب الثقافي والتعليمي بالمنطقة، وأبجز دراسته في مرحلة الماجستير حول " التعليم الفرنسي بوادي سوف (مدرسة الأهالي نموذجا) 1886-1962م".
- <sup>5</sup> - الدكتور عثمان زقب، هو أيضا أحد الاساتذة المتخصصين في البحث والتنقيب في تاريخ منطقة وادي سوف خاصة في الميدان الاجتماعي والاقتصادي، ولقد أنجز دراسته في رسالة الماجستير حول " الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947 وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا" كما لديه العديد من البحوث حول تاريخ المنطقة.

## عوامل التطور والتنظيم الصحي للثورة التحريرية (1956-1962).

أ/ عائشة مرجع - قسم التاريخ - جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان.

jaalabaicha@gmail.com

## الملخص :

يعالج هذا المقال موضوع في غاية الأهمية ،اذ يبرز تطور التنظيم الصحي للثورة التحريرية ،ذلك أن الثورة عاشت في مرحلتها الأولى (1954-1956) نقص فادح في توفر الخدمات الصحية واعتمادها على الوسائل التقليدية ،ونظرا لتطور الأحداث وزيادة عدد الجرحى والمرضى في صفوف المجاهدين و المدنيين على حد سواء ،كان لابد من تأسيس تنظيم صحي ،هذا الأخير ساهم في تأسيسه وتطويره عوامل عدة يمكن طرح أهمها كالتالي :بداية بالإضراب اللاحود للطلبة الجزائريين 19 ماي 1956 ،الذي زود الثورة بإطارات طبية متعددة من أطباء وصيادلة وممرضين ،ثم مؤتمر الصومام 20 أوت 1956 ،الذي عمل على تنظيم الثورة في جميع الجوانب ،ليحضى جانب الصحة هو الآخر بمجموعة من القوانين والقواعد التنظيمية ،كما كان لتأسيس الهلال الأحمر الجزائري دور مهم في الصحة بتوفير الأدوية والعلاج والتكوين ،ولا يمكننا صرف النظر عن الدعم الخارجي للصحة سواء الدول الأجنبية أو العربية والقواعد الخلفية التي كان لها دور جد مهم في إنعاش القطاع الصحي للثورة التحريرية ،وكذا المنظمات الانسانية.

الكلمات المفتاحية :

الثورة ،الصحة ،الهلال الأحمر الجزائري ،الأطباء ،الجرحى ،المراكز الصحية .

## الملخص باللغة الانجليزية :

This article deals with a very important topic .It shows the revolution of the health organization of the Algerian war of independence .In fact , first phase of that revolution , which lasted from 1956 to 1962, had seen a fatal deficiency in the availability of health service because of the reliance on the traditional methods .After the growing of the war events and the increase in the number of the wounded and the injured in the ranks of the fighters and civilians as well ,it was necessary to establish a well-organized sector for health .this sector was achieved and developed due to many factors.

First ,the start of unlimited strike ,lead by the Algerian students on the 19<sup>th</sup> of may 1956,provided the revolution with multiple medical aid rich as doctors ,pharmacists and nurses .Second ,the appearance of the Soummam congress in August 20<sup>th</sup> ,1956 gave a new order and well-structured organization in various aspects like "health" .In addition to this ,the establishment of the Algerian red crescent had played an Important role as it provided medicines ,treatments and training for soldiers .Most importantly ,it's impossible to deny the external support

which came from either the foreign countries or the Arabes ones in addition to the "rear" bases and the humanitarian organizations that had an active role in enhancing the health field of the Algerian revolution .

key words

The Revolution. The Health, the Algerian Red Crescent, the doctors, the wounded, the health centers.

المقدمة :

انطلقت ثورة الفاتح نوفمبر سنة 1954 ، بتنظيم عسكري وسياسي تطور مع تطور الثورة ، ليشمل فيما بعد جميع جوانب الحياة .

تعددت الدراسات الأكاديمية والكتابات التاريخية التي تناولت الثورة بأقلام جزائرية وأجنبية ، غير أن اهتمام هذه الكتابات في مجملها تتمحور حول الجوانب العسكرية والسياسية ، وأغفل أصحابها بذلك الجوانب الأخرى من الثورة ، مثل الجانب الصحي الذي يعتبر من المقومات الأساسية في الكفاح المسلح .

وقد عرف القطاع الصحي خلال الثورة التحريرية بمرحلتين :

المرحلة الأولى بدأت مع اندلاع الثورة التحريرية وعرفت بالمرحلة البدائية استمرت الى سنة 1956 ، والمرحلة الثانية التي عرفت بمرحلة التطور والتنظيم ، الذي كانت ثمرة لمجموعة من العوامل تغطي الفترة التاريخية ما بين سنة 1956 وسنة 1962 .



أحاول في هذا المقال تسليط بعض الأضواء على قطاع الصحة خلال الثورة التحريرية من حيث نشأته و أسباب وعوامل تطوره و تنظيمه .

## 1-الوضع الصحي في بداية الثورة التحريرية :

مع اندلاع الثورة التحريرية كان قطاع الصحة بصورة عامة منعزلا تماما وحتى الإطارات الطبية في هذه المرحلة كان تكوينها في معظمه بدائيا<sup>1</sup> ، نظرا للظروف التي اندلع فيها العمل المسلح.

فمن المعلوم أن قادة الثورة الذين أشرفوا على التحضير للعمل المسلح ، كانوا يعملون في سرية تامة ، وكان شغلهم الشاغل في تلك المرحلة التحضير للكفاح المسلح ، وتوفير الوسائل المادية<sup>2</sup> الكفيلة بإنجاح عملية الانطلاق ، الأمر الذي جعل قادة الثورة لا يولون وسائل التمريض الأهمية الكبرى إلا بعد أن لاحت الخسائر البشرية من جرحى ومرضى جراء العمليات العسكرية .

لذلك فإن المرحلة الأولى من عمر الثورة والممتدة ما بين 1954-1956 لم تسجل أي تنظيم صحي ولا توفر للوسائل البشرية والمادية<sup>2</sup>، وهذا لا يعني أن الثورة في هذه المرحلة كانت بدون غطاء صحي وإنما كان ذلك متوقفا على مجهودات واجتهادات كل منطقة في استغلال الوسائل والإمكانيات المتاحة.

بقيت الحاجة الماسة إلى تنظيم صحي ، تؤكده وتفرضه المشاكل الجديدة التي تطورت مع تطور الكفاح المسلح ، تخصص مستلزمات العناية الصحية : كالأدوية

والضمانات ووسائل الجراحة البسيطة وكيفية التكفل بالجرحى والمرضى وطرائق نقلهم وعلاجهم وإيوائهم والحاجة إلى إطارات متخصصة.

وأمام الواقع الصحي المتردي لم يكن أمام جبهة التحرير الوطني سوى الاستعانة بأطباء وممرضين متطوعين يقومون بإسعاف المرضى، غير أن الرقابة الاستعمارية الشديدة زادت من حدة المشاكل، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك منها ما جرى مع الدكتور "بن عودة بن زرجب"<sup>3</sup>، الذي عمل على إسعاف الجرحى وعلاجهم، وتوفير الأدوية والدعم اللوجيستكي للثورة، لكن السلطات الاستعمارية منعتة من مواصلة عمله النضالي باغتياله في 17 جانفي 1956<sup>4</sup>.

وأما هذه التحديات انصب الاهتمام على ضرورة انشاء مصلحة الصحة بدأت تظهر معالمها منذ سنة 1956

## 2 - إضراب 19 ماي 1956:

ان الاضراب التاريخي للطلبة الجزائريين في 19 ماي 1956، جعل كثيرا من طلبة الطب والصيدلة يلتحقون بهذا الاضراب، فكان الطلبة متحمسون لفكرة العمل المسلح وأرادوا العمل من اجل مساندة الثورة، فقرروا الاضراب عن الدروس والامتحانات<sup>5</sup>، الى أجل غير محدود وطالبوا الالتحاق بالمجاهدين في الوعار والجبال، وهكذا تركوا الجامعات والمعاهد العلمية قريب موعد الامتحانات التي كانت للعدد الكثير منهم المرحلة الأخيرة لإنهاء دراستهم<sup>6</sup>.

حيث وصف ذلك أحد الطلبة الجزائريين "عبد الرحمان شريط" قائلاً: "كنا منذ المؤتمر الثاني، نشعر بأن الثورة أصبحت في حاجة إلى فئات متعلمة، ونحس بأننا بدراستنا في الجامعات أصبحنا نعتبر بأننا لسنا في الثورة، ولذلك أصبح لدينا شعورا بضرورة مغادرة الجامعة، والقيام بعمل يبعد عنا هذا الإحساس، وأصبحنا نرى بأنه ليس هناك من جدوى لمواصلة العمل في الجامعات في الوقت الذي تحصد فيه فرنسا العديد من الأرواح..."<sup>7</sup>.

قد تم قرار الإضراب بالإجماع، بعد اجتماع أعضاء اللجنة الجزائرية للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في 19 ماي 1956، بنادي سعدان الموجود بالقصبة السفلى وقد صوت الحاضرون على لائحة تطالب بالإضراب العام اللامحدود وتدعوا الطلبة للانخراط في صفوف جبهة التحرير الوطني<sup>8</sup>، وخرج الطلبة من اجتماعهم المذكور ببيان يعلنون فيه عن الدخول في إضراب لا محدود عن الدروس والامتحانات ابتداء من 19 ماي 1956.

قد استجاب الطلبة فعلا، بحيث قام الطلبة بالإضراب على المستوى الداخلي و الخارجي، بل تعدى ذلك المحيط الجامعي من خلال التحاق عدد هائل من تلاميذ الثانويات بالإضراب، حيث تقلص عدد الطلبة الجزائريين بالجزائر من 684 سنة (1955-1956) إلى 276 طالب خلال سنة (1956-1957)، وبفرنسا تشير التقديرات بان ما يقارب 700 طالب جزائري مسجل بالجامعات الفرنسية شارك في الإضراب<sup>9</sup>، وقد أخذت هذه الأرقام منحى واضحا في طلبة الطب والصيدلة.

والتحق عدد كبير منهم بالثورة نذكر منهم على سبيل المثال : وجدي دمرجي، تيجاني، ومراد طالب ، رابح علوش ، جليل حسن<sup>10</sup> ، عبو بجاوي، عبد الوهاب حسن<sup>11</sup> ، عبد الرحيم كمال، شريف مولاي إدريس ، .... إضافة إلى عدد هائل من الممرضين، فاختلقت مهمتهم في الثورة فهناك من مارس عمله في الملاجئ والقواعد الخلفية، وهناك من التحق بالجبال، حيث يقول الدكتور بن سالم "كان الاضراب ذا دلالة معتبرة، مفرزا نتائج ثقيلة، فهمنا أن مهمات عظام بانتظارنا.."<sup>12</sup>

قبل التحاق هؤلاء الطلبة بعملهم كانوا يخضعون لتكوين أولي في مجال الطب و التمريض، وتعددت مهماتهم بين علاج المرضى والجرحى والتكفل بهم و تقديم الخدمات لسكان المناطق المعزولة والقرى و المداشر، وممن أشرف على تكوين الطلبة نجد الدكتور محمد الصغير النقاش.<sup>13</sup>

وبهذا ساهم الطلبة في تحسين الوضع الصحي، سواء من حيث التنظيم و الهيكلة، أو من ناحية الخدمات المقدمة من علاج المجاهدين والمدنيين بوسائل بسيطة تطورت تدريجيا، ليتمكنوا بهذا من تعزيز النظام الصحي للثورة التحريرية وتدعيمه سواء داخل البلاد أم خارجها.

## 2 - قرارات مؤتمر الصومام في المجال الصحي :

جاء المؤتمر بعد مرور عامين من اندلاع الثورة التحريرية، فكانت هناك عوامل عدة دفعت القيادة العليا للثورة إلى اخذ قرار عقد مؤتمر وطني تقوم فيه جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير بوضع قاعدة أساسية تقوم عليها إستراتيجية العمل الثوري ومن اجل إعطاء الثورة صبغة نظامية على جميع الأصعدة (سياسيا، عسكريا، وإداريا....)

، وقد ظل اختيار الزمان والمكان لعقد المؤتمر مشكلا يطرح نفسه حتى استقر الأمر في الأخير بالاستعداد لعقد أول مؤتمر وطني وذلك يوم 20 أوت 1956<sup>14</sup> ، بقرية افري دوار أوزلاقن غابة أكفادو في سفوح جبل أزرو .  
 طرحت مجموعة من القضايا في المؤتمر ليخرج بمجموعة من القرارات التنظيمية مست جميع الجوانب من أجل إعطاء قوة للثورة.

ما يهمننا في هذا الموضوع هو قرارات المؤتمر في مجال الصحة ، فقد جاءت قرارات مؤتمر الصومام لتنظيم هذا الجهاز الخاص ، و تأطيره وتحديد مهامه وصلاحيات أطره ، والبحث عن الدعم له في الخارج لاقتناء احتياجاته وتكوين طاقمه واستقبال الجرحى والمرضى وعلاجهم ، حيث أكد المؤتمر في قراراته على تنظيم الخدمات الصحية ، وهيكله المصالح الصحية بشريا وماديا ، بالتنسيق مع المستشفيات ومراكز العلاج وتوفير الأدوية ، وعلاج الجرحى والمرضى ، وتقسيم المهام مثلما جعل من مهام المسبل التموين بالأدوية والاعتناء بالجرحى ، كما أكد المؤتمر على ضبط النظام الصحي داخليا وسن الحقوق و الواجبات .

وبمقتضى قرارات مؤتمر الصومام كانت قاعدة الهرم الصحي موكلة إلى المحافظ السياسي<sup>15</sup> ، الذي كان يجمع بين وظائف عدة لصالح الثورة، إضافة إلى جهاز الصحة ومستلزماته من أدوات طبية وأدوية، وبعد ذلك قامت قيادات الثورة بالحرص على نظام الصحة مثل قانون الحريق المتعلق بالجروح والعلاج والسلوك ونظام المعيشة والخروج والعقوبات<sup>16</sup> ، كما خصص المؤتمر رواتب لإطارات الصحة اذ تم منح الأجور حسب درجة ومستوى الموظف في المصلحة الطبية:

1 الممرضون والممرضات مثل العريفون: 1500 فرنك فرنسي قديم

2 مساعداو الأطباء مثل الملازم: 2500 فرنك فرنسي قديم

3 أطباء راتبهم مثل الضابط الأول: 4500 فرنك فرنسي قديم .<sup>17</sup>

وتطبيقا لقرارات مؤتمر الصومام تم تأسيس إدارة حقيقية تعنى بشؤون الصحة سنة 1957<sup>18</sup>، أوكلت مهمتها للدكتور محمد نقاش، هذا ما أضفى صبغة نظامية للصحة يمكن ملاحظتها في تنظيم المستشفيات بالقواعد الخلفية لمساعدة المجاهدين واللاجئين.

فقد أكد المؤتمر على أهمية جهاز الصحة وضرورته، ما يؤكد ذلك اهتمامه بصحة المجاهد وتبين ذلك في محضر المؤتمر بان كل مستوظف جديد سيفحص أن أمكن.<sup>19</sup>

وبهذا استطاع المؤتمر أن يغير بالوضع الصحي للأحسن، وهذا ما ظهر على أرض الواقع حيث أصبح للثورة تنظيم صحي يشمل مختلف الهياكل الطبية وطب الأسنان والصيدلة، هذه الأخيرة التي واجهت فيها الثورة مشاكل عدة، فقد كانت هناك حاجة ماسة للأدوية التي كان يتم شرائها وجمعها عن طريق المساعدات الخارجية .

أما بداخل الجزائر فكان هناك تنسيق فيما بين الولايات والمناطق بطريقة منظمة وموثقة هذا ما تؤكد به بعض الوثائق الأرشيفية مثل مساعدة المنطقة 7 الى المنطقة 3 من الولاية الخامسة بمجموعة من الأدوية التي كانت تحتاجها عن طريق رسالة ادارية<sup>20</sup>.

كما دعى المؤتمر الى تسيير شؤون السكان من احصاء، وجمع الاشتراكات والبحث عن ينابيع الماء، تأمين وسائل معيشة الشعب والسهر على صحتهم، بإيفاد الممرضين والممرضات الى كل منزل في البادية وتوزيع الأدوية ومعالجة الأمراض، فلم يقتصر عمل هؤلاء الممرضين على اسعاف المجاهدين فقط، بل حتى المدنيين يسعفون ويتلقون منهم كل العناية<sup>21</sup>.

### 3- الدعم الخارجي والهجرة :

#### أ-على مستوى القواعد الخلفية :

لا يمكننا تجاوز دور اللاجئيين الجزائريين في المغرب وتونس في تعزيز وتطوير الخدمات الصحية لجهة التحرير الوطني، فقد كان لطلبة الطب والأطباء المهاجرين دور مهم في القواعد الخلفية حيث عملوا على تأسيس مراكز صحية للعلاج والنقاهاة والتكوين في مجال الصحة، بحيث تبقى أفضل المدارس العسكرية للتمريض هي التي كانت توجد في القواعد الخلفية سواء في تونس أو المغرب<sup>22</sup>، فقد استقبل المغرب الأقصى عددا هائلا من اللاجئين ووفر لهم الدعم في مختلف المجالات.

فقد كان لتعاطف الشعب المغربي مع القضية الجزائرية، دفعا قويا مكن من الانجاز التدريجي لقاعدة لوجستية جد مهمة، وفتح الحدود الجزائرية المغربية أمام الجزائريين من لاجئيين ومجروحين ومرضى، حيث تمكن الأطباء والمجاهدين الجزائريين من تأسيس العديد من المراكز التدريبية والصحية التابعة لجهة التحرير الوطني (مركز العرايش،قاعدة بن مهدي،مركز زغنغن، دار الكبداني، مركز بوصافي.....)، ومن الأطباء الذين التحقوا بالقاعدة الغربية لجهة التحرير الوطني :

مصطفى علال، رابح علوش، علي باشا بلخروبي، بن ديمراد، عبد السلام تيجاني هدام، محمد أمير بن عيسى الذي قام بتأسيس المدرسة العسكرية للمرضى<sup>23</sup>، زيادة على ذلك استقبال مستشفيات المغرب عدد من المرضى والجرحى الجزائريين وهذا ما أكده ملك المغرب في زيارته الى وجدة بقوله: " .. المستشفى الرئيسي ... في وسط المرضى اعتنى بالعديد من الجرحى الجزائريين .."<sup>24</sup> .

أما القاعدة الشرقية فهي الأخرى هاجر إليها عدد هائل من طلبة الطب والأطباء الذين عملوا على مواصلة عملهم ضمن جبهة التحرير الوطني، وقد بلغ عدد الأطباء وطلبة الطب حوالي 45 بتونس، وتم تعيين مجموعة من الأطباء الجزائريين في المستشفيات التونسية من بينهم الدكتور علي عقبي، بشير منتوري، بلعباس بوذراع، مراد بيليم، كما تم تدعيم معسكر الملاجئ بمراكز للصحة "غارديماو"، "تاجورين"، "تهالا" إضافة إلى مراكز صحية مشتركة بين تونس والجزائر يكمن دورها في تقديم العلاج المناسب وتمويل جيش التحرير الوطني بالدواء مثل : مركز الحبيب ثامر، مركز باجة، تبررت، مدنين، الكاف، القصيرين، قابس<sup>25</sup> .

ولم تقتصر وظيفة المراكز الموجودة في المغرب وتونس على علاج الجرحى والمرضى فقط، بل فتحت مجالاً لتكوين الممرضين والممرضات، وقد كان لكل مركز برنامج تكوين خاص به، مثلما قام الدكتور محمد أمير بن عيسى ببرنامج خاص للتكوين، فقد كان التكوين الطبي في المدرسة العسكرية يشتمل على مراحل وتقنيات بيداغوجية محكمة، كان هدفها الحصول على ممرضين ذوي كفاءة عالية في أقصر مدة زمنية لتقليل العجز في الموارد البشرية الطبية في الداخل<sup>26</sup> .



في إطار الحديث عن الدعم المغربي للثورة لا يمكننا أن نغفل مشاركة أطباء المغرب وتونس في الثورة، ومساندة جبهة التحرير الوطني، فهناك العديد من الأطباء التونسيين الذين نلزم أن ننوه بأسمائهم مثل الدور الكبير الذي لعبه الدكتور حجري، والدكتور بن قطاف، وزهير الصافي.

أما في المغرب فهناك أيضا العديد من إطارات الصحة الذين ساندوا الثورة من بينهم الدكتور عبد الرحمان التازي الذي كان يعالج الجرحى في عيادته والدكتور أحمد الخطيب.

### ب- الدعم العربي والأجنبي:

لا بد من الحديث عن الدعم الذي قدمته بعض الدول في هذا المجال، فقد كان لأطباء العرب مشاركة في الثورة التحريرية مثلما حدث مع الأطباء السوريين الستة "نور الدين العطاسي، يوسف الزعيم، سفوح العطاسي، صالح السيد، رياض برمادة، ابراهيم مخوس" الذين سافروا إلى تونس للالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني كمتطوعين<sup>27</sup>. ومن مظاهر الدعم الأجنبي، الاسبان من خلال المستشفى الاسباني بالناظور الذي كان يستقبل الجرحى منذ 1959، وألمانيا التي بفضلها تمت عمليات عبور جزء كبير من المساعدات الاشتراكية الأوربية (الأدوية، الأجهزة الطبية والأغطية)، السويد التي قدمت العون للاجئين على طول الحدود المغربية والتونسية، ونقل أكبر المصابين من جيش التحرير الوطني، عبر ميناء طنجة في سفن نحو يوغسلافيا وبلغاريا وروسيا من أجل إجراء عمليات جراحية أو وضع أعضاء اصطناعية<sup>28</sup>، وحسب النقيب الطيب النهاري أن البلدان التي قبلت بتلقي الجرحى الجزائريين لتكوين الأعضاء الاصطناعية هي: مصر، البلدان الشرقية (يوغسلافيا

،هنغاريا،تشيكوسلوفاكيا،الاتحاد السوفيتي،ألمانيا الغربية) كوبا،الولايات المتحدة الأمريكية ،حيث قدر عدد الجرحى المعطوبين الذين نقلوا إلى الخارج عبر الدار البيضاء ب 700 جريح ،ولم تشمل مساعدات الدول الغربية استقبال الجرحى بل تعدت ذلك الى ارسال الأدوية والعتاد<sup>29</sup> .

كما ساندت المنظمات العالمية الثورة الجزائرية مثل : الجامعة العربية التي عملت على تقديم الدعم المالي والمادي والدبلوماسي ،فقد أولت الأمانة العامة كبير عنايتها لمأساة اللاجئين الجزائريين في تونس والمغرب نتيجة لعوامل الطبيعة القاسية ونقص التغذية وازدحامهم في أمكنة غير صحية وقامت بالمساعي الكفيلة بتقديم المساعدة اللازمة لهم<sup>30</sup> ، واللجنة الدولية للصليب الأحمر التي عملت على زيارة السجون والملاجئ ،وقد كان ممثلوا اللجنة مرفقين بأطبائ حتى يؤكدوا التقارير الملاحظة ،كانت هذه اللجنة تخفي حقيقة الأوضاع في بداية الأمر لكن بعد الزيارات المستمرة للسجون والمخيمات استنتج أعضائها ،أن قوانين الحرب بعيدة جدا عن الاحترام<sup>31</sup> ، فاستطاعت مساعدة اللاجئين والسكان المدنيين في مخيمات التجميع من خلال مهمات التمريض وتوزيع المساعدات الاجتماعية.

#### 4- تأسيس الهلال الأحمر الجزائريين :

بعد أن تم تنظيم قطاع الصحة لجهة التحرير الوطني منذ 1956،والظروف القاسية التي كان يعيشها الجزائريون، والسياسة الاستعمارية، وزيادة عدد اللاجئين على مستوى الحدود الشرقية والغربية كان لابد من ضرورة وجود هيئة اجتماعية للتكفل بمشاكل الايواء والسكن والغذاء والصحة ،بهذا بادرت جبهة التحرير الوطني إلى

تأسيس الهلال الأحمر الجزائري في مدينة طنجة من قبل مجموعة من إطارات الصحة لجبهة التحرير الوطني "الدكتور بومدين بن إسماعيل<sup>32</sup> والصيدلي مراد عبد الله في 11 ديسمبر 1956<sup>33</sup>، واضعة الشروط التالية :

\* عدم تعيين رئيس شرفي للجمعية

\* اقتصاره على الجزائريين

\* على أن تكون جلساتها علنية

\* ضرورة استقالة أعضاء اللجنة الميسرة فور انتزاع الجزائر لاستقلالها

كما كان للهلال الأحمر الجزائري مكاتب فرعية بالمغرب حيث أمر بوصوف قائد الولاية الخامسة بإعادة تنظيم 4 مكاتب للهلال الأحمر الجزائري تحت إشراف الحاج عبد السلام ومساعدة بن عودة<sup>34</sup> واختيار مدينة طنجة مقرا لتأسيس هيئة الهلال الأحمر الجزائري لم يكن محض صدفة، فقد كان ميناء طنجة مقرا لانطلاق الجرحى المجاهدين في السفن باتجاه يوغسلافيا وبلغاريا وروسيا، لكي يتم علاجهم وإقامة عمليات جراحية.

بدأت لجنة الهلال الأحمر الجزائري العمل بإقامة علاقات مع الاتحاديات المماثلة لها في العالم مثل: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، وذلك من أجل تحقيق أهدافها التي حددت منذ البداية وأعيد التذكير بها بعد حصول اللجنة على وصل الاستلام في 9 جانفي<sup>35</sup> 1957، الذي كان يمثل الموافقة على إنشاء الهلال الأحمر الجزائري و تمثلت أهدافها في:

• انتزاع الاعتراف الدولي بمعاناة الشعب الجزائري وحقه في الحرية والاستقلال

• العمل على افتكاك اعتراف اللجنة الدولية للصليب الأحمر

• الحصول على مساعدات من المنظمات الإنسانية والدول الشقيقة والصديقة

لمواجهة الوضعية الصعبة التي كان يعاني منها الشعب الجزائري<sup>36</sup>

شملت نشاطات الهلال الأحمر برامج عدة ، كانت أهدافها إنسانية ، بحيث لعب دورا أساسيا في تحسيس الدول بمضاعفة العمل من أجل إغاثة اللاجئين والجرحى الذين فقدوا أطرافهم بسبب الحرب وخطوط الأسلاك الشائكة و المكهربة ، وقد استجابت العديد من الدول الأجنبية لهذا النداء.

في سنة 1957 إعادة هيكلة الهلال الأحمر الجزائري وتم تعيين عمر بوكلي حسان رئيسا لها ومصطفى بن أحمد نائبا له<sup>37</sup> ، ومن الأسباب التي أدت إلى إعادة الهيكلة هي إعادة النظر في تنظيم فروع الهلال الأحمر الجزائري والذي كان أولها يتمثل في مصالح الصحة لجيش التحرير الوطني ، وبعد تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية تم نقل مقر الهلال الأحمر الجزائري إلى العاصمة التونسية في أكتوبر 1958 ، وتم تعيين المحامي بابا أحمد رئيسا<sup>38</sup> ، لتواصل نشاطات الهلال الأحمر في كسب التأييد العالمي ، وتوفير الدعم اللازم من أجل صحة جيش التحرير الوطني والجزائريين بالداخل والخارج ...

5 - مظاهر تطور وتنظيم الصحة بعد 1956:

تهيكلت وتوسعت الشبكة الصحية للثورة التحريرية بفعل تظافر عوامل مختلفة ،انسانية ووطنية وتضامنية ،فبدأت تظهر معالم التنظيم الصحي من خلال انشاء المستشفيات والمراكز الصحية داخل البلاد وعلى مستوى القواعد الخلفية بتونس والمغرب..

أسندت مهام الاشراف على السلك الصحي في البداية الى الحكيم محمد الصغير نقاش بتونس<sup>39</sup>، الذي عرف بحبه للعمل وروح المسؤولية والقدرة العالية على التنظيم ،ممكنه ذلك من ارساء تغطية صحية مست كل أشكال الاسعاف والعلاج من خلال تكوين الممرضين.

أصبح من الضروري أمام النقص الفادح من الاطارات التي عليها القيام بدور التمريض ،أن يكون جيش التحرير الوطني اطاراته بنفسه ،فباشرت قيادة الصحة عبر الولايات التاريخية الست بفتح مراكز تكوين في الجبال والمناطق النائية أو البعيدة ،يتلقى فيها الممرضون والممرضات تكوينا نظريا لمدة ثلاثة أشهر متبوع بتربص تطبيقي مدته تسعون يوما باللغة العربية والفرنسية يخص الاسعافات الأولية والعلاج الضروري<sup>40</sup> .

وقد ساهم الهلال الأحمر الجزائري هو الآخر في عملية التكوين من خلال طبع كتيب للممرضين ،عرف بدليل الممرض ( Guide d'infirmiere)<sup>41</sup>، يتضمن اساليب العلاج المختلفة ،ووصفات الأدوية و أنواعها ،وقواعد النظافة والوقاية .

كما قامت جبهة التحرير الوطني، بتأسيس مراكز التكوين والتعليم الطبي بالقواعد الخلفية، تولى مسؤوليتها أطباء التحقوا بالثورة، مثل المدرسة الصحية العسكرية "بزغغن" لتكوين الممرضين بالمغرب الأقصى، تحت الاشراف المباشر للدكتور محمد بن عيسى أمير في 1959<sup>42</sup>، والتي يقول عنها: "ليست تجربتنا هي الأولى فقد سبقنا الدكتور "هدام عبد السلام" و "علواش"، بتجربتهما في تكوين الممرضين في وجدة، وما قمنا به هو فقط محاولة تكوين مدرسة عسكرية شبه طبية لجيش التحرير الوطني .."<sup>43</sup>، والمبادرة التي تم اطلاقها من طرف الدكتور "نقاش"، المتمثلة في تأسيس مراكز اعادة التأهيل لفائدة معطوبي جيش التحرير الوطني في "ناسن" بتونس، وتأسيس مدرسة للتدخل و الاسعاف تحت اسم الزاوية البكرية<sup>44</sup>، وكانت تخضع عملية التكوين الى دروس نظرية وتطبيقية.

وفيما يخص القوانين الصحية والنظام الداخلي، قام كل من جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني بعد مؤتمر الصومام 20 أوت 1956، بوضع قوانين ونظم للعمل العلاجي، هذا ما أدى الى تشابه المنظومة الصحية بين الولايات، عدا بعض الاختلافات فيما يخص الامكانيات الطبية وبعض الاختلافات الهيكلية القريية .

كما عمل المؤتمر على ضبط المسؤوليات فأصبح هناك مسؤول ولائي للصحة، مسؤول منطقة، مسؤول ناحية وأخيرا مسؤول للقسم الذي يشرف على الوحدة الصحية.

أما بالنسبة للمنشآت الصحية، فقد استطاعت جبهة التحرير انشاء المستشفيات في أماكن آمنة في الكهوف والمغارات والأكواخ وسط الغابات، كانت تحتوي هذه المستشفيات على قاعة للطبخ وقاعات خاصة بالمرضى، على كازمة الأمن السرية التي لا تعرف إلا من طرف البعض، تحتوي على أسرة استقبال للجنود ذوي الاصابات الخطيرة الذي لم يكن في وسعهم نقلهم، وأدوية وأغذية التي لا يجب استخدامها إلا في حالة التدخل<sup>45</sup>.

فعلى غرار المشافي قامت جبهة التحرير الوطني بتأسيس مراكز صحية داخل البلاد، مثل الولاية الثالثة التي قامت بتخصيص مركز صحي لكل ناحية، يسير من طرف طبيب أو مجموعة من الأطباء ومراكز صحية وتكوينية بالقواعد الخلفية، كما عملت الولاية الرابعة على تأسيس مراكز عدة عبر مناطقها الست (بني زمان قرب تابلاط، ولد أنيد بوطالب، عمرونة، بيسة، الصباح<sup>46</sup>..).

وقد تميزت بداية التنظيم الصحي بتيسير ايجاد ما تقتضيه المراكز من مستشفيات طبية وإطارات طبية ومواقع جغرافية آمنة، مع سهولة التحرك، لكن على الرغم من ذلك كانت هناك رقابة استعمارية على أماكن صحية مختلفة، وذلك بعض حصول السلطات الاستعمارية، على وثائق تتعلق بالجانب الصحي، هذا ما أكد لها على أن هناك علاقة بين الطب وجبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني، وتكثيف المراقبة في المراكز الحدودية والقواعد الخلفية، هذا ما مكنها من اكتشاف مواقع العديد من المستشفيات والمراكز الصحية، مثل اكتشاف العديد من المواقع العلاج لجبهة التحرير الوطني في المغرب الأقصى (بوعرفة، تاندره، جرادة، بركان، عين الصفا)<sup>47</sup>.

أما الفترة التي رافقت قيام الجمهورية الخامسة، أصبحت صعبة وعسيرة للمصالح الصحية، نظرا لتشديد الرقابة وعزل الثورة بالأسلاك الشائكة والمكهربة في الحدود الغربية والشرقية، فضاق الخناق على الثورة وزادت مهمة المصالح الصحية لجهة التحرير الوطني، بازدياد عدد المجروحين على مستوى هاته المشافي وتعدد الاصابات الخطيرة (شظايا القنابل، النبالم ...).

### خاتمة :

وما استخلصته في الأخير أن تطور وتنظيم الصحة جاء متزامنا مع تنظيم الثورة التحريرية، بحيث كانت سنة 1956، مرحلة ثانية مكنت من بلورة سياسة صحية مبنية على التنظيم المحكم والدقيق، واحترام المسؤوليات، وبذلك تبلور النشاط الصحي وأصبح منظما مستنيرا داخل الولايات التاريخية وعلى مستوى القواعد الخلفية.

ورغم كل الصعوبات وقلة الوسائل الطبية ومباغثة قوات الاحتلال مراكز العلاج وخنق الثورة من خلال الأسلاك الشائكة ومنع الوصول إلى المراكز الموجودة في القواعد الخلفية، إلا أن تصميم الأطباء والممرضين على تأدية واجبهم الوطني أثناء الثورة التحريرية لم يخمد بل تواصل حتى بعد الاستقلال.

### التهميش :

1 خياطي، مصطفى : المآزر البيضاء خلال الثورة التحريرية ، ترجمة نسيمه غربي، منشورات ، الروبية، 2013، ص.14.



2تومي، محمد:طبيب في معاقل الثورة حرب التحرير 1954-1962، ترجمة: حضرية يوسفى، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين، 2009، ص 45.

3الدكتور بن عودة بن زرجب: من مواليد 9 فيفري 1921 بتلمسان، نشأ وترى وسط عائلة محافظة، زاول دراسته الابتدائية بمسقط رأسه الابتدائية و الاكاديمية بمؤسسة de slane، تحصل على شهادة البكالوريا شعبة رياضيات سنة 1941 مكنته من الالتحاق بكلية الطب بالجزائر العاصمة أين واجه الكثير من الممارسات و التصرفات العنصرية من جانب الطلبة الأوروبيين أبناء المستوطنين، فقرر السفر إلى فرنسا و التحق بكلية الطب بمونبولىيه Montpellier، ليواصل بعدها دراسته بباريس حيث ناقش أطروحته في الدكتوراه سنة 1948 بعنوان: "مشكلات اللوكيميا و الأورام من خلال حالات الكلوروميالان" و بالموازاة انخرط في العمل النضالي الطلابي حيث شارك في مشروع تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، و أُنتخب أمين للمال في الاتحاد. كما ينشط ضمن لجنة فلسطين العربية، وفي صفوف حزب الشعب - حركة الانتصار للحريات الديمقراطية PPA-MTLD منذ عودته إلى تلمسان أين فتح عيادته الطبية، بعد اندلاع الثورة التحريرية ربط الاتصال مع جبهة التحرير فعمل على مد العون من خلال علاج الجرحى والمرضى وتقديم المساعدات المادية، وفي إطار عمله النضالي قام بشراء آلة الألبشع أنواع التعذيب حتى اغتياله في 16 جانفي 1956. انظر: Bellahsene Bali : DR Ben Zerdjeb Cdt Djaber et Colonel Lotfi ,thala Edition ,p p p (5.6.7)

4 -l'echo Oran ,Importation CHEF du FLN DE TLEMCEN .  
LE DECTOUR Benzerge abattu près de sebdou Alors qu'il  
tentait se février 1956, N :30439.

<sup>5</sup> 1h1560-d1 :Organisation générale de F L N (Ministère des affaire scolaire et culturelles U.G.E.M.A en France et à L'étranger Fichier N : A 47-7.(09-03-1960)

6 جريدة المجاهد، الجزء الأول، العدد الأول، تلبية الطلبة لنداء الوطن، 1956، ص 19.

7 عقيب، محمد السعيد : الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ودوره في الثورة 1955-

1962، الطبعة الأولى، الشاطبية للنشر والتوزيع، 2012، ص 91.

8 خياطي مصطفى: المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية، المرجع السابق، ص 86.

9 نفسه، ص 89

10 برنو، توفيق : الدكتور محمد بن عيسى أمير الطبيب المناضل 1926-1990، مذكرة نيل

ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الانسانية والحضارة

الاسلامية، 2006/2005، ص 128

<sup>11</sup> Khiati ,Mostefâ :Dictionnaire Bibliographique du corps de la santé(1954/1962),Edition ANEP ,2011, pp 19-17

<sup>12</sup> Djamel Eddine ;Bensalem :Voyez nos armes ,Voyez nos médecine ,Edition Regaia ;ALG ;2009 ;p 15.

13 يصف ذلك الطالب "لمين خان" كيفية التحاقه بالثورة قائلا : "أذكر أننا كنا مجموعة طلبة

الجزائر العاصمة، قد دخلنا مرحلة السرية منذ بدء سريان الإضراب 19 ماي 1956، حيث

خضعنا بعدها لفترة تدريبية بأمر، وتحت إشراف الأخ الدكتور محمد صغير النقاش، ودام التدريب

أزيد من أسبوع في منزل الأخ الدكتور بوضربة محمد، وقد تلقينا خلال ذلك تدريبات على استخدام

وتقديم العلاج الأولي، مع بعض التوجيهات التي تدخل في مجال التوعية والتعبئة ثم بعدها التحقنا

بالجبال..أنظر عقيب، محمد السعيد: المرجع السابق، ص 106.

<sup>14</sup>أمال، شليبي : التنظيم العسكري في الثورة التحريرية الجزائرية، رسالة لنيل شهادة ماجستير في

التاريخ الحديث والمعاصر، باتنة، 2006-2005، ص 394

- 15 شتوان، نظيرة: الثورة التحريرية 1954-1962، الولاية الرابعة نموذجاً، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة أبو بكر بلقايد، كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، 2008/2007، ص 336
- 16 FR.CAOM :ORAN 299 ;service sanitaire ;règlement de blesse. wilaya d'oran.
- 17 Etat major l'armée de terre :1h2582 ;FLN/C.N.R.A1956-1958
- 18 شتوان، نظيرة: المرجع السابق، ص 336
- 19 دحلب، سعد: المهمة منجزة من أجل استقلال الجزائر، منشورات دحلب، ص 238
- 20 Etat major l'armée de terre .service historique :1h1594/D1 :wilaya5 :la zone 7.Détail des médicaments.29/05/1961.
- 21 المجاهد، جيش التحرير الوطني بين أمس واليوم -مصلحة الصحة -، عدد 11، ص 10.
- 22 شتوان، نظيرة: المرجع السابق، ص 346.
- 23 برنو، توفيق: المرجع السابق: ص 135 .
- 24 1h1594-d1 : Maroc. Aid logistique, Fiche N : A.M 13(3)/28.09.1956.
- 25 عسول، صالح: اللاجئون الجزائريون بتونس ودورهم في الثورة 1962/1956، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الحاج لخضر باتنة، كلية الآداب والعلوم الانسانية قسم التاريخ وعلم الآثار، 2008-2009، ص 93 .
- 26 برنو، توفيق: المرجع السابق، ص 143.
- 27 حياطي، مصطفى: المرجع السابق، ص 502.
- 28 نفسه، ص 444.
- 29 مثل ألمانيا التي كانت ترسل الأدوية، مثل ارسال الصليب الأحمر الألماني سيارة اسعاف للهلال الأحمر الجزائري في ديسمبر 1957، انظر:

Etat major l'armée de terre:1 h1586..croissant- rouge D4 fiché  
n° :5(4)5-12-1957

<sup>30</sup> أحمد، بشيري: الثورة الجزائرية والجامعة العربية، منشورات تالة، الجزائر، 2005، ص 126.

<sup>31</sup> مصطفى، خياطي: حقوق الانسان في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، منشورات، الروبية، 2013، ص 445 .

<sup>32</sup> الدكتور بومدين بن سماعيل :من مواليد 13 جويلية 1916 في مستغانم، حصل على البكالوريا 1938، وقرر أن يكمل دراسته العليا في فرنسا، ناقش مذكرته في الطب في 30 جويلية 1946،

فتح عيادته الطبية في وهران ثم انتقل الى العمل في مستغانم ،انخرط في العديد من الأحزاب السياسية بداية من نجم شمال افريقيا حتى حزب الشعب الجزائري، في سنة 1956 غادر الى المغرب ووضع نفسه في خدمة تنظيمي جبهة وجيش التحرير الوطنيين أنظر: المرجع نفسه، ص 484 .

<sup>33</sup> خياطي، مصطفى، المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية، المرجع السابق، ص 443.

<sup>34</sup> Ibid.: fichier n° :B.5(1).20/08/1957

<sup>35</sup> حفوظ، عاشور: نشأة الهلال الأحمر الجزائري ودوره في قضية الأسرى إبان الثورة التحريرية

1962-1957، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الاجتماعية، العدد

13، جانفي، 2015، ص 109

<sup>36</sup> نفسه، ص 109.

<sup>37</sup> Ibid. :fichier n° :5.(4)11/04/1957

<sup>38</sup> خياطي، مصطفى: حقوق الإنسان في الجزائر خلال الاحتلال الفرنسي، المرجع السابق، ص 476.

<sup>39</sup> Gilbert ;Meynier : Histoire Intérieure Dy FLN 1954-1962. CASBAH Editions.2003.algre.496.

<sup>40</sup> Gantari ;Mohamed : Organisation politico administrative et militaire de la révolution algérienne 1954-1962 ,volume 1,Alger.2000,p 298.

<sup>41</sup> SHD ; G R1H.1648 ;Croissant Rouge Algérienne ;service de la sante. Guide d'infirmiers

<sup>42</sup> برنو توفيق : المرجع السابق، ص 135 .

<sup>43</sup> نفسه، ص 135.

<sup>44</sup> خياطي، مصطفى : المآزر البيضاء خلال الثورة الجزائرية، المرجع السابق، ص 29.

<sup>45</sup> المرجع السابق ، ص 42.

<sup>46</sup> صايكي، محمد : شهادة تآثر من قلب الجزائر، مذكرات النقيب محمد صايكي ، دار الأمة

الجزائر ، ص 159 .

<sup>47</sup> 1h1691.d2Organisation du FLN –ALN. Service sanitaire

(Note renseignements )Alger le 1 juin 1957.

University of chahid hamma lakhdar. El-oued. Algeria  
Faculty of social and human sciences



# JOURNAL OF EL MAAREF

**For researches and historical studies**  
*Periodical and international refereed journal*

